القول الموصل في تفسير الكتاب المنزل

للشيخ الفاضل

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الجوري الزنغري

المجلد الأول



القول الموصل
في
تفسير الكتاب المنزل

القول الموصل

في

تفسير الكتاب المنزل

The Firm Statement in the Explanantion of the Reveled Book.

المجلد الأول

من سورة الفاتحة إلى آخر سورة النساء

الطبعة الأولى مصححة
١٤٤٧هـ

للشيخ الفاضل

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الجوري الزعكري

By his Eminence Sheikh Abi Muhammad Abdul Hameed bin Yahya Al-Zu'kari.



القول الموصل في تفسير الكتاب المنزل

روابط قنوات فضيلة الشيخ على منصات التواصل:

الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ حفظه الله تعالى:

https://alzokory.com

A_Alzoukorys

https://www.youtube.com/channel

https://chat.watsapp.com/FglUKZ0nwzr5EYaguQttsz

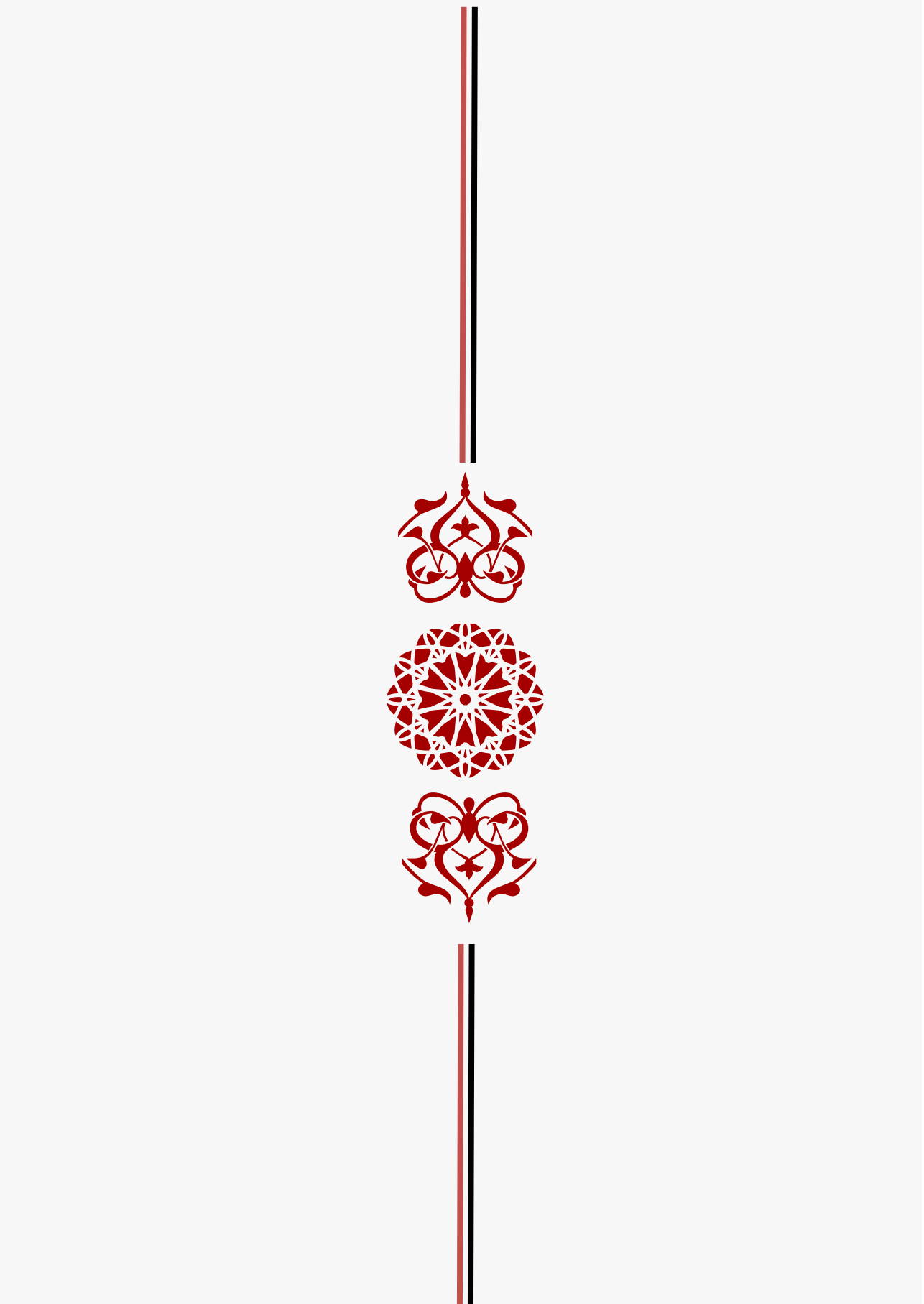
https://t.me/A_lzokory

https://www.facebook.com/649918028352367



مُقَدِّمَةٌ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ





مُقَدِّمَةٌ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ والصلاة، والسلام علىٰ رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده، ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن أشرف ما اعتنىٰ به المسلم لهو دراسة كتاب الله العظيم، وكلامه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ، جعله الله عَزَّوَجَلَّ حبله المتين، وطريقه المستقيم الموصل إلىٰ مرضاة رب العالمين، وإلىٰ جنة النعيم.

ومهما حاول المرء أن يأتي بوصفه لن يأتِ ولن يقارب، بل هو عاجز عن الإتيان بمثل ما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ به في نفس كتابه المبين، وعلىٰ لسان رسوله الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو النور، والروح، والمبين، والحكيم، والكريم، والهدىٰ، والحق، والمهيمن علىٰ غيره، والرحمة، والشفاء، وفضل الله العظيم، وحبله المتين، وطريقه المستقيم، وهو آيات بينات، وسور محكمات، وتنزيل رب العالمين لا شك فيه ولا ريب، ولا اختلاف يصدق بعضه بعضًا، من تمسك به اهتدىٰ، ومن أعرض عنه ضلَّ وغوىٰ.

ولمَّا كانت منزلته عظيمة، وصفته كريمة تنافس في خدمته العلماء بالتفسير، والإيضاح لمعانيه، ولا تسأل عن حفظه وتلاوته، فهذا سبيل السباق لدىٰ الخاصّ، والعامّ من المسلمين.

❀ فقد جعل الله أجورًا مضاعفة علىٰ ذلك، بل إن أهل القرآن هم أهل الله ، كما صحَّ عن رسولنا الكريم، ونبيّنا الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قَالَ: «**إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ**» قَالُوا: يَا

رسول الله، **مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»**. أخرجه ابن ماجه (٢١٥)، والنسائي في الكبرىٰ (٨٠٣١)، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو مخرّج في «الصحيح المسند» للإمام الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

❁ وهو شافع لأهله، ففي صحيح ابن حبان (١٢٤) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامًا قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»، وَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**». أخرجه مسلم (٨٠٤) عَنْ **أَبِي أُمَامَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

❁ وكم في قراءته، وتعلُّمه، وتعليمه من الفضائل حتىٰ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**». أخرجه البخاري (٥٠٢٧)، عَنْ **عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي لفظ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**». أخرجه البخاري (٥٠٢٨).

❁ ونفع صاحبه المخلص في تعلمه، وتعليمه متحقق؛ بل يضاف إليه أمه، وأبوه، ومن علَّمه، وأعانه، وجاء في حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «**تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**». ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، وَإِنَّهُمَا تُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الْهَوَاجِرِ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يُقَوَّمُ لَهُمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا». أخرجه الإمام أحمد

بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «مسنده» (٢٢٩٥٠) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٤٥)، والدارمي في «سننه» (٣٤٣٤) وغيرهم، وهو حسن لغيره.

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عَنِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ**».

أخرجه البخاري (٤٩٧)، ومسلم (٧٩٨).

وَعَنْد أبي داود (١٤٦٤) عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»، وصح عَنْ عَبْدِ الله بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وله حكم الرفع: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ**». **أخرجه الترمذي (٢٩١٠).**

وفي الصحيحين: عَنْ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لاَ رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُر**» **متفق عليه.**

والكلام علىٰ فضائله، ومنزلته كثير، ومن رام التوسع فيه يطول.

ورحم الله الشوكاني إذ يقول: "الحمد لله الذي جعل كتابه المبين كافلًا ببيان الأحكام، شاملًا لما شرعها لعباده من الحلال والحرام، مرجعًا للأعلام عند تفاوت الأفهام، وتباين الأقدام، وتخالف الكلام، قاطعًا للخصام، شافيًا للسقام، مرهمًا للأوهام، فهو العروة الوثقىٰ التي من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم، والجادة الواضحة التي من سلكها، فقد هدىٰ إلىٰ الصراط المستقيم، فأي عبارة تبلغ أدنىٰ ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم، وأي لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم، كلا والله إن بلاغات البلغاء

المصاقع، وفصاحات الفصحاء البواقع، وإن طالت ذيولها، وسالت سيولها، واستنت بميادينها خيولها تتقاصر عن الوفاء بأوصافه، وتتصاغر عن التشبث بأدنىٰ أطرافه، فيعود جيدها عنه عاطلًا، وصفات ضوء الشمس تذهب باطلًا، فهو كلام من لا تحيط به العقول علمًا، ولا تدرك كنهه الطباع البشرية فهمًا، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولىٰ بالمقام، وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال، والإعظام". اهـ من مقدمة «فتح القدير».

وقد عُلم أن فضل القرآن -الذي هو كلام الله عَزَّوَجَلَّ- علىٰ الكلام كفضل قائله علىٰ الأنام، لكن بحسب المسلم أن يفهم معانيه، ويتدبر آياته، ومبانيه، وأن يعرف أحكامه، ويأخذ بحلاله، ويبتعد عن حرامه، إذ من عجيب أمره أن الله تكفل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩] حفظه الله تعالىٰ لفظًا، ومعنىً، ونطقًا، ورسمًا، وأكرم الله به هذه الأمة أيما إكرام، فالحمد لله علىٰ الدوام.

وإني من زمن بعيد لأحب أن يكون لي في خدمته نصيب؛ لعل الله تعالىٰ أن ينفع به البعيد قبل القريب، فهو أنفس ما تنافس المتنافسون في خدمته، وقد وفقني الله عَزَّوَجَلَّ، وأسأله العون والسداد، والتوفيق، والإمداد لذلك في حال تدريسي لطلاب العلم في (مسجد الصحابة بمدينة الغيضة) من سنة ألف، وأربعمائة، وأربعين إلىٰ شهر صفر ألف، وأربعمائة، وثلاثة، وأربعين، من المرور عليه، وكان المتعين معرفة مفردات القرآن، وما يليها لفهمه، وعلمه.

قال الراغب في «مفردات القرآن»: "إِنَّ أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللّبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه، وليس ذلك نافعا في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كلّ علم من علوم الشرع.

فألفاظ القرآن هي لبّ كلام العرب، وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم، وحكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء، والبلغاء في نظمهم، ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرِّعات عنها، والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور، والنوىٰ بالإضافة إلىٰ أطايب الثمرة، وكالحثالة، والتبن بالإضافة إلىٰ لبوب الحنطة". اهـ

ومن المعلوم أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدْ بَلَغَ الْقُرْآنَ بيانًا، وتفسيرًا، وإقراءً، وعملًا، وتأميرًا، وحفظًا، ودعوةً، ثم اهتم به الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ من بعده، والتابعون، وأتباع التابعين، وهكذا علماء السلف الصالح رضوان الله عليهم، وإلىٰ يومنا هذا وعلماء أهل السنة، وطلاب العلم، وصالحو المسلمين، وإلىٰ أن يرث الله عَزَّوَجَلَّ الأرض، ومن عليها يهتمون بالقرآن، ويحفظونه، ويعملون به، ويقرؤونه، ويتلونه، ويفسرونه، ويبينونه، ويدعون إليه.

وقد نقل السيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ في "الإتقان (١/ ١٧٨)": عن أبي المعالي عُزَيْزِيٌّ بن عبد الملك المعروف بـ(شيذلة): أن أسماء القرآن في القرآن خمسة وخمسين اسمًا، ومعلوم أن كل اسم من أسماء القرآن يتضمن صفة، وربما تضمن ودل علىٰ أكثر من ذلك.

وأبلغ وصف للقرآن ما وصفه الله تعالىٰ به، ووصفه به رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهو الكتاب المبارك قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، فهو مبارك في تلاوته، ومبارك في معانيه ومواعظه، ومبارك في تدبره، ومبارك في العمل والاستشفاء به، إلىٰ غير ذلك من البركات العظيمات، والهبات الجليلات التي جعلها الله تعالىٰ لهذا الكتاب.

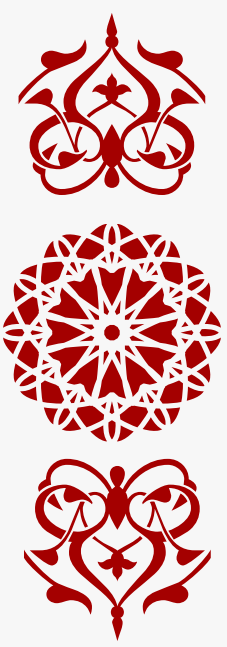
ومن عجيب شأنه أن الله تعالىٰ أنزل كتبًا كثيرة، قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد:٢٥]، فكل رسول له كتاب من الله تعالىٰ يتعبد به ويدعو إليه، وكان هذا الكتاب أجمعها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "مدارج السالكين" (١/ ٩٥): "وَسِرُّ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، وَالْكُتُبِ وَالشَّرَائِعِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ انْتَهَىٰ إِلَىٰ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ، حَتَّىٰ قِيلَ: أَنْزَلَ الله مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ، جَمَعَ مَعَانِيَهَا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ هَذِهِ الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ فِي الْقُرْآنِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ فِي الْمُفَصَّلِ، وَجَمَعَ مَعَانِيَ الْمُفَصَّلِ فِي الْفَاتِحَةِ، وَمَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾" اهـ.



فَصْلٌ فِي طُرُقِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ





فَصْلٌ فِي طُرُقِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

قد عُلم أن القرآن كلام الله ، ووحيه، وتنزيله، وعلىٰ هذا فلا يجوز أن يفسر بالرأي المجرد لما يجر إليه من القول علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بلا علم، وقد تكلم العلماء في خطر ذلك وضرره، لو لم يكن إلا مخالفة قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل: ١١٦]، وقد كان الصحابة يتحرجون من تفسيره بالرأي، كما هو مدون في مقدمة تفسير ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

❖ **ولهذا فطرق تفسير القرآن أربعة:**

- **الأولى:** تفسير القرآن بالقرآن.
- **الثانية:** تفسير القرآن بسنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- **الثالثة:** تفسير القرآن بأثار الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.
- **الرابعة:** تفسير القرآن بلغة العرب التي لم تولد، الفصحىٰ التي لم يدخلها العجمة.

فأن القرآن كان ينزل علىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يرون أسباب النزول، ويعلمون معناه، فالقرآن نزل بلغة العرب الفصحىٰ بلغة قريش.

ففي صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٩٨٧): من حديث أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه حَدَّث: أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ، قَدِمَ عَلَىٰ عُثْمَانَ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّأْمِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ، وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِي القِرَاءَةِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ،

أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَىٰ حَفْصَةَ: «أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ».

فَأَرْسَلَتْ بِهَا حَفْصَةُ إِلَىٰ عُثْمَانَ، فَأَمَرَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، وَعَبْدَ الله بْنَ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدَ بْنَ العَاصِ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَّلاَثَةِ: «إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ» فَفَعَلُوا حَتَّىٰ إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي المَصَاحِفِ، رَدَّ عُثْمَانُ الصُّحُفَ إِلَىٰ حَفْصَةَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِّ صَحِيفَةٍ أَوْ مُصْحَفٍ، أَنْ يُحْرَقَ.

وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في صحيحه علىٰ هذا المعنىٰ.

وقال: (**بَابُ نَزَلَ القُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، وَالعَرَبِ، وَقَوْلِ** الله تعالىٰ: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:؟]، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (١/ ٢٣):

"وَمَقْصُودُ الْبُخَارِيِّ مِنْهُ ظَاهِرٌ، وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ خُلَاصَةُ الْعَرَبِ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي دَاوُدَ: حَدَّثَنَا عبد الله بن محمد بْنِ خَلَّادٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَا يُمْلِي فِي مَصَاحِفِنَا هَذِهِ إِلَّا غِلْمَانُ قُرَيْشٍ أَوْ غِلْمَانُ ثَقِيفٍ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ أَيْضًا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَسَدٍ، حَدَّثَنَا هَوْذَةُ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ فَضَالَةَ، قَالَ: لَمَّا أَرَادَ عُمَرُ أَنْ يَكْتُبَ [المصحف] الْإِمَامَ أَقْعَدَ لَهُ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَقَالَ: إِذَا اخْتَلَفْتُمْ فِي اللُّغَةِ فَاكْتُبُوهَا بِلُغَةِ مُضَرَ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلُغَةِ رَجُلٍ مِنْ مُضَرَ.

وَقَدْ قَالَ الله تعالىٰ : ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾[الزمر: ٢٨]، وقالَ تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢ -١٩٥]، وقالَ تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النَّحل: ١٠٣]، وقالَ تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾ الْآيَةَ [فُصِّلَتْ: ٤٤]، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ ذَلِكَ".اهـ

وما أشكل علىٰ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من معانيه كانوا يرجعون فيه إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته وكان يبين لهم، ويوضح لهم ما أشكل عليهم.

ومن بعدهم من التابعين فإنهم قد تعلموا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الذين أخذوا القرآن ومعناه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك أتباع التابعين من سلف هذه الأمة أخذوا القرآن، ومعناه من التابعين الذين تعلموا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهم أصحاب القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، والفضل، والعلم.

ومن المهم عند تفسير القرآن معرفة أسباب نزوله، فالغالب فيه أنه خاص السبب عام اللفظ، فعن عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا مِنْ كِتَابِ الله سُورَةٌ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ حَيْثُ نَزَلَتْ، وَمَا مِنْ آيَةٍ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَا أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ الله مِنِّي، تَبْلُغُهُ الْإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ**» متفق عليه.

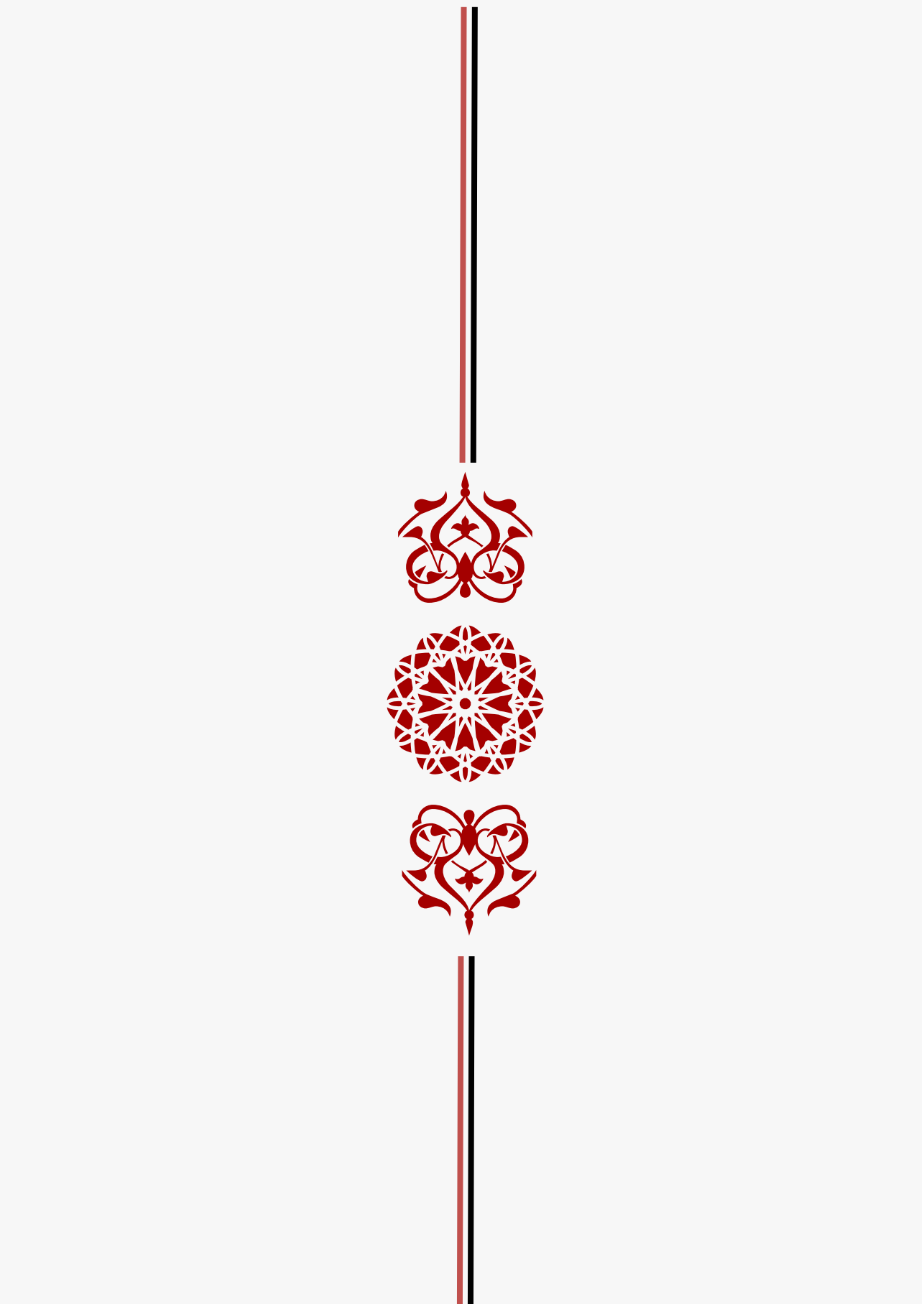
وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رسول الله إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَىٰ الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، فَأَنَا هَذَا، فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ الله، لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فَأَتْبَعَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا دَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ

ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤] فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟ قَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً» متفق عليه.



فَصْلُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ







فَصْلُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ

وينبغي لمن شرع في تفسير القرآن أن يكون بعيدًا عن (الإسرائيليات)، وهي الروايات المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود، والنصارىٰ، ومعلوم لدينا أن التوراة والإنجيل قد غُيرت، وبُدلت، وحُرفت من قبل اليهود والنصارىٰ، وما بقي فيها من الحق فلا نعلمه نحن.

وأما ما جاء في صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في الفتح** (٦/ ٤٩٨-٤٩٩): "قوله: «**وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**» أَيْ: لَا ضِيقَ عَلَيْكُمْ فِي الْحَدِيثِ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ كَانَ تَقَدَّمَ مِنْهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّجْرُ عَنِ الْأَخْذِ عَنْهُمْ، وَالنَّظَرِ فِي كُتُبِهِمْ ثُمَّ حَصَلَ التَّوَسُّعُ فِي ذَلِكَ.

وَكَأَنَّ النَّهْيَ وَقَعَ قَبْلَ اسْتِقْرَارِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْقَوَاعِدِ الدِّينِيَّةِ خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ، ثُمَّ لَمَّا زَالَ الْمَحْذُورُ وَقَعَ الْإِذْنُ فِي ذَلِكَ، لِمَا فِي سَمَاعِ الْأَخْبَارِ الَّتِي كَانَتْ فِي زَمَانِهِمْ مِنَ الِاعْتِبَارِ.

وَقِيلَ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «**لَا حَرَجَ**»، لَا تَضِيقُ صُدُورُكُمْ بِمَا تَسْمَعُونَهُ عَنْهُمْ مِنَ الْأَعَاجِيبِ فَإِنَّ ذَلِكَ وَقَعَ لَهُمْ كَثِيرًا.

وَقِيلَ: لَا حَرَجَ فِي أَنَّ لَا تُحَدِّثُوا عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ أَوَّلًا: «**حَدِّثُوا**»، صِيغَةُ أَمْرٍ تَقْتَضِي الْوُجُوبَ فَأَشَارَ إِلَىٰ عَدَمِ الْوُجُوبِ وَأَنَّ الْأَمْرَ فِيهِ لِلْإِبَاحَةِ بِقَوْلِهِ: «**وَلَا حَرَجَ**»، أَيْ فِي تَرْكِ التَّحْدِيثِ عَنْهُمْ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ رَفْعُ الْحَرَجِ عَنْ حَاكِي ذَلِكَ لِمَا فِي أَخْبَارِهِمْ مِنَ الْأَلْفَاظِ الشَّنِيعَةِ نَحْوَ قَوْلِهِمْ: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾، وَقَوْلُهُمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْلَادُ إِسْرَائِيلَ نَفْسِهِ، وَهُمْ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ، وَالْمُرَادُ حَدِّثُوا عَنْهُمْ بِقِصَّتِهِمْ مَعَ أَخِيهِمْ يُوسُفَ، وَهَذَا أَبْعَدُ الْأَوْجُهِ".

وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الْمُرَادُ جَوَازُ التحدث عَنْهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ حَسَنٍ، أَمَّا مَا عُلِمَ كَذِبُهُ فَلَا.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى حَدِّثُوا عَنْهُمْ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ، وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ جَوَازُ التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ بِأَيِّ صُورَةٍ وَقَعَتْ مِنَ انْقِطَاعٍ، أَوْ بَلَاغٍ لِتَعَذُّرِ الِاتِّصَالِ فِي التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ، بِخِلَافِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَإِنَّ الْأَصْلَ فِي التَّحَدُّثِ بِهَا الِاتِّصَالُ، وَلَا يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ لِقُرْبِ الْعَهْدِ.

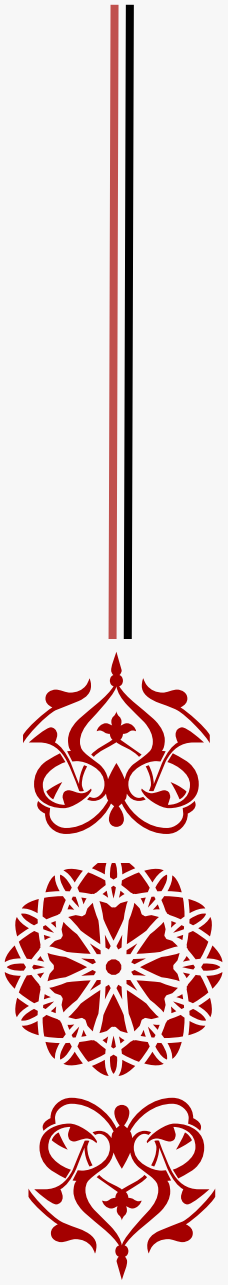
وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُجِيزُ التَّحَدُّثَ بِالْكَذِبِ فَالْمَعْنَىٰ حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ كَذِبَهُ، وَأَمَّا مَا تُجَوِّزُونَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي التَّحَدُّثِ بِهِ عَنْهُمْ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: «**إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ**»، وَلَمْ يَرِدِ الْإِذْنُ وَلَا الْمَنْعُ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمَا يُقْطَعُ بِصِدْقِهِ" .اهـ

فيحذر من رواية الإسرائيليات دون تمييز وتنقيح؛ لأن فيها الطعن في الله عَزَّوَجَلَّ، وفيها الطعن في الأنبياء، وفيها الطعن في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ القرآن، وفيها شر عظيم؛ لأنها جاءت من اليهود، والنصارىٰ المغضوب عليهم، والضالين.



فَصْلٌ مَعْرِفَةِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ





فَصْلٌ مَعْرِفَةِ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ

من المهمات في تفسير القرآن، وشرح الحديث النبوي معرفة (الناسخ والمنسوخ)، حتىٰ لا يظن من لا بصيرة له التعارض، والتناقض بين آي القرآن مع بعضها، وبين القرآن، والسنة عند اجتماعهما.

روىٰ ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله): عن يَحْيَىٰ بْنَ أَكْثَمَ قال: «**لَيْسَ مِنَ الْعُلُومِ كُلِّهَا عِلْمٌ هُوَ أَوْجَبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ وَعَلَى الْمُتَعَلِّمِينَ وَكَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ عِلْمِ نَاسِخِ الْقُرْآنِ وَمَنْسُوخِهِ؛ لِأَنَّ الْآخِذَ بِنَاسِخِهِ وَاجِبٌ فَرْضًا، وَالْعِلْمُ بِهِ لَازِمٌ دِيَانَةً، وَالْمَنْسُوخُ لَا يَعْمَلُ بِهِ وَلَا يُنْتَهَىٰ إِلَيْهِ، فَالْوَاجِبُ عَلَىٰ كُلِّ عَالِمٍ عِلْمُ ذَلِكَ، لِئَلَّا يُوجِبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَوْ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ أَمْرًا لَمْ يُوجِبْهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَوْ يَضَعُ عَنْهُ فَرْضًا أَوْجَبَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ**». اهـ

وقال القرطبي في تفسيره (٢/ ٦٢): "**مَعْرِفَةُ هَذَا الْبَابِ أَكِيدَةٌ وَفَائِدَتُهُ عَظِيمَةٌ، لَا يَسْتَغْنِي عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يُنْكِرُهُ إِلَّا الْجَهَلَةُ الْأَغْبِيَاءُ، لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ النَّوَازِلِ فِي الْأَحْكَامِ، وَمَعْرِفَةِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ**". اهـ

وقد أخرج البيهقي عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَىٰ عَلَىٰ قَاضٍ، فَقَالَ لَهُ: **هَلْ تَعْلَمُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ** قَالَ: **لَا**، قَالَ: **هَلَكْتَ، وَأَهْلَكْتَ**.

وقد سلكت في هذا التفسير مسلك الاختصار:

ببيان مفرداته، وأسباب نزوله، وبعض أحكامه؛ تقريبا لعلومه، ومشاركة في تبليغ فنونه.

وإن كنت ضعيف الباع قليل الاطلاع لكن أسأل الله البركة، والعون، والسداد، والقبول، فأنا ناقل، ومقرب لما في تفاسير العلماء الربانيين.

واستفدت كثيرًا من تفسير الإمام أبي محمد الحسن بن مسعود البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ المتوفىٰ سنة (٥١٦هـ).

وتفسير "القرآن العظيم" للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي رَحِمَهُ اللَّهُ (المتوفىٰ: ٧٧٤هـ).

وتفسير "الجلالين" لمؤلفيه: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (المتوفى: ٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (المتوفى: ٩١١هـ) مع الحذر مما فيه من التأويل المخالف لمنهج السلف الصالح في باب الصفات.

وتفسير "فتح القدير" لقاضي قضاة القطر اليماني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (المتوفى: ١٢٥٠هـ) مع عدم التعريج علىٰ ما فيه من التأويل المخالف لمنهج السلف في الصفات.

وتفسير "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للعلامة عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، وغيرها من التفاسير إن احتجت إلىٰ ذلك.

وفي بيان أسباب النزول استفدت من كتاب "الصحيح المسند من أسباب النزول" لشيخنا، وعالمنا مجدد زمانه، وفريد أقرانه أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى (١٤٢٢هـ)، وأسميته:

(ٱلْقَوْلُ ٱلْمُؤَصَّلُ فِي تَفْسِيرِ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ).

راجيًا الله القبول، والله المستعان.

كَتَبَهُ

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يَحْيَى بْنُ زَيْدٍ الْحُجُورِيُّ الزُّعْكُرِيُّ

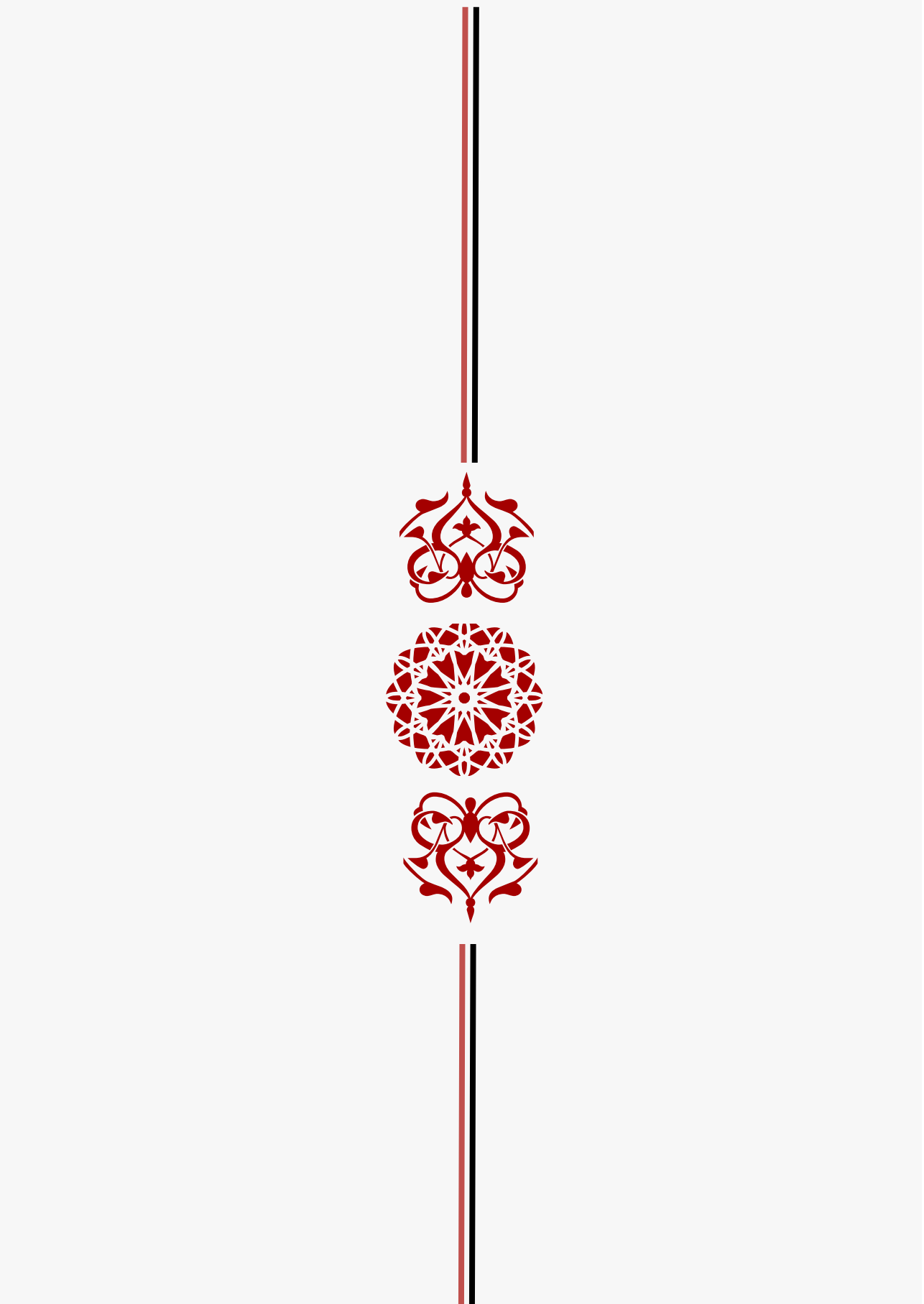
حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى

١٤٤٣هـ



فَصْلُ الْكَلَامُ عَلَى الْاِسْتِعَاذَةِ





فَصْلُ الْكَلَامُ عَلَى الْاِسْتِعَاذَةِ

﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:" الكلام علىٰ تفسير الاستعاذة، قال تعالىٰ ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ [الأعراف:١٩٩-٢٠٠]

وقال تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون:٩٦-٩٨]،

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت:٣٤-٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها: وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلىٰ الموادة، والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحسانا، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل.

❁ **وجمهور العلماء علىٰ أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحتمة يأثم تاركها**، وحكىٰ فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفىٰ في إسقاط الوجوب.

واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية:﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ وهو أمر ظاهره الوجوب، وبمواظبة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ عليها؛ ولأنها تَدْرأُ شَرَّ الشيطان، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب؛ ولأن الاستعاذة أحوط، وهو أحد مسالك الوجوب، وقال بعضهم: كانت واجبة

علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون أمته، وحُكِيَ عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة، ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه، وتكون قبل القراءة لا بعدها، موافقًا لجمهور أهل العلم، وخلافًا لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومعنىٰ: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني علىٰ فعل ما نهيت عنه.

فـ(**العوذ**) يكون من المرهوب، و(**اللوذ**) يكون من المطلوب

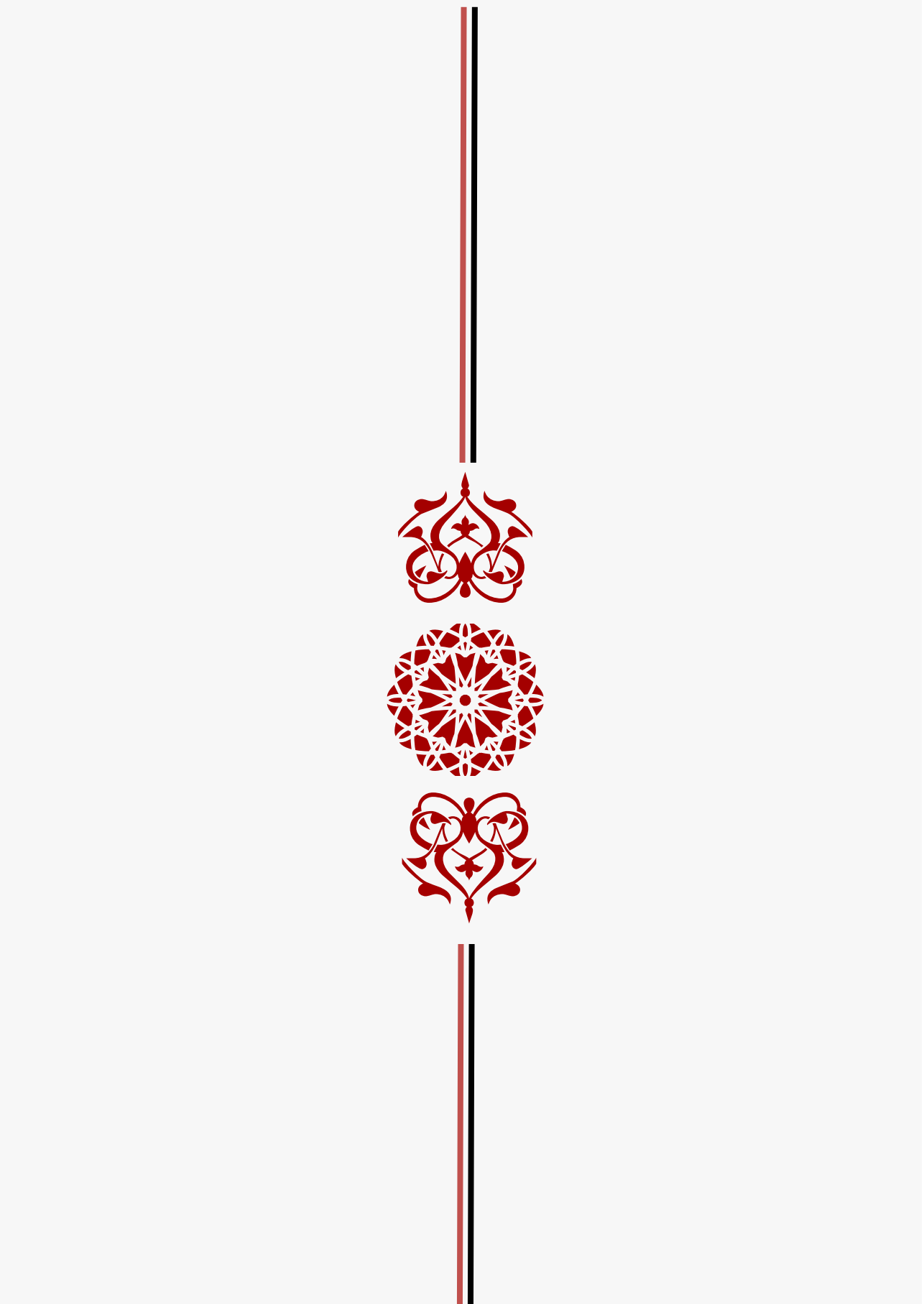
و﴿الشَّيْطَانِ﴾: كل متمرد من الجن والإنس، والدواب من قولهم شطن، وهو الخروج عن الطاعة.

و﴿الرَّجِيمِ﴾ الملعون المشتوم، وكل مشتوم بقول رديء، أو سب فهو مرجوم، والمراد به هنا من طرده الله من الجنة إبليس عليه لعائن الله تترىٰ.



فَصْلُ الْكَلَامُ عَلَى الْبَسْمَلَةِ





فَصْلُ الْكَلَامُ عَلَى الْبَسْمَلَةِ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

﴿بِسْمِ﴾ الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة، والأول أظهر وأشهر؛ إذ أن العبد يُسمي الله تعالىٰ متبركًا بذكره مستعينًا به في تيسير أمره، وتفريج كربه.

۞ و(**الاسم**): مشتق من السمو الذي هو (العلو)، وقيل من (السمة)، والأول أظهر؛ لأنه يجمع علىٰ (أسماء)، ويصغر علىٰ (سُمَيّ)، ولو كان مشتقًا من (السمة) لجمع علىٰ (سمات)، ويصغر علىٰ و(سيم).

❖ وهل الخلاف في هذا عقدي؟

فقد ذهب بعض العلماء إلىٰ أن الخلاف عقدي من حيث أن القول باشتقاقه من (السمة) قول المبتدعة الذين يزعمون أن الله تعالىٰ كان ولا صفات له حتىٰ وصفه عباده وسموه، وهذا قول المعطلة.

﴿ٱللَّهِ﴾ اسم الجلالة علم علىٰ الذات العلية، مختص بالله، وعليه جميع مدار الأسماء الحسنىٰ، وهو الاسم الأعظم علىٰ الصحيح من أقوال العلماء، وهو مشتق من (**الإله**).

قال رؤبة ابن العجاج:

لِلَّهِ دَرُّ الغانِيـــــــاتِ المُـــــــدَّهِ سَـبَّحْنَ واسْـتَرْجَعْنَ مِـنْ تَـأَلهِي

(**تألهي**) أي: من تعبدي.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ من أسماء الله الحسنىٰ، وهو من الأسماء المختصة بالله تعالىٰ، وهو علىٰ وزن فعلان، وزيادة المباني دليل علىٰ زيادة المعاني، وقد أنكره كفار قريش كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠]، وكأن هذا والله أعلم من باب المكابرة إذ قد وُجد في أشعار العرب قول الشنفرىٰ:

أَلاَ ضَـرَبَتْ تِلْـكَ الْفَتَـاةُ هَجِينَهَـا أَلاَ قَضَـبَ الـرَّحْمَنُ رَبِّـي يَمِينَهَـا

وهو متضمن لصفة الرحمة العامة المتعلقة بالذات.

﴿الرَّحِيمُ﴾ من أسماء الله الحسنىٰ، وليس بمختص فقد سمىٰ الله تعالىٰ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رؤفًا رحيمًا.

وهو دال علىٰ صفة الرحمة الواصلة، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

۞ **فالحكمة إذًا فيما أظن وأرى -والله أعلم- من افتتاح القرآن بالبسملة:**

- **أولا**: للتبرك بذكر الله تعالى.
- **ثانيًا**: الاستعانة بالله تعالى.
- **ثالثًا**: تقديم اسم الله تعالى على ما سواه.
- **رابعًا**: التحصن من الشيطان الرجيم وجنده.

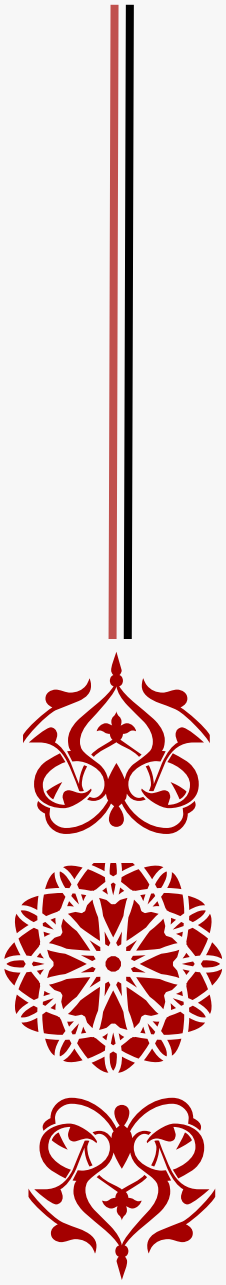
ومن خلال ما تقدم يتبين لنا -والله أعلم-: السر العظيم في كون البسملة تضمنت الأسماء الثلاثة العظيمة حتى يدخل تحتها كل وصف حسن، والتنزه من كل ما يضاد ذلك وبالله التوفيق، والله أعلم.

۞ **والبسملة ليست آية من كل سورة**، ولا من الفاتحة **علىٰ الصحيح** كما يأتي بيانه، مع الاتفاق أنها آية من القرآن جيء بها للفصل بين السور.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ





سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

📖 مَكِّيَّةٌ عَلَى الصَّحِيحِ.

📖 وَآياتها سَبْعُ آيَاتٍ إِجْمَاعًا سَبعُ.

❖ **وقد اختلف العلماء في نزول الحمد، فقيل بمكة، وقيل بالمدينة، وقيل نزلت مرتين.**

والذي يظهر، والله أعلم أنها نزلت بمكة، ثم لما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة نزل فضلها، وأجرها.

قال القرطبي في تفسيره (١/ ١١٦): "قال ابن عطية: ظن بعض العلماء أن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينزل بسورة الحمد، لما رواه مسلم (٨٠٦) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**بينما جبريل قاعد عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته**». قال ابن عطية: وَلَيْسَ كَمَا ظُنَّ، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَقَدَّمَ الْمَلَكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْلِمًا بِهِ وَبِمَا يَنْزِلُ مَعَهُ، وَعَلَى هَذَا يَكُونُ جِبْرِيلُ شَارَكَ فِي نُزُولِهَا، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قُلْتُ: الظَّاهِرُ مِنَ الْحَدِيثِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُعْلِمِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ نُزُولَهَا كَانَ بِمَكَّةَ، نَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]، وَهَذَا يَقْتَضِي جَمِيعَ الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَزَلَ بِتِلَاوَتِهَا بِمَكَّةَ، وَنَزَلَ الْمَلَكُ بِثَوَابِهَا بِالْمَدِينَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وقد قيل: إِنَّهَا مَكِّيَّةٌ مَدَنِيَّةٌ، نَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ مَرَّتَيْنِ، حَكَاهُ الثَّعْلَبِيُّ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوْلَى، فَإِنَّهُ جَمْعٌ بَيْنَ الْقُرْآنِ والسنة، ولله الحمد والمنة)" . اهـ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

وهي أعظم سورة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ففي البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: مرَّ بي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتىٰ صليت ثم أتيت، فقال: «**ما منعك أن تأتيني؟**» فقلت: **كنت أصلي، فقال:** «**ألم يقل الله** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] **ثم قال:** «**ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد**» فذهب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليخرج من المسجد فذكرته، فقال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته**» **البخاري (٤٤٧٤)**.

وفي مسلم (٣٩٥) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يقول:** «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني، وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾**، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾**، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾**، قال: مجدني عبدي - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ **قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل**».

۞ وفي هذا دليل علىٰ مسألة مهمة: وهي تفاضل القرآن الكريم، وتفاضل أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، وأدلتها كثيرة، وقد أطلت في النقل عن العلماء في كتابي : « فتح الكريم المنان في تفسير السبع المثاني أم القرآن».

❁ ومما يدل علىٰ عظمتها، وفضلها:

أن الله افترض علينا قراءتها في كل ركعة، وأنها تغني عن غيرها، ولا يغني غيرها عنها في الصلاة.

❁ ومن فضلها: أنها رقية، فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: نَزَلْنَا مَنْزِلًا، فَأَتَتْنَا امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، لُدِغَ، فَهَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مِنَّا، مَا كُنَّا نَظُنُّهُ يُحْسِنُ رُقْيَةً، فَرَقَاهُ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَبَرَأَ، فَأَعْطَوْهُ غَنَمًا، وَسَقَوْنَا لَبَنًا، فَقُلْنَا: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقْيَةً؟ فَقَالَ: مَا رَقَيْتُهُ إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ.

قَالَ: فَقُلْتُ: لَا تُحَرِّكُوهَا حَتَّى نَأْتِيَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَيْنَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «**مَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ مَعَكُمْ**» متفق عليه.

❁ ومنها: أنها جامعة بين الدعاء والثناء.

❁ ولها أسماء: فهي القرآن العظيم، والسبع المثاني، والفاتحة، والصلاة، والرقية، وأم الكتاب، وأم القرآن، والحمد، وزاد بعضهم الكافية، والشافية، وذكروا لها غير ذلك.

❁ وكثرة الأسماء الثبوتية تدل علىٰ الكمال، والقرآن العظيم صفة الله تعالىٰ، فكل اسم يتضمن صفة.

❁ وهي سبع آيات بالقرآن والسنة والإجماع قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر:٨٧]، وغير ذلك فهو قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعول عليه.

❁ إلا أن العلماء اختلفوا هل البسملة آية من آياتها، أو ليست من آياتها؟

والصحيح: الذي عليه المحققون أنها ليست آية من الفاتحة، بل ولا من كل سورة وهي بعض آية من ﴿سورة النمل﴾، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٣٠].

وأشهر حديث يستدل به علىٰ ذلك: ما أخرجه الإمام مسلم (٣٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

فلم يذكر فيه البسملة، فقسم الله تعالىٰ ﴿سورة الفاتحة﴾ بينه وبين عبده الثلاث الآيات الأُوَل، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:١-٤]، فهذه في حق الله تعالىٰ حمدًا، وثناءً، ومجدًا علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

والآية الرابعة: وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾ هي التي بين العبد وبين الله تعالىٰ، فـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ بيان لحق الله تعالىٰ، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾ بيان لحال العبد، واستعانته بالله تعالىٰ، واعتماده عليه.

ثم القسم الآخر: وهو الدعاء ثلاثة آيات وهي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾، فصارت سبع آيات بغير البسملة علىٰ الصحيح من أقوال العلماء.

ومعلوم أن إثبات البسملة آية من الفاتحة يوجب قراءتها في كل صلاة، وعدم الإثبات لا يوجبه، وإنما تكون قراءتها من المستحبات.

وهدي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الإسرار بالبسملة في الصلاة كما في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقْرَأُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾». **أخرجه البخاري (٧٤٣)، ومسلم (٣٩٩) بألفاظ كثيرة.**

ولم يثبت عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الجهر مطلقًا كما ذكر ذلك الدارقطني مع أنه رَحِمَهُٱللَّهُ يرجح الجهر، وألف رسالة في ذلك.

وما جاء من حديث نُعَيْمٍ بنِ عَبْدِ الله المجمر، قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثُمَّ قَرَأَ بِأُمِّ الْقُرْآنِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٥ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۝٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٥-٧]، فَقَالَ: «آمِينَ». فَقَالَ النَّاسُ: آمِينَ وَيَقُولُ: كُلَّمَا سَجَدَ: «**الله أكبر**»، وَإِذَا قَامَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الِاثْنَتَيْنِ قَالَ: «**الله أكبر**»، وَإِذَا سَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لَأَشْبَهُكُمْ صَلَاةً برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ»، **رواه النسائي في «سننه» (٩٠٥)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٦٨٨، ٤٩٩)، وغيرهم.**

فقد أعلَّ العلماء زيادة الجهر بـ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأنه شذ بها نعيم المجمر، وأطال في بيان ذلك الزيلعي في "نصب الراية".

وعند الترمذي (٢٤٤) عَنِ ابْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ، قَالَ: «سَمِعَنِي أَبِي وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ، أَقُولُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فَقَالَ لِي: أَيْ بُنَيَّ مُحْدَثٌ إِيَّاكَ وَالحَدَثَ، قَالَ: وَلَمْ أَرَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ أَبْغَضَ إِلَيْهِ الحَدَثُ فِي الإِسْلَامِ، يَعْنِي مِنْهُ، قَالَ: وَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَمَعَ أَبِي بَكْرٍ، وَمَعَ عُمَرَ، وَمَعَ عُثْمَانَ، فَلَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَقُولُهَا، فَلَا تَقُلْهَا، إِذَا أَنْتَ صَلَّيْتَ فَقُلْ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾».

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَالْعَمَلُ عَلَيْهِ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَصْحَابِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْهُمْ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وَغَيْرُهُمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ، وَبِهِ يَقُولُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَابْنُ الْمُبَارَكِ، وَأَحْمَدُ، وَإِسْحَاقُ لَا يَرَوْنَ أَنْ يَجْهَرَ بِـ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، قَالُوا: وَيَقُولُهَا فِي نَفْسِهِ. اهـ

وقراءة سور الفاتحة ركن في الصلاة لحديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **قَالَ: «لاَ صَلاَةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ»**، وفي رواية **«بِأُمِّ الْكِتَابِ» أخرجه البخاري في** "القراءة خلف الإمام" (٤)، وفي بعضها **«بِأُمِّ الْقُرْآنِ»، متفق عليه.**

وقد ألف البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ جزء في "القراءة خلف الإمام"، واثبت أن قراءة الفاتحة واجبة علىٰ المأموم، والإمام، والمنفرد.

وبوب في صحيحه: **(بَابُ وُجُوبِ الْقِرَاءَةِ لِلْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ فِي الصَّلَوَاتِ كُلِّهَا فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ، وَمَا يُجْهَرُ فِيهَا وَمَا يُخَافَتُ).**

❁**ولا تسقط قرأتها إلا عن العاجز الذي لم يتمكن، أو لم يستطع حفظها** كرجل أسلم ووجبت عليه الصلاة، فإذا عُلِّم الفاتحة ربما خرجت عليه الصلاة فله أن يصلي بغير الفاتحة وأن يقول بدلًا عن الفاتحة: **«سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله»**.

لما روىٰ أحمد (١٩١١٠)، وأبو داود (٨٣٢)، والنسائي (٩٩٨)، من حديث عَبْدِ الله بن أَبِي أَوْفَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ آخُذَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا فَعَلِّمْنِي مَا يُجْزِئُنِي مِنْهُ، قَالَ: «**قُلْ: سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ**»، قَالَ: يَا رسول الله هَذَا لله تعالىٰ فَمَا لِي. قَالَ: «**قُلْ: اللهمَّ ارْحَمْنِي وَارْزُقْنِي وَعَافِنِي وَاهْدِنِي**» والحديث مخرج في "إرواء الغليل" (٣٠٣).

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ﴾.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: ذكر محاسن المحمود مع حبِّه، وتعظيمه، وإجلاله.

وآلته: القلب، واللسان، ويكون علىٰ الصفات اللازمة كالجمال، والكمال، والمتعدية كالإحسان، والرحمة، والكرم.

۞ والله تعالىٰ قد افتتح خمس سور بالحمد:

الفاتحة، كما ترىٰ.

وسورة الأنعام: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

والكهف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ ﴾ [الكهف:١].

وسبأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:١].

وفاطر: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:١].

وقد حمد الله تعالىٰ نفسه في مواطن كثيرة، وحمده نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمر بحمده وحثَّ عليه.

و(أل) في الحمد للاستغراق أي: جميع المحامد ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وإثبات المحامد يتضمن إثبات كل كمال لله تعالىٰ ككمال السمع، والبصر، وكمال القدرة، والإرادة، وكمال الخلق، والحكمة، وكمال القوة، والمشيئة، ويستلزم نفي جميع النقائص.

كما أن كلمة (**سُبْحَانَ الله**) تتضمن نفي جميع النقائص العجز، والسِنَة، والنوم ، وتستلزم إثبات جميع الكمال لله تعالىٰ؛ لأن إثبات الكمال يلزم منه نفي النقيصة، ونفي النقيصة يلزم منه إثبات الكمال، ولهذا جُمع بينهما في عدة مواطن في الأذكار، وغيرها.

﴿رَبِّ﴾ من أسماء الله تعالىٰ الحسنىٰ، ولا يستعمل مع غيره إلا مضافًا، وغير محلىٰ بالألف واللام، ومن معانيه: السيد، والمالك، والمربي.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الرَّبُّ) هُوَ: "الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ، وَيُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى السَّيِّدِ، وَعَلَى الْمُتَصَرِّفِ لِلْإِصْلَاحِ، وَكُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ فِي حَقِّ الله تعالى" .اهـ

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رُبُوبِيَّتُهُ لِلْعَالَمِ تَتَضَمَّنُ تَصَرُّفَهُ فِيهِ وَتَدْبِيرَهُ لَهُ، وَنَفَاذَ أَمْرِهِ كُلِّ وَقْتٍ فِيهِ، وَكَوْنُهُ مَعَهُ كُلَّ سَاعَةٍ فِي شَأْنٍ: يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ، وَيُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَيُعْطِي وَيَمْنَعُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ بِمَشِيئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ، وَإِنْكَارُ ذَلِكَ إِنْكَارٌ لِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ" اهـ من «الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٢٣).

ولم يُذكر في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وفيه ذكر الأسماء الحسنىٰ، وهذا من الأوجه التي أعلَّ بها العلماء الحديث.

مع أنه من الأسماء الحسنىٰ بدلالة القرآن والسنة، وزيادة ذكر الأسماء الحسنىٰ في الحديث مدرجة عن الوليد بن مسلم، وقيل عن غيره، وإنما المحفوظ ما روىٰ البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّا لله تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

وربوبية الله للمؤمن ربوبية إعانة، وحفظ، وكلأه، ونصر، وتأييد فمن هذه الناحية فيها ترغيب إذ أن الله ربك محيطٌ بك، وعالم بحالك، ولن يضيعك، ولن يتركك هملًا؛ بل أنعم عليك بنعم كثيرة بها تعلم ما يجب عليك، ووفقك، وهداك، وسددك، وكم من نعم الله تعالىٰ الرب علىٰ عباده.

۞ وفيها ترهيب من حيث أن الله تعالىٰ هو المتصرف في هذا الكون.

﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كل ما سوىٰ الله تعالىٰ عالم، سواء في ذلك الجن، والأنس، والملائكة، والأرض، وما فيها.

وسموا (**عالم**)؛ لأنهم علامة، وآية علىٰ وجود الله ، فهذا الكون بما فيه علامة علىٰ قدرة الله تعالىٰ، وعلىٰ أن لهذا الكون خالقٌ، ورازقٌ، ومالكٌ، ومدبرٌ.

۞ وفي هذه الآية بيان للنوع الأول من أنواع التوحيد:

- وهو (**توحيد الربوبية**)، وهو: إفراد الله تعالىٰ بالخلق، والملك، والتدبير.
- و(**توحيد الألوهية**): هو إفراد الله بالعبادة، أو بأفعال المكلفين.

فالله تعالىٰ رب جميع العالمين مؤمنهم، وكافرهم، وبرهم، وفاجرهم، ويلزم من ذلك أنه الإله الحق، وما سواه باطل، قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الحج:٦].

- والنوع الثالث (**توحيد الأسماء والصفات**): وهو إفراد الله تعالىٰ بأسمائه، وصفاته.

والاهتمام بالتوحيد من المهمات لا سيما مع كثرة المخالفين للكتاب، والسنة النبوية الصحيحة، وقد تكلمت علىٰ هذا الباب بتوسع في كتابي: «فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد»، فتجد أن كثيرًا ممن يقول: (لا إله إلا الله) قد علق قلبه بحرز، أو قبة، أو قبر، ونحو ذلك.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾.

٢ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثنىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذين الاسمين العظيمين الجليلين، الدالين علىٰ إثبات صفة الرحمة لله تعالىٰ؛ إلا أن اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ أبلغ من اسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، والقاعدة عند أهل اللغة: أن زيادة المباني تدل علىٰ زيادة المعاني كما تقدم.

فـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ علىٰ وزن فعلان، وهو من الأسماء المختصة بالله تعالىٰ، ولم يُسمَّ به إلا مسيلمة الكذاب من باب المكابرة، وقد أنكرته قريش، فيحمل إنكارهم علىٰ المكابرة؛ لأنه قد ذكر في أشعار العرب ومنه: (**ألا قضب الرحمن ربي يمينها**)، أو أن بعضهم كان يجهله.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]، وهو من الأسماء المختصة، ولا يجوز أن يسمىٰ غير الله به.

وأما اسم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ علىٰ وزن فعيل، فليس من الأسماء المختصة؛ ولهذا سمىٰ الله تعالىٰ محمدًا (رحيمًا) حيث قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة:١٢٨].

و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رحمان الدنيا، والآخرة، ورحمته للبر، والفاجر، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ خاصة بالمؤمن، كما قال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣]، ورحمته للكافر بإطعامه، واستصحاحه، وغير ذلك مما يتعلق به في حياته الدنيا، وأما في الآخرة فلا رحمة له.

وقد ذهب العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤)، إلىٰ أن ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دال علىٰ الصفة القائمة بالذات، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ دال علىٰ تعلقها بالمرحوم. اهـ

وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سماه الله تعالىٰ حمدًا كما تقدم في الحديث القدسي، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، سماه ثناءً.

۞ والفرق بين الحمد والثناء: أن الثناء تكرار الحمد.

﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾﴾.

﴿٣﴾ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، وفي بعض القراءات ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فكلاهما من الأسماء الحسنىٰ، وقد ذكر العلماء أوجه للإتيان بـ﴿مَالِكِ﴾، و﴿مَلِكِ﴾.

فالـ﴿مَالِكِ﴾ هو الذي له الملك، يتصرف فيما يملك، ومُلك الله تعالىٰ دال علىٰ عظمته، وربوبيته، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:٢٦].

﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، اليوم الآخر، سمي يوم الدين؛ لأن الناس يجازون فيه بأعمالهم، فالمؤمن يجازىٰ علىٰ إيمانه، والكافر يجازىٰ علىٰ كفره ولا

سواء: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورىٰ:٧] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٧﴾ [غافر:١٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وَتَخْصِيصُ الْمُلْكِ بِيَوْمِ الدِّينِ لَا يَنْفِيهِ عَمَّا عَدَاهُ، لِأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَذَلِكَ عَامٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا أُضِيفَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ لِأَنَّهُ لَا يَدَّعِي أَحَدٌ هُنَالِكَ شَيْئًا، وَلَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ". اهـ.

وفي الحديث الذي تقدم قوله: «مَجَّدَنِي عَبْدِي».

۞ والفرق بين (المجد) و(الحمد): أن المجد من أنواع الحمد، إلا أن الحمد أعم، والمجد أخص، فإذا قلت: الحمد لله الهادي المحسن المنعم كان هذا حمدًا وليس بمجد؛ لكن إذا قلت: الحمد لله العظيم القاهر القوي الظاهر الجبار كان هذا مجدًا وهو حمد.

فـ(المجد) يكون بصفات العظمة، والجلال، والكبرياء؛ لأن كلمة (م ج د) تدل علىٰ السعة قال تعالىٰ: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج:١٥]، علىٰ قراءة الكسر أي: العرش الواسع العظيم، وعلىٰ قراءة الضم﴿المَجِيْدُ﴾ يكون المجيد من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٤﴾.

۝٤ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ **(الْعِبَادَةُ)** فِي اللُّغَةِ مِنَ الذِّلَّةِ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّد، وَبَعِيرٌ مُعَبَّد، أي: مُذَلَّلٌ، وَفِي الشَّرْعِ: عِبَارَةٌ عَمَّا يَجْمَعُ كَمَالَ الْمَحَبَّةِ، وَالْخُضُوعِ، وَالْخَوْفِ.

وهي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ، و يرضاه من الأقوال، والأفعال، والاعتقادات.

والمعنىٰ: أي نعبد إياك، وقدم المفعول ليدل علىٰ اختصاص الله بالعبادة.

۞ وفي هذا دليل علىٰ إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، وأنها حقه، ولا يجوز أن يُشرك معه غيره لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلا؛ وهذا الذي دعت إليه جميع الرسل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وهي أنواع: قولية، وفعلية، ومالية، واعتقادية، فلا يجوز أن يصرف شيء من أنواع العبادات لغير الله لا القولية، ولا الفعلية، ولا الاعتقادية، ولا المالية، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

۞ **وقبول العبادة متوقف على شرطين وهما:**

• **الأول: الإخلاص لله بالتوحيد**، قال الله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البينة:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]. وفي الصحيحين عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى**».

وفي مسلم (٢٩٨٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

• **والثاني: المتابعة لرسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ يقول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

ولما كان الإنسان عاجزًا عن فعل المأمور، وترك المحظور إلا بإقدار الله تعالىٰ له قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **و(الاستعانة)**: طلب العون.

والمعنىٰ: أننا نستعينك يا الله علىٰ عبادتنا لك.

۞ وفي هذا كمال التوكل، وصدق الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ.

وإذا لم يعن الله العبد فلن يستطيع أن يصلي صلاةً، ولا أن يزكي زكاة، ولا حجًا، ولا ذكرًا، ولا هدايةً، ولا شيئًا من ذلك، ولهذا قال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف:١٢٨]، وكان من دعاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ**» **أخرجه أحمد (١٩٩٧)، وأبو داود (١٥١٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما، والحديث في «الصحيح المسند» (٦٠٦) لشيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ.**

إِذَا لَـمْ يَكُـنْ عَـونٌ مِـنَ الله لِلفَتـى فَـأَوَّلُ مَـا يَجنِـي عَلَيـهِ اجتِهَـادُهُ

وهذه الآية بين الله عَزَّوَجَلَّ، وبين العبد، أولها إخبار بما يجب علىٰ العبد من حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخاتمتها أن العبد مستعين، وخاضع، وفقير، وراجع إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٥﴾.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

﴿ٱهۡدِنَا﴾ أي: وفقنا إلىٰ الصراط المستقيم، والصراط الطريق.

والهداية أربعة أنواع:

• **أَحَدُهَا: الْهِدَايَةُ الْعَامَّةُ الْمُشْتَرَكَةُ بَيْنَ الْخَلْقِ** الْمَذْكُورَةُ فِي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه:٥٠]، أي: أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ صُورَتَهُ الَّتِي لَا يَشْتَبِهُ فِيهَا بِغَيْرِهِ، وَأَعْطَى كُلَّ عُضْوٍ شَكْلَهُ وَهَيْئَتَهُ، وَأَعْطَى كُلَّ مَوْجُودٍ خَلْقَهُ الْمُخْتَصَّ بِهِ ثُمَّ هُدَاهُ لِمَا خَلَقَهُ مِنْ الْأَعْمَالِ .

• **الثاني: هِدَايَةُ الْبَيَانِ، وَالدَّلَالَةِ، وَالتَّعْرِيفِ لِنَجْدَيْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَطَرِيقَيْ النَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ.**

كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]. أي: بَيَّنَّا لَهُمْ وَأَرْشَدْنَاهُمْ، وَدَلَلْنَاهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا، وَمِنْهَا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ:٥٢].

• **الثالثُ: هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، وَالْإِلْهَامِ،** وَهِيَ خاصة بالله فَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النحل:٩٣]، وَفِي قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، وَفِي قَوْلِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ يَهْدِي الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ الله فَلَا هَادِيَ لَهُ**».

• **الرابع: الْهِدَايَةُ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، أَوْ النَّارِ إِذَا سِيقَ أَهْلُهُمَا إِلَيْهِمَا،** وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهَا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣]، وَقَالَ فِي حَقِّ أَهْلِ النَّارِ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣] اهـ من بدائع الفوائد (٢/ ٣٥).

ومما يدل علىٰ أهمية سؤال الهداية أن الله تعالىٰ افترض علينا سؤاله إياها في كل ركعة، ووصىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يسأل الله الهداية، والسداد، فعن عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**قُلِ اللهم اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ، بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ، سَدَادَ السَّهْمِ**» أخرجه مسلم (٢٧٢٥).

وَعَن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا ، قَالَ: عَلَّمَنِي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ أَقولهنَّ: «**اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ**» أخرجه أحمد (١٧١٨).

وكان من دعاءه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في حديث ابنِ مسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**» رواهُ مُسْلِمٌ (٢٧٢١).

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦﴾.

٦ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ ويقرأ بالزاي، والسين.

و﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ **قال في بيانه ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في «مدارج السالكين» (١/ ٣٣):**

"وَلَا تَكُونُ الطَّرِيقُ صِرَاطًا حَتَّىٰ تَتَضَمَّنَ خَمْسَةَ أُمُورٍ:

١-(الِاسْتِقَامَةَ).

٢- (الْإِيصَالَ إِلَى الْمَقْصُودِ).

٣- (الْقُرْبَ).

٤- (سَعَتَهُ لِلْمَارِّينَ عَلَيْهِ).

٥- (تَعَيُّنَهُ طَرِيقًا لِلْمَقْصُودِ)، وَلَا يَخْفَىٰ تَضَمُّنُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْخَمْسَةِ.

فَوَصْفُهُ بِالِاسْتِقَامَةِ يَتَضَمَّنُ قُرْبَهُ، لِأَنَّ الْخَطَّ الْمُسْتَقِيمَ هُوَ أَقْرَبُ خَطٍّ فَاصِلٍ بَيْنَ نُقْطَتَيْنِ، وَكُلَّمَا تَعَوَّجَ طَالَ وَبَعُدَ، وَاسْتِقَامَتُهُ تَتَضَمَّنُ إِيصَالَهُ إِلَى الْمَقْصُودِ، وَنَصْبُهُ لِجَمِيعِ مَنْ يَمُرُّ

عَلَيْهِ يَسْتَلْزِمُ سَعَتَهُ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ وَوَصْفُهُ بِمُخَالَفَةِ صِرَاطِ أَهْلِ الْغَضَبِ وَالضَّلَالِ يَسْتَلْزِمُ تَعَيُّنَهُ طَرِيقًا" .اهـ

۞و(**الصراط المستقيم**): هو الإسلام كما فسره رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما رواه الإمام أحمد في «مسنده»(١٧٦٣٤)، والترمذي في «جامعه» (٢٨٥٩) وغيرهما، عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ضَرَبَ الله مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا، وَلَا تَتَعَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ – يا عبد الله – فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ** – ثم بيَّن عليه الصلاة والسلام هذا المثل العظيم. قال: – **وَالصِّرَاطُ الْإِسْلَامُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ الله، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ الله، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ الله ، وَالدَّاعِي مِن فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**».

۞و(**الإسلام**) هو: الصراط المعنوي الذي من استقام عليه، سَلِمَ علىٰ الصراط الحسي، وهو الجسر الممدود علىٰ متن جهنم نعوذ بالله من شرِّها، فمن سار علىٰ هذا الصراط، وسلك السبيل الذي افترضه الله تعالىٰ علىٰ عباده سَهُل عليه المرور علىٰ ذلك الصراط، فعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «...**ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ، وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ. وَيَقُولُونَ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ**»، قِيلَ: يَا رسول الله ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «**دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ، وَكَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ...**» متفق عليه.

۞ فعلىٰ قدر الاستقامة علىٰ الصراط في الدنيا تكون الاستقامة علىٰ الصراط الحسي في الآخرة، وَعَنْد أحمد (٤٤٣٧) عَنْ عَبْدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَخَطَّ خَطًّا، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ، وَخَطَّ خَطَّيْنِ عَنْ يَسَارِهِ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ،

فَقَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

۞ وفيها دليل علىٰ وجوب التمسك بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي دين الله تعالىٰ الحق، ولا سبيل للعبادة كما يجب إلا بسلوكها.

فأوجب الله طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢].

وحذَّر من مخالفته وسلب الإيمان ممَّن لم يرضَ بحكمه فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

وجعل التأسي به علامة إرادته: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

وقطع الخِيَرة مع خِيَرته فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب:٣٦].

وقرن طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطاعته فقال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ [النساء:٨٠].

ومن خالف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ادِّعائه لمحبَّة الله كان كاذبًا في دعواه قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

وجعل رحمته الواسعة لمتَّبع ملَّته فقال تعالىٰ: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

وأخبر أنَّ الجنّة لأهل طاعته، والنّار لأهل معصيته، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾[النساء:١٣] ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٣-١٤].

وكفىٰ الله تعالىٰ رسوله ومن اتَّبعه قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

وأوجب الإيمان برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقرنه بالإيمان بنفسه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦].

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾﴾.

أي: أن هذا الصراط الذي يسأل الهداية عليه، وإليه هو صراط المنعم عليهم، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في (سورة النساء) في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]، فأنت حين تقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ، تقول: اللهم اجعلني علىٰ طريق من أنعمت عليهم من رسل الله ، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

أنعم الله تعالىٰ عليهم بالهداية، هداية التوفيق، والتسديد، وأنعم الله تعالىٰ عليهم بالاستقامة علىٰ دينه، وعلىٰ شرعه، ومعنىٰ ذلك أن المنعم عليهم هم صفوة البشرية، وأعلاهم منزلة الأنبياء والمرسلون، حيث اصطفاهم الله بالوحي المبين، وجعلهم هداة إلىٰ طريقه القويم، وإلىٰ جنات النعيم.

ويليهم في الرتبة الصديقون، وسموا بذلك لصدقهم، وتصديقهم ظاهرًا وباطنًا، وأعلاهم أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويليهم الشهداء وهم أصناف وأعلاهم منزلة من قتل لإعلاء كلمة الله تعالىٰ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالْمَبْطُونُ، وَالْغَرِقُ، وَصَاحِبُ الْهَدْمِ، وَالشَّهِيدُ فِي سَبِيلِ الله**» متفق عليه، ثم يليهم الصالحون بأصنافهم.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾.

۝٧ ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: لا تجعلني مع المغضوب عليهم والضالين، وفي هذا تمييز لطريق أهل الحق والاستقامة، وطريق أهل الضلال والخيانة.

❁ و﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: هم اليهود.

❁ و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: هم النصارىٰ، وقد جاء مفسرًا في بعض الأحاديث، فعن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ**: «**اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلاَّلٌ**». **رواه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣)، وابن جرير (١/ ١٩٤، ١٨٦)، وابن أبي حاتم (١/ ٣١) وله شواهد.**

ويدخل تحتهم من تشبه بهم يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن تَشَبَّه بقومٍ فهو منهم**» **أخرجه أبو داود(٤٠٣١).**

❁ وعند التحقيق كلهم ضالٌ، و مغضوبٌ عليه، لكن الغضب في حق اليهود أظهر؛ لأنهم علموا ولم يعملوا، والضَّلال في حق النصارىٰ أظهر؛ لأنهم جهلوا وعملوا، ولهذا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة: "**مَنْ فَسَدَ مِنْ عُبَّادِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النَّصَارَىٰ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ**"؛ لأنَّ النصارىٰ عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه.

فالله تعالىٰ قد ذمّ اليهود، وذمّ النصارىٰ، وأخبر أن طريقهم غير مرضي، وغير سوي.

فمن هنا تعرف أن الله تعالىٰ قسم الناس في هذه السورة إلىٰ ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:** المنعم عليهم، وهم أهل الإيمان والإسلام.
- **القسم الثاني:** المغضوب عليهم وهم اليهود، ومن تشبه بهم ممن علم ولم يعمل.
- **القسم الثالث:** الضالون، وهم النصارىٰ، ومن تشبه بهم ممن عمل ولم يعلم.

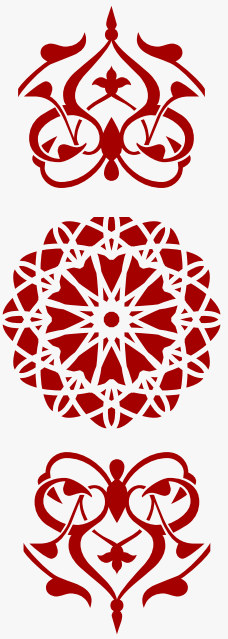
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ





سُورَةُ الْبَقَرَةِ

📖 وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالْإِجْمَاعِ.

وَمَعْنَىٰ مَدَنِيَّةٌ أَنَّها نزلت بعد هجرة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

📖 وَآيَاتُهَا مِئَتَانِ وَسِتَّةٌ وَثَمَانُونَ عَلَىٰ قَوْلِ الْجُمْهُورِ.

وعدد السور المدنية تسع وعشرون سورة مع خلاف في بعضها.

❁ **وللشيخ فتح القدسي حَفِظَهُ اللهُ نظم في هذا قال فيه:**

المدنيُّ سُوَرٌ مشتهرة ... عشرون مع تِسعٍ وهن البقرة

واعْدُدْ ثلاثًا بعد والمجادلة ... وجزؤها فتح حديد زلزلة

أحزاب رعد توبة الإنسان ... محمد الأنفال والرَّحمن

مطففين الحج نور بيِّنه ... والحجرات النصر خذها بَيِّنه

❁ والبقرة أطول سور القرآن، وهي أول السبع الطوال، وفيها من الأحكام والعلوم ما يبهر العقول لمن تدبرها، وتعقل ما فيها، والله الموفق إلىٰ سواء السبيل.

❁ وفي فضلها عدة أحاديث منها حديث أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ:«اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ قَالَ مُعَاوِيَةُ بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ»** اخرجه مسلم (٨٠٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَالَ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»** اخرجه البخاري (٧٨٠).

وفي الحديث جواز تسمية ﴿سورة البقرة﴾ بهذا الاسم فهو نص في الباب، وغيره يعضده، بينما كان مذهب بعض المتقدمين غير هذا فقالوا يقول: (السورة التي ذكر فيها البقرة).

ويدل علىٰ خلاف ذلك ما في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنه قال: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، هَذَا مَقَامُ الَّذِي أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ» متفق عليه.**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

١ ﴿الٓمٓ﴾ هذه تسمىٰ عند العلماء بالحروف المقطَّعة، أو الحروف التي افتتحت بها السور.

❖ **وقد اختلف العلماء في معنىٰ هذه الحروف علىٰ ما ذكره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره إلىٰ اثني عشر قولاً:**

- **الأول:** أنها من أسماء القرآن، وروي هذا القول عن قتادة، ومجاهد، وابن جريج
- **الثاني:** أنها فواتح يفتح الله بها القرآن، روي هذا القول عن مجاهد.
- **الثالث:** أنها اسم للسورة، روي هذا القول عن زيد بن أسلم.
- **الرابع:** أنها اسم الله الأعظم، روي هذا القول عن ابن عباس، وابن مسعود، والشعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
- **الخامس:** أنها قسم أقسم الله به وهو من أسمائه، روي هذا القول عن ابن عباس من طريق علي بن ابي طلحة، وعن عكرمة :﴿الٓمٓ﴾: قسم.
- **السادس:** أنها حروف مقطعة من أسماء، وأفعال كل حرف من ذلك لمعنىٰ غير معنىٰ الحرف الأول، روي هذا القول عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- **السابع:** أنها حروف هجاء موضوع، رواه عن مجاهد.
- **الثامن:** أنها حروف يشتمل كل حرف منها علىٰ معاني شتىٰ.
- **التاسع:** أنها حروف من حساب الجمل.

وهذا قول اليهود حتىٰ أنهم حددوا عُمر هذه الأمة بهذه الحروف، وهو قول مبتدع.

- **العاشر:** أنها سرّ القرآن، حيث ولكل كتاب سرّ.
- **الحادي عشر:** قول أهل اللغة أنها حروف المعجم استغنىٰ بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي ثمانية وعشرين حرفًا، وقال بعضهم بل ابتدأت بذلك في أوائل السور؛ ليفتح لاستماعه أسماع المشركين إذا تواصوا بالإعراض عن القرآن حتىٰ إذا استمعوها تُلي عليهم المؤلف منه.
- **الثاني عشر:** أنها حروف يستفتح الله بها كلامه اهـ مختصرًا.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "فتح القدير"** (١/ ٣٦):

"وَإِذَا عَرَفْتَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي بَيَانِ مَعَانِي هَذِهِ الْحُرُوفِ جَازِمًا بِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ مَا أَرَادَهُ الله عَزَّوَجَلَّ ، فَقَدْ غَلِطَ أَقْبَحَ الْغَلَطِ، وَرَكِبَ فِي فَهْمِهِ وَدَعْوَاهُ أَعْظَمَ الشَّطَطِ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ تَفْسِيرُهُ لَهَا بِمَا فَسَّرَهَا بِهِ رَاجِعًا إِلَىٰ لُغَةِ الْعَرَبِ وَعُلُومِهَا فَهُوَ كَذِبٌ بَحْتٌ، فَإِنَّ الْعَرَبَ لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا سَمِعَهُ السَّامِعُ مِنْهُمْ كَانَ مَعْدُودًا عِنْدَهُ مِنَ الرَّطَانَةِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يَقْتَصِرُونَ عَلَىٰ أَحْرُفٍ أَوْ حُرُوفٍ مِنَ الْكَلِمَةِ الَّتِي يُرِيدُونَ النُّطْقَ بِهَا، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَهُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُفِيدُ مَعْنَاهُ، بِحَيْثُ لَا يَلْتَبِسُ عَلَىٰ سَامِعِهِ كَمِثْلِ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا يَقَعُ مِنْهُمْ مِنَ التَّرْخِيمِ، وَأَيْنَ هَذِهِ الْفَوَاتِحُ الْوَاقِعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مِنْ هَذَا؟.

وَإِذَا تَقَرَّرَ لَكَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ اسْتِفَادَةُ مَا ادَّعَوْهُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ، وَعُلُومِهَا لَمْ يَبْقَ حِينَئِذٍ إِلَّا أَحَدُ أَمْرَيْنِ:

● **الأول:** التَّفْسِيرُ بِمَحْضِ الرَّأْيِ الَّذِي وَرَدَ النَّهْيُ عَنْهُ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ، وَأَهْلُ الْعِلْمِ أَحَقُّ النَّاسِ بِتَجَنُّبِهِ وَالصَّدِّ عَنْهُ وَالتَّنَكُّبِ عَنْ طَرِيقِهِ، وَهُمْ أَتْقَىٰ لله سُبْحَانَهُ مِنْ أَنْ يَجْعَلُوا كِتَابَ الله سُبْحَانَهُ مِلْعَبَةً لَهُمْ يَتَلَاعَبُونَ بِهِ وَيَضَعُونَ حَمَاقَاتِ أَنْظَارِهِمْ وَخُزَعْبَلَاتِ أَفْكَارِهِمْ عَلَيْهِ.

● **الثاني:** التَّفْسِيرُ بِتَوْقِيفٍ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ، وَهَذَا هُوَ الْمَهْيَعُ الْوَاضِحُ وَالسَّبِيلُ الْقَوِيمُ، بَلِ الْجَادَّةُ الَّتِي مَا سِوَاهَا مَرْدُومٌ، وَالطَّرِيقَةُ الْعَامِرَةُ الَّتِي مَا عَدَاهَا مَعْدُومٌ، فَمَنْ وَجَدَ شيئا من هذا فغير ملوم أَنْ يَقُولَ بِمِلْءِ فِيهِ وَيَتَكَلَّمَ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ عِلْمُهُ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَلْيَقُلْ لَا أَدْرِي، أو الله أعلم بِمُرَادِهِ، فَقَدْ ثَبَتَ النَّهْيُ عَنْ طَلَبِ فَهْمِ الْمُتَشَابِهِ وَمُحَاوَلَةِ الْوُقُوفِ عَلَىٰ عِلْمِهِ مَعَ كَوْنِهِ أَلْفَاظًا عَرَبِيَّةً وَتَرَاكِيبَ مَفْهُومَةً، وَقَدْ جَعَلَ الله تَتَبُّعَ ذَلِكَ صَنِيعَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ، فَكَيْفَ بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِهِ؟ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِيهِ إِنَّهُ مُتَشَابِهُ الْمُتَشَابِهِ عَلَىٰ فَرْضِ أَنَّ لِلْفَهْمِ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَلِكَلَامِ الْعَرَبِ فِيهِ مَدْخَلًا، فَكَيْفَ وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ ذَلِكَ عَلَىٰ كُلِّ تَقْدِيرٍ". اهـ

وتكلم ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتوسع في هذا.

وملخص هذه الأقوال جمعها ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير سورة البقرة في أربعة أقوال.

حيث قال:

" هذه الحروف الهجائية اختلف العلماء فيها وفي الحكمة منها علىٰ أقوال كثيرة، يمكن حصرها في أربعة أقوال:

● **القول الأول:** أن لها معنىٰ، واختلف أصحاب هذا القول علىٰ تعيينه هل هو اسم لله عَزَّوَجَلَّ، أو اسم للسورة، أو أنه إشارة إلىٰ مدة هذه الأمة، أو نحو ذلك.

● **القول الثاني:** هي حروف هجائية ليس لها معنىٰ إطلاقًا.

● **القول الثالث:** لها معنىٰ الله أعلم به، لأنهم يقولون إن القرآن لا يمكن أن ينزل إلا بمعنىٰ.

● **القول الرابع:** التوقف وأن لا نزيد علىٰ تلاوتها، ونقول الله أعلم هل لها معنىٰ أو لا، وإذا كان لها معنىٰ فلا ندري ما هو.

وأصح الأقوال فيها القول الثاني: وهو أنها حروف هجائية ليس لها معنىٰ علىٰ الإطلاق، وهذا مروي عن مجاهد، وحجة هذا القول نزوله بلغة العرب، وهذه الحروف ليس لها معنىٰ في اللغة العربية، مثل ما نقول: (**أ، ب، ت، ث،** ج، ح....) فهي كذلك حروف هجائية ". اهـ

ولكن نزلت لحكمة ليس معنىٰ أن ليس لها معنىٰ ليست لها حكمة، فلها حكمة الله أعلم بها، أو أنها علىٰ ما تقدم تحدي للكفار كأنه يقول لهم: هذا القرآن الذي تحديتكم بنزوله مكون من هذه الأحرف فأتوا بمثله، أو ائتوا بعشر سور مثله، أو ائتوا بسورة مثله، فعجزوا.

﴿٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا إشارة إلىٰ القرآن كقوله: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦﴾ [السجدة: ٦]، وقال بعضهم: أشير باسم الإشارة البعيد إلىٰ القرآن الذي وُعد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإنزاله عليه، ولم ينزل بعد، والأول أولىٰ.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: لاشك فيه، فـ(الريب) يأتي بمعنىٰ الشك، ويأتي بمعنىٰ الحاجة كقول بعضهم:

قضَـيْنَا مِـنْ تِهَامَـةَ كُـلَّ رَيْـب ... وخيبَـر ثـمَّ أَجْمَمْنَـا السّـيُوفا

وتأتي بمعنىٰ التهمة:

بُثينـة قالـتْ يَـا جَميـلُ أَرَبْتَنـي ... فقلـتُ كِلانَـا، يـا بُثـينَ، مُريـبُ

﴿هُدًى﴾ دلالة، وإرشاد، كما قال تعالىٰ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠﴾ [الأحقاف:٣٠]، وقال: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: التقوىٰ الوقاية، والصيانة.

والمعنىٰ: أن القرآن هداية لأهل التقوىٰ؛ لأنهم المنتفعون بكلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكلام رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأما أصحاب الفطر المنكوسة، والقلوب المطموسة، فلا تغني عنهم آياته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١].

وأما التقوىٰ من حيث هي فأن تجعل بينك، وبين عذاب الله وسخطه وقاية، ويستدلون علىٰ ذلك بقول القائل:

سَـقَطَ النّصـيفُ، ولـم تُـرِدْ فتناولتـــهُ واتقتنـــا باليـــدِ

أي: جعلت بينهم، وبينها وقاية أن غطت وجهها باليد.

۞ **ومن باب الفائدة:** يجوز الوقف علىٰ قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ﴾ وهو المشهور، وتكون القراءة بعده: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾أي: أن كله هداية للمتقين، وأما إذا كان الوقف علىٰ ﴿لَا رَيۡبۛ﴾ سيكون ما بعد ﴿فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، والأول أولىٰ، والله أعلم.

۞ **و(التقوىٰ):** اسم جامع لكل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، ولكل ما نهي الله عَزَّوَجَلَّ عنه، إلا إذا قرنت بالبر، فالبر فعل المأمور، والتقوىٰ ترك المحظور.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي: من صفات المتقين ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾: يفسرها جمهورهم (يصدقون)، ويفسرها بعضهم (يُقرُّون) وهو أبلغ؛ لأن (التصديق) قد لا يلزم منه الإقرار، أما (الإقرار) فهو تصديق، وزيادة، وهو الانقياد، فكم ممن صدق بنبوة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من اليهود، والنصارىٰ، ولم ينفعهم ذلك؛ لأنهم لم ينقادوا.

۞ **و(الإيمان):** قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح، والأركان يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

وقد نُقل الإجماع علىٰ ذلك، وممن نَقل الإجماع الشافعي، ونقله عن الشافعي غير واحد من أهل العلم منهم شيخ الإسلام.

ويدل علىٰ هذا المعنىٰ حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**» أخرجه مسلم (٣٥).

۞ **و(الإسلام):** هو الاستسلام لله بالطاعة، والانقياد له بالتوحيد، والبراءة من الشرك وأهله.

وقد يطلق بعض أهل العلم (الإسلام) علىٰ العمل الظاهر، و(الإيمان) علىٰ العمل الباطن، ويكون هذا عند الاقتران، وأما عند الافتراق فكل منهما يدل علىٰ معنىٰ الآخر.

ولا يكون الرجل مؤمنًا إلا وهو مسلم، ولا يكون مسلمًا حقًّا إلا وهو مؤمن، علىٰ المعنىٰ العام؛ لكن علىٰ معنىٰ المدح الإيمان مرتبة أعلىٰ من الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

وقد تكلم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]، علىٰ هذا الفرق الدقيق، فقال: الذين وجدوا في الدار لوط وبناته وزوجته، فالزوجة كانت تظهر الإسلام وهي منافقة، فقال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، لكن لم ينجو إلا أهل الإيمان الخالص؛ ولهذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وتدخل الأعمال في مسمىٰ الإيمان علىٰ ما يأتي إن شاء الله في موطنه، وهذا فرق عظيم بين أهل السنة، والمرجئة.

﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: كل ما غاب عن العيان، أو كل ما أمرت أن تؤمن به من المغيبات، فيدخل فيه الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وأسمائه وصفاته، والإيمان بالأركان الستة، والإيمان بتفاصيل ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به وما أخبر به رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سواءً مما مضىٰ، أو مما يأتي من أخبار الأمم السابقة، واليوم الآخر.

والإيمان بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمن جاء بعده، أو قبله يدخل في الإيمان بالغيب.

وقد دل علىٰ أركان الإيمان حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مسلم (٩) قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: يحافظون علىٰ أركانها، وشروطها، وواجباتها، ومستحباتها، وهي من أركان الإسلام الخمسة، ففي حديث أبي أيوب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**وتقيم الصلاة المكتوبة**»

متفق عليه. وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، عَلَى أَنْ يُعْبَدَ الله، وَيُكْفَرَ بِمَا دُونَهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**» متفق عليه.

والمراد: إقامتها علىٰ الوجه الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ الله تعالى، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ، كَانَ لَهُ عَلَى الله عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى الله عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ**» أخرجه أحمد (٢٢٧٥٢)عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ و(**الصلاة**): في اللغة: الدعاء، قال تعالىٰ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ؛ اللهم صَلِّ عَلَيْهِ، اللهم ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ**» متفق عليه.

وأما قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالمعنىٰ: ما جاء عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: «صَلَاةُ الله عَلَيْهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِ الدُّعَاءُ لَهُ» كما في تفسير مجاهد.

ومما يدل علىٰ أن الصلاة تأتي بمعنىٰ الدعاء: «**إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ**» بمعنىٰ: فليدعو لصاحب الوليمة. أخرجه مسلم (١٤٣١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وأما من فسر الصلاة بـ(**الرحمة**) فقد نُوزع في ذلك، وأكثر من توسع في رد هذا التفسير ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: "جلاء الأفهام في الصلاة علىٰ خير الأنام"، وبين أن الله قد فرق بين الصلاة، والرحمة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: الرزق العطاء، وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاه**» أخرجه مسلم (١٠٥٤).

ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ (**الرَّزاق**)؛ لأنه هو الذي يعطي العباد أرزاقهم، فعن المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا**

شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللهمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» متفق عليه.

❁ والرزق رزقان :

١- حسي، وهو الطعام والشراب وما في بابه.

٢- ومعنوي، وهو الاستقامة، والعلم، والعمل، وأعظمه المعنوي؛ لأن به سعادة الدارين.

﴿يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيها ابتداءً الزكاة المفروضة، ثم ما يلحقها من أنواع النفقات.

وسيأتي الكلام عن النفقات، في أواخر ﴿سورة البقرة﴾ إن شاء الله تعالىٰ.

❖ واختلفوا هل هذه الآية عامة في جميع من آمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم هي خاصة بالمؤمنين ممن كان من مشركي العرب.

لأنهم لم يكونوا يؤمنون بالغيب، ولا يقيمون الصلاة ولا يأتون الزكاة، أما اليهود والنصارىٰ فكان عندهم نوع إيمان بالغيب، وَعَنْدهم نوع صلاة، وزكاة؛ لكن لا مانع أن الآية نزلت في كل من أمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواءً كان من مشركي العرب فآمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو من مشركي اليهود، والنصارىٰ، فآمن بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم يؤمنون بالغيب الذي أخبر به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقيموا الصلاة علىٰ الوجه الذي شرعه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وينفقون علىٰ الوجه الذي بينه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي: وهدىٰ للذين ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يقرون ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الكتب المنزلة علىٰ غير محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيؤمنون بها إيمانًا جازمًا ثابتًا لا مرية فيه، ولا شك أن الله أنزلها، إلا أن الكتب التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ غير محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحقها التحريف، والتغيير، والتبديل، والقرآن محفوظ بحفظ الله عَزَّوَجَلَّ له، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، والإيمان به يستلزم الانقياد، والأخذ بما جاء فيه.

﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ أي: باليوم الآخر، وما فيه من البعث، والنشور، والجنة، والنار، والرؤية، والصراط، والحوض، والميزان وغيرها، يقرون، ويصدقون، فالإيمان به أحد أركان الإيمان الستة كما بينته السنة.

٥ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم ﴿عَلَىٰ هُدٗى﴾ علىٰ استقامة، وثبات، ودراية ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ الذي خلقهم، وأرشدهم، ووفقهم، وبصرهم بهذا الخير.

۞ وقال ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ لأن الرب له معنيان معنىٰ عام، ومعنىٰ خاص.

فأما العام: فهو: الخالق الرزاق المالك المدبر.

وأما الخاص: فهو: الذي يحوط عباده بحفظه، ونصره، وتوفيقه، وهدايته، وتسديده، فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقنا لكل خير.

ولذلك تجد الأنبياء كثيرًا ما يدعون الله بقولهم ربنا، وفي السنة: (رب اغفر لي، رب ارحمني، رب أعني).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ **(الفلاح)**: في اللغة الشق، والقطع كأنه قطع المصائب حتىٰ نال مطلوبه، ويستخدم في الفوز، فهم المفلحون في الدنيا والآخرة، والفلاح عبارة عن حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب، وهو من أجمع الكلمات.

وإنما يكون الفلاح بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾.

بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أوصاف المؤمنين ذكر أوصاف الكافرين حيث أن الله ذكر في أوائل هذه السورة أقسام الناس من حيث الإيمان، فهم ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

١- **مؤمن خالص.**

٢- **وكافر خالص.**

٣- **ومنافق بين ذلك**، لا إلىٰ أهل الإيمان باطنًا، ولا إلىٰ الكفار ظاهرًا، وإن كان مآله إلىٰ الكافرين في الآخرة.

وأما في الدنيا فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، وَعَنْ ابْنِ عُمَر رضي الله عنهما عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً»** أخرجه مسلم (٧٢٨٤).

وقد ذكر الله المؤمنين في خمس آيات، والكافرين في آيتين، والمنافقين في ثلاثة عشرة آية.

٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعرضوا عن الإسلام، وأبَوهُ.

و(الكفر): أعم من الجحود.

فمنه كفر الإيباء: وهو الذي كان عليه كثير ممن علم الحق، وينكره كبرًا وبغيًا.

وكفر الجحود: وهو جحد الرب، أو جحد ما أخبر الله به.

وكفر العناد: وهو كفر المكابرة، كما هو حال كثير من الناس، ككفر أبي طالب حيث قال:

ولقد علمتُ بأن دينِ محمد ... من خيرِ أديانِ البريةِ دينًا

لولا الملامةُ أو حذارِ مسبةٍ ... لوجدتني سمحًا بذاكَ مبينًا

وكفر النفاق: وهو إظهار الإيمان، وإبطان الكفر.

والعجب أن الصوفية، والرافضة يعتقدون إيمان أبي طالب، ويُقرون أن هذه القصيدة له، مع أنه يعترف فيها أنه لم يسلم، وفي حديث المسيب بن حزن: قال: **«هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله»** متفق عليه.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أنهم على حال واحد حال النذارة، والبشارة، لا يتغيرون ولا ينتفعون؛ بسبب ما في قلوبهم من الشر والفساد.

٧ ﴿خَتَمَ﴾ طبع ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يستجيبون.

وفيه: دليل على الإيمان بالقدر، وأن الكافر قد طُبع على قلبه فلا يعرف حقًا ولا يسمعه ولا يبصره، مع أنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وحالهم أن بعضهم يصنع الكمبيوتر في غاية من الدقة، ويخرج إلى الشارع يعبد البقرة، والآخر يصنع الطائرة وما إليها، ويخرج يعبد الصليب، وهكذا، صموا، وعموا،

ونكست قلوبهم عن معرفة الحق، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ بحيث لا يستجيبون للحق، ولا يفهمونه بسبب فساد القلوب، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ غطاء فلا يبصرون به الحق، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قوي دائم في الآخرة، وربما يعذبون في الدنيا بالأسر، والقتل، ولا يمنع حصول الاثنين، لكن العذاب الأليم في الآخرة هو المتعين والمراد؛ لأن عذاب الدنيا وإن حصل فإنه زائل، وقد يحصل لبعضهم.

۞ وقد ذهب المبتدعة من غلاة الصوفية الذين يقولون بالجبر، ووحدة الوجود أن العذاب من العذوبة، وهذا مخالف لدلالة العقل والفطرة، فضلًا عن دلالة الكتاب والسنة، فالله عَزَّوَجَلَّ يخبر أنه عذاب أليم موجع كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦] ، ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَآءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾ [النبأ: ٢٤-٢٧]، يصطرخون من شدة العذاب، ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] فلو كانوا يتلذذون لطلبوا الزيادة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾.

۝٨ هذا شروعٌ في ذكر صفات المنافقين ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من للتبعيض، و الناس من العام الذي يراد به الخصوص، يريد بهم المنافقين، وسمي الإنسان من النسيان، وقيل من الأُنس؛

لأن الإنسان يأنس بغيره، وقيل من النوس وهي الحركة ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: ظاهرًا لا باطنًا يقولونه مجردًا عن الاعتقاد، والانقياد ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ حقًا.

﴿٩﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾ الخداع الفساد، وقيل الإخفاء ﴿ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم بصنيعهم يظنون أنهم يخدعون الله والمؤمنين.

۞ وصفة المخادعة ثابت لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من صفات المقابلة، كما قال تعالىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: لا يغرون، ولا يخدعون بصنيعهم هذا إلا أنفسهم، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: أنهم ضروا أنفسهم بما أضمروه من النفاق، والشقاق.

﴿١٠﴾ ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ نفاق، وشك، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ شكًا، ونفاقًا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ موجع؛ لأن النعيم، والعذاب له مراتب في الدنيا، والقبر، والآخرة، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ أي: بسبب كذبهم في إيمانهم.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: للمنافقين، ولا مانع من أن يدخل فيها اليهود: ﴿لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: بالشرك، وموالاة الكفار، وهو لفظ عام يدخل فيه الفساد بالأقوال، والأفعال، والمعتقدات، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ مغالطة، ومكابرة، وهذا من الكذب البحت، والزور المحض الذي يخالفه الواقع.

﴿١٢﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾: تأكيدًا لفسادهم ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ بفساد أنفسهم، كما قيل: ما لجرح بميت إيلام، فالمؤمن إذا نقصت طاعته يشعر بقسوة في القلب، وضيق في الصدر حتى يستغفر، ويصقل قلبه، بينما هؤلاء؛ لشدة كفرهم، وَعَنادهم، وبغيهم أصبحوا لا يميزون أنهم في فسادِ حالٍ، واعتقادٍ، ومآلٍ.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: للمنافقين ﴿ءَامِنُواْ﴾ صدقوا، وانقادوا ظاهرًا وباطنًا، ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ المؤمنون، وهو من العام الذي يراد به الخصوص ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ يعنون أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فسموا أفعال المؤمنين سفهًا، و(**السفه**): الجهل، وهو الفعل المخالف للحق، ويكون سببه الطيش، والخفة، وكانوا يقولون هذا الكلام باطنًا؛ لأنهم لو قالوه ظاهرًا تُوجِبُ عليهم حد الردة، ولحقهم التكفير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أصحاب السفه الذين لا يحسنون التصرف، ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ حالهم؛ بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة وسكرتهم بما هم فيه من الباطل.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ﴾: استقبل المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ظاهرًا، وباطنًا ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ مخادعة، ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ انفردوا بكبرائهم من الإنس، ويدخل فيه شياطين الجن، و(**الشياطين**): اسم عام لكل من شط عن طاعة الله ، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الشياطين من الجن، والإنس كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام:١١٢].

﴿قَالُوٓاْ﴾ مؤكدين ثباتهم علىٰ الباطل ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ مصاحبوكم، وفي صفكم ونصرتكم، ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ﴾ بإظهار الإسلام ﴿مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾: ساخرون، ومع ذلك أبىٰ الله إلا أن يكشف سرائرهم، ويجليها، ويفضحهم وكانوا معروفين؛ لأن القرآن ينزل، ومنهم، ومنهم، ومنهم؛ حتىٰ سميت ﴿سورة التوبة﴾ بـ(الفاضحة).

﴿١٥﴾ ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ يستهزئ بهم حقيقةً جزاء استهزائهم بالمؤمنين، ويكون من ذلك لازمه، وهو أنه يجازيهم علىٰ استهزائهم.

۞ وتفسير الصفة باللازم ما سلم منها حتىٰ ابن كثير، وابن جرير، فينبغي للإنسان في أبواب الأسماء، والصفات أن يحاول بقدر الإمكان أن لا يأتي علىٰ اللازم إلا بعد أن يأتي بتحقيق الصفة.

﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ المد الزيادة. أي: يزيدهم علىٰ الاستهزاء بهم أنهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ تجاوزهم للحق، فالطغيان المجاوزة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١]، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون في الضلالة.

١٦ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المنافقون الذي تقدم ذكر وصفهم ﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا﴾ عاوضوا ﴿الضَّلَالَةَ﴾ الحيرة، والجور عن القصد ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ وهذه مبايعة، وإن لم تكن بيع حسي، فهو بيع معنوي إذ أنهم تركوا.

۞ **(الهدىٰ)**: الذي هو نور الله وشرعه، واستبدلوه بالضلال الذي هو من الشيطان، ﴿فَمَا رَبِحَتْ﴾ الربح الزيادة ﴿تِّجَارَتُهُمْ﴾ بل كانت كاسدة؛ لأنهم استبدلوا الباقي بالفاني، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ لطريق السلامة، بل كانوا في طرق الغواية والهلاك.

وقيل ما كانوا مهتدين في سابق علم الله، والله المستعان، وحصل لهم ذلك بسبب خداعهم، وفساد قلوبهم، فالله أعلم حيث يجعل هدايته.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ١٧ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ١٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾.

١٧ ﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي: مثل المنافقين الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ أضاءَ نارًا، ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ النار ﴿مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ﴾ أزال ﴿اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ الكفر، والحيرة ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ الحق والهدىٰ، فلما حصل الضوء، وأراد أن

يمشي فيه ذهب النور وانطفأ، وأصبحوا كالعميان لا يبصرون شيئًا، وذلك أنهم عرفوا الحق، فالحق نور، ثم اعتقدوا الباطل، والباطل ظلام، فذهب بنور الإيمان، وبقي ظلمة الباطل؛ فإذا هم في ظلمات يعمهون لا يعرفون الحق من الباطل.

(١٨) ﴿صُمٌّ﴾ عن سماع الحق، ﴿بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ عن النظر إلىٰ الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

۞ وهذان مثلان يضربهما الله عَزَّوَجَلَّ لحال المنافقين:

١- مثل يتعلق بالمنافق من حيث هو.

٢- ومثل يتعلق بالمؤثر الخارجي الذي لا يستفيد منه المنافق.

وفي هذا أنهم لا يستفيدون من الوحي الذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ .

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فتح القدير (١/ ٥٥)**: "ضَرَبَ الله هَذَا الْمثَل لِلْمُنَافِقِينَ لِبَيَانِ أَنَّ مَا يُظْهِرُونَهُ مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ مَا يُبْطِنُونَهُ مِنَ النِّفَاقِ لَا يَثْبُتُ لَهُمْ بِهِ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ، كَمَثَلِ الْمُسْتَوْقِدِ الَّذِي أَضَاءَتْ نَارُهُ ثُمَّ طَفِئَتْ، فَإِنَّهُ يَعُودُ إِلَى الظُّلْمَةِ وَلَا تَنْفَعُهُ تِلْكَ الْإِضَاءَةُ الْيَسِيرَةُ، فَكَانَ بَقَاءُ الْمُسْتَوْقِدِ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُ كَبَقَاءِ الْمُنَافِقِ فِي حَيْرَتِهِ وَتَرَدُّدِهِ، وَإِنَّمَا وُصِفَتْ هَذِهِ النَّارُ بِالْإِضَاءَةِ مَعَ كَوْنِهَا نَارَ بَاطِلٍ؛ لِأَنَّ الْبَاطِلَ كَذَلِكَ تَسْطَعُ ذَوَائِبُ لَهَبِ نَارِهِ لَحْظَةً ثُمَّ تَخْفُتُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: **"لِلْبَاطِلِ صَوْلَةٌ ثُمَّ يَضْمَحِلُّ"**. اهـ .

(١٩) ﴿أَوْ﴾أن مثلهم ﴿كَصَيِّبٍ﴾ كمطر ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب، وكل ما علا يسمىٰ: **(سماء)** ﴿فِيهِ﴾ السحاب ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ متراكمة ظلمة الليل، والسحاب، والمطر، ﴿وَرَعْدٌ﴾ الصوت الشديد، ﴿وَبَرْقٌ﴾ اللمعان القوي، ولشدة ذلك ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ حتىٰ لا يقع لهم سماع الصواعق المفجع، ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ خوفًا من الموت.

فهم يسمعون الحق، ولا يستفيدون منه، وإنما يتخوفونه كتخوف من يرىٰ البرق، مع أنه قد يستفيد من نوره، ويمشي فيه، وكون الرعد صوت الملك قد جاء فيه حديث يحسنه الشيخ مقبل كما في **"أسباب النزول"**، ويأتي موطنه إن شاء الله في الكلام علىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾، وصح عن ابن الزبير، وابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وغيرهم أنهم

كانوا إذا سمعوا البرق، والرعد يقولون: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ﴾ من الإحاطة ﴿بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾: علمًا، وقهرًا لا يفوتونه، ولا يعجزونه.

۞ وفيها تهديد، ووعيد، والآية على عمومها أن الله محيط بالكافرين يعلم أعمالهم، وأقوالهم وأفعالهم، ومحيط بهم لا يعجزونه، وهكذا محيط بهم إذ يمكر بهم فيهلكهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿٢٠﴾ ﴿يَكَادُ﴾ يقارب ﴿ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الخطف: الأخذ بسرعة ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ أي: غير مستقرين، فالمؤمن يقول الله عَزَّوَجَلَّ في شأنه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ويقول: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾، وأما أصحاب النفاق فهم غير مستقرين لا يرتاحون، ولا يهدؤون.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ بزيادة الرعد، والبرق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وما يفعل بهم من جملة مقدوراته فلا يعجزه شيء، وقد ذكر ابن جرير، وغيره أن هذين المثلين لصنف واحد من المنافقين.

۞ومن باب التنبيه: النفاق ينقسم إلى قسمين:

● **الأول: عملي غير مخرج من الملة**، وهو الذي دل عليه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» متفق عليه.

وحديث عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» غَيْرَ أَنَّ فِي حَدِيثِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» متفق عليه.

● **والثاني: نفاق اعتقادي، وهو نفاق من تقدم ذكرهم**، وهذا النوع مخرج من الملة، ويخلد صاحبه في النار، بل إن شأنهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢١﴾ لما فرغ الله عَزَّوَجَلَّ من ذكر المؤمنين، والكافرين، والمنافقين أقبل عليهم بالخطاب فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ وهذا أول أمر وقع في ترتيب المصحف.

۞ وفي هذا: تقديم للحق المعظم، والواجب المفخم، وهو التوحيد، الذي هو حق الله علىٰ العبيد.

۞ **وللشيخ فتح القدسي حَفِظَهُ اللهُ نظم في حصر معاني النداء في القرآن قال فيه:**

ولم يج النداء في القرآن ... إلا بيا جاء بذي المعاني

تسمية إضافة مدح وذم ... والنسب التعنيف تنبيه ختم

فعن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤْخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رسول الله، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رسول الله وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رسول الله وَسَعْدَيْكَ، **قَالَ**: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ؟**» قَالَ: قُلْتُ: الله وَرسولهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ**» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رسول الله ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: الله وَرسولهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ**»

متفق عليه.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خاص بالقرآن المكي، وليس كذلك، فربما وقع في خطاب أهل المدينة، فـ﴿سورة الحج﴾ عندهم مدنية، وفيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾، و﴿سورة النساء﴾ مدنية، وأولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾.

﴿ٱعۡبُدُواْ﴾ وحِدُوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأفردوه بما يجب له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وهذا هو المقصد لخلق البشرية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

و(العبادة): اسم جامع لكل ما يحبه الله، ويرضاه من الأقوال، والأفعال، والمعتقدات، والتوحيد يكون بالقلب، واللسان، والجوارح.

وفي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَىٰ نَحْوِ أَهْلِ اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله تعالى**» أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

﴿رَبَّكُمُ﴾ مالككم، ومربيكم، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ أوجدكم من العدم.

و(الخلق): يأتي علىٰ معنيين:

- **الأول**: التقدير، ومنه قول زهير:

وَلأَنْـــتَ تَفْـــرِي مَـــا خَلَقْـــتَ ... وَبَعْـضُ الْقَـوْمِ يخلُقُ ثـمَّ لَا يَفْـري

- **والثاني**: الإنشاء، والاختراع، والإبداع.

﴿و﴾ خلق ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأمم الماضية ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ لكي ترجعوا إلىٰ ربكم؛ بالتزام أمره، واجتناب نهيه، وقيل: يتحصل لكم التقوىٰ بعبادته.

﴿٢٢﴾ واعبدوا الله : ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ ممهدًا، ووطاء تستقرون عليها، فلما ذكر خلقهم ثناه بذكر ما خلق لهم وأعده؛ لاستقرارهم وحاجتهم، وأما قول الله

عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، فـ(الجعل) فيها بمعنىٰ صير، ولابد من التفريق بين المعنيين.

۞ فمن شبه المعتزلة الذين يزعمون أن القرآن مخلوق: أن كل ﴿جَعَلَ﴾ في القرآن بمعنىٰ خلق، فرد عليهم بذلك، وكان من المناظرة التي وقعت بين بِشر المريسي، والكناني أن بشرًا قال: كل ﴿جَعَلَ﴾ في القرآن بمعنىٰ خلق.

فقال عبدالعزيز الكناني: لأمير المؤمنين أتشهد علىٰ ذلك يا أمير المؤمنين؟.

قال: نعم، وأنت تقر بذلك يا بشر؟.

قال: نعم.

قال: فما تقول في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ لا تخلقوا! وما تقول في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ خلقوا! ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ خلقوا، فمازال يأتي له بالآيات التي جاءت في القرآن علىٰ غير معنىٰ خلق حتىٰ أُفحم الخبيث.

﴿و﴾ خلق لكم ﴿ٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ بغير عمد، وهي مبنية متقنة، كهيئة القبة كما قال تعالىٰ : ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٧ – ٢٨]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَآءً﴾ لمصالح العباد، فيشربون، ويسقون زرعهم، ومواشيهم ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فأنبت الثمار، وأخرج منها ألوان الفواكه، والأطعمة مختلفة الألوان، والطعم، والريح، وكله دال علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ فلا تصيروا لله مثلاء، ونظراء.

فـ(الند) والكفء، والمثيل، والسمي كلها ألفاظ متقاربة المعاني كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾، والله عَزَّوَجَلَّ منزه أن يكون له ند، أو أن يكون له كفء، أو مثل: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا مثل له، ولا نظير.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شكٍ ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ من القرآن ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ وهذا التحدي كان بعد أن تحداهم الله عَزَّوَجَلَّ أن يأتوا بمثله كما في ﴿سورة سبحان﴾، وأن يأتوا بعشر سور مثله كما في ﴿سورة هود﴾، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله كما في ﴿سورة البقرة﴾ فهم عاجزون؛ لعدم قدرتهم، لا كما تقول المعتزلة ومن إليهم أن الله صرفهم عن إرادة هذا الأمر، فلو كانوا يستطيعون لأتوا به لكن هم عاجزون؛ فالقرآن كلام الله، ووحيه وتنزيله، وكلامه صفته، وما كان من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ آلهتكم لتعينكم على فعلكم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ غير الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما قلتم، وهذا كالتوبيخ فالكفار عاجزون وآلهتهم أعجز، والأصنام التي يعبدونها صماء، بكماء، حجارة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦- ٦٧].

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ بالإتيان بمثله فيما مضى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ لعجزهم فيما يأتي، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ اجعلوا بينكم وبينها وقاية بالأعمال الصالحات، والتوحيد الخالص ﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ الكفار، والمنافقون يعذبون فيها ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ حجارة الكبريت، ونحوها، وتتقى هذه النار بالإيمان بالله، ورسله، وما افترضه عليكم، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦]، قال ابن عباس، وأكثر المفسرين: يعني حجارة الكبريت؛ لأنها أكثر التهابا، وقيل الأصنام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ﴿أُعِدَّتْ﴾ جعلت، وهيئت ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

۞وفي هذا دليل علىٰ أن النار موجودة الآن، وهي في الأرض السفلىٰ كما صح به الحديث خلافًا للمبتدعة من المعتزلة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾.

وهذا من عجيب شأن القرآن أن الله تعالىٰ يبين حال المؤمنين، والمشركين في الدارين ترغيبًا وترهيبًا، فلما ذكر ما كان من شأن الكفار ثنىٰ بذكر المؤمنين فقال: ﴿وَبَشِّرِ﴾ التبشير الإخبار بما يظهر أثره علىٰ البشرة، ويكون غالبًا في الخير، وهذا أمر من الله لمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولمن يدخل تحت هذا الخطاب.

٢٥ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أقروا، وهو التصديق مع الانقياد ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المبرات التي أمر الله بها.

۞ وهذا دليل لمذهب أهل الحق أنه لا بد مع التصديق من العمل.

ولهذا قال الآجري: "تتبعت القرآن فوجدت فيه ستة وخمسين آية قرن الله فيها بين الإيمان والعمل"، فالصلاة، والحج، والزكاة، والجهاد، وغير ذلك من الطاعات كلها من الإيمان، والعمل يكون صالحًا بالإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، والمتابعة للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

۞وفرق المرجئة بين الإيمان والعمل، حيث أخرجوا العمل من مسمىٰ الإيمان، وقالوا إن الله عَزَّوَجَلَّ قد غاير بينهما، فرد عليهم بمثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فالصلاة الوسطىٰ من الصلوات، ومع ذلك عطفت عليها من باب عطف الخاص علىٰ العام.

﴿أَنَّ لَهُمۡ﴾ في الآخرة ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بساتين جمع جنة، وسميت جنة؛ لأنها تجن ما فيها وتستره، وجمعت لكثرة أماكنهم؛ وإلا فهي جنة واحدة، وَعَنْد التفصيل ما دل عليه حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا**

فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»

متفق عليه ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الرحمن:٤٦-٦٢].

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ﴾ فيها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لا أخاديد لها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:١٥]، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟﴾ أعطوا، ﴿مِنْهَا﴾ من الجنة، ﴿مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أنواع الثمار، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ**» قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ: «**جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ، كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**» رواه مسلم(٢٨٣٥) عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال ابن عباس ليس في الآخرة مما في الدنيا إلا الأسماء، فسدرة المنتهىٰ: «**وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ، وَثَمَرُهَا كَالْقِلَالِ**»، ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ شبيهه ونظيره، ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ في اللون، ومختلف في الطعم، واللون، والرائحة، والحجم، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مطهرات مبرءات، فلا يصيبهن ما يصيب النساء في الدنيا، كما قال تعالىٰ : ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن:٧٢]، ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الرحمن:٧٤]، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الرحمن:٥٨].

وماذا تصف من حسنهن، وحسن عشرتهن، وحسن تبعلهن، ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة:٣٧]، متعربات أي: متحببات إلىٰ أزواجهن مزيدًا علىٰ المآكل لهم أزواج جمعت لكثرة المتزوجين، والمتزوجات، طاهرات في أجسامهن، فلا يبلن، ولا يتمخطن ولا يحضن، وطاهرات في قلوبهن، فلا غل، ولا حقد، ولا حسد، وفي جميع أحوالهن، وقال بعضهم أقل

مؤمن له زوجتان من الإنسيات، وأما من الحوريات فالله أعلم، وَعَنْ أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا**» أخرجه مسلم(٢٨٣٨).

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعْزَبُ**» متفق عليه.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: يتنعمون لا يبأسون، ولا يخرجون.

۞ وهذا دليل علىٰ خلود الجنة ،وأنها لا تفنىٰ ولا تبيد، كما هو عقيدة أهل السنة والجماعة، وذهب المعتزلة والجهمية إلىٰ فناء الجنة والنار، والأدلة المتظافرة علىٰ خلاف مذهبهم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٢٧ كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَاكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٩﴾ [البقرة:٢٦-٢٩].

في هذه الآية ضرب الأمثال، والله عَزَّوَجَلَّ يضرب الأمثال، فيستفيدها المؤمنون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ [العنكبوت:٤٣].

٢٦ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا﴾ من أجل إقامة دينه، وشرعه، وإظهار الأدلة علىٰ توحيده، فقد ضرب مثلًا بالذباب، ومثلًا بالعنكبوت، ومثلًا بالبعوضة وكل ذلك؛ ليدلل أنه الإله الحق الذي لا شريك له، ولا معين، ولا ظهير، ولا نصير، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿مَّا بَعُوضَةٗ﴾ صغار البق ﴿فَمَا فَوۡقَهَا﴾ ما دونها، ويمكن أن يراد: وما زاد

عليها، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والقرآن ﴿فَيَعْلَمُونَ﴾ علمًا يقينًا صادقًا، ﴿أَنَّهُ﴾ أي: هذا المثل وغيره من الأمثال المضروبة في القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الصدق الذي لا لا شك فيه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ عز وجل، فله الحكمة البالغة التي لا لهو فيها ولا عبث، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأهل النفاق، فإنها لا تزيدهم إلا بعدًا، وإعراضًا، وكفرًا، ونفاقًا - والعياذ بالله - ﴿فَيَقُولُونَ﴾ فيكون قولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فكان الجواب أن الله عَزَّوَجَلَّ إذ يضرب هذه الأمثال، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ممن أعرض عن الاستفادة، والانقياد، والتفكر، والتدبر، ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ ممن قبلها، وتفكر في المراد منها، وعمل بها ﴿وَمَا يُضِلُّ﴾ يخذل: ﴿بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ من الكافرين، والمنافقين.

۞ وفي الآية إثبات صفة الحياء لله عَزَّوَجَلَّ على ما يليق بجلاله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

﴿٢٧﴾ والفاسقون هم: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ﴾ يخلفون ﴿عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الذين أخذه عليهم لعبادته ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾،وقد اختلف في العهد فقيل: هو الدين، **وهذا هو الصحيح**، ويدخل فيه العقود، والعهود التي التزموا بها على أنفسهم ثم نقضوها، وقيل العقد الوعد.

﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام، و الجيران، والصلة فيما بين العبد، وبين الله عَزَّوَجَلَّ فكل ما أمر الله به أن يؤتى مما يجب وصلة، وكل ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن إتيانه هو من المقطوع، ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا من الإجمال بعد التفصيل؛ لأن الإفساد في الأرض أعم فيدخل فيه الشرك، والزنى، وشرب الخمر، وقطع الأرحام، والإساءة إلى الجيران، ويدخل فيه الغيبة، والنميمة، والكذب، والمكر، والتلبيس، كله من الإفساد، في العقائد والمعايش.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في فتح القدير** (١/ ٦٩):" وَبِالجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا خَالَفَ الصَّلَاحَ شَرْعًا أَوْ عَقْلًا فَهُوَ فَسَادٌ " .

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين تقدم وصفهم ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الناقصة حظوظهم في الدنيا والأخرة.

﴿٢٨﴾ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ كيف يقع منكم الكفر، وقد دلت الأدلة علىٰ وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وإفراده بما يجب له؟!، ﴿وَ﴾ حالكم أنكم: ﴿كُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ في حيز العدم، ﴿فَأَحْيَٰكُمْ﴾ خلقكم، وأخرجكم من بطون أمهاتكم،﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم وهي الموتة الثانية،﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ يوم القيامة وهي الحياة الأخروية التي ليس بعدها فناء، والناس فيها ينقسمون إلىٰ فريقين فريق في الجنة، وفريق في السعير، ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ حين تخرجون من قبوركم، و الناس محشورون إلىٰ ربهم حفاة عراة غرلًا، كما قال الله : ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

﴿٢٩﴾ ثم قال ممتنًا علىٰ عباده: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الملبوسات والمطعومات، والمشروبات، والمسكونات، وغير ذلك، وهذا بيان لنعمة الله عَزَّوَجَلَّ الواسعة، ولقدرته البالغة أنه خلق كل ما في الأرض للإنسان ويقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

۞ **وبهذه الآية** استدل الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في جمهور العلماء علىٰ أن الأصل فيما أوجده الله وسخره لهذا الإنسان الإباحة إلا ما جاء الدليل بمنعه، وخالف أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذهب إلىٰ أن الأصل المنع إلا ما جاء الدليل بإباحته، وهذا القول مردود عليه يخالفه الكتاب، والسنة ويخالفه الواقع، فإن الخمر كانت تشرب في عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ما فيها من المفاسد حتىٰ نزل أمر الله عَزَّوَجَلَّ بتحريمها.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ و(**الاستواء**): من معانيه العلو، والارتفاع، والصعود، وزاد بعضهم الاستقرار هذا إذا عدي بعلىٰ، إلا أن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذهب في هذه الآية إلىٰ أن (**الاستواء**) بمعنىٰ القصد، وذهب جمع من أهل العلم إلىٰ الجمع، وقالوا قصد إلىٰ خلق السماء من العلو.

❁ **وقد نقل ابن القيم الإجماع:** علىٰ أن استوىٰ إذا عديت بـ (إلىٰ) أنها دالة علىٰ العلو.

❁ وصفة **(الاستواء)** ثابتة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي صفة فعل، ويثبت منها صفة العلو، والله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه بائن من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١].

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ خلقهن ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ طباقا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ﴾ متطابقات، كل سماء لها سمك وأبواب، وفيها من الملائكة المسبحين، والصافين وغير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ:٣]

❁ و في هذا من الوعد، والوعيد، ما الله به عليم، فلا يعزب عنه شيء، فـ**(كل)** من ألفاظ العموم سواءً في ذلك الجزئيات، أو الكليات، بينما المبتدعة من غلاة القدرية زعموا أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها.

فلما كفرهم العلماء بهذا القول زعموا أنه يعلم الكليات لا الجزئيات، ورد عليهم العلماء أن الكليات لا تكون إلا في الذهن، وأما ما كان موجودًا في العالم العلوي، أو السفلي فهو جزئي قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

تكلمت علىٰ هذه الآيات في مؤلف مستقل بعنوان: «قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وما فيها من العقائد والآداب والأحكام»، وهي قصة عظيمة قصها الله عَزَّوَجَلَّ في مواطن من كتابه في سور ﴿البقرة﴾، و ﴿الأعراف﴾، و ﴿الكهف﴾، و ﴿الإسراء﴾، و ﴿الحجر﴾، و ﴿ص﴾.

﴿٣٠﴾ اذكر يا محمد ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مخاطبًا لهم في شأن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

۞ وفيها إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، علىٰ ما يليق بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه يتكلم بحرف، وصوت متىٰ شاء وكيف شاء، وسيأتي بيان ذلك في مواطن إن شاء الله .

۞ (والملائكة): جمع ملك من الإرسال، وهم خلق من نور، كما في حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا الذي أخرجه مسلم وهي مخلوقات عظيمة طويلة الآجال، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ خالق، ﴿فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعمل بالشريعة، ويخلف بعضهم بعضًا.

۞ وأما قول البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أَيْ: بَدَلًا مِنْكُمْ وَرَافِعُكُمْ إِلَيَّ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْوَنَ الْمَلَائِكَةِ عِبَادَةً".

هذا تفسير غير صواب كما علم من حال الملائكة أنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بالشرك وغيره، كما فعل من قبلهم من الجن كما ذكر بعض أهل التفسير، ﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ بالقتل بغير وجه حق، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ ننزهك ونذكرك، فالتسبيح التنزيه ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: حامدين لك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ التقديس التطهير.

والمعنى: نطهرك مما لا يليق بك، وقد يراد به الصلاة، وقد يراد به الذكر، والقدوس المنزه، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الحكم، والمصالح؛ لأن من علم ما لا يعلم المخاطب كان حقيقًا بأن يسلم ما يصدر عنه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير (١/ ١٣٤): "وَهَذِهِ كَرَامَةٌ عَظِيمَةٌ مِنَ الله تعالىٰ لِآدَمَ امْتَنَّ بِهَا عَلَىٰ ذُرِّيَّتِهِ حَيْثُ أَخْبَرَ أَنَّهُ تَعَالَىٰ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ أَحَادِيثُ أَيْضًا كَثِيرَةٌ مِنْهَا حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ، وَحَدِيثُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**رَبِّ أَرِنِي آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ بِهِ قَالَ: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَهُ** الله **بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَأَسْجَدَ له ملائكته**»". اهـ .

﴿٣١﴾ ﴿وَعَلَّمَ﴾ الله ﴿ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ أي: علمه أسماء كل شيء مما كبر، وصغر، كما هو ظاهر القرآن، ويدخل فيه أسماء الملائكة، وأسماء ذريته، وأسماء الأواني، والصنع التي يعملها، ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: عرض مسمياتها ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي﴾ أخبروني ﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بمسمياتها، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن بني آدم أصحاب فساد في الأرض.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه، وتقديس من الملائكة لله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ أنه لا يحيط أحد بشيء من علمك إلا بما شئت أن تطلعهم عليه، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعالك، وأمرك، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«لَمَّا صَوَّرَ الله آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ الله أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ» أخرجه مسلم (٢٦١١).

و(**الأجوف**) الذي يحتاج إلىٰ غيره؛ لسد الجوف، والشهوة، وعلم إبليس عند ذلك أن هذا المخلوق يسهل الدخول إليه من هذه التجاويف، وقد ذكر المفسرون هاهنا أمورًا كثيرة فيها خلاف كثير، وهذا الخلاف الذي ذكر في تفسير الآيات كثير منه ناتج عن التفسير ببعض المعنىٰ، أو التفسير بالإسرائيليات، وإبليس كان من الجن، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف:٥٠]، فلا التفات إلىٰ من قال أنه كان من الملائكة.

فالله عَزَّوَجَلَّ خلق الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وفرق بين النور والنار؛ ولذلك كان في الملائكة الطاعة، وفي الشيطان الطيشان؛ لأصل خلقته، والإنسان فيه كثير من صفات الأرض؛ لأصل خلقته، قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ؛ جَاءَ مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**» أخرجه أبو داود (٤٦٩٣) عن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ .

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أخبرهم ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ أخبرهم، ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ أخبركم، ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا تخفىٰ عليَّ خافية، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ من أعمالكم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ في قلوبكم.

﴿٣٤﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بعد إظهار حكمة الله من خلق آدمعَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ تكريمًا وتشريفًا، والسجود لآدمعَلَيْهِٱلسَّلَامُ حقيقة بأمر الله ، وهو هنا طاعة لا كما قال بعضهم كان السجود لله، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ استجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ امتنع عن ذلك، ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ تعاظم في نفسه، ﴿وَكَانَ﴾ في علم الله، و حكمه ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿٣٥﴾ ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ حواء ﴿ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ العيش الهني الذي لا عناء فيه.

❖ **وقد اختلف العلماء هل هي جنة عَدْن التي هي في السماء، أو هي جنة في الأرض؟.**

وذكر الخلاف وتوسع في النقل، والمحاكمة بين القولين ابن القيم في كتابه "حادي الأرواح"، **والصحيح من هذا** أنها جنة عَدْن؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٨-١١٩]، زد على ذلك أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول، كما في حديث الشفاعة: «**هل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم**».

﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من أين أردتما، ورغبتما، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقع النهي عن شجرة مخصوصة، لكن الله أعلم ما هي، والتنقيب عن هذا من فضول العلم ومثله مما كانت عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما لون كلب أهل الكهف.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ : "وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ يَحْلِفُ بِاللهِ مَا أَكَلَ آدَمُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَهُوَ يَعْقِلُ وَلَكِنْ حَوَّاءُ سَقَتْهُ الْخَمْرَ حَتَّىٰ إِذَا سَكِرَ قَادَتْهُ إِلَيْهَا فَأَكَلَ".

وهذا قول ضعيف، فإن خمر الجنة ليس فيه سُكر، ثم هذا يخالف ظاهر القرآن، فإن القرآن أثبت له فعلًا، والله عَزَّوَجَلَّ لا يؤاخذ أحدًا لا يعقل، وإنما نسي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بسبب طمعه في الوعد الإبليسي، كما قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥]. ويذكرون أنه نزل في (سرنديب) التي تسمىٰ الآن سريلانكا، وقيل في جدة، وقيل في الهند، والله أعلم.

﴿٣٦﴾ ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من الزلة، وهي الخطيئة، أي استزلهما، وأوقعهما في المعصية، وفي قراءة: ﴿فَأَزَالَهُمَا﴾وهي التنحية ﴿عَنْهَا﴾ عن الجنة علىٰ القراءة الأخرىٰ، واستزلهما علىٰ المعنىٰ المشهور، ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من النعيم، ﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم، وحواء، وإبليس ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أي: اخرجوا، وانزلوا من الجنة، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قيل العداوة بين بني آدم، وهي عامة لعداوة الجن، والشياطين أيضًا كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ استقرار، ومعاش، ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تستمتعون به، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ الأجل، قيل: الموت، وقيل: قيام الساعة.

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ أخذها، وقبلها، ورجع عن ذنبه، فبعد أن أكل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة وفقه الله عَزَّوَجَلَّ لكلمات تاب مما صنع، ورجع مما فعل، حيث قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[الأعراف:٢٣] بالأكل من الشجرة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف:٢٣] تتجاوز عنا ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف:٢٣]، بتوفيقنا في مستقبل أمرنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، في لدنيا، والآخرة، ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فتاب الله عليه، وعفىٰ عنه؛ لأنه سبحانه التواب الذي يتجاوز عن عباده الرحيم بالمؤمنين، كما قال الله : ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ المتجاوز عمن تاب، والموفق له.

﴿قُلْنَا﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ أي: آدم وحواء، وإبليس، ويقول المفسرون، والحية ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ أي: وحي يوحيه الله إلىٰ رسله، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ استجاب لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ورسله صلوات الله ، وسلامه عليهم، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يقدمون عليه من شأن الآخرة، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم من أمور الدنيا، وهذا كقوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: أعرضوا عن دين الله عَزَّوَجَلَّ علمًا، وعملًا، وانقيادًا، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعذبون فيها، ويخلدون.

۞ وهذا دليل علىٰ أبدية النار، كما هو معتقد أهل السنة، كما أنهم يؤمنون بأن الجنة، والنار موجودتان الآن.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا نداء من الله عَزَّوَجَلَّ لبني إسرائيل، وهم ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، ومعنىٰ إسرائيل: (عبد الله) ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾ اعرفوا، واشكروا، ﴿نِعۡمَتِيَ﴾ نعمي الكثيرة عليكم، فأفردها لتفيد العموم ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وهي كثيرة، وأعظم نعمة أنعم الله بها عليهم أن جعل فيهم النبوة، والكتاب، ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، علىٰ عالمي زمانهم، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠] ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ﴾ قوموا بما عهدت إليكم من التوحيد، فما دونه من الأوامر ﴿أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ فيما وعدتكم به بالجنة، والتمكين كما قال تعالىٰ : ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾ [النور:٥٥]، والله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلف وعدُه، ولا يُنقض عهدُه، كما قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:١٩٤]، ﴿وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ خافون كقوله: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿٤١﴾ ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ﴾ من القرآن ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾ لما جاء في التوراة، والإنجيل، إلا أن التوراة، والإنجيل قد حرفتا، وغيرتا، ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾ بالقرآن، مع أنه يتعين أن تكونوا أول من آمن به لما عندكم من العلم بصدق دعوته، وفي قصة سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَكَانَ، مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ قَالَ: «كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ .

فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ.

فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ، وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ.

قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا.

قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟

قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ.

قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا.

فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ، قَالَ سَلَمَةُ: فَوَ الله مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ الله تعالى رسولهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ: لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى وَلَيْسَ بِهِ» أخرجه أحمد (١٥٨٤١).

﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ لا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ بوحيي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضًا زائلًا، وهو ما يناله من متاع الحياة الدنيا، سمي بالشراء؛ لأن الشراء معاوضة تعطي، وتأخذ، وهؤلاء باعوا الآخرة التي لا قيمة لها بالدنيا، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»، أخرجه مسلم (١١٨). ﴿وَإِيَّـَٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: اجعلوا بينكم، وبين غضبي، وناري وقاية، بامتثال أمري، واجتناب نهيي.

فلما لم يلتزموا العهد، والميثاق سلط الله عليهم التيه أربعين سنة؛ لأنه أمرهم بدخول بيت المقدس مع الوعد بنصرهم، فاعترضوا علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقالوا:﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦]، وما فتح بيت المقدس إلا بعد موت موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتحها يوشع بن نون عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَحِمَ الله مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**» **أخرجاه عن أبي سعيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟﴾ لا تخلطوا ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الإسلام ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ الكفر.

وفي هذا الرّدُ علىٰ دعاة وحدة الأديان، وهذا المعنىٰ مروي عن قتادة: لا تلبسوا اليهودية، والنصرانية بالإسلام إن دين الله الإسلام، واليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله، والذي يدعوا إليه أصحاب وحدة الأديان، ويقولون الدين الموساوي، والمحمدي والإبراهيمي، ويسمونها: (**بالميمات الثلاثة**)، و(**الحزب الإبراهيمي**)، وربما دعوا إلىٰ بناء هيكل واحد، ويضم مسجدًا، ومعبدًا، وكنيسه، وقد رأينا في بعض البلدان أن بعض الأماكن تدخل فيه للصلاة، فتجد مصحفًا، وتوراة، وإنجيلًا، وتجد الإشارة إلىٰ الكعبة، وإلىٰ بيت المقدس، وهذا الأسلوب من لبس الحق بالباطل، ويريدون به تمييع المسلمين عن دينهم علىٰ ما بينته في كتابي: «الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان».

﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءكم في كتبكم من صفة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المكتوبة مع محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، بشروطها، وأركانها في أوقاتها فعن أَبِي هُرَيْرَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دَخَلَ المَسْجِدَ فَدَخَلَ رَجُلٌ، فَصَلَّىٰ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَرَدَّ، وَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**»، فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّىٰ، ثُمَّ جَاءَ، فَسَلَّمَ عَلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» ثَلاَثًا، فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ مَا أُحْسِنُ غَيْرَهُ، فَعَلِّمْنِي فَقَالَ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاَتِكَ كُلِّهَا**» متفق عليه.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة كما أمر الله ، وعلىٰ ما يأتي بيانه في ﴿سورة براءة﴾ إن شاء الله ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ كونوا معهم في أحسن أعمالهم.

وقد استدل العلماء بهذه الآية علىٰ وجوب صلاة الجماعة، وعليه بوب البخاري في صحيحه: (**باب وجوب صلاة الجماعة يأثم تاركها بغير عذر**)، وليست بشرط، كما زعم الظاهرية، بل تصح مع الإثم، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**»، فأثبت القبول، ونفىٰ المضاعفة.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ أي: بالطاعة، فالبر جميع أنواع الخير التي أمر الله بها، ومنها الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ تتركون أنفسكم، فالنسيان يأتي بمعنىٰ الذهول، والترك، وهذه الآية كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣]، ومن مقاصد طلب العلم العمل به، ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، وتقام عليكم الحجج صباحًا ومساءً، وَعَنْ أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»، ومن كانت الحجة قائمة عليه كانت المطالبة له أشد من الجاهل ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أحكام الله فتنزجرون عن باطلكم، فهذا السبيل الذي سلكتموه سبيل من لا يعقل، أما سبيل العقلاء فإنهم ينهون أنفسهم وغيرهم، وكما قيل:

ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱسْتَعِينُواْ﴾ اطلبوا المعونة علىٰ ما تلاقونه من فتن الدنيا، ومنغصاتها، وما تأملونه في الآخرة ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ حبس النفس عن التشكي، وقيل الصيام نص عليه مجاهد ﴿وَ﴾ استعينوا بـ ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أفردها تعظيما لشأنها فهي سبب لانشراح الصدر، وتفريج الكرب واستجابة الدعاء، وكان الأنبياء إذا نابهم شيء فزعوا إلىٰ الصلاة، فعن صُهَيْبٍ قَالَ: «**وَكَانُوا يَفْزَعُونَ إِذَا فَزِعُوا إِلَى الصَّلَاةِ**» أخرجه أحمد (١٨٩٣٧).

ويقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»، وحال الناس اليوم: (**أرحنا منها**)، وفرق كبير بين الحالين، فإن أرحنا بها تلذذ بالطاعة، ومناجاة الرب والقيام بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأرحنا منها أي: أن صاحبها يجد ثقلًا من بقائها فيريد أن يتخلص منها،

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: الصلاة ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ ثقيلة أي: المحافظة علىٰ الصلاة في أوقاتها، والإتيان بها علىٰ وجهها، وهكذا الصبر علىٰ أقدار الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ أوامره، ونواهيه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت:٣٥]، ﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ أهل الإيمان، والخشية، الساكنين علىٰ الطاعة، فإنهم يتلذذون بذلك، وتسهل عليهم الطاعات.

وفي الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: عندما سئلت عَنْ صَلَاةِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: «كَانَ يَنَامُ أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَيُحْيِي آخِرَهُ، ثُمَّ إِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى أَهْلِهِ قَضَى حَاجَتَهُ ثُمَّ يَنَامُ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ النِّدَاءِ الْأَوَّلِ، قَالَتْ وَثَبَ - وَلَا وَاللهِ مَا قَالَتْ قَامَ - فَأَفَاضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ - وَلَا وَاللهِ مَا قَالَتِ اغْتَسَلَ وَأَنَا أَعْلَمُ مَا تُرِيدُ».

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤]، وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»، متفق عليه.

۞ بينما من أسهل الصلوات علىٰ المؤمنين الطائعين صلاة الفجر، وصلاة العشاء لأمور منها:

● **أولاً**: لما فيهما من الفضل، فعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ**»، أخرجه مسلم (٦٥٦).

● **ثانيًا**: صلاة العشاء يختم يومه، وصلاة الفجر يفتح بها يومه، وحاله كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ**» أخرجه مسلم (٧٧٦).

﴿٤٦﴾ و﴿ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الذين تسهل عليهم العبادة هم ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يستيقنون، فالظن هنا بمعنىٰ اليقين، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ [الأنبياء:٨٧]. ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث يوم القيامة.

۞ وفيها دليل علىٰ الرؤية، فإن اللقاء يكون مع الرؤية، كما نقل ذلك المفسرون، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ في الآخرة فيحاسبهم علىٰ أعمالهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: في إنزال التوراة، والإنجيل عليكم، وجعل الأنبياء منكم، ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانكم، وقد صار الفضل لهذه الأمة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠] وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: عدلًا خيارًا لـ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، وَعَنْ بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا، وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله**» أخرجه أحمد (٢٠٠١٥).

وَعَنْ بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ؛ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**» أخرجه الترمذي (٢٥٤٦).

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾ خافوا ﴿يَوْمًا﴾ شديدة أهواله عظيمة أحواله ﴿لَّا تَجْزِى﴾ فيه ﴿نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ أي: اجعلوا بينكم، وبين غضب الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك اليوم، وقاية، بالتزام الأوامر واجتناب النواهي كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن

وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان:٣٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٧].

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيأتون آدم، و نوح، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وكل يقول: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي**» اخرجه مسلم (١٩٤)، و﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النفي، تفيد العموم، ﴿وَلَا يُقْبَلُ﴾ وفي قراءة: ﴿وَلاَ تَقْبَلُ﴾، ﴿مِنْهَا﴾ لها ﴿شَفَٰعَةٌ﴾ مأخوذة من الشفع وهو الاثنين.

فإذا توفرت في الشفاعة ثلاثة شروط صحت:

وهي: ١- إذن الله للشافع. ٢- ورضا الله عن الشافع . ٣ - والمشفوع.

كما قال تعالىٰ : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٩]، وإذا كانت غير ذلك فهي منفية: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٨].

﴿وَلَا يُؤْخَذُ﴾ لا يقبل ﴿مِنْهَا عَدْلٌ﴾ عمل، ولا فداء، ولا مقابلة، فعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ فَيَقُولُ قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ وَلا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ**» متفق عليه.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصرون من أنفسهم، ولا تنصرهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله عَزَّوَجَلَّ لعجزهم، كقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ:٢٢]. ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء:٥٦].

﴿٤٩﴾ ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ممتنًا علىٰ بني إسرائيل: ﴿و﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ سلمناكم، ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون، وقومه ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ شدة العذاب، حيث تسلطوا علىٰ بني إسرائيل تسلطًا شديدًا، استخدموهم في قضاء حوائجهم، وامتهنوهم، وزد علىٰ ذلك أنهم ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ وهذا حين تخوفوا المولود

الإسرائيلي الذي علىٰ يديه زوال فرعون، فكانوا يذبحون أبناء سنة، ويتركون أبناء سنة؛ ليبقوا خدمًا لهم، ولهذا كان هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أبناء السنة التي لا تذبح، وكان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أبناء السنة التي يذبح أبناؤها، إلا أن الله نجاه فيما سيأتي بيانه في عدة سور من القرآن.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ من الحياة أي: لا يتعرضون لهن بالقتل، ولكنهم يتسلطون عليهن بالإهانة، والامتهان ﴿وَفِى ذَٰلِكُم﴾ الفعل ﴿بَلَآءٌ﴾ محنة وفتنة، وهل المحنة، والفتنة في العذاب، أو الإنجاء علىٰ قولين لأهل التفسير، وربما شمل المعنيين من أن الفتنة بالنعم والنقم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ لعلكم تشكرون.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا﴾ شققنا، وفصلنا ﴿بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ حين لحقكم فرعون، وجيشه، {فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ} فامتن الله عليهم بالسلامة منهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء:٦١-٦٦]، وَعَنْد الغرق قال فرعون: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩١].

﴿٥١﴾ ﴿وَ﴾ اذكر، ﴿إِذْ وَٰعَدْنَا﴾ من الوعد بالخير، والوعيد بالشر ﴿مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ لميقات ربه، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ﴾ جعلتم، وصيرتم ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد مضي موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلىٰ الطور، وهذه منَّة أخرىٰ من منن الله علىٰ بني إسرائيل أنه واعد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أربعين ليلة، كلمه فيها وخط له التوراة بيده، وكان أول الميعاد ثلاثين ليلة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ

لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]، وما رجع موسىٰ إلا وقد اتخذ قومه العجل يعبدونه من دون الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف:١٤٨].

فهال موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الأمر حتىٰ أخذ بلحية أخيه: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه:٩٠-٩٤].

والسبب في ذلك ما يأتي في (سورة طه)؛ من أن السامري اتخذ لهم عجلًا جسدًا له خوار، وسبب فتنتهم أنهم خرجوا من البحر، ووجدوا قومًا يعبدون العجول: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف:١٣٨]، ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: مشركون، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

﴿٥٢﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم﴾ صفحنا، وتجاوزنا عنكم يا بني إسرائيل ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد عبادة العجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: تلزمون شكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه.

وقد قيل:

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللهِ نِعْمَةٌ ... عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة بالإجماع، ﴿وَٱلْفُرْقَانَ﴾ قيل: الكتاب أعيد ذكره كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨]، وذهب بعضهم إلىٰ أنه القرآن، والأول أصح، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يقع لكم الاهتداء من الضلالة.

(٥٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وكانت توبتهم: أن يقتل بعضهم بعضًا، وهذا أمره شديد، لكنه أهون من أن يموتوا علىٰ الكفر، أما هذه الأمة فقد أكرمها الله بتوبة غير هذه وهي الإقلاع عن الذنب، والندم علىٰ فعله، والعزم علىٰ عدم العودة إليه، والتوبة جائزة إلىٰ أن تطلع الشمس من مغربها، أو تغرغر النفس، علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء الله .

﴿فَتُوبُوٓاْ﴾ ارجعوا ﴿إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ خالقكم، ورازقكم، ومدبركم، ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: يقتل بعضهم بعضًا، ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ القتل، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ لأن فيه كفارة للذنب العظيم، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

(٥٥) ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾ يذكر تعالىٰ في هذه الآيات ما أمتن به علىٰ بني إسرائيل، وما حصل منهم من المعارضة لنبي الله عَزَّوَجَلَّ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن قبل الله توبتهم من عبادة العجل، وجاءوا معه للميقات، حيث قالوا لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ لن نتبعك ونصدقك ﴿حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ أي: حتىٰ يتجلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ جهرة يرونه بأعينهم، وهذا قول لم يُسبقوا إليه؛ ولذلك عاقبهم الله عَزَّوَجَلَّ بالصعقة، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الصيحة فمتم، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ ما حل بكم.

(٥٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم﴾ أحييناكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لعله يقع منكم الشكر؛ بسبب هذه النعمة التي لحقتكم بعد ظلمكم أنفسكم بطلب ما لا يحل، ولا يجوز.

﴿٥٧﴾ ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ سترنا ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ السحاب جعله الله عليهم ظلة تظلهم من الشمس ونحوها، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ﴾ في الغمام، ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ نوع من الطعام لا يتعبون في تحصيله، وإنما ينالونه، ويتقوتونه وهم في بيوتهم، وهذا من تمام نعمة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العبيد، قيل المن العسل، والسلوىٰ طائر السماني، والله أعلم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٢٦٨): "وَالْغَرَضُ أَنَّ عِبَارَاتِ الْمُفَسِّرِينَ مُتَقَارِبَةٌ فِي شَرْحِ الْمَنِّ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالطَّعَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فَسَّرَهُ بِالشَّرَابِ، وَالظَّاهِرُ، وَ**اللهُ** أَعْلَمُ، أَنَّهُ كُلُّ مَا امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، مِمَّا لَيْسَ لَهُمْ فِيهِ عَمَلٌ وَلَا كَدٌّ، فَالْمَنُّ الْمَشْهُورُ إِنْ أُكِلَ وَحْدَهُ كَانَ طَعَامًا وَحَلَاوَةً، وَإِنْ مُزِجَ مَعَ الْمَاءِ صَارَ شَرَابًا طَيِّبًا، وَإِنْ رُكِّبَ مَعَ غَيْرِهِ صَارَ نَوْعًا آخَرَ" اهـ.

وَعَنْ سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ**» **متفق عليه**، وهي نوع من النبات ينبت في باطن الأرض كما ينبت البطاط، فيأكلونه ويتمولونه.

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: كلوا من المن، والسلوىٰ، وغير ذلك من الطيبات التي رزقكم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تدخروا فكفروا نعمة الله، وادخروا، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفران النعم، ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتعاطي المخالفات الشرعية، فإن المذنب ظالم لنفسه، ووبال ظلمه عليه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[فاطر:٣٢]، والظلم ظلمات يوم القيامة سواءً كان ظلم العبد لنفسه، أو لغيره، وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»، **أخرجه البخاري**(٤٦٨٦).

۞ وما يعبر عنه بالظلم فيما بين العبد، وبين الله عَزَّوَجَلَّ فالمراد به الشرك، وأما ربنا فهو الغني عن عباده، ولا يستطيعون ضره ولا نفعه كما قال تعالىٰ: «**يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**» **مسلم** (٢٥٧٧)**عن أبي ذر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿٥٨﴾ ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ أي: لبني إسرائيل ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ **(القرية)**: مجتمع الناس وهي هنا الأرض المقدسة كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٢١].

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها، وما فيها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ أي: واسعًا كثيرًا تتنعمون فيه، ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: شكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما أنعم به من الفتح، والنصر، ولكنهم خالفوا هذا الأمر إذ دخلوا يزحفون علىٰ آساتهم، ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: حطَّ عنَّا الذنوب، والمعاصي، فيكون الجزاء ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولكنهم أبو ذلك و«.. **دَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَىٰ أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا، وَقَالُوا: حِنطَةٌ، حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ**» **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو دخلوا الباب سجدًا لحطت عنهم خطيئاتهم، وكفرت عنهم سيئاتهم، وأكرموا بالكرامة العظيمة.

۞وفي الآية **بيان من** الله عَزَّوَجَلَّ: أن الزيادة حاصلة للمحسنين في الدنيا والآخرة، زيادة الهدىٰ، والرزق، والعلم، والخير، كما قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق:٣٥].

﴿٥٩﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من بني إسرائيل، ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ بدلوا ما أمروا به من دخول الباب سجدا، فبدلوا الفعل، وبدلوا ما أمروا به من القول، فقالوا: حنطة، أو حبة في شعرة، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وفي ﴿سورة الأعراف﴾: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٦٢] ، فحل عليهم العذاب؛ بسبب بغيهم، وعدوانهم، وإعراضهم عن شرع الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورىٰ:٣٠].

﴿رِجْزًا﴾ طاعونا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وأصابهم الله عَزَّوَجَلَّ به فأهلك من أهلك ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾؛ بسبب فسقهم، وهو: الخروج عن الطاعة، والوقوع في المعصية، فهلك منهم في ساعة سبعون ألفا، والله المستعان، وما أشد فسوق اليهود، وخروجهم عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة رسله صلوات الله، وسلامه عليه.

وبهذا تعلم أيها المؤمن أنه يجب عليك أن تعرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليك فلا تكفرها، بل تشكرها، وتسأله المزيد من ذلك، وتعلم ضرر الاعتراض علىٰ أمر الله الشرعي، والكوني، فإن هذا ليس بسبيل خلص المسلمين، والنعمة إذا شكرت قرَّت، وإذا كفرت فرَّت.

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ طلب السقيا حين عدم عليهم الماء ﴿فَقُلْنَا﴾ أي: الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ﴾ لنخرج منه الماء، ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾ علىٰ عدد أسباط بني إسرائيل يشرب كل منهم في وقت معلوم، بحيث لا يزدحمون، ولا يلحقهم النصب، والتعب، وهذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ، فضرب لهم حجرًا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ بعصاه، فخرج منه الماء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾ [الأعراف:١٦٠]، وقال هنا: ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾.

قال أهل العلم: لما كانت ﴿سورة الأعراف﴾ مكية ذكر فيها (**الانبجاس**) وهو مبدأ خروج الماء، ولما كانت ﴿سورة البقرة﴾ مدنية ذكر فيها (**الانفجار**) وهو جري الماء.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: الأسباط الاثنا عشر ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾ مكان شربهم ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: من عطاء الله كلوا من المن والسلوىٰ، واشربوا من الماء ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾ تنتشروا، فمعنىٰ (**العثو**): الانتشار، كما قال بعضهم:

لـولاَ الحيـاءُ وأنَّ رأسـي قـدْ عثـا فِيـهِ المَشِـيْبُ لَـزُرْتُ أُمَّ القَاسِـمِ

﴿فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فتقابلون النعم بالعصيان.

(٦١) ﴿وَ﴾ اذكروا: ﴿إِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ وسمي الطعام واحدًا؛ لتكراره في كل يوم، فإنهم كانوا يأكلون المن، والسلوىٰ، ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ تركوا الأعلىٰ، واستبدلوه بالأدنىٰ، وذلك لما تعودوه في زمن فرعون، فإنهم كانوا تبع، وكانوا يأكلون من العدس، والقثاء، والفوم، والبصل، فأرادوا أن يرجعوا إلىٰ عادتهم الأولىٰ ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: مما يزرع فيها: ﴿مِنۢ بَقْلِهَا﴾ جمع بقلة، ﴿وَقِثَّآئِهَا﴾ صغار الخيار، ﴿وَفُومِهَا﴾ قيل الخبز، وقيل القمح، وقيل: الثوم، لما جاء في بعض القراءات، ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

﴿قَالَ﴾ نبي الله : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ﴾ يعني أتأخذون الأدنىٰ الذي يُرغب عنه، ﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ الذي رزقكم الله عَزَّوَجَلَّ دون عناء، وتعب، يأكل أحدكم، ويشرب وهو في بيته، ومكانه، فلما رأىٰ إصرارهم قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾ أي: اهبطوا أرضًا من الأراضي، ومزرعة من المزارع، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ تجدون فيها ما طلبتم، وليس المعنىٰ أن يهبطون أرض مصر، فلو كان المراد به ذلك؛ لما صرفت.

﴿وَ﴾ لكثرة معارضتهم، واختلافهم علىٰ نبيهم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿ضُرِبَتْ﴾ جعلت: ﴿عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين، ولقد أدركتهم هذه الأمة، وإن المجوس لتجبيهم الجزية، قاله الحسن، ﴿وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ الفقر، والفاقة، والخوف، فتجدهم أذلاء مع أنفسهم؛ خوفًا علىٰ أموالهم، وأذلاء مع غيرهم، فلا تجد في اليهودي شجاعة أبدًا، ﴿وَبَآءُو﴾ استحقوا، ورجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ بسبب إعراضهم، كما قال تعالىٰ : ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [المائدة:٧٨-٧٩].

۞وفي الآية إثبات صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية التي تليق بجلاله، وقد دل عليها الكتاب، والسنة، والإجماع.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي نالهم من غضب الله عَزَّوَجَلَّ، وما ضرب من الذلة، والمسكنة؛ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعرضون، ويجحدون، ﴿وَ﴾ لسبب أنهم ﴿يَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ كزكريا، ويحيىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: ظلمًا، وليس معنىٰ ذلك أن هناك قتل للأنبياء بحق، ولكن بيان أن فعلهم هذا مستقبح، حيث يعمدون إلىٰ أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ الذين يبلغون رسالته، ويعتدون عليهم بالقتل، والتكذيب كما قال تعالىٰ: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة:٨٧].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جوزوا بغضب الله عَزَّوَجَلَّ، والذلة، والمسكنة، ﴿بِمَا عَصَوا۟﴾ بسبب العصيان، وهو فعل المناهي، ﴿ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ وهو مجاوزة المأذون به، وكرره للتأكيد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٢﴾ ثم ذكر أصناف المؤمنين مع كل نبي من الأنبياء، وفي كل الأزمنة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ تهودوا، وهم أتباع موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ سموا بذلك؛ لأنهم يهتزون عند قراءة التوراة، وقيل نسبة إلىٰ يهودا بن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ أتباع عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ سموا بذلك لمناصرتهم له، قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف:١٤].

﴿وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ قال عمر، وابن عباس: هم قوم من أهل الكتاب ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب، وأصله الخروج يقال: صبأ فلان أي: خرج من دين إلىٰ دين، وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ومعبودًا، وإلها، وأثبت له ما يستحقه من الأسماء

والصفات ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ القيامة، وما فيها من الأحداث، ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: أنه بادر إلىٰ الأعمال الصالحة من التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وسوىٰ ذلك من الأعمال، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ محفوظ، ويجازون عليه بالخير العظيم، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يُقدِمون عليه، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما فاتهم.

وقد جاء في القرآن لفظ الصابئين علىٰ معنيين: المدح كما في هذه الآية، والذم كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج:١٧]، فعلىٰ المدح هم قوم آمنوا بالرسالات، وحققوا العبودية، وعلىٰ الذم هم عباد الكواكب بـ(بابل) الذين كانوا في عهد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والله أعلم.

﴿٦٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ عهدكم بالعمل، والميثاق الذي أخذه الله عَزَّوَجَلَّ هو العهد أن يطيعوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئا، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، كما سيأتي، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي: الجبل، فـ(الطور) كل جبل فيه شجر.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف:١٧١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:١٥٤].

وكان رفع الجبل حتىٰ يلتزموا ما أوحاه إليهم من الشرع، فسجدوا، وجعلوا ينظرون إلىٰ الجبل؛ خشية أن ينزل عليهم، فعفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، وتجاوز ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: التوراة وما فيها من العهود، والمواثيق، وطبقوها، واعملوا بها، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: اقرؤوا الكتاب، واعملوا به ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ لعلها تتحصل لكم الوقاية من عذاب الله، وغضبه، وبطشه، وعقابه.

﴿٦٤﴾ لكن: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: أعرضتم عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بعد أخذ الميثاق. ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالتوبة، والإمهال ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لعذبتم في الدنيا بالهلاك، وفي الآخرة بالعذاب.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود ﴿ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ حيث أخذ الله عليهم الميثاق بعدم الصيد يوم السبت، فنقضوا العهد، والميثاق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف:١٦٣].

﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ كونًا ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ أي: مسخهم قردة علىٰ الحقيقة خلاف ما ذهب إليه مجاهد أنه مسخ القلوب ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مبعدين مطرودين؛ بسبب أنهم خالفوا أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فحرم الله عليهم الاصطياد في السبت.

وكانت الحيتان تأتي إلىٰ ساحل البحر في يوم السبت، وتختفي في بقية الأيام، فعمدوا إلىٰ أن حفروا حفرًا، وجعلوا لها خلجان يدخل فيها الماء، فتدخل فيها الأسماك، فإذا كان يوم الأحد ذهبوا، وأخذوها، فأرادوا الحيلة علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والمثل عند العامة: من دخل علىٰ الله بحيلة أدخله النار بغير حيلة، وقبل ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠].

﴿٦٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ تلك العقوبة، ﴿نَكَٰلًا﴾ عقوبة، وعبرة، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لما خلا من ذنوبهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ لمن يعمل بعدها من الأمم مثل تلك الذنوب، ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: زاجرًا للمتقين أن يحل بهم ما حصل لهؤلاء المتمردين علىٰ شرع الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف:٢٧].

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ۖ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٦٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ؛ وذلك حين قُتِلَ رجلٌ منهم، ولم يعرف قاتله، فجعلوا يخوضون في أمره، ومن قتله، فأُوحىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يذبح بقرة، ثم يضرب ببعض أعضائها ذلك الميت، ويخبر بمن قتله، إلا أن عناد بني إسرائيل المعلوم شدد عليهم الأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ وهذا إطلاق، فلو ذبحوا أي بقرة لأجزأهم، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ تستهزئ بنا، وهذا قول فظيع أن يقال لنبي من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ، بل ومن صفوتهم إذ أنه من أولي العزم من الرسل، ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ استعاذ بالله من الجهل إذ أن الاستهزاء صفة الجاهلين؛ إما لفقدهم العلم الذي به الأدب الشرعي؛ وإما لطيشهم، وسفههم، ونبي الله منزه عن ذلك، فعند أن قرع أسماعهم هذا القول.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ﴾ سَلْ ﴿لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ علموا أنه تكلم بكلام حق، ووحي، فشددوا علىٰ أنفسهم، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ ليست بالمُسِنَةِ الكبيرة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ ليست بالصغيرة، ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: وسط، وفي المثل: خير الأمور أوسطها، ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ أي: أفعلوا ما أمركم الله عَزَّوَجَلَّ، يكن ما تؤملون، وما تريدون.

٦٩ إلا أنهم تمادوا، و﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا﴾ أي: شديدة الصفرة قاله ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ أي: يعجبهم لقوام خلقتها، وجميل لونها، واعتدال جسمها، إلىٰ غير ذلك من الأوصاف.

٧٠ ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ أسائمة، أم عاملة ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ لكثرة المنعوت بهذا الوصف فلم نهتد إلىٰ المقصود منها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾ إلىٰ البقرة المطلوب ذبحها.

٧١ ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ﴾ غير مذللة سهلة الانقياد ﴿تُثِيرُ﴾ تحرك، وتقلب ﴿ٱلۡأَرۡضَ﴾ للزراعة ﴿وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ﴾ ولا تستخدم لسقي الزرع ﴿مُسَلَّمَةٞ﴾ مبرأة من العيوب، وقيل من الأعمال، وقيل من الألوان، ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا بياض فيها، ولا سواد، ولا حمرة بل أصفر صرف، ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بينت، وسبحان الله كأنه قبل لم يأت بالحق، قال زيد بن أسلم: وقبل ذلك والله قد جاءهم بالحق.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ بعد مشقة ﴿وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ أي: تعسر عليهم أن يتحصلوا عليها؛ لغلاء ثمنها، وتعسر، وجودها، وذلك لكثرة اعتراضاتهم، وقيل بل لم تكن نيتهم ذبحها أصلًا، وإنما سألوا هذه الأسئلة تعنتًا، والله أعلم.

٧٢ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا﴾ بغير حق ﴿فَٱدَّٰرَأۡتُمۡ فِيهَا﴾ تدافعتم، واختلفتم واختصمتم في قاتلها، وأضيف الفعل إليهم جميعا؛ لأن القاتل منهم، ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ﴾ مظهر، ﴿مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ من أمرها بهذه الآية العظيمة، مع أن الله علىٰ كل شيء قدير.

٧٣ ﴿فَقُلۡنَا﴾ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾ الميت ﴿بِبَعۡضِهَا﴾ بأي عضو منها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كهذا الإحياء ﴿يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائل قدرته ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

۞ وفي هذا حجة عظيمة علىٰ إحياء الموتىٰ، وأن الله يبعث من في القبور، ودلالة لبني إسرائيل لو كانوا يعقلون، علىٰ أن الله لا يعجزه شيء في السموات، ولا في الأرض وهو العليم القدير.

تنبيه: في هذا الموطن يذكر أصحاب التفاسير قصصًا كثيرة عن بني إسرائيل، أعرضت عنها صفحًا لعدم الحاجة إليها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بعد أن قص قصة البقرة "وهذه السياقات، عن عبيدة، وأبي العالية، والسدي، وغيرهم، فيها اختلاف، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بني إسرائيل، وهي مما يجوز نقلها ولكن لا تصدق ولا تكذب؛ ولهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق، والله أعلم" اهـ.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾.

٧٤ يقول الله موبخًا بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ قَسَتْ﴾ اشتدت، وغلُظَتْ ﴿قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد هذه الحقائق، والدلائل فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ﴾ في القساوة، ففي هاتين الآيتين يقص الله علىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ نبأ بني إسرائيل المتقدمين، والمتأخرين.

أما المتقدمون فقد شددوا علىٰ أنفسهم بكثرة الاعتراض علىٰ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فعوقبوا بقسوة قلوبهم، وهذا مرض عضال إذا ابتلي به القلب صارت الحجارة الصماء أهون منه في الصلابة، وصار النفع من الحجارة الصماء شبه متحقق، ومن القلوب القاسية مستبعد.

وأعظم ما تقسو به القلوب:

١- **الغفلة عن ذكر الله** عَزَّوَجَلَّ، فإن الشيطان يتسلط علىٰ هذا الصنف غاية التسلط.

٢- **الغفلة عن علم التوحيد والسنة، والعمل بهما**، ولهذا تجد أن الكفار أشد الناس في هذا الباب؛ لأن القلوب تنشرح بالتوحيد، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢﴾ [الزمر:٢٢].

٣- **تعاطي المعاصي والسيئات**، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

٤- **مجالسة الأشرار**، فإنها سبب لقسوة القلب؛ إذ أنهم لا يذكرون الله، ولا يذكرون بالله قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨].

٥- **أكل الحرام**، وقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ**» **أخرجه أحمد** (١٤٤٤١).

٦- **كثرة الكلام بغير ذكر الله** عَزَّوَجَلَّ .

٧- **سماع الأغاني والآثام**، بما فيها الغيبة، والنميمة، والكذب، والبهت؛ فإن ذلك يؤثر علىٰ القلب، وقد جُعل السمع طريقًا إلىٰ القلب.

٨- **إطلاق البصر**، قال الشاعر:

كم نظرةٍ فتكَتْ في قلبِ صاحِبها فتكَ السهامِ بلا قوسٍ ولا وترِ

٨- **ملء البطن**، فإن البطنة تذهب الفطنة، فتنشرح صدور المسلمين في رمضان، وتكثر طاعاتهم، وتقل معاصيهم؛ بسبب ما يقع لهم من ترك فضلات الطعام، والشراب، والكلام، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ، وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْهَوَى**» **أخرجه أحمد** (١٩٧٨٧)**عن أبي برزة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٩- **الإعراض عن العلم والعمل**؛ وهذا من أعظم أسباب قسوة القلوب فبنو إسرائيل، تتلىٰ عليهم آيات الله صباح مساء، ويرونها بأعينهم، ويتعامون عنها بقلوبهم، ويعترضون علىٰ الله ، وعلىٰ أمره ونهيه، مشككين في حكمته، وقدرته، وطاعنين في أهل ولايته، كرسل الله صلوات الله ، وسلامه عليهم.

١٠- **هجر القرآن لما يؤدي إليه من تسلط الشيطان.**

﴿أَوْ﴾ بل ﴿أَشَدُّ قَسْوَةً﴾، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]، فالمعنىٰ بل يزيدون، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ﴾ الصماء ﴿لَمَا يَتَفَجَّرُ﴾ تَسِيْلُ ﴿مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المياه الكثيرة، فتكون نافعة للناس، بخلاف القلوب القاسية.

﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ أي: الحجارة، ﴿لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ يتشقق، ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد:٣١] أي: لكان هذا القرآن، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، قيل بلسان الحال، وقيل بلسان المقال، ولا يبعد أنها تسبح بلسان المقال؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال:﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ونفي الغفلة يثبت به صفة الضد، وهي العلم، والإحاطة.

وهذا تهديد من الله عَزَّوَجَلَّ لبني إسرائيل؛ بسبب بغيهم، وإعراضهم، وبعدهم عن الكتاب والسنة أي: أن الله يكتب عليهم أعمالهم، وسيجازيهم عليها في يوم لا ينفع مال، ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم، كما قال تعالىٰ : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٥﴾ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أفترجون أيها المؤمنون ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟﴾ ينقاد اليهود بالطاعة ﴿لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: التوراة، ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ يبدلونه ويغيرونه.

وتحريفهم علىٰ معنيين:

١- تحريف المعنىٰ مع بقاء اللفظ.

٢- تحريف اللفظ الذي يفضي إلىٰ تحريف المعنىٰ، وتحريفهم التوراة، والإنجيل محل إجماع مع ثبوت النصوص بذلك.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون لما ذهبوا إليه من التحريف، والتبديل.

(٧٦) ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخبراً عن شأن اليهود، الذين كانوا في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما بلغ من مكرهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ أي: بصاحبكم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه إليكم خاصة، ﴿وَإِذَا خَلَا﴾ رجع ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ ترادوا الحديث بينهم، ﴿قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ حكم به الله من أن محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق، وقوله صدق، ﴿لِيُحَآجُّوكُم﴾ يخاصمونكم ﴿بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ في الدنيا، والآخرة.

والمعنىٰ: أتخبرونهم بما أنزل عليكم في كتابكم من بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذا الصنيع منكم يعتبر حجة عليكم.

(٧٧) فكان الرد من الله عَزَّوَجَلَّ عليهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ للتقرير علىٰ اليهود القائلين بهذه المقولة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ما يسرونه من الأعمال وفيما يتناجونه بينهم وما هو دون ذلك، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يعلنونه لغيرهم، بل أعظم من ذلك أنه يعلم مافي الصدور، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، فالله عَزَّوَجَلَّ بكل شيء عليم، لا تخفىٰ عليه خافية، ولو تأمل الناس هذه الآية لراقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في السراء، والضراء، والشدة، والرخاء، والليل، والنهار.

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

(٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: اليهود، ﴿أُمِّيُّونَ﴾ جمع (أمي) وهو: الذي لا يحسن الكتابة، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقرؤون ﴿ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ قراءة مجردة، ويتلقفون الأكاذيب، فلا يدرون ما فيه ﴿وَإِنْ﴾ ما: ﴿هُمْ﴾ اليهود في جحد نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ تخرصًا، وليسوا علىٰ شيء.

فقد كانوا ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: محرفة لكلام الله مع علمهم به.

الصنف الثاني: أميون لا يعلمون إلا ما يتلقونه من علمائهم، وكبرائهم.

الصنف الثالث: علماؤهم الذين يدعون إلىٰ الضلال بالتحريف، وغيره.

﴿٧٩﴾ ﴿فَوَيْلٌ﴾ دعاء بالويل، والثبور، والعذاب عليهم ﴿لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ يعني علماؤهم يحرفونه، ويختلقونه، وليس من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ينسبونه إلىٰ الله كذبًا؛ ليلتبس الأمر علىٰ من يقرأ لهم.

ومعلوم أن الناس إذا علموا أن هذا الشيء من عند الله عظموه، وأحبوه، وانقادوا له، فكان فساد اليهود والنصارىٰ عظيم؛ إذ أنهم نسبوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مالم يقل، أو يأمر به، ففسدت الأخلاق، والقيم، والعقائد، وقد ألف ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب "إعلام الموقعين عن رب العالمين"، وذكر في ذم الرأي الفاسد، والقياس، والهوىٰ ما يكون زاجرا عن هذا الفعل القبيح؛ لأن المفتي إذا نسب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ مالم يشرع، أُحل الحرام، وحُرم الحلال، وغيرت العقائد وفسدت، وأكثر الضلال الواقع في الأمم سببه؛ القول علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بغير علم، ولهذا قرن الله القول عليه بغير علم بالشرك فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

والذي حملهم علىٰ تغيير ما أوحاه الله : ﴿لِيَشْتَرُوا۟﴾ يعتاضوا، ويستبدلوا ﴿بِهِۦ﴾ بالكتاب ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ والدنيا بما فيها قليل، ﴿فَوَيْلٌ﴾ شدة العذاب، والحسرة ﴿لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من تحريفهم الكلم عن مواضعه، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ مما يجمعون، ويأكلون من الحرام، فهم مؤاخذون علىٰ الكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ ما حصلوه من الأموال المحرمة.

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾.

٨٠ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: اليهود متمنين على الله الأماني الكاذبة، والدعاوى الباطلة ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗ﴾ وهذا من الكذب على الله، لما قيل لهم أنَّ محمدا يُخبر أنكم في النار، قالوا ندخل النار ثم نمكث فيها أيامًا ثم يخلفنا المسلمون، ومن أين لهم مثل هذه العِدة ﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا﴾ ميثاقًا أنكم لن تدخلوها، ﴿فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ﴾؛ لأنه لا يخلف الميعاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١١]. ﴿أَمۡ﴾ بل ﴿تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وهذا هو الواقع أنهم يقولون على الله بغير علم، فلا تنفعهم هذه الدعاوى، وكما قيل: **(الدعاوى إن لم تكن عليها بينات أصحابها أدعياء)**.

٨١ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف استدراك لما تقدم ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ الشرك الأكبر المخرج من الملة، وهو تفسير مجاهد، وغير واحد من السلف، ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أحاط به الشرك بحيث صار كافرًا كفرًا أكبر مخرج من الملة، فيحبط جميع عمله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المشركون المنددون، ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

۞ وهذا دليل لمذهب أهل الحق أن الجنة والنار أبديتان، وأنهما لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦﴾ [فاطر:٣٦].

٨٢ ولما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ شأن الكافرين ثنَّاه بذكر المؤمنين، وهذا يقع كثيرًا في القرآن

العظيم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أقروا بالإيمان، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التزموا أمر الله عَزَّوَجَلَّ وشرعه، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهذا وعد من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، وسموا بأصحاب الجنة؛ لأنهم سكانها، ولطول ملازمتهم لها، كما سمي الكفار بأصحاب النار لذلك، ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ**» **أخرجه مسلم** (٢٨٣٦).

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ٨٣﴾.

٨٣ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يخبر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيات عن حال بني إسرائيل مع المواثيق التي أخذت عليهم من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فقيل بأن (**الميثاق**) هو الميثاق المأخوذ علىٰ ذرية آدم، وقال بعضهم (**الميثاق**) هو الذي أخذ عليهم في التوراة.

والذي يظهر والله أعلم: أن المراد بـ(**الميثاق**) في هذه الآيات المأخوذ عليهم في التوراة، ومما أخذه الله علىٰ بني إسرائيل: ﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

۞ وفيها معنىٰ لا إله إلا الله؛ لأنها جمعت بين النفي، والإثبات، وعبادة الله توحيده وإفراد الله بما يجب له.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا﴾ أي: وأخذ عليهم الإحسان إلىٰ الوالدين، وقرن حق الوالدين بحقه؛ لعظيم شأنهما.

والمعنىٰ: أن تحسنوا إلىٰ الوالدين إحسانًا، وهذا في القرآن في مواطن: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١].

و(**الإحسان**) إلىٰ الوالدين ببرهما، ولين الحديث لهما، والإنفاق عليهما، وبر صديقهما، وسيأتي بيان ذلك في ﴿سورة الإسراء﴾ بأوسع من هذا الموطن إن شاء الله .

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المراد بهم: ذوي القرابة من الأعمام، والأخوال، والأصول كالأجداد ونحوهم، فيحسن إليهم؛ لقرابتهم.

فقاطع الرحم علىٰ خطر عظيم فعن جبير بن مطعم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**» **متفق عليه.**

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو من مات أبوه قبل بلوغه، فيحتاج إلىٰ رعاية، وإحاطة، بالمحافظة علىٰ ماله، والتوسعة عليه، والرفق به، والإحسان إليه، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**» **متفق عليه،** وَعَنْ أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ**» **رواه أحمد (٢٢٨٤٠).**

﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو من نزل به الفقر، والحاجة، فيُسعىٰ عليه ويعان، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومما أخذ عليهم في التوراة أن يقولوا للناس قولًا حسنًا.

۞ وفي هذا النهي عن السب، والشتم، والغلظة، ونهي عن الشرك، والبدعة؛ لأن القول قد يطلق علىٰ الفعل، والنطق، وقد وصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ به هذه الأمة، قال تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمراد بها المفروضة، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن العمل بما أمركم الله به ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ ممن آمن، وأسلم، ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الآيات، وعما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، والتولي، والإعراض معناهما متقارب.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ ومما أخذ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم في التوراة، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾ لا يقتل بعضكم بعضًا، وليس معنىٰ ذلك لا تقتلوا أنفسكم؛ بالمباشرة وإن كان داخلًا؛ لأن الإنسان قد لا يقتل نفسه إلا في حالات نادرة.

وهذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]، ومثل قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]. وفيها عظم سفك الدماء، ويأتي بيانه في موطن آخر ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ بالطرد، والتهجير، وهذه سنة يهودية، وهاهم في هذا الزمان أخرجوا المسلمين من فلسطين، واستولوا عليها، وهكذا فعل إخوانهم الرافضة بأهل السنة في دماج، فأخرجوهم من ديارهم، وقتلوهم، وكان ذلك في سنة (١٤٣٤هـ).

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قبلتم ما أُخذ عليكم من المواثيق، وأقررتم بصحته ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تعلمون به، ولكنه الإعراض عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ .

﴿٨٥﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مع هذه العهود، والمواثيق ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يقتل بعضكم بعضًا مخالفة للعهد، والميثاق الذي أخذ عليكم، ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ تهجرون ﴿فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ﴾ ظلمًا، وبغيًا ﴿تَظَٰهَرُونَ﴾ تعلون ﴿عَلَيْهِم﴾ مستعينين عليهم بالأعداء، ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ بالظلم، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ المجاوزة للحق، ومالكم أي وجه حق في إخراجهم، ولا يجوز أن يخرج إنسان من بلده وبيته، إلا في حالات مخصوصة، كما أمر رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتغريب الزاني عامًا، أما أن يخرج إنسان من داره، وبلده ظلمًا، وعدوًا، فهذا من أقبح القبائح، ومثل هؤلاء لا يمكن الله لهم.

﴿وَ﴾ أخذ عليكم: ﴿إِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ﴾ أي: إن وُجد منكم أسير عند أعدائكم، ﴿تُفَادُوهُمْ﴾ سعيتم في دفع الفدية بتخليصهم من الأسر، وهذا واجب علىٰ المسلمين فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فُكُّوا الْعَانِيَ، وَأَجِيبُوا الدَّاعِيَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ**»، **أخرجه البخاري** (٣٠٤٦)، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨﴾ [الإنسان:٨].

﴿وَهُوَ﴾ أي: الشأن المذكور﴿مُحَرَّمٌ﴾ ممنوع ﴿عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ من ديارهم، فتناقضوا حيث دفعوا الفدية في تخليصهم من الأسر ثم أخرجوهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ﴾ تُقِرُّوْنَ ﴿بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ مما وافق أهواءهم، وبما ظنوه نصرة لهم، ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بوصف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحد الزاني، وغير ذلك مما تقدم بيانه في الآية.

﴿فَمَا جَزَاءُ﴾ عقوبة ﴿مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ التحريف، وما نهىٰ الله عنه ﴿إِلَّا خِزْيٌ﴾ فضيحة، وذلة، وهوان ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بسبب مخالفة الكتاب، والسنة، وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»، **أخرجه أحمد** (٥١١٤) ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة:٢٠]، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾ يرجعون ﴿إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ كقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٢٧]، ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

﴿۝٨٦﴾ ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين تقدم ذكر أحوالهم ﴿الَّذِينَ﴾ من شأنهم أنهم ﴿اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ فآثروا الفاني علىٰ الباقي، وقدموا الدنيا علىٰ الآخرة ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ في النار، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ولا يجدون من يمنع عنهم عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، لا من الأصنام، والأوثان، ولا من الشفعاء، كما قال تعالىٰ:﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات ما أمّتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بني إسرائيل من إيتاء موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الكتاب، وإرسال الرسل من بعده تترىٰ لتجديد دينهم، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ**» **متفق عليه**، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ حيث يجددون التوراة، وينفون عن الدين ما وقع فيه من التحريف، والتغيير، والتبديل، ولم يكن هذا في أمة غير أمة بني إسرائيل، وأما أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد تكفل الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ وحيه الشريف قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وفي سنن أبي داود (٤٢٩١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مِئة سنةٍ من يُجَدِّدُ لها دينَها**» ويشترط في المجدد أن تكون دعوته علىٰ رأس مائة سنة، ولا يكون المجدد إلا من أهل السنة والجماعة، وذلك أن غيرهم غير مأمونٍ علىٰ الدين وذلك لما هو عليه من البدع والضلالات، واتباع الهوىٰ، والتجديد قائم علىٰ اتباع الأدلة، وقد يكون في الزمن الواحد أكثر من مجدد، ومنهم في عصرنا شيخنا مقبلٌ الوادعي، والشيخ ابن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ الألباني رحمهم الله جميعا.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة أتاه الله جملة واحدة، وخطها الله بيده، كما في حديث عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا، ومرفوعًا، ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ وأتبعنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ رسولًا بعد رسول كما سيأتي بيانه، ﴿وَءَاتَيْنَا﴾ أعطينا ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدلالات الواضحات، وهذه مِنَّة أعظم من التي قبلها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وآتاه الإنجيل ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، علىٰ القول الصحيح من أقوال أهل العلم، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لحسان أهجهم: «**وروح القدس معك**» **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في صلاته: «**سبوح قدوس رب الملائكة والروح**» **أخرجه مسلم (٤٨٧) عن عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ﴾ أتاكم يا معشر اليهود ﴿رَسُولٌ﴾ من عند الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا يوافق أهواءكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبول الحق، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**» **أخرجه مسلم (٩١)**.

﴿فَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة من الأنبياء ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا﴾ طائفة أخرىٰ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ وهذا من أشنع، وأقبح الأفعال، فإذا كان قتل النفس المحرمة لا يجوز لعموم الناس، فكيف بأنبياء الله الذين أرسلهم؛ لإقامة الحجة الرسالية علىٰ البشرية، ولدعوتهم إلىٰ توحيد رب البرية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأبوا إلا أن يكذبوهم، ولم يكتفوا بذلك، بل زادوا علىٰ ذلك أن استحلوا دماءهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ معتذرين عن سوء فعلهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ جمع غلاف، وهو الذي عليه غشاء، ومعناه أن سبب إعراضنا، وعدم استجابتنا لدعوتكم أن قلوبنا مغلفة، ومغطاة، لا يصل إليها الحق، ولا تستجيب له، أو أنهم يريدون أنها مغلفة لا تفقه، كالذي يقول - إستهتارًا لك- أنا لا أفقه قولك، ولا أعلم ما تقول، فكأنهم قالوها من باب السخرية بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نظير قول مشركي مكة: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

﴿بَل﴾ الواقع في سبب إعراضهم أن ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، فطردهم من رحمته؛ بسبب فعلهم القبيح بقتل الأنبياء، وتكذيبهم؛ وبسبب إعراضهم عن دينهم، وإذا كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول «**مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مِرَاتٍ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ**»، فكيف الحال بمن قتل، أو كذب نبيًا، وقد قال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٨-٧٩]، ﴿فَقَلِيلًا مَّا

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ قليلة استجابتهم؛ لأن الإنسان كلما أعرض عن دين الله عَزَّوَجَلَّ ضاق صدره عن قبول الحق، وقل فهمه للحق، وزاد طغيانه فقل الإيمان فيهم.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أتاهم ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ موافقًا ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة داعيًا إلىٰ التوحيد، والىٰ إفراد الله بما يجب له، وفيه من الأحكام والشرائع التي تدل علىٰ صدقه، وصدق الكتاب الأول التوراة، والإنجيل، ﴿وَكَانُواْ﴾ اليهود ﴿مِن قَبْلُ﴾ بعثة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستنصرون ببعثة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ علىٰ كفار المدينة من الأوس، والخزرج ويقولون: سيبعث رسول نقاتلكم تحت رايته، ونستأصل شأفتكم.

وفي حديث سَلَمَةَ بْنِ سَلَامَةَ بْنِ وَقْشٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وَكَانَ، مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، قَالَ: «كَانَ لَنَا جَارٌ مِنْ يَهُودَ فِي بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنْ بَيْتِهِ قَبْلَ مَبْعَثِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ، فَوَقَفَ عَلَى مَجْلِسِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ، قَالَ سَلَمَةُ: وَأَنَا يَوْمَئِذٍ أَحْدَثُ مَنْ فِيهِ سِنًّا، عَلَيَّ بُرْدَةٌ، مُضْطَجِعًا فِيهَا بِفِنَاءِ أَهْلِي، فَذَكَرَ الْبَعْثَ وَالْقِيَامَةَ وَالْحِسَابَ، وَالْمِيزَانَ، وَالْجَنَّةَ، وَالنَّارَ

فَقَالَ: ذَلِكَ لِقَوْمٍ أَهْلِ شِرْكٍ، أَصْحَابِ أَوْثَانٍ، لَا يَرَوْنَ أَنَّ بَعْثًا كَائِنٌ بَعْدَ الْمَوْتِ.

فَقَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ يَا فُلَانُ تَرَى هَذَا كَائِنًا؟ إِنَّ النَّاسَ يُبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى دَارٍ فِيهَا جَنَّةٌ. وَنَارٌ يُجْزَوْنَ فِيهَا بِأَعْمَالِهِمْ.

قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي يُحْلَفُ بِهِ لَوَدَّ أَنَّ لَهُ بِحَظِّهِ مِنْ تِلْكَ النَّارِ أَعْظَمَ تَنُّورٍ فِي الدُّنْيَا، يُحَمُّونَهُ ثُمَّ يُدْخِلُونَهُ إِيَّاهُ فَيُطْبَقُ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ النَّارِ غَدًا.

قَالُوا لَهُ: وَيْحَكَ وَمَا آيَةُ ذَلِكَ؟.

قَالَ: نَبِيٌّ يُبْعَثُ مِنْ نَحْوِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ مَكَّةَ، وَالْيَمَنِ.

قَالُوا: وَمَتَى تَرَاهُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيَّ وَأَنَا مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا.

فَقَالَ: إِنْ يَسْتَنْفِدْ هَذَا الْغُلَامُ عُمُرَهُ يُدْرِكْهُ.

قَالَ سَلَمَةُ: فَوَ الله مَا ذَهَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى بَعَثَ الله تعالى رسولهُ ﷺ، وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَآمَنَّا بِهِ وَكَفَرَ بِهِ بَغْيًا وَحَسَدًا، فَقُلْنَا: وَيْلَكَ يَا فُلَانُ أَلَسْتَ بِالَّذِي قُلْتَ: لَنَا فِيهِ مَا قُلْتَ؟ قَالَ: بَلَى. وَلَيْسَ بِهِ»، أخرجه أحمد (١٥٨٤١).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ رسول الله ﷺ ﴿مَّا عَرَفُواْ﴾ الذي عرفوه بصفته، المذكورة في كتبهم ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ كبرًا، وحسدًا، وبغيًا ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿بِئۡسَمَا﴾ بئس الذي اختاروه لأنفسهم حيث ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ﴾ أي: باعوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ بفاني زائل، والأولىٰ إذ أن الحجة قائمة عليه أن يشتروا الباقي الدائم، ولكنهم اشتروا الكفر بالإيمان، والنار بالجنة، والهدىٰ بالضلال ﴿أَن يَكۡفُرُواْ﴾ كفرهم ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الوحي، والقرآن ﴿بَغۡيًا﴾ حسدًا علىٰ ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ الوحي ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ محمد ﷺ وهو من ولد إسماعيل، وخرجت النبوة، والرسالة من ولد إسحاق، والحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ أليس الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران:٣٣].

﴿فَبَآءُو﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ عليهم ﴿عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾ آخر من الله عَزَّوَجَلَّ، لذنوبهم الكثيرة والمتنوعة، مما توجب الغضب عليهم ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ عذاب موجع، ومخزي.

فاستحقوا الغضب لسببين:

● **الأول**: تضييع التوراة، وتحريفهم لها. ● **الثاني**: الكفر بمحمد ﷺ.

وفيه: إثبات صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية، وهي ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع، ويخالف فيها أهل البدع من الأشاعرة، وغيرهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لليهود، ومن إليهم ﴿ءَامِنُوا۟﴾ أقروا، وانقادوا ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن علىٰ محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة:١٣٦].

﴿قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ بالتوراة، والإنجيل، وهذا كفر بالتوراة، والإنجيل؛ لأنهم أمروا في التوراة بالإيمان بعيسىٰ، ومحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأمروا في الإنجيل بالإيمان بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ بما سواه ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقا ومؤيدا ﴿لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة، والإنجيل ليس بمناقض، ولا مخالف لهما، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ قتلتم ﴿أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم صادقين في قولكم أنكم تؤمنون بالتوراة، والإنجيل المنزل إليكم.

وقد كفروا بالتوراة قبل مبعث محمدصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ومما يدل علىٰ ذلك ما جاء عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ، وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ.

فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي.

فَقَالَ: لاَ تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ الله .

قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ الله، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ الله شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ.

قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟.

قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا الله، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ الله .

قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ الله، وَلاَ أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ الله، وَلاَ مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ.

قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟.

قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا، وَلاَ يَعْبُدُ إِلَّا الله ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللهمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ» **أخرجه البخاري (٣٨٢٧).**

وفي حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» **أخرجه مسلم (٢٨٦٥).**

﴿٩٢﴾ ثم يخبر تعالىٰ عن عتو بني إسرائيل علىٰ أنبياءهم، ورسلهم مع عظيم منته عليهم. ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالتوراة، وما فيها من البيان، والوضوح، والإحكام، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل: ٨٩]، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ﴾ جعلتم ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد ذهاب موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الطور لميقات ربه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في هذا الصنيع من عبادة العجل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

﴿٩٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ﴾ عهدكم أن تطيعوا الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحدوه، وتفردوه بما يجب له، ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ أي الجبل؛ تهديدًا لهم من أجل أن يلتزموا العهد المأخوذ عليهم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من الميثاق ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد، وعزم، وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ أن يؤخذ الدين بقوة في مواطن فقال: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، وقال الله عَزَّوَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥]، ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: اسمعوا أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، وليس المراد بالسماع مجرد وصول الكلام إلىٰ الأذن، بل لابد من العمل والانقياد به ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا﴾ قولك أي: سماعًا مجردًا ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أمرك أي: تمردًا علىٰ شرع الله عَزَّوَجَلَّ، والواجب أن يقولوا سمعنا، وأطعنا، كما هو حال المؤمنين الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]

﴿وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ أي: دخل حب العجل في قلوبهم، واستوطنها، كإشراب اللبن في الماء حيث يتداخل، ولا يستطاع أن يميز اللبن من الماء ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ بسبب كفرهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بئس هذا الإيمان إذ تدّعونه، وأنتم تخالفون شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وما هذا إلا إيمانٌ مزعومٌ لا حقيقة له، لو كان إيمانًا حقًا لكان داعيًا لهم إلىٰ الاستجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

﴿٩٤﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ الجنة كما تزعمون ﴿عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ يوم القيامة ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾؛ وذلك بأنهم: ﴿قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [آل عمران:٢٤].

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: اطلبوه علىٰ ما زعمتم، وانتقلوا إلىٰ دار الحياة الخالدة، والنعيم المقيم، وتقع لكم الراحة من ذلة الدنيا، وخزيها، وهوانها، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

۞ وفي هذا دليل علىٰ أن الدعاوىٰ، إن لم يكن لها بينات فهي باطلة، وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ، وَأَمْوَالَهُمْ، وَلَكِنَّ الْيَمِينَ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ**» متفق عليه.

٩٥ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ الموت ﴿أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ بما عملوا، وما قدموا من الباطل، وهم يعلمون أنهم مجزيون به كما قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:٩٤]، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: مطلع علىٰ ما يصنعونه من الظلم، والمجاوزة، ومجازيهم علىٰ ذلك.

٩٦ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ وهذه سمة بينة ظاهرة فيهم ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ وأيضًا تجد المجوس، والمشركين من أحرص الناس علىٰ حياة؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، والنشور، فالمؤمن وإن كان يخاف الموت كراهية له، فهذا خوف جبلي، ولكنه طامع في ما عند الله راجيًا له.

فعن شريح بن هانئ عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ**» قَالَ: فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ عَنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا إِنْ كَانَ كَذَلِكَ، فَقَدْ هَلَكْنَا، فَقَالَتْ: إِنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ بِقَوْلِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله ، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ**»، وَلَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ.

فَقَالَتْ: قَدْ قَالَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ بِالَّذِي تَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ إِذَا شَخَصَ الْبَصَرُ، وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ، وَاقْشَعَرَّ الْجِلْدُ، وَتَشَنَّجَتِ الْأَصَابِعُ، فعندَ ذَلِكَ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله، أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله، كَرِهَ الله لِقَاءَهُ» رواه مسلم (٢٦٨٥).

﴿يَوَدُّ﴾ يتمنىٰ ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أن يطول عمره ألف سنة ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ﴾ بمُبَاعِدِه ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ هذا العمر الطويل، فلا عليكم معاشر اليهود، والمشركين أن يزيد عمركم أو يقل، فهذا لن يزحزحكم من العذاب، بل إن الكافر لا يزيده عمره إلا شرًا، والمؤمن لا يزيده عمره إلا خيرًا، كما ثبت عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يراها، ويعلمها، لا تخفىٰ عليه خافية، وهذا تهديد، ووعيد أنه سيجازيهم عليها يوم القيامة.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ وهو مقدم الملائكة عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وذلك أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين بعث جاءه يهود، فقالوا يا محمد من الذي يأتيك؟ فقال: «**لهم جبريل**» قالوا ذلك عدونا، فأبوا أن يسلموا.

وجاء في حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند البخاري (٣٩٣٨) أن عَبْدُ الله بْنُ سَلاَم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ جِبْرِيلَ** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، **عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلاَئِكَةِ**»، ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أي: الذي نزل بالقرآن علىٰ محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [النحل:١٠٢]. ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإذن الله الشرعي، والكوني.

والفرق بين الإذن الشرعي، والكوني:

أن الكوني لابد أن يقع، وأنه يكون في المحبوب، وغير المحبوب.

وأن الشرعي قد يقع وقد لا يقع، ولا يكون إلا في المحبوب.

﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه من الكتب كالتوراة، والإنجيل ﴿وَهُدًى﴾ دليل إلىٰ طريق الجنة، وإلىٰ سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ من النعيم المقيم.

﴿٩٨﴾ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[البقرة:٢٨٥].

بهذه الآية، وما في بابها استدل العلماء علىٰ تكفير من كفر بنبيٍ واحد، أو كذب، أو سب نبيًا واحدًا، أو سب ملكًا من ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ.

(وجبريل): هو الملك الموكل بالوحي، وهو أفضل الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

(وميكال) ويقال ميكائيل، هو الملك الموكل بالقطر، وكونه ذكر جبريل، وميكائيل بعد التعميم يدل علىٰ فضلهما، ومنزلتهما.

وقد أخرج الإمام أحمد (٢٤٨٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّا نَسْأَلُكَ عَنْ خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَنْبَأْتَنَا بِهِنَّ، عَرَفْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَاتَّبَعْنَاكَ، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ مَا أَخَذَ إِسْرَائِيلُ عَلَى بَنِيهِ، إِذْ قَالُوا: الله عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

قَالَ: «هَاتُوا».

قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ عَلامَةِ رسول الله .

قَالَ: « تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلا يَنَامُ قَلْبُهُ».

قَالُوا: أَخْبِرْنَا كَيْفَ تُؤَنِّثُ الْمَرْأَةُ، وَكَيْفَ تُذْكِرُ؟.

قَالَ: «يَلْتَقِي الْمَاءَانِ، فَإِذَا عَلا مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَتْ، وَإِذَا عَلا مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ أَنَّثَتْ».

قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟.

قَالَ: «كَانَ يَشْتَكِي عِرْقَ النَّسَا، فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلائِمُهُ إِلا أَلْبَانَ كَذَا وَكَذَا - قَالَ أَبِي: قَالَ بَعْضُهُمْ: يَعْنِي الْإِبِلَ فَحَرَّمَ لُحُومَهَا».

قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالُوا: أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ؟.

قَالَ: «مَلَكٌ مِنْ مَلائِكَةِ الله عَزَّوَجَلَّ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ بِيَدِهِ أَوْ فِي يَدِهِ مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ الله».

قَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟.

قَالَ: «صَوْتُهُ».

قَالُوا: صَدَقْتَ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ الَّتِي نُبَايِعُكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلا لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالْخَبَرِ، قالوا: فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ؟.

قَالَ: «جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ**»**.

قَالُوا: جِبْرِيلُ ذَاكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَالْقِتَالِ وَالْعَذَابِ عَدُوُّنَا، لَوْ قُلْتَ: مِيكَائِيلَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْقَطْرِ، لَكَانَ فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةَ».

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات، وهي القرآن ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ المعرضون الشاطُّون عن الطاعة.

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَكُلَّمَا﴾ تفيد التكرار ﴿عَٰهَدُوا۟﴾ أي: عاهد اليهود الله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَهْدًا﴾ من العهود التي بينهم، وبين الله عَزَّوَجَلَّ بتوحيده، وطاعته، أو بالعهود التي بينهم، وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدم الغدر به ﴿نَّبَذَهُۥ﴾ طرحه، ونقضه ﴿فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُم﴾ فكانوا ينكثون العهود، ويتركونها، وحالهم كحال من ينبذ الشيء من يده، وإن كان طائفة هي التي تنبذ، إلا أن البقية يوافقونهم، وربما سكتوا علىٰ باطلهم، فاشتركوا في الإثم، والوزر، والذم؛ لأن

الراضي كالفاعل، ولهذا كان من دين الإسلام: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» أخرجه مسلم (٤٩) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا التمالؤ من اليهود يدل علىٰ خبث في قلوبهم، حتىٰ أن المكر الذي يلبسون به لا يجعل لعقولهم مشاركة في أمر؛ لأن الماكر لا يراجع نفسه، ولا يستفيد من موعظة، ولا من ذكرىٰ، بل كلما سمحت له فرصة تمادىٰ في مكره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أن الواقع الذي جعلهم يتمادون في ما هم فيه من نقض العهود، والمواثيق، والمخالفة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ؛ أن أكثرهم متلبس بالكفر، والعناد، والشقاق، والنفاق، والكافر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

﴿١٠١﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: معه القرآن يصدق ما معهم من التوراة ﴿نَبَذَ﴾ طرح ﴿فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ التوراة، وما فيها من وصف محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ خلفهم فلم يعملوا بها، فأعرضوا عما في التوراة من وصف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكأنهم لا يعرفون التوراة، ولم يقرءوها يومًا؛ والسبب -والله أعلم- ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ عنهم من الحسد، والبغي، والكبر، والعناد، فقد اجتمعت فيهم هذه الأوصاف، فأزاغ الله عَزَّوَجَلَّ بها قلوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥]. ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حالهم حال الجهال الذين لا يعلمون الحق من الباطل، وهذا غاية الخسة، والذلة أن يوصف من قرأ التوراة، واطلع علىٰ ما فيها بالجاهل الذي لا يعلم شيئًا.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾ أي: نبذوا الكتاب، وأخذوا ﴿مَا تَتْلُواْ﴾ تلت، وكتبت ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ من كتب السحر، والشعوذة التي ورثوها من الجن، وليس من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الجن زعموا أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما تملكهم، وكان آمرًا، وناهيًا لهم بالسحر، وحاشاه من ذلك.

و(سليمان) هو ابن داود عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ آتاه الله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده؛ حين طلب منه ذلك حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾ [ص:٣٥-٣٩]. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ لم يكن السحر من سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو بعيد عنه؛ لأنَّ السحر كفر، وسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيٌّ كريم، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالسحر، وغيره ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾.

۞ وبهذا استدل العلماء علىٰ أن تعلُّم السحر، وتعليمه كفر أكبر مخرج من الملة.

۞ **وكفر الساحر من عدة أوجه:**

● **الأول**: ادعاء علم الغيب. ● **الثاني**: الاستعانة بالجن، والشياطين، والتقرب إليهم.
● **الثالث**: امتهان الكتاب، والسنة، وما في بابهما، إلىٰ غير ذلك.

﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ الذين يتعلمون منهم طرق ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ والشعوذة، والكهانة، والعرافة ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ السحر ﴿عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ جبرائيل وميكائيل عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، وإنما أنزل علىٰ شيطانين ﴿بِبَابِلَ﴾ منطقة في العراق، وهذان الشيطانان يقال لهما ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾.

وما يتناقله المفسرون في هذا الموطن من أن هاروت وماروت ملكان اعترضا علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بقولهما: كيف يا رب تكرم بني آدم، وهم يعصونك، ويتمردون علىٰ شرعك ودينك؟!، فابتلاهم الله وركب الشهوة فيهم، فنزلوا إلىٰ الأرض، فجاءتهم امرأة يقال لها الزهرة، فراودوها علىٰ نفسها، فأبت أن تمكنهم من نفسها إلا بالاسم الأعظم، فأعطوها الاسم الأعظم، فمُسخت إلىٰ نجم، فخُيروا بعد ذلك بين عذاب الدنيا والآخرة، فاختاروا عذاب الدنيا، فهم في بابل يعذبون إلىٰ يوم القيامة، فهذه إسرائيليات، ولا يلتفت إليها لنكارتها.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في (أحكام القرآن):**" قوله:﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ﴾ (ما) نفي، والواو للعطف علىٰ قوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾؛ وذلك أن اليهود قالوا إن الله أنزل جبريل، وميكائيل بالسحر، فنفىٰ الله ذلك.

وفي الكلام تقديم، وتأخير التقدير: وما كفر سليمان، وما أنزل علىٰ الملكين، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فهاروت، وماروت بدل من الشياطين في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا أولىٰ ما حملت عليه الآية من التأويل، وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلىٰ سواه، فالسحر من استخراج الشياطين، للطافة جوهرهم، ودقة أفهامهم، وأكثر ما يتعاطاه من الإنس النساء، وخاصة في حال طمثهن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾، وقال الشاعر: أعوذُ بربي من النافثات" .اهـ .

وهذا اختيار شيخنا يحيىٰ الحجوري حفظه الله.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ هاروت، وماروت ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ السحر ﴿حَتَّىٰ يَقُولَآ﴾ نصحًا ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ بلاء، واختبار ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ وهذا من علمهما بأن السحر كفر، وهذا من تمام إقامة الحجة من الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الساحر؛ حتىٰ لا يتمادىٰ في شأنه،﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي: مرتادي السحر ﴿مِنْهُمَا﴾ من هاروت، وماروت ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهذا نوع من أنواع السحر، ويسمىٰ: بـ(الصرف، والعطف)، فما كان يعمل لتحبيب الزوج إلىٰ زوجته فهو العطف، وما كان لتبغيض الزوج إلىٰ زوجته فهو الصرف، وإلا فالسحر أنواع.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتح القدير (١/ ١٤١): "﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ أَبْلَغُ إِنْذَار، وَأَعْظَمُ تَحْذِيرٍ، أي: أَنَّ هَذَا ذَنْبٌ يَكُونُ مَنْ فَعَلَهُ كَافِرًا فَلَا تَكْفُرْ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تَعَلُّمَ السِّحْرِ كُفْرٌ، وَظَاهِرُهُ عَدَمُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُعْتَقِدِ وَغَيْرِ الْمُعْتَقِدِ، وَبَيْنَ مَنْ تَعَلَّمَهُ لِيَكُونَ سَاحِرًا وَمَنْ تَعَلَّمَهُ لِيَقْدِرَ عَلَى دَفْعِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ فِي إِسْنَادِ التَّفْرِيقِ إِلَى السَّحَرَةِ وَجَعْلِ السِّحْرِ سَبَبًا لِذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلسِّحْرِ تَأْثِيرًا فِي الْقُلُوبِ بِالْحُبِّ وَالْبُغْضِ، وَالْجَمْعِ وَالْفُرْقَةِ، وَالْقُرْبِ وَالْبُعْدِ.

وَقَدْ ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَى أَنَّ السَّاحِرَ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا أَخْبَرَ الله عَزَّوَجَلَّ بِهِ مِنَ التَّفْرِقَةِ؛ لِأَنَّ الله ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ لِلسِّحْرِ وَبَيَّنَ مَا هُوَ الْغَايَةُ فِي تَعْلِيمِهِ، فَلَوْ كَانَ يَقْدِرُ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ لَذَكَرَهُ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: إِنَّ ذَلِكَ خَرَجَ مَخْرَجَ الْأَغْلَبِ، وَأَنَّ السَّاحِرَ يَقْدِرُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ وَقِيلَ: لَيْسَ لِلسِّحْرِ تَأْثِيرٌ فِي نَفْسِهِ أَصْلًا، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَا تَنَافِيَ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فَإِنَّ الْمُسْتَفَادَ مِنْ جَمِيعِ ذَلِكَ أَنَّ لِلسِّحْرِ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُ ضَرَرًا إِلَّا فِيمَنْ أَذِنَ الله بِتَأْثِيرِهِ فِيهِ. وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ لَهُ تَأْثِيرًا فِي نَفْسِهِ وَحَقِيقَةً ثَابِتَةً، وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ إِلَّا الْمُعْتَزِلَةُ وَأَبُو حَنِيفَةَ " اهـ .

﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ﴾ بالسحر ﴿ مِنْ أَحَدٍ ﴾ ممن سحروه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الكوني أما الإذن الشرعي فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد حرم السحر، وأمر بقتل الساحر، فعن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وله حكم الرفع: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» أخرجه عبد الرزاق.

وكتب عمر ابن الخطاب إلىٰ عامله: «أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ»، وقتلت حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ساحرة سحرتها.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "قتل الساحر ثبت عن ثلاثة من الصحابة".

۞ **ومما تقدم** يحرم تعلم السحر، وتعليمه، وتصديق أهله، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَتَى كَاهِنًا، أَوْ عَرَّافًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى** محمد» **أخرجه البزار، وجاء عن أبي هريرة عند أحمد، وفيه انقطاع بين أبي تميمة الهجيمي، وأبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وصح عند البزار من قول ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **وله حكم الرفع.**

وَعَنْ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من اقتبَسَ علْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتبَسَ شُعبَةً مِن السِّحرِ، زادَ ما زادَ**» **أخرجه أبو داود (٣٩٠٥).**

وأما حديث بَعْضِ أَزْوَاجِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**» اخرجه مسلم (٢٢٣٠) فيحمل علىٰ من لم يصدقهم.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ السَّحرة ﴿مَا يَضُرُّهُمْ﴾ في دينهم، ودنياهم ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في دنياهم، وآخرتهم بل هو سبب خزيهم، وهوانهم.

وهذا رد علىٰ من جوَّز تعلم السحر، قالوا: إنما نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عن فعله ولم ينه عن تعلمه، فما كان منه نافعًا فلا بأس بتعلمه، وهذا قول باطل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وقال قبل ذلك ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فتعلمه، وتعليمه كفر، وأعظم أبوابه كما قال ابن الأمير الصنعاني حيث قال: السِّحر ... أنواع، وتعلُّمُه ليس بالعسير، بل بابُه الأعظمُ هو الكفرُ بالله وإهانةُ ما عظَّمه الله، مِن جعل مُصحَف في كَنيف ونحوه.**انتهىٰ**، فكلما كان الإنسان أكثر شركًا وطاعة للشيطان كلما كان أسْحَر وأقوىٰ في هذا الباب.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ أن سحر عُبَّاد الأصنام أشد من سحر اليهود، والنصارىٰ، وسحر اليهود، والنصارىٰ أشد من سحر من انتسب إلىٰ الإسلام.

﴿وَلَقَدْ﴾ الـ(لام) لام القسم ﴿عَلِمُوا۟﴾ اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ اختاره علىٰ ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في التوراة، وبما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في كتبه المنزلة، وهو هنا في القرآن لمن حصله، واقتناه ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من نصيب، ولا حظ، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ**» متفق عليه عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟﴾ باعوا ﴿بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث أضاعوا حظها الأخروي بدنيا زائلة ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ ما ينفعهم ما أقدموا علىٰ هذا الفعل المهين، ولكنهم لا يعلمون، ولا يفقهون؛ بسبب ما هم فيه من الكفر الصراح، والمخالفة الواضحة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، ولسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿ءَامَنُواْ﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله، وما أنزل ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ راقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في السراء، والضراء ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ لأجر ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ لهم في الدنيا، والآخرة ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ ولكنهم لا يفقهون.

❁ **فـ(السحر) له حقيقة** وقد سُحِرَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: سَحَرَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَهُودِيٌّ مِنْ يَهُودِ بَنِي زُرَيْقٍ، يُقَالُ لَهُ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ: قَالَتْ حَتَّى كَانَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ، وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ ذَاتَ لَيْلَةٍ، دَعَا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ دَعَا، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ أَشَعَرْتِ أَنَّ اللهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟ جَاءَنِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ، أَوِ الَّذِي عِنْدَ رِجْلَيَّ لِلَّذِي عِنْدَ رَأْسِي: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: مَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ، قَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ، قَالَ: وَجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ**» قَالَتْ: فَأَتَاهَا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: « **يَا عَائِشَةُ وَاللهِ لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**» قَالَتْ فَقُلْتُ: يَا رسول الله أَفَلَا أَحْرَقْتَهُ؟ قَالَ: «**لَا أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِي اللهُ، وَكَرِهْتُ أَنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، فَأَمَرْتُ بِهَا فَدُفِنَتْ**» **متفق عليه، واللفظ لأحمد.** وهو مرض من الأمراض التي تنزل بالإنسان فتغير مزاجه وطبعه.

❁ **وقد اختلف العلماء في مسألة إحالة الذوات**، هل يستطيع أن يقلب الذكر إلىٰ أنثىٰ والإنسان إلىٰ حيوان، فاستبعد ذلك قوم، **وهذا هو الصحيح**، فلو كانوا يستطيعون ذلك لفعلوا الأفاعيل، ولكنهم أعجز من ذلك، فقد يتسلطون بإذن الله الكوني علىٰ بعض عقول البشر، فيفسدونها ويلعبون بهم، فإنه يظهر للمجنون الجني، أو الجنية فيتلاعبون به، فلذلك تجد المجنون يتكلم ويخاطب، والله المستعان.

❁ **واختلف العلماء في توبة الساحر، والصحيح** أنها مقبولة منه إن أداها بشروطها فغاية السحر أنه كفر، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنفال:٣٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

ينهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين عن بعض الألفاظ الموهمة، وهذا من المهمات أن الإنسان لا يتكلم إلا بلفظ صحيح صريح لا إشكال فيه، ولا إيهام، فإن اليهود كانوا يستخدمون لفظ (راعنا) من (الرعونة)، وقيل معناها (اسمع لا سمعت)، وكان المسلمون يستخدمون هذا اللفظ علىٰ معنىٰ(**الانتظار**)، أو (راع أحوالنا)، فتسلق اليهود بهذا اللفظ الموهم إلىٰ الطعن برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿١٠٤﴾ فقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ انتظرنا، أو انظر أحوالنا، فالألفاظ الشرعية تغني عن هذا اللفظ الموهم، مع أن الصحابة كانوا بعيدين كل البعد عن مشابهة اليهود.

﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ أي: اسمعوا لأمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، سمع استجابة، لا سمع إنصات، فإن سمع اليهود كما قال تعالىٰ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وسمع الاستجابة معناه الطاعة لله ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لليهود، والنصارىٰ، وغيرهم من المشركين عذاب موجع؛ بسبب إعراضهم، وسخريتهم بالدين.

۞ وفي هذا دليل علىٰ أن الاستهزاء بالدين، وسب الأنبياء كفر مخرج من الملة.

﴿١٠٥﴾ ثم قال تعالىٰ عنهم محذرًا المسلمين من الركون إلىٰ الكفار: ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ لا يحب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود، والنصارىٰ ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عباد الأصنام، وذلك لما عندهم من البغض، والحقد، والكره، والحسد للمسلمين، ولن يرضوا عن المسلمين إلا أن يتركوا دينهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ القرآن، والنبوة، والرسالة، وغير ذلك، فإنهم كرهوا أن تكون النبوة في محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تكون في العرب، فإنهم يدّعون أن النبوة محصورة في أولاد إسحاق، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد أخبرهم بدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[البقرة:١٢٩].

﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ بالنبوة، والهداية ﴿مَن يَشَاءُ﴾ من عباده كما قال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦٩]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨].

۞ وفي الآية إثبات مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، خلافًا للمعتزلة من أن العباد يفعلون أعمالهم خارجًا عن مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَاللَّهُ ذُو﴾ صاحب ﴿الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، العطاء الواسع، فمن فضله الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾، ومن فضله الهداية للقرآن ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾، ومن فضله اختصاص محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة إلىٰ العالمين، وجعل هذه الأمة خير الأمم، وأفضال الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده كثير، وإنعامه بالغ، وسابغ.

﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَا نَنسَخْ﴾.

۞ (**النسخ**): الإزالة، والتغيير، والنقل، ومنه قولهم: نسخت الشمس الظل، وقد يكون مع تبديل حكم، وقد تكون بغير تبديل، كقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ

ءَايَتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]. والمراد به هنا إزالة حكم بحكم آخر ﴿مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ من قلبك فلا تذكرها. ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ بما هو أنفع لكم منه.

۞ وفي هذا رد علىٰ اليهود؛ ومن إليهم الذين ينكرون النسخ، والتبديل، وشابههم الرافضة في ذلك، ويقولون: إثبات النسخ يلزم منه البداء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والله منزه عن ذلك ومعنىٰ ذلك أنه: (**شرع شيئًا ثم بدا له غيره**).

والجواب أنه لا يلزم ذلك، ولكن لله عَزَّوَجَلَّ الحكمةُ يشرع شريعة، ثم ينسخها بخير منها، أو مثلها؛ رحمة بالمؤمنين، وزيادة في أجورهم، واختبارًا لصدقهم، ونحو ذلك من المصالح.

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فتح القدير (١/ ١٤٧): "وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ عَلَى ثُبُوتِهِ سَلَفًا وَخَلَفًا، وَلَمْ يُخَالِفْ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ لَا يُعْتَدُّ بِخِلَافِهِ وَلَا يُؤْبَهُ لِقَوْلِهِ. وَقَدِ اشْتُهِرَ عَنِ الْيَهُودِ- أَقْمَاهُمُ الله - إِنْكَارُهُ، وَهُمْ مَحْجُوجُونَ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ الله قَالَ لِنُوحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ السَّفِينَةِ: إِنِّي قَدْ جَعَلْتُ كُلَّ دَابَّةٍ مَأْكَلًا لَكَ وَلِذُرِّيَّتِكَ، وَأَطْلَقْتُ ذَلِكَ لَكُمْ كَنَبَاتِ الْعُشْبِ مَا خَلَا الدَّمَ فَلَا تَأْكُلُوهُ، ثُمَّ قد حرّم على موسى وَعَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَثِيرًا مِنَ الْحَيَوَانِ. وَثَبَتَ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ آدَمَ كَانَ يُزَوِّجُ الْأَخَ مِنَ الْأُخْتِ، وَقَدْ حَرَّمَ الله ذَلِكَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وَعَلَى غَيْرِهِ. وَثَبَتَ فِيهَا أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أُمِرَ بِذَبْحِ ابْنِهِ، ثُمَّ قَالَ الله لَهُ لَا تَذْبَحْهُ، وَبِأَنَّ مُوسَى أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْتُلُوا مَنْ عَبَدَ مِنْهُمُ الْعِجْلَ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِرَفْعِ السَّيْفِ عنهم، ونحو هذا كثيرا في التوراة الموجودة بأيديهم" .اهـ.

* وهنا تنبيه :

وهو أن النسخ إنما يدخل في الأحكام، ولا مدخل له في الأخبار، فلا يجوز أن ينسخ قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ وقوله: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، ونحو ذلك، وإنما تنسخ الأحكام، ففرض الله صيام عاشوراء، ثم نسخه بصيام رمضان، وكم من الأحكام التي نسخت في القرآن، والسنة، علىٰ ما يأتي ذكر بعضه في موطنه.

والقرآن ينسخ القرآن، وينسخ السنة، والسنة تنسخ السنة، وتنسخ القرآن علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم.

قوله ﴿مَا﴾ شرطية ﴿نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ نزيل آية محكمة في القرآن ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ ننسيكها يا محمد.

والمعنىٰ الآخر: ننساها نؤخرها، فلا ننزل حكمًا، أو نؤخرها في اللوح المحفوظ.

وقد رفع الله عَزَّوَجَلَّ من صدور الرجال سورة من المسبحات، وبعض من ﴿سورة الأحزاب﴾، وغير ذلك، ومما كان يقرأونه: (والشيخ، والشيخة إن زنيا فارجموهما البتة)، ومما كانوا يقرأونه: «**لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**» متفق عليه.

وقد ينسخ اللفظ، ويبقىٰ الحكم كما تقدم، وقد يكون النسخ للحكم، وبقاء اللفظ، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾ نسخها الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ علىٰ قول لأهل العلم.

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أنفع للعباد في السهولة، أو الأجر ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ في التكليف، والثواب، فمثلًا نسخ عاشوراء بصيام رمضان، فصيام شهر كامل، وقيامه فيه من الأجور ما الله به عليم.

ولايلزم في كل نسخ أن يأتي بمثله، أو بما يوافقه؛ لأن الخيرية لا يلزم منها الكثرة، فقد تكون الخيرية في الرحمة، والرفق.

ولا يجوز للمفتي أن يتصدر للفتوىٰ، وهو جاهل بالناسخ، والمنسوخ، فقد جاء إِنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَىٰ عَلَىٰ قَاضٍ يَقْضِي فَقَالَ: أَتَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ**».

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يا محمد، ويعلم من يسمع الكتاب المنزل ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، لا في نسخ أحكامه، ولا في مخلوقاته.

(١٠٧) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للتقرير، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك المطلق لا القاصر، فإن الإنسان قد يملك بيتًا، أو أرضًا، أو متاعًا، لكنه لا يتصرف في ملكه علىٰ الوجه المشروع إلا كما أمر الملك وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإلا كان عاصيًا، بينما الله عَزَّوَجَلَّ له الملك المطلق قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران:٢٦].

﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ قريب، وصديق، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ معين علىٰ ما أنتم فيه.

(١٠٨) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ يا معاشر اليهود ﴿أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ﴾ محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذه نزلت في اليهود، مع أن سبب النزول لا يثبت، لكن السياق يقتضيها أنهم جعلوا يسألون رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأسئلة تعنتية.

ومنها ما في صحيح مسلم عن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ يهوديًا قال: «**يا** محمد جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ.

«**قَالَ: يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟**».

قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟

» **قَالَ: مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ الله** ».

قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ».

وقلنا إن الخطاب لليهود؛ لأن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أرسل إليهم، لا علىٰ أنهم آمنوا به واتبعوه، فهم قد تمردوا علىٰ شرعه قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ سألوه آيات بينات، وأدلة واضحات علىٰ صدقه، ومنها: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:١٥٣] ومع ذلك كفروا، وطغوا، وأبوا.

﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ﴾ يستبدل ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ اليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وعبادة القبور، والأضرحة: ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ التوحيد، والإسلام ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخطأ الطريق الموصل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وسلك طريق المغضوب عليهم بالغلو، أو طريق الضالين بالجفاء، فسواء السبيل وسطه فمن ذهب يمينًا أو شمالًا ضل، كما قَالَ حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ، اسْتَقِيمُوا فَقَدْ سَبَقْتُمْ سَبْقًا بَعِيدًا، فَإِنْ أَخَذْتُمْ يَمِينًا وَشِمَالًا، لَقَدْ ضَلَلْتُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا**»

أخرجه البخاري (٧٢٨٤).

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَدَّ﴾ أحبَّ ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود، والنصارىٰ ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم﴾ يرجعونكم ﴿مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فيحصل منكم الردة، فتصيروا ﴿كُفَّارًا﴾ مثلهم والكفر سببه البغي، أو الكبر، أو الجحود، أو الإعراض، ومنه كفر الإباء، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة:٣٤].

والداعي إلىٰ محبتهم حصول الردة للمسلمين أن ذلك كان ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:٥٤].

۞وهذا دليل صريح أنهم كانوا يعلمون أن المسلمين علىٰ حق، وإلا لو كانوا يظنون أن المسلمين علىٰ باطل ما حسدوهم، وإنما يقع الحسد إذا رأيت في المحسود نعمة، فقد علموا بنعمة الله علىٰ المسلمين التي قال تعالىٰ عنها: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

۞ و(الحسد): تمني زوال النعمة عن الغير، وقد يدخل فيها عدم محبة زيادة الخير للغير، والمسلم يجب عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ففي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ - أَوْ قَالَ: لِجَارِهِ - مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»، متفق عليه.

۞ **وللحسد أسباب ومنها:**

١- **سوء الظن**، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»، متفق عليه.

٢- **عدم الرضىٰ بقدر الله** عَزَّوَجَلَّ ، فإن الذي أعطاه النعمة هو الله .

٣- **ضعيف الإيمان** .

٤- **عدم محبة الخير للمسلمين** .

ثم إن من مساوئ الحسد أنه يقع بين متماثلين، فما يقع في الغالب بين طالب علم وتاجر، ولا تاجر، ومسؤول، ولا مزارع، وجزار.

وقد قيل: (**ما خلىٰ جسد من حسد ولكن الكريم يخفيه، واللئيم يبديه**).

وما أخرج إبليس من الجنة إلا الحسد كما تقدم، فالحسد خُلُقٌ إبليسي، ويهودي، فينبغي للمسلمين أن يتخلصوا منه، وأن تكون المحبة بينهم لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ في التوراة ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في شأن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك أبوا إلا الكفر، والعناد، والبغي، والحسد.

﴿فَٱعۡفُواْ﴾ اتركوهم ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ تجاوزوا عنهم ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ فيهم بالقتال، وكان منه إجلاء اليهود من خيبر، والنضير، وقينقاع، وقتل قريظة، وهكذا في عهد عمر تم إجلاء اليهود، والنصارىٰ من جزيرة العرب لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَأُخْرِجَنَّ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَتَّى لَا أَدَعَ إِلَّا مُسْلِمًا**» أخرجه مسلم (١٧٦٧) عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٠٩﴾ لا يعجزه شيء؛ لكمال قدرته، وعلمه.

١١٠ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾ وهذا أمر للمسلمين بالاستمرار، والثبات علىٰ ما هم عليه من الخير، ومن ذلك إقامة الصلاة فهي أظهر العبادات البدنية، وإيتاء الزكاة فهو أظهر العبادات المالية.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ وهذا عام في جميع الأعمال الصالحة، من صلة أرحام، وإحسان إلىٰ جيران، وصدق حديث، ووفاء بعهد ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: علىٰ أكمل الثواب، وأزكاه، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَقُولُ** الله عَزَّوَجَلَّ **مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا أَوْ أَزِيدُ**» **أخرجه مسلم(٢١٣٦٠)عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام:١٦٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾[الكهف:٤٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ مطلع.

١١١ ﴿وَقَالُواْ﴾ اليهود والنصارىٰ: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ وهذا من دعاويهم الباطلة التي يتبجحون بها بين الحين، والآخر، فقد قالوا: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة:١٨]. ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ ٨٠﴾ [البقرة:٨٠].

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ إن هي إلا أماني في قلوبهم، يتمنونها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ولن تتحقق لهم؛ لأنهم علىٰ كفر، وبغي، وَعَنَاد، ﴿قُلْ هَاتُوا۟﴾ هلموا ﴿بُرْهَٰنَكُمْ﴾ دليل، وحجة علىٰ قولكم.

۞ وفي هذا دليل لمذهب العلماء علىٰ **(أن علىٰ المدعي البينة وعلىٰ المنكر اليمين)**، فقد طولبوا بالبينة علىٰ دعواهم، وهذا عام في جميع الدعاوىٰ، ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، والحال أنهم كاذبون، ولكن لا يشعرون.

﴿١١٢﴾ ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ لرد دعواهم: ﴿بَلَىٰ﴾ يدخل الجنة غيرهم وهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أهل التوحيد في كل زمن وحين، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أحسن في إسلامه، وأخلص لله عَزَّوَجَلَّ، فعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ**» وجاء من حديث حكيم بن حزام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكلها في الصحيح.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ شامل لجميع معاني الإحسان مع الله بتوحيده، ومع محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بمتابعته، ومع الخلق ببذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، وطلاقة الوجه ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ ثوابه المضاعف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٦١]، ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يوم القيامة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يأتي ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ علىٰ ما مضىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣].

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ مسفهةً لدين النصارىٰ ﴿لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ هذا في حال اختلافهم، والآية الأولىٰ في حال اتفاقهم علىٰ أهل الإسلام، وأصابوا في هذا القول، فالنصارىٰ قد أشركوا، وغيروا، وبدلوا، فليسوا علىٰ شيء، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ مسفهةً لدين اليهود ﴿لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ وأصابوا في هذا القول، فإنهم مشركون منددون.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنهم جميعًا ليسوا علىٰ شيء حيث قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [سورة المائدة:٦٨]، فكلهم مشرك منددٍ، وكافر مفسد.

قالوا هذا القول ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ﴾ يقرؤون ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، والإنجيل المنزلة من عند الله ، ولكنهم قد حرفوها، وغيروها، وبدلوها، أو أنه يحمل علىٰ أنهم يسمعون القرآن، وما

فيه من الحكم الباهرات، والآيات البينات، ومع ذلك يخالفونه. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل قولهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ المقلدون لهم؛ لأن الذي قال ليست اليهود علىٰ شيء هم علماء النصارىٰ، والذي قالوا ليست النصارىٰ علىٰ شيء هم علماء اليهود، ثم تبعهم الأتباع علىٰ ذلك ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ والقول بلا علم سبب كل ضلال، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] ، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦].﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ يقضي ﴿بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يوم الجزاء ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فيدخل أهل الإيمان الجنة، وأهل الكفر النار.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾.

يخبر الله عَزَّوَجَلَّ بما عليه أهل الكفر من الظلم العظيم؛ بسبب منع مساجد الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعبد فيها، ويذكر فيها اسمه، فهم بهذا علىٰ خطر عظيم، وجُرمٍ كبير جسيم؛ إذا أعتدوا علىٰ بيوت الله، ومنعوها ممن يقصُدها لعبادة الله .

ومن أشد من يسلك هذا المسلك في هذا الزمن اليهود في فلسطين، والرافضة في بلاد اليمن، وغيرها من البُلدان، فلهم خزي وعذاب عظيم في الدنيا والآخرة، لاسيما من مات علىٰ ذلك.

١١٤ ﴿وَمَنۡ﴾ لا ﴿أَظۡلَمُ﴾ أشد ظلمًا، وبغيًا ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يُراد بالمساجد موطن العبادة، وقد يُراد بها ما هو أعم وهو الصلاة، والتسبيح كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [الجن:١٨].

﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا﴾ في المساجد، والعبادات ﴿ٱسْمُهُۥ﴾ تعالىٰ فيُصلىٰ له، ويُسجد له، وهكذا أغلب العبادات عائدة إلىٰ ذكر اسم الله عَزَّوَجَلَّ، فيدخل الإنسان في العبادة بِسْم الله ، ويخرج منها بِسْم الله، وهو بين ذلك يدعو الله عَزَّوَجَلَّ .

﴿و﴾ لا أظلم ممن ﴿سَعَىٰ﴾ مضى وشرع ﴿فِى خَرَابِهَآ﴾ إما حسًا كما فُعل بخراب بعض المساجد، وأما معنًىٰ بمنع عُمّارها من إتيانها وقصدها، وأعظم الخراب خرابُها من العُمّار، أو تُجعل مأوىٰ للزندقة، والإلحاد. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ الذين منعوها، وسعوا في خرابها ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ ذكر أهل العلم أن هذا خبر يُراد به الأمر أي: لا تجعلوهم يدخلون هذه المساجد بعد تمكنكم منها، إلا بهُدنة، أو جزية، أو موادعة؛ و لذلك حرم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الكفار دخول المسجد الحرام، ولا يستبعد أنهُ يُراد بهِ الخبر؛ فإن كثيرًا من المبطلين يُجازيهم الله عَزَّوَجَلَّ بمثيل فعلهِم القبيح. ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ من حيث أنهم منعوا مساجد الله عَزَّوَجَلَّ، فسلط عليهم بظلمهم، ويذمهم الناس علىٰ سوء فعلهم، ويحتقرونهم ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: شديد موجع.

﴿وَلِلَّهِ﴾ جهة ﴿ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ فأين شاء وجّهكم، وهذه تعزيه للمسلمين، فأن كُنتُم قد مُنعتم من الكعبةِ والصلاةِ فيها، فاعلموا أن لله المشرق، والمغرب، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟﴾ تتجهوا لصلاتكم ﴿فَثَمَّ﴾ هنالك ﴿ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ فالجهات لله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يمنع من إثبات الوجه لله عَزَّوَجَلَّ بهذه الآية؛ لأن الوجه يُراد بهِ الجهة تارة، لاسيما في هذه الآية، ويُراد بهِ الصفة حقيقة.

وممن ذهب للجمع بين الأمرين الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستدل بحديث «**فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ الله يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ**» **اخرجه الترمذي (٢٨٦٣) عن الحارث الأشعري** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ والله محيط بكل شيء وفوقه، وذهب شيخ الإسلام أن الآية من آيات الأحكام.

قلنا بذلك؛ لأن بعض المُبتدعة استدل بتفسير بعض السلف لـ(**وجه**) في هذه الآية بالجهة علىٰ أنهم قد أولوا (**صفة الوجه**)، وليس كذلك، فانتفاء الدليل لا يلزم منه انتفاء المدلول.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ذو سعة في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، فيوسع علىٰ عباده في أرزاقهم، ويوسع عليهم من المضائق، ويوسع عليهم بكف أعدائهم، إلىٰ غير ذلك، وواسع في سمعه، وعلمه، وبصره، وقدرته، وإحاطته، وذاته.

١١٦ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وهذا قول النصارىٰ واليهود، والمشركين أيضًا؛ لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، وهذا من أقبح القول؛ إذا جعلوا لله عَزَّوَجَلَّ الصاحبة والولد، قال تعالىٰ مخبرًا عن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣] ؛لأن الصاحبة يحتاجها الإنسان المخلوق الضعيف في نفسة، فيحتاج إلىٰ من يعينه في طبخه، وأكله، وشُربه، وإلىٰ إيناسه، وقضاء وطره، ويحتاج الولد لما يلحقهُ من الموت، والله عَزَّوَجَلَّ هو الحي القيوم.﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: ينزه الله عَزَّوَجَلَّ عن هذه الدعوة القبيحة، وهذه المسبة السيئة لله عَزَّوَجَلَّ، ففي حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ الله تعالى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ وَيُعْطِيهِمْ**» **متفق عليه**. ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المُلْكُ أَجْمَعُ خلقًا، وإيجاداً، ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ طائعون، والطاعة في حق المؤمن بامتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حق الكافر تكون عبادة القهر، قال بعضهم يسجد له ظلهم، أو يسجدون لَهُ، ويسبحونهُ بلسان الحال، لا بلسان المقال، إلىٰ غير ذلك

والله أعلم كيف يكون، لكن أثباتها بلسان الحال في حق الكافرين أظهر؛ لأن بعضهم ما سجد الله سجدة، ولا سبح الله تسبيحة، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ خبرًا صادقًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، وقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، إلىٰ غير ذلك.

وفي معاني القنوت قال الحافظ في "الفتح":

وَلَفْظ الْقُنُوت أُعْدُدْ مَعَانِيهْ تَجِدهْ مَزِيدًا عَلَى عَشْر مَعَانِي مَرْضِيّهْ

دُعَـــاءٌ خُشُـــوعٌ وَالْعِبَـــادَة طَاعَـــهْ إِقَامَتهَـــا إِقْـــرَاره بِالْعُبُودِيَّـــهْ
سُـــكُوتٌ صَـــلَاةٌ وَالْقِيَـــام وَطُولُـــهْ كَـــذَاك دَوَام طَاعَـــة الـــرَّابِح الْقُنْيَـــهْ

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ﴾ مُبدعها، ومُنشؤها من العدم علىٰ غير مثال سابق ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ﴾ حكم، و أراد ﴿ أَمْرًا﴾ خلقا، وإيجادا ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا لبيان عموم قدرته.

وبعضهم يقول: (أمره بين الكاف، والنون) والصواب أن يقول: **(وأمره بعد الكاف، والنون)**، فهو مُبدع، وخالق، وموجد السموات، والأرض من العدم، ومع ذلك إذا قضىٰ أمرًا من الأمور، ومنها ما يأتي يوم القيامة من الأهوال، والخطوب ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٤٧]، في الحال لا يتأخر، ولا يتخلف.

۞ وفي الآية: إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ متكلم بحرف، وصوت، كما شاء، وكيف شاء.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قيل: اليهود، وقيل النصارىٰ، وقيل: مشركو العرب، ولا يبعد أن كلهم جاءوا بهذا الدعوة ﴿لَوۡلَا﴾ هلّا.

۞ وكل ما في القرآن **(لولا)** فهي بمعنىٰ **(هلّا)**، إلا قوله: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات:١٤٣]، إخبار بأنه سبح.

﴿يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ بأنك رسوله ونبيه، فإذا فعل ذلك آمنا بك، وهذا عناد منهم، ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ مما اقترحناه علىٰ صدقك، وقد أتت الآيات الذين من قبلهم، فما آمنوا، ولا أسلموا، وأراهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ انشقاق القمر، ومع ذلك قالوا: ﴿ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴾ [القمر:٢].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما قال هؤلاء في سبب تكذيبهم لرسلهم: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ﴾ أي: طلبوا أن يخاطبهم الله عَزَّوَجَلَّ، أو يأتي بآيات بينات يطلبونها علىٰ صدق نبوة الأنبياء، ومع ذلك أتتهم الآيات، فما زادتهم إلا عتوًا، ونفورا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]. ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ في الكفر، والعناد، وبسبب تشابه قلوبهم، تشابهت أقوالهم.

ومن هذا تجد أن المبتدعة، تشابهوا في كثير من الأمور، فتشابهت أقوالهم، في رد الحق، وتأويل الكتاب، والسنة، فذهبوا إلىٰ تأويل الصفات، وتحريفها، إلىٰ غير ذلك.

۞ وفيه: أن الفساد لاحقٌ للإنسان؛ بسبب قلبه، كما قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ وفيه: أن أهل الباطل يتتابعون علىٰ باطلهم، وقد يختلفون في طرق إيراد الشبة، إلا أن المؤدىٰ واحد.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ﴾ وضحنا، وجلينا الحجج ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يستجيبون لأمر الله، ويطيعونه، ويمتثلونه، وهم أهل الإيمان.

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ القرآن، والوحي المنزل ﴿بَشِيرًا﴾ بالجنة، وما عند الله من الثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار، وما عند الله من العقاب ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ لعلم الله عَزَّوَجَلَّ بكفرهم، وقيل لا تُسأل عنهم لشدة ما لحقهم ﴿عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ النار، والحال كما قال تعالىٰ : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴾، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر:٨].

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ﴾ يا محمد، ولاعن أتباعك ﴿ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ مهما عملت؛ لتأليفهم أو لتقريبهم، والخطاب لمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو خطاب لأمته ﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿

﴿تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ دينهم المغير المحرف، وهو الكفر بعد الإسلام، فهو من عظيم الذنوب، وكبير الآثام في الدنيا، والأخرة، وعقوبته في الدنيا أنه يبيح الدم، والمال، والعرض، فعن ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**» **أخرجه البخاري**(٣٠١٧)، وفي الأخرة يُخلّد في النار كما قال تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦]، ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢١٧]. فلهذا تعلم أن اليهود والنصارىٰ يسعون في زحزحت المسلمين عن دينهم، وكلما تنازل المسلمون عن أمر جاءوا بأمر آخر، إذ أنهم لن يرضوا عنهم إلا بالردة، وترك دين الإسلام، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ إذًا فمن يطلب رضىٰ اليهود والنصارىٰ، ويقدمه علىٰ رضىٰ الله عَزَّوَجَلَّ لن يزداد منهم إلا بعدًا، وبطاعتهم إلا آصارًا، وأغلالًا.

۞ وفي هذه الآية التحذير البليغ من متابعة اليهود والنصارىٰ، فكون الله عَزَّوَجَلَّ يخبر خبرًا ويؤكده بأن اليهود والنصارىٰ لن يرضوا عن أهل الإسلام، فذلك أدعىٰ لأهل الإسلام أن يكونوا علىٰ حذر منهم، وبعدًا عنهم.

وعداوت اليهود والنصارىٰ للمسلمين ظاهرة جلية، وربما يعادونهم أكثر من معاداتهم للبوذيين، والهندوس، والمجوس، وغيرها من الديانات، كما أنهم فضلوا دين كفار قريش علىٰ دين محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والسبب؛ أن أهل الإسلام جاءهم من الله القرآن ناسخًا لدين أولئك، ومبينًا أنهم قد حرفوا، وبدلوا، ففضحهم الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلذلك لا تزال عداوتهم لهذا الدين وأهله ظاهرة.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الإسلام ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ الحق، وما عداه ضلال.

ولربما كان الهدىٰ الأول العلم، كما قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣].

والثاني: السبيل المسلوك، أو أن المراد قل إن هدىٰ الله هو الهدىٰ الحق، كما يقال أنت الرجل، والرجل أنت.

والمعنىٰ الأول اختاره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

﴿وَلَئِنِ﴾ لام القسم ﴿ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ طريقهم التي يدعونك إليها ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ القرآن الذي فيه البيان أن اليهود والنصارىٰ علىٰ دين محرف غير مرضي.

۞ وفي هذا تهديد عظيم لمتبع هوىٰ اليهود والنصارىٰ، بعد إقامة الحجة الرسالية عليه، أنه مخذول في الدنيا، ومركوس، ومعذب في الآخرة، فالحذر من اتباع أهواء الذين لا يعلمون: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:١٩].

﴿مَا لَكَ﴾ إن سلكت هذا المسلك ﴿ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحفظك ﴿ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يمنعك، ويعينك.

۞ وفيه: بيان أن النسب لا ينفع، والمال لا يشفع، وإنما الذي يُقرب من الله عَزَّوَجَلَّ هو العبادة، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] ، وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

﴿١٢١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيل المراد بهم أهل الإسلام الذين آتاهم الله القرآن ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يقرؤونه كما أنزل، فيُحلون حلاله، ويُحرمون حرامه، ويعملون به، كما روي عن بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلا يتعاطون القراءة المجردة، بل قراءة مع علم وعمل.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يقرأونه حتىٰ تلاوته ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: أن الداعي لتلاوتهم له حق تلاوته أنهم يقرون به، أنه كلام الله عَزَّوَجَلَّ ، ووحيه، وتنزيله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. فيجب العمل به، والانقياد له ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي: القرآن المنزل من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الكافرون، خسروا الدنيا، والآخرة.

﴿١٢٢﴾ ثم يقول الله عَزَّوَجَلَّ مذكرًا لبني إسرائيل بعظيم نعمته عليهم ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ النبوة، والرسالة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[المائدة:٢٠].

﴿ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ سواءً الحسية، أو المعنوية، فمن **المعنوية** التوراة، والإنجيل، والزبور، وجعل النبوة والرسالة فيه، و**الحسية** كإنزال المن، والسلوى. ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾أي: عالمي زمانهم، وإلا فإن هذا التفضيل قد نُسخَ بتفضيل أهل الإسلام، فهم المتبعون للنبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما قال الله :﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا ﴾ أي: احذروا يومًا عظيمًا فيه من الأهوال أنها ﴿لَّا تَجۡزِي﴾ تغني ﴿نَفۡسٌ﴾ وإن قربت ﴿عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [لقمان:٣٣] .﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ فداء ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ في إخراجهم من النار، أو تخفيف العذاب عنهم؛ لكفرهم، وحالهم كما قال تعالىٰ : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨].﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ .

﴿۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ﴾ اختبر ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ في قراءة ﴿إِبۡرَاهَامَ﴾ مفعول به مقدم ﴿رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ وهي الأوامر، والنواهي ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ جاء بهن علىٰ الوجه الذي أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧]، فقد وفىٰ بما أمر الله به، فأكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بأن جعل النبوة، والرسالة في ولده، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ قَالَ: «ابْتَلَاهُ اللهُ بِالطَّهَارَةِ: خَمْسٌ فِي الرَّأْسِ، وَخَمْسٌ فِي الْجَسَدِ؛ فِي الرَّأْسِ: قَص

الشَّارِبِ، وَالْمَضْمَضَةُ، وَالِاسْتِنْشَاقُ، وَالسِّوَاكُ، وفَرْق الرَّأْسِ وَفِي الْجَسَدِ: تَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَالْخِتَانُ، ونَتْف الْإِبطِ، وَغَسْلُ أَثَرِ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ» **أخرجه ابن جرير**.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ قَالَ: «لَمْ يُبْتَلَ أَحَدٌ بِهَذَا الدِّينِ، فَأَقَامَهُ إِلَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» **أخرجه ابن أبي شيبة**، وهو أول من اختتن فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ **وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِينَ سَنَةً بِالْقَدُّومِ**» **متفق عليه**.

فلما وفىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بما أمر الله به: ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ مبشرًا له ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ﴾ مصيرك ﴿لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قدوة في الدين للمؤمنين، فالإمام هو الداعي للخير، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

وكما قيل: **(بالصبر، واليقين تنال الإمامة في الدين)**.

فلن تصل إلىٰ مرتبة الإمامة، والقيادة الشرعية؛ إلا إذا جزت هذا الاختبار كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

فافعل المأمور ما استطعت إلىٰ ذلك سبيلًا؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

واترك المحظور؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

واصبر علىٰ المقدور؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٨]، واستغفر من جميع الذنوب والمعاصي، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

۞ ويطلق (الإمام) أيضًا علىٰ إمام الشر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١].

ولما رأىٰ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فضل الله الواسع، قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ اجعلهم أئمة ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى﴾ بالإمامة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين منهم.

والمعنىٰ: أن الله عَزَّوَجَلَّ سيجعل من ذريته أئمة، لكن الظالم، والمشرك، والملحد، المخالف لشرع الله عَزَّوَجَلَّ، لن يتحصل علىٰ هذه المرتبة العالية، والمكانة السامية.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿١٢٥﴾ ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخبرًا عن منّته علىٰ أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومبينًا عظم هذا البيت المشرّف المكرّم، ﴿وَ﴾ اذكر يا محمد ﴿إِذْ جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلْبَيْتَ﴾ الكعبة ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مرجعًا ومأوىٰ، وملجًأ، ومعاذًا لهم، سواءً كان العوذ الحسي، فإنهم كانوا يعوذون به مما يتخوفون من شدة القبائل، وثاراتها.

والعوذ المعنوي وهو ما يفعله كثير من المسلمين من التوجه إلىٰ البيت العتيق، يلجؤون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويرجون مغفرة ذنوبهم، وستر عيوبهم، وتكفير سيئاتهم، ولو لم يكن من فضل هذا البيت إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ أضافه إلىٰ نفسه تشريفًا، وتعظيمًا له، وحرم ما حوله من الحمىٰ، أن يصاد صيده، أو تلتقط لقطته إلا لمنشد، أو يُختلىٰ خلاه؛ وهذا لتعظيمه، زد علىٰ هذا أنه حرم علىٰ الكافرين أن يقربوا المسجد الحرام، مع أنه يجوز لهم أن يدخلوا بقية المساجد.

۞وهذا التحريم شرعي لا قدري، وإلا فإن الرافضة، والباطنية، وكثيرًا من عباد القبور يحجون، ويعتمرون، وقد كان بعض السلف يتعبد بالنظر إلىٰ البيت العتيق، والتفكر في ذلك، مع أننا لم نرَ ما يثبت في بركة النظر إليه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والعبادة المشروعة فيه الطواف حوله، وهي عبادة مختصة به، كما قال تعالىٰ: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة:١٢٥]، وسميت بالكعبة؛ لتكعبها، وزد علىٰ ذلك أنها قبلة، فرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخلها، ثم صلىٰ في جوانبها، ثم خرج وصلىٰ إليها، وقال: «**هذه القبلة**» **أخرجاه عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ضاعف الله عَزَّوَجَلَّ أجر الصلاة فيها، فجعل الصلاة في مسجد الكعبة أفضل من مائة ألف صلاة مما سواه من المساجد، فعن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**صَلَاةٌ**

فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ» أخرجه ابن ماجه (١٤٠٦).

﴿وَأَمْنًا﴾ مأمنًا لهم من الإغارات الواقعة في غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:١-٣]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧].

﴿وَٱتَّخِذُوا۟﴾ أيها الناس ﴿مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت ﴿مُصَلًّى﴾ تصلون خلفه، وهذه من موافقات عمر للقرآن؛ فإنه قال: « **يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ » **متفق عليه عن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وهذا من بركات إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٦-٩٧].

وقد ذهب جمع من المفسرين أن مقام إبراهيم في هذه الآية ليس هو الحجر الموضوع قريبًا من الكعبة، بل هو عام لجميع مقامات إبراهيم، فيدخل فيها:

١- **السعي بين الصفا والمروة.**
٢- **والوقوف بعرفة.**
٣- **والمبيت بمزدلفة.**
٤- **والقيام عند المشعر الحرام.**
٥- **والمبيت بمنىٰ.**
٦- **ورمي الجمرات**، وما يتعلق بها.

فهو مفرد أُضيف أفاد العموم؛ أي مقامات إبراهيم، وهذه من الكرامات أن جعل الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا من أعمال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزوجه هاجر مناسك للناس، وأي كرامة أعظم من هذه الكرامة، أن يجعل الله عَزَّوَجَلَّ أعمالك يُتأسىٰ بها للتقرب من الله عَزَّوَجَلَّ .

۞ وكان مقام إبراهيم ملتصق بالكعبة، وحوله عمر بن الخطاب للزحام عليه، ولو احتاجوا إلىٰ تأخيره أكثر جاز ذلك، وفي فضل الحجر الأسود عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ، وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ**».

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَيَبْعَثَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْحَجَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ**» أخرجه أحمد(٣٥١١).

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ أمرناهما أمرا شرعيًا حيث تعاونا في بناء البيت، والقيام علىٰ شأنه.

۞ و(إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ) هو جد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذبيح علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم، ولا عبرة بكلام أهل الكتاب من أن الذبيح هو إسحاق، فإن ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ علينا في ﴿سورة الصافات﴾، يرد دعواهم، فإنه ذكر الذبيح، ثم قال بعد ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]، فكانت البشارة بعد إرادة الذبح.

﴿أَن طَهِّرَا﴾ نظفًا.

۞ وفيه: استحباب تنظيف المساجد، وتبخيرها؛ لحصول الطمأنينة في مرتاديها، فيحصل لهم من ذلك انشراح الصدر حسًا، ومعنًا .

﴿بَيْتِيَ﴾ المراد به البيت الحرام، أضافه إلىٰ نفسه؛ تشريفًا ﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: الذين يدورون حوله علىٰ الوصف الذي بينه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد طاف سبعة أطواف من الحجر الأسود إلىٰ الحجر الأسود.

وذهب أبو حنيفة وغيره إلىٰ أنه يجزئ الشوط والثلاثة، وهذا قول ضعيف، فلا يجوز في الطواف إلا أن يطوف سبعة أشواط، من الحجر الأسود إلىٰ الحجر الأسود؛ كما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ**» أخرجه مسلم (١٢٩٧) عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ والطواف عبادة، وصلاة، حتىٰ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يرخص للحائض أن تطوف بالبيت.

فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**افْعَلِي كَمَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي**» **متفق عليه**.

۞ وقد ذهب جمع من أهل العلم إلىٰ شرطية الطهارة في الطواف، وذهب بعضهم إلىٰ الوجوب، والصحيح أنه مستحب، ومندوب، إذ لم يرد في ذلك غير فعل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأفعاله لا تدل علىٰ الوجوب مالم يقترن بها ما يدل علىٰ ذلك كما هو القول عند جماهير الأصوليين.

﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾ (العكوف) هو: الحبس علىٰ الطاعة، ويشرع في المسجد الحرام، وغيره، وأما ما جاء عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**مَا أُبَالِي أَفِيهِ أَعْتَكِفُ، أَوْ فِي بُيُوتِكُمْ هَذِهِ، إِنَّمَا الِاعْتِكَافُ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى**» **أخرجه عبد الرزاق وأصله في الصحيحين**، فالمراد به؛ لا اعتكاف أكمل، وإلا ففي قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ﴾ بيان صحة الاعتكاف في جميع المساجد، وعليه بوب البخاري في صحيحه. ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ المصلين، وذكر الركوع، والسجود دون غيرهما؛ لأنهما أظهر علامات الصلاة.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ مضاعفة الحسنة، والسيئة في الحرم، ولا دليل علىٰ مضاعفة السيئة، فعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَقُولُ** الله عَزَّوَجَلَّ **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ**» **اخرجه مسلم (٢٦٨٧)**.

ولكن قد يكون إثمها أعظم؛ من حيث انتهاك حرمة الزمان والمكان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج:٢٥].

حيث ذهب جمهور أهل العلم، وهو قول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا إلىٰ أن **(الإلحاد)** يشمل أي معصية، وهذه مصيبة إن كان كذلك.

لكن الذي يظهر لي -والله أعلم- أن المراد بـ(**الإلحاد**) ما هو أخص من مطلق المعاصي، فـ(**الإلحاد**) في الحرم أن يأتي بجُرمٍ فيه انتهاك لحرمة الحرم؛ لحديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى الله ثَلَاثَةٌ مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**» أخرجه البخاري(٦٨٨٢).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام داعيًا الله عَزَّوَجَلَّ الكريم العظيم المنان، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ﴾ صير ﴿هَٰذَا﴾ المكان ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذا أمن، وقد أجاب الله عَزَّوَجَلَّ دعائه كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص:٥٧]. ﴿وَٱرْزُقْ﴾ الرزق العطاء ﴿أَهْلَهُۥ﴾ قاطنيه، وساكنيه ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثمار الأرض ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهذه دعوة أخرىٰ من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزق أهل هذا البلد من الثمرات، وخص الدعوة بالمؤمنين؛ لا من غير وبدل. ﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا الزائل.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ حَدَّثَ عَنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً أُطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً مِنَ الدُّنْيَا**» أخرجه مسلم (٢٨٠٨). ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ ألجئه ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ بئس المرجع، والمآب مآبهم، وبئس الموطن موطنهم.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ الأسس التي قام عليها البيت ﴿مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ الكعبة ﴿وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ يعمل مع أبيه، واختلف من الذي بنىٰ البيت أولًا، فقيل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقيل بنته الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وليس ثمة نص صريح في بناء أحدهم للبيت، ولكن حَمَل العلماء أن الملائكة عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وضعوا قواعده، وبينوا مكانه، وآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ باشر البناء، ثم لما كان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رفع البناء.

عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: « لَمَّا احْتَرَقَ الْبَيْتُ زَمَنَ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، حِينَ غَزَاهَا أَهْلُ الشَّامِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، تَرَكَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ حَتَّى قَدِمَ النَّاسُ الْمَوْسِمَ يُرِيدُ أَنْ يُجَرِّئَهُمْ - أَوْ يُحَرِّبَهُمْ - عَلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَلَمَّا صَدَرَ النَّاسُ، قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْكَعْبَةِ، أَنْقُضُهَا ثُمَّ أَبْنِي بِنَاءَهَا؟ أَوْ أُصْلِحُ مَا وَهَى مِنْهَا؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَإِنِّي قَدْ فُرِقَ لِي رَأْيٌ فِيهَا، أَرَى أَنْ تُصْلِحَ مَا وَهَى مِنْهَا، وَتَدَعَ بَيْتًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَأَحْجَارًا أَسْلَمَ النَّاسُ عَلَيْهَا، وَبُعِثَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لَوْ كَانَ أَحَدُكُمُ احْتَرَقَ بَيْتُهُ، مَا رَضِيَ حَتَّى يُجِدَّهُ، فَكَيْفَ بَيْتُ رَبِّكُمْ؟ إِنِّي مُسْتَخِيرٌ رَبِّي ثَلَاثًا، ثُمَّ عَازِمٌ عَلَى أَمْرِي، فَلَمَّا مَضَى الثَّلَاثُ أَجْمَعَ رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَنْقُضَهَا، فَتَحَامَاهُ النَّاسُ أَنْ يَنْزِلَ بِأَوَّلِ النَّاسِ يَصْعَدُ فِيهِ أَمْرٌ مِنَ السَّمَاءِ، حَتَّى صَعِدَهُ رَجُلٌ، فَأَلْقَى مِنْهُ حِجَارَةً، فَلَمَّا لَمْ يَرَهُ النَّاسُ أَصَابَهُ شَيْءٌ تَتَابَعُوا فَنَقَضُوهُ حَتَّى بَلَغُوا بِهِ الْأَرْضَ، فَجَعَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَعْمِدَةً، فَسَتَّرَ عَلَيْهَا السُّتُورَ حَتَّى ارْتَفَعَ بِنَاؤُهُ، وَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنِّي سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّي عَلَى بِنَائِهِ، لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ خَمْسَ أَذْرُعٍ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ**».

قَالَ: فَأَنَا الْيَوْمَ أَجِدُ مَا أُنْفِقُ، وَلَسْتُ أَخَافُ النَّاسَ. قَالَ: فَزَادَ فِيهِ خَمْسَ أَذْرُعٍ مِنَ الْحِجْرِ حَتَّى أَبْدَى أُسًّا نَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَبَنَى عَلَيْهِ الْبِنَاءَ وَكَانَ طُولُ الْكَعْبَةِ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا زَادَ فِيهِ اسْتَقْصَرَهُ، فَزَادَ فِي طُولِهِ عَشْرَ أَذْرُعٍ، وَجَعَلَ لَهُ بَابَيْنِ: أَحَدُهُمَا يُدْخَلُ مِنْهُ، وَالْآخَرُ

يُخْرَجُ مِنْهُ، فَلَمَّا قُتِلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ كَتَبَ الْحَجَّاجُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وَيُخْبِرُهُ أَنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ قَدْ وَضَعَ الْبِنَاءَ عَلَى أُسٍّ نَظَرَ إِلَيْهِ الْعُدُولُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ: إِنَّا لَسْنَا مِنْ تَلْطِيخِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي شَيْءٍ، أَمَّا مَا زَادَ فِي طُولِهِ فَأَقِرَّهُ، وَأَمَّا مَا زَادَ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ فَرُدَّهُ إِلَى بِنَائِهِ، وَسُدَّ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ، فَنَقَضَهُ وَأَعَادَهُ إِلَى بِنَائِهِ» **متفق عليه**.

ويقولون ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ أعمالنا الصالحة، فإن قبول العمل، هو الغاية التي من أجلها يعمل العاملون، وينصب الناصبون، ويكدح الكادحون، ويتنافس المتنافسون، والله عَزَّوَجَلَّ إنما يتقبل من المتقين. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالنا ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأفعالنا فتوسلا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بسمعه لدعائهم، وعلمه بحالهم، أن يتقبل أعمالهم.

۞ وفي هذا رد علىٰ من زعم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار قال: (**علمك بحالي يغنيك عن سؤالي**).

﴿١٢٨﴾ وكان من قولهم:﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ منقادَين مستسلمين لأمرك، وشرعك. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾ نسلنا ﴿أُمَّةً﴾ طائفة ﴿مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ مستسلمة فاستجاب الله عَزَّوَجَلَّ لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصلح ولده إسماعيل وإسحاق، وجعل في ذريته النبوة، والكتاب.

۞ و(الأمة):تأتي بمعنىٰ الإمام، والجماعة، والملة، والفترة من الزمن علىٰ ما يأتي في مواطنه إن شاء الله .

﴿وَأَرِنَا﴾ علمنا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ (النسك) العبادة، والمراد أرنا أماكن عبادتنا، وقيل مواضع حجنا، وقال مجاهد: مذابحنا.

و(النسك) الذبيحة ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ﴾ ارزقنا الرجوع، والإنابة إليك إذا وقع منا الخطأ.﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ توسلًا باسم (**التواب، والرحيم**)؛ لمناسبة الحال، فـ(**الرحيم**) يتوسل به لصلاحهما وصلاح ذريتهما، و(**التواب**) توسلًا به بالتجاوز عن زللهما.

﴿١٢٩﴾ ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ أهل بيته في مكة ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ من أنفسهم، يتكلم بلسانهم، وهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَتۡلُواْ﴾ يقرأ ﴿عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ القرآن، والوحي ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ السنة ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ بالأعمال الصالحة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ في ملكه، والعزيز في حكمه وأمره، والعزيز في ذاته ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة، والحاكم علىٰ غيره، فتوسلا بهذين الاسمين العظيمين؛ مبينَين أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد أمرًا أمضاه.

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَمَن﴾ أي لا ﴿يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ دينه القويم الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل:١٢٠-١٢١]. ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ جهل حالها، وفعل ما يضرها فيخسر نفسه، وكان في عقله نقص، وفي فعله بعد فـ(**السفيه**) هو الذي لا يحسن التصرف في شأنه، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ﴾ [النساء:٥]، وهم صغار السن، أو ممن لم يلحقه الرشد، فكذلك من لم يأخذ بدين الإسلام الحق فهو من السفهاء حالًا، وقالًا، كما سيأتي في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٢]، وقد تقدم قول الله عَزَّوَجَلَّ في المنافقين: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة:١٣].

۞فـ(السفه) تارة يأتي بمعنىٰ الطيش، وتارة بمعنىٰ الجهل، وتارة بضعف الرأي، وكله حاصل في من رغب عن ملة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وعن الإسلام الحق.

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾ اخترناه ﴿فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ إذ جعل النبوة، والرسالة بعد إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في ذريته، وكفىٰ بهذا اصطفاءً، واختيارًا كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ

عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٣٣]. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في الآخرة له الأجر العظيم، وثواب خلص الصالحين.

۞ وكلمة (الصالحين) أشمل من غيرها، فيدخل فيها الأنبياء وهم ذروة الصالحين، ويدخل فيها الصديقون، والشهداء، وكل من صلح عمله الظاهر والباطن.

﴿١٣١﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ انْقَدْ، واخلص لله عَزَّوَجَلَّ بالإسلام.

۞ (والإسلام): هو الاستسلام لله بالطاعة، والانقياد له بالتوحيد، والبراءة من الشرك، واثبت علىٰ الإسلام الذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليك كقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء:١٣٦] أي: ازدادوا إيمانًا مع إيمانكم، وانقيادًا مع انقيادكم. ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ استسلمت، وانقدت ﴿لِرَبِّ﴾ خالقًا، ورازقًا، ومدبرًا ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كل ما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ .

﴿١٣٢﴾ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أَمَرَ، وفي قراءة: ﴿وَأَوْصَى﴾ بالملة، والإسلام ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ﴾ كما قال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨]، وهي كلمة الإخلاص، ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ أي: ووصىٰ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بنيه بها.

فقال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ﴾ اختار ﴿لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ ملة الإسلام، ففي حديث أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ الله الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، لَا الْيَهُودِيَّةُ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ، وَلَا الْمَجُوسِيَّةُ، مَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ**» أخرجه الترمذي(٣٧٩٣).

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]، وقال عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] دعوة إلىٰ الثبات علىٰ هذا الإسلام حتىٰ يلقىٰ العبد ربه، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: « **يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُبِي عَلَى دِينِكَ**» أخرجه ابن عاصم في (٢٣٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، و«**يَا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ** » أخرجه مسلم عن عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ومن دعوة المؤمنين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، والمأثور عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهم لا تنزع مني الإيمان بعد إذ أعطيتنيه**» **أخرجه الطبراني في الدعاء.**

وَعَنْ أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهم إني أسألك إيمانًا دائمًا**».

وَعَنْ عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإقرار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «**اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفذ**» **أخرجه الحاكم(٥٥٥)** ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾[إبراهيم:٣٥]، فالوصية بالثبات على الدين من المهمات.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿١٣٣﴾ ثم قال ردًا على اليهود الذي يزعمون أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصاهم بها: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ النزع ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ مُوصيًا لهم، إلى أكمل الطرق، وأحسن السبل: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ بعد موتي.﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ معبودك الذي تتعبد له ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾.

۞ وفي هذا دليل على أن الجد يقال له أب، فإن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ جدهم من جهة العمومة، وإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ جدهم من جهة الأبوة، وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الجد الأعلى.

﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا في تدبيره، ولا في عبادته. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لأمره مبتعدون عن نهيه، وزجره، مستسلمون له بالتوحيد.

﴿١٣٤﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبنيه ومن إليهم ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ سلفت، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الأعمال الصالحة، والانقياد لوحي الله وشرعه، فكان جزاؤها الجزاء الأوفى.

﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ أي: من أعمالكم التي ستُسألون عنها ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ كما لا تسألون عن عملهم، وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر:١٨].

۞ ويُستدل بهذه الآية على عدم الخوض فيما جرى بين الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم أمة قد سلفت، وسبقت، لها ما كسبت من الأجر الثواب، ولنا ما نتحمل من الأعمال، وكلٌ سيُسأل عن عمله.

وهم قد سبق لأكثرهم من الله عَزَّوَجَلَّ العفو، كما قال في شأن أصحاب بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٩]، وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الله اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**» أخرجه مسلم (٢٤٩٤).

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿١٣٥﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي: طائفة من اليهود، والنصارى ﴿كُونُوا۟ هُودًا﴾ على ملة اليهودية ﴿أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ على ملة النصرانية ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ يقع لكم الهدى، وهذا من سوء نُصحهم، وإلا فإنهم يعلمون أن الهدى في دين الإسلام، كما تقدم قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ [البقرة:١٤٦].﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بَلْ﴾ نتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ مائلًا عن الشرك إلى التوحيد، محققًا للعبودية، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لم يكن من المنددين كحال اليهود، حيث زعموا أن عزيرًا ابن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وحال النصارى حيث زعموا أن عيسى ابن الله ، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

(١٣٦) ﴿قُولُوٓاْ﴾ جميعًا بلسان الحال، والمقال ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ومعبودًا مع إفراده بما له في توحيده ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ أي: القرآن المبين المفصل، الذي نسخ الله به غيره من الكتب، والمهيمن عليها، المحفوظ من التحريف، والتغيير، والتبديل، وهو كلام الله المنزل غير مخلوق منه بدأ، وإليه يعود.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ رسول الله الكريم أبو الأنبياء بعده ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ جد نبينا الكريم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ﴿وَإِسۡحَٰقَ﴾ وهو جد أنبياء بني إسرائيل ﴿وَيَعۡقُوبَ﴾ وهو ابن إسحاق ابن إبراهيم عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ وهم أولاد يعقوب عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، وهم أثناء عشر سبطًا، علىٰ قول لأهل العلم. ﴿وَ﴾ ءامنوا بـ:﴿مَا أُوتِيَ﴾ أنزل علىٰ ﴿مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من الحق الذي أوحاه الله إليهم، وليس معنىٰ ذلك أن تؤمن بالتوراة، والإنجيل المحرفتين المبدلتين،﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ وهذا من الإجمال بعد التفصيل أي: نؤمن بكل ما أوتيه نبي، وبلّغه عن ربه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من حيث وجوب الإيمان بنبوتهم، ورسالتهم، وأما من حيث التفضيل فأفضلهم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ ونوح، عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، وهم المعبر عنهم بأولي العزم من الرسل، الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: لله عَزَّوَجَلَّ مستسلمون، ومنقادون، وكان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقرأ بهذه الآية في الركعة الأولىٰ من راتبة الفجر، ففي مسلم من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**أَنَّ رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، **كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا:** ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ **الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا:** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، **وفي رواية:** «**وَالَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ:** ﴿تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾»».

﴿١٣٧﴾ ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ أي: اليهود، والنصارىٰ، وغيرهم من المشركين ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ يا أتباع محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ حصل لهم الهدىٰ التام؛ باتباع كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: عن الكتاب، والسنة ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ في منازعة ومخالفة، وهم علىٰ ضلالة، ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يقيك الله عَزَّوَجَلَّ شرهم، فإنه يدافع عن المؤمنين كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [الحج:٣٨] ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائهم، ولقولهم الباطل، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالكم وحالهم، فينصر أوليائه ويذل أعداءه.

﴿١٣٨﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: دين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ فلا أحسن من دين الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]. ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ منقادون، متذللون، مستسلمون، مطيعون، فهي كلمة عامة.

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿١٣٩﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ أتخاصمونا يا معشر اليهود ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ وتأتون بالأمثلة الباطلة، وتدعون له الشريك، والنظير، والمثيل ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ لا شريك له ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لا نسأل عنكم، ولا تسألون عنا؛ وهذا علىٰ البراءة وليس علىٰ الإقرار لقوله تعالىٰ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون:٦].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ بينما أنتم منددون، ومشركون، ولا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ

ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

﴿١٤٠﴾ ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ وهذه دعوىٰ أخرىٰ من دعوىٰ اليهود والنصارىٰ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ معاذ الله ؛ فإن إبراهيم وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كلهم كانوا قبل ظهور اليهودية والنصرانية، فكانوا دعاة إلىٰ التوحيد، ثم إن اليهودية والنصرانية قد حُرفت، وغُيرت، وبُدلت عن دعوة موسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧] .

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ حين تدّعون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم منكم والجواب أن الله عَزَّوَجَلَّ أعلم، ﴿وَمَنْ﴾ لا ﴿أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يُسألون عن هذا، ويكتمون الشهادة، وهم يعلمون أنهم كاذبون، ومخادعون. ﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: أن الله مُطّلع علىٰ جميع شأنهم، فهو عالم الغيب والشهادة، وهذا علىٰ التهديد، والوعيد.

﴿١٤١﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ طائفة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ولّت، وذهبت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ من الأعمال الصالحات، أو الطالحات ﴿ وَلَكُمْ﴾ يا معاشر المتأخرين، والمخالفين ﴿ مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من الأعمال ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ كما لا يسألون عن أعمالكم فـ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر:٣٨].

الجزء الثاني

﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣ قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾.

يُخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عمّا قاله السفهاء حين حُولت القبلة من بيت القدس إلىٰ بيت الله الحرام الكعبة المشرفة، التي بناها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ،وقد تقدم أن السفه، الجهل، والطيش، وله غير ذلك من المعاني، ومن السفه التدخل في ما لا يعني، وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سُئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الرويبضة؟ قَالَ: «**السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**» **اخرجه احمد** (٧٩١٢).

١٤٢ ﴿سَيَقُولُ﴾ أي: قد قال ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أصحاب السفه، والطيش، والجهل ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (مِنَ) للتبعيض، وهم المخالفون الذين تكلموا، في مسالة تحويل القبلة بالباطل.

وكانوا ثلاثة أصناف:

١- **(منافقون)**، حيث زعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متشكك، لا يدري إلىٰ أين يصلي.

٢- **(يهود)**، حيث زعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خالف قبلة الأنبياء، وهذا دليل علىٰ مخالفته لدينهم.

٣- **(كفار العرب)**، حيث زعموا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد توجه إلىٰ قبلتهم، فيوشك أن يرجع إلىٰ دينهم.

﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ حولهم، وصرفهم ﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ جهة صلاتهم ﴿ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ بيت المقدس.

والمعنىٰ: ما الحامل، والسبب الذي دعا محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه إلىٰ التحول عن القبلة التي تتابع عليها الأنبياء، والمرسلون، واتجه إلىٰ الكعبة.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ ملكًا، وخلقًا، وإيجادًا، والأمر أمره، والحكم حكمه، يأمرهم أن يصلوا إلىٰ بيت المقدس، فكان الواجب عليهم الصلاة في ذلك الوقت إليه، ولو انحرفوا إلىٰ غيره مخالفين أمره لكفروا، وأمرهم أن يصلوا إلىٰ الكعبة، ولو انحرفوا إلىٰ غيرها قاصدين المخالفة، أو مستهزئين بدين رب العالمين، أو رادين لحكم الله عَزَّوَجَلَّ الذي أنزله عليهم لكفروا ﴿يَهْدِى﴾ يوفق، ويسدد ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، الدين القويم، الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ الله** جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ **قَالَ: وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ وَهُمُ الْيَهُودُ:** ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ﴾ فَأَنْزَلَ الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾» **أخرجه ابن إسحاق، وأصله في الصحيحين.**

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حولنا القبلة إلىٰ الكعبة المشرفة ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ صيرناكم ﴿أُمَّةً﴾ ملة ﴿وَسَطًا﴾ عدلًا خيارًا.

فعن بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:** ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ **قَالَ: إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله**». **أخرجه أحمد وهو في الصحيح المسند للشيخ مقبل بن هادي الوادعي** رَحِمَهُ اللَّهُ.

وفضائل هذه الأمة كثيرة، ولعلها تأتي عند قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

فاليهود غلوا في جهة، وفرطوا في أخرىٰ، والنصارىٰ غلوا في جهة، وفرطوا في أخرىٰ، وأهل الإسلام سلكوا المسلك الصحيح الوسط، بعيدا عن الغلو، والجفاء، والإفراط والتفريط، وقد دعا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ المتعمقين في الدين، فعن عَبْدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ، قَالَهَا ثَلَاثًا**» **أخرجه مسلم** (٢٦٧٠).

﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ يا معاشر المسلمين ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يوم القيامة، ففي حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ، قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَيُقَالُ لِنُوحٍ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ محمد وَأُمَّتُهُ فيشهدون له**». **أخرجه أحمد** (١١٢٨٣) **وأصله في البخاري.**

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ مخبرًا باستجابتكم، ومزكيًا لكم عند ربكم، كما أنه يشهد علىٰ المنافقين، واليهود، والنصارىٰ والمشركين بكفرهم وعنادهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١].

﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ صيرنا ﴿ٱلْقِبْلَةَ﴾ الجهة ﴿ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ الكعبة ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ علم وقوع وهو العلم الذي يتعلق به الثواب، والعقاب، وإلا فإن الله بكل شيء عليم أزلا وأبدًا ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ لا لهواه، وذوقه ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ مرتدًا مخالفًا شاكًا في دينه، فكان التحويل اختبارًا وابتلاءً؛ فإن كثيرًا من الناس قد يتشككون، لاسيما في هذا الأمر العظيم، وهو تحول القبلة إلىٰ الكعبة، فمن لم يقبل خبر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما أوحاه الله إليه كان منقلبًا علىٰ عقبيه، مرتدًا عن دين الإسلام.

﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي: تحويلها ﴿لَكَبِيرَةً﴾ ثقيلة علىٰ النفوس المعرضة المكابرة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ منهم فقد تعودوا، الانقياد، والاستجابة، وسهلت عليهم المتابعة لعلمهم أن الحق فيما جاء به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويدل علىٰ ذلك حديث الْبَرَاءِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَمَّا قَدِمَ**

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الْمَدِينَةَ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ -أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ- شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ الله تعالى:** ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، **فَوُجِّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، وَصَلَّى مَعَهُ رَجُلٌ الْعَصْرَ ثُمَّ خَرَجَ، فَمَرَّ عَلَى قَوْمٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ هُوَ يَشْهَدُ أَنَّهُ صَلَّى مَعَ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَأَنَّهُ قَدْ وُجِّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ فَانْحَرَفُوا وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْعَصْرِ»** متفق عليه.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَزَلَتْ:** ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، **فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً، فَنَادَى: أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ، فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ»** أخرجه مسلم (٥٢٧) .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: **«إِنَّ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَدِ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ، فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ»** متفق عليه.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ﴾ يبطل ﴿إِيمَٰنَكُمْ﴾ صلاتكم، كما في حديث البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين، وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند أبي داود (٤٦٨٠) قال: «لَمَّا تَوَجَّهَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْكَعْبَةِ قَالُوا يَا رسول الله، فَكَيْفَ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾».

۞ وبهذه الآية استدل أهل السنة والجماعة علىٰ أن الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، وأن الصلاة تسمىٰ إيمانًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ﴾ بالمؤمنين، فهو من العام الذي يراد به الخصوص ﴿لَرَءُوفٌ﴾ الرأفة أشد الرحمة ﴿رَّحِيمٌ﴾ أي: أنه حوّل القبلة، وفرض عليهم ما شاء من الشرائع؛ لرحمته ورأفته بهم، فيكرم المطيعين، ويجازي المتمردين.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿نَرَىٰ تَقَلُّبَ﴾ تصرف ﴿وَجْهِكَ﴾ يا محمد ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لدعاء الله عَزَّوَجَلَّ، ورجائه في تحويل القبلة ذلك؛ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يرجو أن يُحول الله عَزَّوَجَلَّ القبلة إلىٰ الكعبة، وكان يرفع رأسه إلىٰ السماء؛ لانتظار نزول الوحي. ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نحولنَّك يا محمد ﴿قِبْلَةً﴾ جهة.

۞ والأصل في حال الصلاة هو استقبال عين الكعبة، ومن عجز فإلىٰ جهتها، وهذا هو الحاصل في غير المسجد الحرام.

﴿تَرْضَىٰهَا﴾ تحبها، وهي الكعبة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ استقبل في الصلاة بوجهك ﴿شَطْرَ﴾ نحو ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: جهته ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: «لَمَّا دَخَلَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الْبَيْتَ دَعَا فِي نَوَاحِيهِ كُلِّهَا، وَلَمْ يُصَلِّ حَتَّى خَرَجَ مِنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فِي قُبُلِ الْكَعْبَةِ وَقَالَ: هَذِهِ الْقِبْلَةُ» **أخرجه البخاري(٣٩٨).**

والاستدلال به أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يصل داخل الكعبة مرجوح، فإن بلالًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ -كما نقل عنه ابن عمر- أثبت أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلىٰ داخل الكعبة، والمُثبت مقدم علىٰ النافي، ففي الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: «أَقْبَلْتُ وَرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدْ خَرَجَ وَأَجِدُ بِلالًا قَائِمًا بَيْنَ البَابَيْنِ، فَسَأَلْتُ بِلالًا، فَقُلْتُ: أَصَلَّى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الكَعْبَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، رَكْعَتَيْنِ، بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ عَلَى يَسَارِهِ إِذَا دَخَلْتَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَصَلَّى فِي وَجْهِ الكَعْبَةِ رَكْعَتَيْنِ» **متفق عليه.**

أو يحمل علىٰ أن أسامة أراد أنه لم يصل الفريضة داخلها، وإنما صلىٰ النافلة، أو أنه لم يره؛ إذ لعله شُغل بالنظر في أرجاء الكعبة، والله أعلم.

فالواجب علىٰ المسلم إذا كان في المسجد الحرام أن يصلي إلىٰ عين الكعبة، وإن كان لا يستطيع أن يحدد عينها؛ بأن يكون بعيدًا عنها، فقد لطف الله بعباده إذ شرع لهم الصلاة إلىٰ الجهة لا العين؛ إذ أنه لو أوجب عليهم العين لشق ذلك عليهم جدًا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي اليهود والنصارىٰ ﴿لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ﴾ تحويل القبلة ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد أنزل في التوراة والإنجيل شأن قبلة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ لكمال علمه، وكما تقدم أنها علىٰ التهديد.

وقد ذهب بعض المفسرين إلىٰ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يصلي إلىٰ الكعبة قبل فرض قبلة بيت المقدس، وهذا يحتاج إلىٰ دليل.

﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧ وَلِكُلِّ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾.

١٤٥ يقول الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مثبّتًا لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بعدم المبالاة بقول السفهاء، وتحضيضه علىٰ ملازمة القبلة التي أعطيها ﴿وَلَئِنۡ﴾ اللام للقسم ﴿أَتَيۡتَ﴾ يا محمد لبيان صدقك ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارىٰ ﴿بِكُلِّ ءَايَةٖ﴾ من الآيات الشرعية، أو الكونية، والمعجزات الظاهرة الجلية ﴿مَّا تَبِعُواْ﴾ أي: لا يتبعون ﴿قِبۡلَتَكَ﴾ يعني الكعبة لكفرهم بك، وبما جئت به. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡ﴾ بعد أن منَّ الله عليك بقبلة الكعبة، وما كان لك أن تعود إلىٰ التوجه إلىٰ بيت المقدس، وما جاز له ذلك.

﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖ﴾ أي: اليهود، والنصارىٰ، مع أنهم أهل كتاب، ومن أمة واحدة، فلم يستقبل بعضهم قبلة بعض، فكيف يطلبون منك أن تتبع قبلتهم؟!. ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ أهواء اليهود، والنصارىٰ دليل هل أن اليهود، والنصارىٰ لا يتعبدون

بكتاب منزل، ولا باتباع أنبيائهم، ورسلهم، وإلا لاستجابوا لمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكنهم يتعبّدون بالهوىٰ.

۞ وفيه: خطر إتباع الهوىٰ؛ فهو سبب للضلال، كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية:٢٣].

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الوحي القرآن، والسنة.

والمعنىٰ: ولئن اتبعت قبلتهم من بعد إقامة الحجة عليك بتحويل القبلة ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين الظلم يأتي بمعنىٰ الشرك، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

۞ ويأتي **(الظلم)** بغير ذلك من المعاني، لكنه هنا بمعنىٰ الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ترك قبلة الله التي أوحاها للمسلمين، واتباع قبلة اليهود، والنصارىٰ يعتبر كفرًا بالله ، وبآياته، وبما أوحاه علىٰ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿١٤٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود، والنصارىٰ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وصدقه، وصحة دينه ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾؛ لقوة الحجج الإلهية التي أقيمت عليهم، فقد وصف الله محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأصحابه في التوراة، والإنجيل، وصفًا دقيقًا لا يمتري عاقل في أنه فيهم، كما قال تعالىٰ : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح:٢٩] .

وفي البخاري عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: «لَقِيتُ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: أَجَلْ، وَالله إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِصِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ،

وَأَنْتَ عَبْدِي وَرسولي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَسْتَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بِالْأَسْوَاقِ - قَالَ يُونُسُ: وَلَا صَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ - وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا».

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ اليهود، والنصارىٰ ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾ يخفون ﴿ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ قد وعد محمدا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتحويل القبلة، ومع ذلك يكتمونه؛ بغيًا وحسدًا وكفرًا.

﴿١٤٧﴾ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أُنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وكل ما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، وأمر فهو حق ثابت، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين؛ فإن الشك سبب الضلال البعيد

﴿١٤٨﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الطوائف، والأمم ﴿وِجْهَةٌ﴾ قبلة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ موجهها، ومستقبلها.

والمعنىٰ: أن لكل أهل ملة قبلة شرعها لهم. ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟﴾ سارعوا، وبادروا إلىٰ ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ الطاعات ، فبادروا بالتزام شرعه، فإن ذلك علامة الإيمان، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]، وقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾[الحديد:٢١]، وقال:﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» أخرجه مسلم (١١٨).

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟﴾ أنتم، وأهل الكتاب ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يوم القيامة فيجمع الناس، ويجازيهم بأعمالهم﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماء؛ لكمال علمه، وكمال قدرته.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿١٤٩﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ سَافَرْتَ، واتجهت، وأينما كنت ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ في صلاتك ﴿شَطْرَ﴾ جهة ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الكعبة، وهذا في الفريضة، وأما النافلة فتجوز في السفر إلىٰ غير قبلة فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: « كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ، حَيْثُ تَوَجَّهَتْ فَإِذَا أَرَادَ الفَرِيضَةَ نَزَلَ فَاسْتَقْبَلَ القِبْلَةَ» **أخرجه البخاري(١٠٠٠)**، وفي لفظ له «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي التَّطَوُّعَ وَهُوَ رَاكِبٌ فِي غَيْرِ القِبْلَةِ» **البخاري(١٠٩٤)**.

وَعَنْ عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ» **متفق عليه**، وَعَنْ عبد لله بن دينار قال عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ بِهِ» قَالَ عَبْدُ الله بْنُ دِينَارٍ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُ ذَلِكَ.

۞ وما جاء عند أبي داود عن أنس بن مالك: «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا سافر، فأراد أن يتطوَّعَ استقبل بناقته القبلةَ فكبَّر، ثم صلَّىٰ حيثُ وجهه رِكابُه» .

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في "زاد المعاد"** : "وفي هذا الحديث نظر، وسائر من وصف صلاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ راحلته، أطلقوا أنه كان يصلي عليها قبل أي: جهة توجهت به، ولم يستثنوا من ذلك تكبيرة الإحرام ولا غيرها، كعامر بن ربيعة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله ، وأحاديثهم أصح من حديث أنس هذا، والله أعلم" .اهـ ؟

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي هذه القبلة ﴿لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ هي الحق من الله عَزَّوَجَلَّ الذي أوحاه إليك.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وفي قراءة: ﴿يَعْمَلُونَ﴾.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ تأكيد لما سبق ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ اليهود، أو المشركين ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ مجادلة في سبب التولي بالعناد، ولتكن حجتك في التحول أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أوحىٰ إليك ذلك، ولم يكن لأحد عليك حجة بعدها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل مكة، وحجتهم لما صُرِفت إلىٰ الكعبة، أنه سيرجع إلىٰ ملتهم، هذا لا عبرة به، وما كل قول يقوله الكفار يبالىٰ به، وسيكون المعنىٰ: لئلا يكون للناس عليكم حجة، والذين ظلموا منهم أي: ليس معهم حجة.

﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ ﴾ لا تخافوهم ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ أي: خافوا الله عَزَّوَجَلَّ، و(**الخشية**)؛ الخوف مع التعظيم، ﴿وَلِأُتِمَّ﴾ ولأكمل ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بتحويل القبلة؛ لتتميزوا عن اليهود، والنصارىٰ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يحصل لكم سلوك سبل الهدىٰ، والسلامة من الغي والردىٰ، وهذا كقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٣٥] أي: إذا إلتزمتم ما تقدم يقع لكم الهدىٰ، والتقىٰ، والفلاح، ولعل وعسىٰ من الله واجب.

وأما حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ**» **أخرجه الترمذي(٣٤٤)، وغيره وله طرق.**

فهذا لأهل المدينة ومن ساماهم، مثل أهل اليمن، والشام، وأما من كانت جهته مغرب، أو مشرق الكعبة، فقبلته بين الشمال والجنوب، ثم إن هذا في حق من لم يعلم الجهة، أما من علمها فيتعين عليه التوجه إلىٰ الكعبة، ولا بأس باستخدام الأجهزة الحديثة في تحديد القبلة كالبوصلة، والقوقل، وغير ذلك.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾.

١٥١ ﴿كَمَآ﴾ أنعمنا عليكم نعم أخرىٰ حيث ﴿أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من أوسطكم نسبًا، و أحسنكم قبيلًا، وأفصحكم نطقًا، كما أنه الصادق الأمين، وصاحب الخلق العظيم، إلىٰ غير ذلك من أوصافه العظيمة.

۞ وفيه: ردٌّ علىٰ الفلاسفة ومن إليهم، من أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما هو رجل ذكي؛ استطاع أن يجمع اتباعه علىٰ أمور تخيليه.

﴿يَتۡلُواْ﴾ يقرأ ﴿عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآن، وما أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليه من الحكمة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم:٣-٤].

وكان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مبينًا للقرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وكان تعالىٰ يرسل رسله وينزل كتبه؛ إقامة للحجة كما قال تعالىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النساء:١٦٥].

﴿وَيُزَكِّيكُمۡ﴾ من الزكاء، وهو الطهارة، لاسيما الطهارة المعنوية، والزكاء النماء.
﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ السنة، المبينة للقرآن.

۞ وفي هذا ردٌّ علىٰ من يسمون بالفرقة القرآنية التي تزعم الاكتفاء بالقرآن، وهذه دعوة إلىٰ منابذة القرآن نفسه فالسنة مبينة، وموضحة، ومجلية للقرآن ، وكما أن القرآن المنزل علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحي الله ، فكذلك السنة كما قال تعالىٰ:﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر:٧].

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء:٨٠].

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾[النور:٥٤].

ومن أمثلة ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥] يفسره حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ الله لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ**» أخرجه مسلم (١٦٩٠).

ولا يستطيع أحدٌ أن يصلي، أو يزكي، أو يحج، ويعتمر علىٰ الوجه المشروع إلا عن طريق السنة إذ أن هذه العبادات مجملة في القرآن، ووضحتها السنة، وفي حديث مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» أخرجه البخاري (٦٣١).

وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « **خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ** »، وَعَنْد أبي داود عن عُبيد الله بن أبي رافع عن أبيه، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا أُلْفِيَن أحدَكُم مُتَّكئًا على أريكَتِهِ يأتيه الأمرُ من أمري مِمَّا أمرْتُ به أو نَهَيتُ عنه، فيقول: لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتَّبعناه**» أخرجه أبو داود (٤٦٠٥).

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾ من أحكام الشرع ﴿مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾، كما قال تعالىٰ : ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

۞ وهذا دليل أن العلم الشرعي إنما يؤخذ من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١٥٢ ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ أطيعوني بالصلاة، والتسبيح وغيرها، فما خلق الله الخليقة، وبرىٰ البريئة، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل؛ إلا ليذكر فلا ينسىٰ، ويشكر فلا يكفر، ويعبد فلا يشرك معه غيره، وذكر الله طاعته، والذكر باللسان من ذكر الله ، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القدسي: «**فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ**» متفق عليه.

۞ وهو دليل علىٰ إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ.

۞ **ولو لم يكن في فضائل الذكر إلا هذه الآية** لكان حريًا بنا أن نذكر الله عَزَّوَجَلَّ في الصباح المساء، والليل والنهار، والسر والجهاراً فإن ذكرك الله عَزَّوَجَلَّ فأنت المنصور،

والمحفوظ، والمرفوع ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ النعم التي أنعمت عليكم، ويكون ذلك بالطاعة، فإن الذكر باللسان، والقلب، والجوارح.

وفي فضل الذكر عَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا رسول الله ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ؛ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ الله** » **أخرجه الترمذي (٣٣٧٥).**

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في فضل الشكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧]، ومع ذلك ما أقل من يلتزم هذه العبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ومن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ (الشكور)، وهو الذي يشكر عبده، فيضاعف القليل، ويصير كثيرًا.

﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ أي: لا تنكروا، وتجحدوا نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليكم، وتجعلون له شركاء فيما آتاكم، فإذا نزل المطر قالوا الكواكب، فعن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**صَلَّى بِنَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ فِي إِثْرِ السَّمَاءِ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الله وَرسولهُ أَعْلَمُ، قَالَ: قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله ، وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ**» متفق عليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

١٥٣ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ يامعشر من آمن بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا ونبيًا ﴿ٱسۡتَعِينُواْ﴾ اطلبوا العون من الله في جميع أموركم ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾ علىٰ فعل الطاعة، وترك المعصية، وقيل الصيام، وبعد أن ذكر الله الشكر أمر بالصبر؛ لأن حياة المسلم بين الشكر، والصبر في حال الرخاء، والشدة، فعن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» **اخرجه مسلم (٢٩٩٩).**

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان أجر الصابرين ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ وَعَنْ أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما أُعطيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصَّبر**» **متفق عليه،** وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**والصبرُ ضياء**» **أخرجه مسلم (٢٢٣).**

وقد أمر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر في مواطن من كتابه فقال: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النحل:١٢٧].﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ٤٨﴾ [الطور:٤٨]. ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [المزمل:١٠]. وذلك لحاجة الداعي إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ هذه الشعيرة العظيمة.

﴿وَ﴾ استعينوا أيضا بـ﴿ٱلصَّلَوٰةِ﴾ بأدائها في أوقاتها، فإنها مُذهبة لكثير من الحزن بإذن الله عَزَّوَجَلَّ ، وسبب لقضاء الحاجات، ورسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذا نابه شيء بادر إلىٰ الصلاة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالعون، والنصر.

۞ وفيه: إثبات معية الله عَزَّوَجَلَّ الخاصة، وهي المقتضية للنصر، والعون، والتأييد، وفي بابها المعية العامة، كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد:٤]، التي تدل علىٰ إحاطة الله بعباده بالعلم، والقهر، والسلطان، وغير ذلك من خصائص الربوبية.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا﴾ يا معاشر المسلمين ﴿لِمَن﴾ للذي ﴿يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهاد ونحوه ﴿أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ بهم، ولكنها حياة برزخية، فعن مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ الله ابن مسعود عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران:١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا**» أخرجه مسلم (١٨٨٧).

۞ وفي هذا فضل الشهادة وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الشهيدُ لا يَجِدُ ألم القتْلِ إلَّا كما يَجِدُ أحدُكم مَسَّ القرصَةِ**» أخرجه الترمذي (١٦٦٨).

وَعَنْ جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا كَلَّمَ الله أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا، فَيَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ، يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً، فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ، يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي فَأَنْزَلَ**

الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾» أخرجه ابن ماجه (٢٨٠٠).

۞ وفيه: دليل لأهل السنة والجماعة في إثبات نعيم القبر لمن هو أهله، كما أن عذاب القبر للكافرين، ومن أراد الله من عصاة المسلمين، وسيأتي بيانه إن شاء الله .

﴿١٥٥﴾ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ نختبركم ﴿بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ كخوف العدو ﴿وَٱلْجُوعِ﴾ يعني القحط ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بالخسران، والهلاك فيبقىٰ المرء مع القلة والفقر ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾ القتل، والموت ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بالجوائح، ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ علىٰ البلاء، بالفتح المبين، والفرج القريب، والأجر العظيم.

﴿١٥٦﴾ وهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ في أنفسهم، أو أموالهم، ﴿قَالُوٓا۟﴾ علىٰ سبيل الرضا ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ ملكًا ، وعبيدًا يفعل ما شاء ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ في الآخرة.

۞ وفي هذا فضيلة الاسترجاع عند المصيبة، ويكون هذا عند الصدمة الأولىٰ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى**» متفق عليه.

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ الله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ، اللهمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ الله لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**».

قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ الله لِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: أَرْسَلَ إِلَيَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ، فَقَالَ: أَمَّا ابْنَتُهَا فَنَدْعُو الله أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَأَدْعُو الله أَنْ يَذْهَبَ بِالْغَيْرَةِ» أخرجه مسلم (٩١٨).

﴿١٥٧﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الصابرون ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ ثناء من الله علىٰ صبرهم ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾ يرحمهم بالتجاوز عن سيئاتهم، وفسر بعض العلماء **(الصلاة)** بالرحمة، فرُد عليهم بهذه الآية إذا قد فرق الله بينهما.

۞ فـ(**صلاة الله علىٰ عبده**) أن يذكره في الملأ الأعلىٰ، وإذا ذكره في الملأ الأعلىٰ وصل إليه الرحمات، والبركات،﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ في الدنيا، والآخرة، ومثله قوله: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن:١١].

❖ **واختلف العلماء في حق من لم يصبر، هل يؤجر؟.**

فذهب بعضهم إلىٰ أنه لا يؤجر إلا مع الصبر، **والصحيح** أن الأجر حاصل بدون صبر، لكن إن صبر كان أجره أعظم، لإطلاق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذلك ففي حديث عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قَالَتْ: قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا رَفَعَهُ الله بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً**» رواه مسلم (٢٥٧٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عَنِ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ الله بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ الله لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ فَيَقُولُ قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ فَيَقُولُ الله ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ**» رواه الترمذي(١٠٢١) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عَنْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**» رواه ابن ماجه (٤٠٣١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: « دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَمٍ قَطُّ؟ قَالَ: وَمَا أُمُّ مِلْدَمٍ؟ قَالَ: حَرٌّ يَكُونُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ،**

قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ، قَالَ: فَهَلْ أَخَذَكَ الصُّدَاعُ قَطُّ، قَالَ: وَمَا الصُّدَاعُ؟ قَالَ: عُرُوقٌ تَضْرِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي رَأْسِهِ، قَالَ: مَا وَجَدْتُ هَذَا قَطُّ فَلَمَّا وَلَّى، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا» رواه أحمد (٨٣٩٥) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ الزَّرْعِ، لَا تَزَالُ الرِّيحُ تُمِيلُهُ، وَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ يُصِيبُهُ الْبَلَاءُ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الْأَرْزَةِ، لَا تَهْتَزُّ حَتَّى تَسْتَحْصِدَ» متفق عليه.

وَعَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ» رواه مسلم (٢٩٩٩).

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿١٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا﴾ الصخرة الملساء، وهو الجبل القريب من الكعبة، بينها وبين جبل قبيس ﴿وَٱلْمَرْوَةَ﴾ الحصاة الصغيرة، وهو الجبل البعيد الذي إلىٰ جهة قعيقعان، ويسمىٰ اليوم بـ(الغزة) وسمي بـ(المروة)؛ لأن فيه حجر المرو ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أعلام دينه جمع شعيرة، وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بتعظيم شعائره فقال: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢]. ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ﴾ وأصلها القصد، والزيارة ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إثم ﴿عَلَيْهِ﴾ أن يطوف بينهما.

والدعاء علىٰ الصفاء من مواطن الاستجابة: «إذ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رقاه في حجه وعمرته تلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: «أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ، فلما رقى الصفا استقبل القبلة وحمد الله وكبر وقال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ»، ثم دعا، ثم كرر هذا الدعاء، ونزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ

المروة، فلما جاء الوادي جرىٰ فيه جريًا حتىٰ انكشف فخذه، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**لا يقطع الوادي إلا شدًا**» **أخرجه النسائي عن قتيبة (٢٩٨٠)**. ويعرف الوادي بالعلامة الخضراء؛ التي تميزه عن بقية المسعىٰ، والشوط في السعي من الصفا إلىٰ المروة، والثاني من المروة إلىٰ الصفا.

📖وَفِي سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ:

قَالَ عُرْوَةُ سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهَا: (أَرَأَيْتِ قَوْلَ **الله** تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ فَوَ الله مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ) يعني: ظن عروة أن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:١٥٨]. أي: أنه إذا ترك الطواف بين الصفا والمروة حجه صحيح، ولا يحتاج إلى سعي بين الصفا والمروة فهو على التخيير. فردت عليهاٰ وقَالَتْ بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ كَانَتْ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتَطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الْأَنْصَارِ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ، الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الْمُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا سَأَلُوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ قَالُوا: يَا رسول الله ، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، أي: يرونه عظيمة لا تجوز، فَأَنْزَلَ الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الْآيَةَ.

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَقَدْ سَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ أَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَإِنَّ هَذَا لَعِلْمٌ مَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَذْكُرُونَ أَنَّ النَّاسَ إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ عَائِشَةُ مِمَّنْ كَانَ يُهِلُّ بِمَنَاةَ، كَانُوا يَطُوفُونَ كُلُّهُمْ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا ذَكَرَ الله تعالى الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ فِي الْقُرْآنِ قَالُوا: يَا رسول الله ، كُنَّا نَطُوفُ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَإِنَّ الله أَنْزَلَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، فَهَلْ عَلَيْنَا مِنْ حَرَجٍ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؟ فَأَنْزَلَ الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الْآيَةَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَسْمَعُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا فِي الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالْجَاهِلِيَّةِ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَالَّذِينَ يَطُوفُونَ ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا فِي الْإِسْلَامِ،

مِنْ أَجْلِ أَنَّ الله تعالى أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْدَمَا ذَكَرَ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ» **متفق عليه، وأخرجه الترمذي وفيه التصريح بأن قائل «فأُخبرتُ» هو الزُّهْرِيِّ.**

وفي البخاري (٤٤٩٦) ومسلم (١٢٧٨) عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ، سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الصَّفَا، وَالْمَرْوَةِ، فَقَالَ: «كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا، فَأَنْزَلَ الله تعالى:﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾».

قال الإمام الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ "في أسباب النزول": "ولا مانع من أن الآية نزلت في الجميع، والسعي بين الصفا والمروة لا يشرع مستقلًا، وإنما يكون في النسك، في حج أو عمرة بخلاف الطواف بالكعبة فيجوز التطوع به مستقلا".

﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بالطواف، وغيره، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ﴾ شاكر، وشكور، يجازي علىٰ القليل بالكثير ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق الثواب والعقاب، ولا تخفىٰ عليه خافية، مهما عملت من العمل الصالح ستجده عند الله، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ﴾ [آل عمران:١١٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿١٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ يخفون ﴿مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ في التوراة من صفة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ العلم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ وضحناه، وجليناه ﴿لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ يطردهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ جميع الخلائق، قيل حتىٰ الخنافس، وما في حكمها تدعوا عليهم باللعنة.

۞ والآيـة وإن كانت خاصة في اليهود، إلا أنها عامة المعني، فهي شاملة لكل من كتم ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ من الحق؛ لقصد التعمية علىٰ الناس، فيدخل فيها أهل البدع جملة.

۞ وفي هذا تهديد لمن كتم العلم، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» **رواه أبو داود (٣٦٥٨).**

❖ وفي لعن الكفار وأهل البدع للعلماء مذاهب:

أما علىٰ التعيين فالجمهور علىٰ المنع، وأما علىٰ التعميم فالإجماع قائم علىٰ جواز لعنهم، **والصحيح** جواز اللعن في حق من يستحقه، وقد لعن السلف جميع أهل البدع بأعيانهم.

ومما يدل علىٰ جواز اللعن للحاجة.

ما رواه مسلم (٢٦٠٣) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رَجُلَانِ، فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، فَأَغْضَبَاهُ، فَلَعَنَهُمَا وَسَبَّهُمَا، فَلَمَّا خَرَجَا قُلْتُ: يَا رسول الله ، مَنْ أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا مَا أَصَابَهُ هَذَانِ.

قَالَ: «**وَمَا ذَاكِ؟**».

قَالَتْ: قُلْتُ لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا «أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي؟» قُلْتُ: « **اللهمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ، فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا.**

وفي البخاري (٦٧٨٠) عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الله ، وَكَانَ يُلَقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ: **اللهمَّ** العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**» .

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فَعِلَّةُ المنع من لعنه؛ بأنه يحب الله ورسوله فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يُلعن، والله أعلم".

و(**اللعن**) في حد ذاته لا يجوز إلا لمستحق؛ فعن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لَا يَكُونُونَ شُهَدَاءَ، وَلَا شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» رواه مسلم (٢٥٩٨).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: «يَا رسول الله ، ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**» رواه مسلم (٢٥٩٩).

والعن منقسم إلىٰ قسمين:

١- الدعاء بطردٍ مؤقت، ويكون في حق من لُعن من المسلمين

٢- الدعاء بطردٍ مؤبد، ويكون في حق الكافرين

ويأتي (**اللعن**) بمعنىٰ (**السبِّ**)، كما في حديث علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لعن الله من لعن والديه**» رواه مسلم (١٩٧٨).

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ رجعوا عن هذا الذنب.

وللتوبة شروط عامة في جميع الذنوب، وخاصة في بعضها ملخصها في ما يأتي:

١- **الإخلاص** لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها عبادةٌ ومن شروط صحة العبادة الإخلاص.

٢- **أن تكون في زمن تقبل فيه التوبة**؛ فعن ابْنِ عُمَرَ، عَنِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الله يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**» رواه الترمذي(٣٥٣٧).

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا؛ تَابَ الله عَلَيْهِ**» رواه مسلم (٢٧٠٣).

٣- **أن يقلع عن الذنب.**

٤- **أن يندم علىٰ فعل الذنب.**

٥- **أن يعزم علىٰ عدم العودة إلىٰ الذنب.**

- ويزاد في حق أهل البدع شرطان:

الأول: في قوله: ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ أعمالهم مما كانوا قد وقعوا فيه من الفساد لأنفسهم والإفساد لغيرهم.

الثاني: في قوله: ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ وضحواْ وجلوا ما كانوا يكتمونه، ويبينون أنهم كانوا علىٰ باطل، فيما كانوا عليه من الكتمان، والمخالفة لطريقة رسول الله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فإذا حصل منهم هذا البيان صحت توبتهم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "عدة الصابرين": ولهذا كان من توبة الداعي إلىٰ البدع أن يبين أن ما كان يدعو إليه بدعة وضلالة، وأن الهدىٰ في ضده، كما شرط تعالىٰ في توبة أهل الكتاب، الذي كان ذنبهم كتمان ما أنزل الله من البينات والهدىٰ؛ ليضلوا الناس بذلك أن يصلحوا العمل في أنفسهم، ويبينوا للناس ما كانوا يكتمون إياه " .اهـ

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم وصفهم ممن جمع بين التوبة والبيان، وتحققت شرائط توبته ﴿أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أقبل توبتهم ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فمن أسمائه التواب، والرحيم، ومن مقتضىٰ ذلك أنه يتوب علىٰ عباده، ويرحمهم بتكفير ذنوبهم وسيئاتهم، وتوفيقهم إلىٰ الخير.

﴿١٦١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كفروا بالله ورسله ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾، حال كفرهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنها لا توبة، ولا رجوع بعد الموت، كما قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وإنما في حقهم الطرد المؤبد من رحمته. ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وملائكة الله أيضًا تلعنهم، وتدعوا عليهم، سواءً في الدنيا، أو في الحشر: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ وهذا يكون يوم القيامة؛ لأن كثيرًا من الناس لا تلعن الكفار، وقيل هو من العام الذي يراد به الخصوص إنما يلعنهم المؤمنون.

﴿١٦٢﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ دائمين في اللعن، و النار.

۞ وفي هذا دليل علىٰ أبدية النار، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون توبة أو معذرة وأيضا لا يؤجل عنهم العذاب بل يباشرون به ويلاقونه حين وصولهم إليها.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ أي: معبودكم الحق المستحق للعبادة ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، لا شريك له في عبادته كما لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولا في تدبيره ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو، ولا نظير له في أسمائه، وصفاته وأفعاله، ولم يقل وربكم واحد؛ لأن الكفار يعترفون بذلك ويقرون به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥].

۞ وفي قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كلمة التوحيد، وتتكون من ركنين:

الأول: النفي، وهو نفي الألوهية عما سوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ .

الثاني: الإثبات، إثبات الألوهية الحقة لله عَزَّوَجَلَّ.

فقوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ خبر وإثبات، ثم أخر النفي في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكانت الآية متضمنة لمعنىٰ «لا إله إلا الله »، ودالة عليه، ومبينه له، فلا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج:٦٢].

۞ وشروطها ثمانية نظمتها في المنظومة الزعكرية في العقيدة بقولي:

عِلْمٌ مَحَبَّةٌ يَقِينٌ وَالْقَبُولْ ... صِدْقٌ وَإِخْلاصٌ فَحَقِّقْ مَا أَقُولْ

وَالْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ يَا سَعِيدُ ... وَالِانْقِيَادُ شَرْطُهَا الْأَكِيدُ

وقد بينت هذه الشروط بأدلتها في كتابي :

«فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلىٰ التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد»

ولله الحمد والمنة.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا بيان، ووصف للإله بأخص صفاته، وهي صفة الرحمة، إذ أنزل الله عَزَّوَجَلَّ برحمته الكتب، وأرسل الرسل، وفرض الفرائض، وحد الحدود، وشرع الشرائع، وسن السنن.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾.

يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية عن عظيم آياته العلوية، والسفلية، الدالة علىٰ وجوده وعظيم قدرته، وعموم ملكه، وتصرفه علىٰ الوجه الذي أراد، وهذا من أعظم الأدلة الدالة علىٰ وحدانيته، وأحقيته بالعبادة دون ما سواه.

١٦٤ ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السبع الطباق ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الممهدة، والمثبتة بالرواسي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل:١٥]. ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بتعاقبهما، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس:٤٠]، ﴿وَٱلۡفُلۡكِ﴾ السفن المواخر ﴿ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ المالح، أو العذب.

﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ فتنقل متاعهم، ويستخرجون بها أسباب معايشهم من لذيذ الأطعمة كالسمك، ومن عظيم الأمتعة كاللؤلؤ والمرجان، وغير ذلك مما أعده الله للإنسان في هذا البحر الخضم. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مِن مَّآءٖ﴾ المطر المبارك ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ بعد يبسها وجفافها، فأصبحت كالميت الذي لا ينتفع به، وإذا بها يتغير حالها، وتنتج ثمارها، وتأتي بركاتها. ﴿وَبَثَّ﴾ نشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ﴾ يعني أن الماء كان سببًا في إنبات الأرض، وفي بث الدواب فيها؛ إذ لو لم يوجد الماء لكانت الأرض لا فائدة فيها، وانظروا إلىٰ الصحاري مع عظم مساحاتها، إلا أنها خالية عن الحياة.

﴿وَتَصۡرِيفِ﴾ ومن آياته البينات تغيير وتقليب اتجاهات ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ والتصرف فيها حيث لم تبق شمالية، أو جنوبية، أو غربية، أو شرقية، ولكن بين ذلك تتغير اتجاهاتها علىٰ ما يكون فيها من مصالح العباد.

۞ وقد اختلف القراء في قراءة ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾ بالجمع، والإفراد، والمعنىٰ واحد.

۞ وفي هذا رد علىٰ من يزعم أن الريح تكون للعذاب، والرياح تكون للرحمة، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» **متفق عليه.**

فـ(الصَّبَا): الريح الشرقية، **(الدَّبُور)**: الريح الغربية، وجعل الله عَزَّوَجَلَّ فيها البركات الدالة علىٰ عظيم شأنه وقدرته، إذ تسوق المياه وتلقح الأشجار، وتزيل الملوثات، وتلطف الجو ويحصل بها الخير العظيم.

﴿وَ﴾ من آياته تصريف ﴿ٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيسوقه حيث أراد ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ بينات، ودلائل واضحات ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الخالق المالك المدبر، فلزم من ذلك أن يكون المعبود، فمن عبد غير الله عَزَّوَجَلَّ، فقد ناقض ما يقر به من توحيد الربوبية؛ إذ أن لازم توحيد الربوبية إفراد الله بالعبادة، كما أن إفراد الله بالعبادة متضمن لتوحيد الربوبية.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من للتبعض ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾ نظراء، فكل ما عبد من دون الله ، فقد اتخذه العابد ندًا، ونظيرًا، ومثيلًا.

۞ وليس المراد بالنّدية: أنهم يساوون الأصنام بالله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وصفاته، بل كونهم يساوون الأصنام في عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، فقد جعلوه ندًا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٩٨]، ومعلوم أن ذلك في العبادة.

۞ و(الند) قد يطلق علىٰ الصنم، والوثن، وهو أعم من ذلك، فقد يكون الند قبرًا، أو يكون كوكبًا، أو جنيًا، أو ملكًا ﴿يُحِبُّونَهُمۡ﴾ أي: أنداهم ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ وهذا الشرك في المحبة.

وللآية معنيان:

● **الأول**: تساوي حب الله عَزَّوَجَلَّ مع حب الأنداد في قلوب المشركين، فكان حبهم شركًا في العبادة.

● **الثاني**: أنهم يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون ربهم، وهذا شرك، وكفر.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بخلاف هؤلاء فهم ﴿أَشَدُّ﴾ أعظم ﴿حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وهذه مرتبة عليَّة، ودرجة سامية، فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: « **ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرسولهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**» متفق عليه.

فمن أحب الله عَزَّوَجَلَّ، وأحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعمق الحب في قلبه، فإنه مبادر إلىٰ طاعة خالقه، ورازقه، والتزام محبوبه، فإن المحب لا يخالف من يحب.

والله عَزَّوَجَلَّ يعبد بالحب، والخوف، والرجاء، خلافًا لما زعمته المبتدعة، فالخوارج يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ بالخوف، والمرجئة يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ بالرجاء، والصوفية يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ بالمحبة، حتىٰ قال بعضهم:

عبدتُكَ للحُبِ لا رغبةً ولا رهبةً بئس ما يؤفكون

وهذا القول هو غاية الإفك، فإن هذا القول مفاده تخطئة الأنبياء في عبادتهم لربهم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

۞وقد قال العلماء: من عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبد الله بالحب وحده فهو صوفي، ومن عبد الله بالحب، والخوف، والرجاء، فهو موحد؛ إذ أنها طريقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَوْ يَرَى﴾ يعلم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ كفروا ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يوم القيامة، حين يرىٰ الكفار عذاب الله، وما أعد لهم من جهنم التي تقاد بسبعين ألف زمام، ومع كل زمان

سبعون ألف ملك، يعلمون عند ذلك علم اليقين ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فهو القوي العزيز، الذي لا غالب له ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ لمن كفر به، كما أنه رحيم بأهل طاعته، وولايته.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من دلائل وحدانيته ما يستفيد ها كل ذي لبٍ وعقل، ذكر حال الناس مع هذه الدلائل، فمنهم المحب لله، المتقرب إليه بأنواع القُرب، ومنهم من جعل لله أندادًا، يدعوها، ويرجوها، ويتوكل، ويعتمد عليها، ويحبها كمحبته لله، أو كمحبة المؤمنين لله.

ثم أخبرَ عَنْ حالهم حين يرون العذاب يوم القيامة، وأن القوة لله جميعًا، إذ لا مفر من الله إلا إليه، يقول في ذلك الحال.

﴿١٦٦﴾ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ تَنصَّلَ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ الرؤساء المبتدعون، والدعاة إلىٰ البدع والكفريات، والمعاصي، والسيئات ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ من الذين قلدوهم، وأخذوا بدعوتهم، بغير هدىٰ من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ عيانًا ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ انقطعت بهم الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا، فالمعنىٰ أنها انقطعت بهم أسباب السلامة؛ إذ أنه حِيْلَ بينهم وبين العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ:٥٤]، ولا تنفع الشفاعة فيهم؛ بسبب كفرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١].

﴿١٦٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ رَجْعَةً إِلىٰ الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ من المتَّبوعُين ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ أي: من التابعين، وهم كاذبون في ذلك، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، ومن أشد ذلك براءة الشيطان كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أراهم شدة عذابه، وتبرؤ بعضهم من بعض ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التي عملوها في الدنيا في ذلك اليوم ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف:٤٩]. ﴿حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ ندامات، فإن الحسرة أشد الندامة، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بل إنهم مخلدون فيها أبدًا.

۞ وهذا من أدلة أهل السنة والجماعة القاضية بأبدية النار، كما أن الأدلة أيضًا قاضية بأبدية الجنة.

﴿١٦٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا نداء من اللهعَزَّوَجَلَّ لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، ويدخل فيه الإنس والجن أو أنه من العام الذي يراد به الخصوص ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾.

۞ وهذا دليل لما ذهب إليه الشافعي، ومن إليه: (**أن الأصل في الأشياء الإباحة حتىٰ يأتي الدليل بخلاف ذلك**). وعلىٰ هذا المعنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة:٢٩]، وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية:١٢-١٣].

﴿حَلَٰلٗا﴾ أي مباحًا لكم، وحلالًا من الله عَزَّوَجَلَّ، فلا وصيلة ولا حام، وما حرمه الكفار علىٰ أنفسهم، فإنما هو من إيحاء الشيطان إليهم ﴿طَيِّبٗا﴾ مستلذًا.

۞ وفيه دلالة علىٰ أن كل حلال طيب، وكل محرم خبيث، إلا أنه لا يلزم من الخبث النجس، والتحريم، فقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الثوم: «**إنها شجرة خبيثة**» **مسلم** (٥٦٥)، وليست بحرام .

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ طَرَقَه، وسُبُله ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشيطان ﴿لَكُمۡ﴾ يا معاشر الناس ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ عداوته بينة ظاهرة، والعدو لا يريد لكم الخير بل هو متربص مرتصد؛ لإضلالكم.

﴿١٦٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم﴾ الشيطان ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ بالأعمال السيئة، ومنها قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]، ومنها ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران:١٧٥] ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ كل عمل فَحُشَ، مثل الزنا، واللواط، وشرب، الخمر، والقتل.

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في باب التحليل، والتحريم، والفتوىٰ ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ كقوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]، فسبيل الشيطان، أنه يأمر بالسوء من الأعمال، والفحشاء من الأفعال والأقوال، ويأمر بالقول علىٰ الله بلا علم؛ فينتج عن ذلك البدع، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

فلا يسلم من هذا العدو إلا من سلمه الله ، لكن عليك أن تجاهده، في سرائك وضرائك، وشدتك ورخائك، وليلك ونهارك، ولن يُجاهد بأكثر من ذكر الله ، سواءً الذكر القولي أو الذكر الفعلي، ففي حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا الله فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لاَ يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ الله**» **أخرجه الترمذي** (٢٨٦٣).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾.

١٧٠ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للكفار ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ خذوا بـ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ علىٰ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الوحي ﴿قَالُواْ﴾ معارضين لا! ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من عبادة الأصنام، وتحريم السوائب تقليدًا لهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، فقد رضوا بالتقليد، ووقعوا في الكفر، والشرك، والتنديد، ولن يَسْلَمَ المسلم إلا أن يُقدّم الدليل علىٰ غيره. ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ الذين يقتدون بهم، ويتبعونهم، ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ لا يفهمون ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من شرع الله عَزَّوَجَلَّ وأمر الدين ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ سبيلًا إلىٰ الحق، بل هُم في ضلال وشرك!، فمثل هذا لا يُتّبع.

١٧١ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في ما هم فيه من الكفر والضلال، واتباعهم لأبائهم ﴿كَمَثَلِ﴾ الراعي ﴿ٱلَّذِي يَنۡعِقُ﴾ يصيح، ويرفع صوته ﴿بِمَا﴾ بالحيوان البهيم الذي ﴿لَا يَسۡمَعُ﴾ لا يعقل، ولا يفهم ﴿إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ﴾ صوتًا مجردًا لا بيان فيه، ولا يعلم معناه ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ أي: لا يفهمون آية، ولا يهتدون لها.

۞ وهذا مثل، ضربه الله للكافرين، في سماعهم للمواعظ، فمثلهم كمثل الغنم التي يصيح بها راعيها، فلا تسمع إلا صوتًا، ولا تفهم له كلامًا، وحالهم أنهم ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ صُمّت آذانهم عن سماع الحق، وبَكُمت ألسنتهم عن النطق به، وعَمِيت أعينهم

عن إبصاره، وإن كانت هذه الحواس موجودة فيهم لكن حالهم، كما قال تعالىٰ : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

۞ وقيل هذا مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ للأصنام التي لا تسمع شيئًا ولا تعقله، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصفهم وحالهم: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٤].

﴿١٧٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ﴾ الحلالات ﴿مَا﴾ التي ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ وهذا امتنان من الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده المؤمنين، إذ أباح لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث.

۞ وفي هذا بيان من الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يجوز للإنسان أن يحرم ما أحل الله له.

فعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: **«مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»** أخرجه مسلم (١٤٠١).

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾ علىٰ نعمه، وذلك أن شكر الله عَزَّوَجَلَّ دليل علىٰ معرفة العبد لفضل الله عليه، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

ومن يشكر الله يلقىٰ المزيد ... ومن يكفر بالله يلقى الغَيَر

فيُشكر تعالىٰ علىٰ رزقه، سواءً الحسي الذي هو الطعام، والشراب، واللباس، والمسكن، أو المعنوي الذي هو الإسلام، والاستقامة، والسنة، ويكون الشكر باللسان، والقلب، والجوارح.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ الله أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ

وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون:٥١] ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة:١٧٢] **ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»** رواه مسلم (١٠١٥).

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فحقيقة العبادة: الاعتراف لله عَزَّوَجَلَّ بنعمه، والخضوع، والتقرب إليه .

﴿١٧٣﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: منعكم، فـ(**الحرام**) في اللغة: المنع، ومنه قول الشاعر:

جاءتْ لتَصرَعَني فقُلتُ لها: اقصِري! إني امْرُؤٌ صَرْعي عَلَيكِ حَرَامُ

والقاعدة عند أهل العلم: أن المحرم من الحيوان محصور في:

(الحمار الإنسي، وما أمر الشرع بقتله، وما نهىٰ الشرع عن قتله، والخنزير، وكل ذي يناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير).

﴿ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ أي: حرم الميت من الحيوان وهو ما ذهبت نفسه ولم تدركه ذكاته.

﴿وَٱلدَّمَ﴾ المراد به الدم المسفوح؛ لأن المشركين كانوا يشربونه، وتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ عن الدماء الموجودة بين اللحم، واستثنىٰ الشرع من الميتات ميتة الجراد، والسمك، ومن الدماء الكبد، والطحال. ﴿وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ ويدخل فيه شحمه وعظمه، وكل ما كان منه فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال عَامَ الْفَتْحِ وَهُوَ بِمَكَّةَ: «**إِنَّ الله وَرسولهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ، وَالْمَيْتَةِ، وَالْخِنْزِيرِ، وَالْأَصْنَامِ**»، فَقِيلَ: يَا **رسول** الله، أَرَأَيْتَ شُحُومَ الْمَيْتَةِ، فَإِنَّهُ يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ، وَيُدْهَنُ بِهَا الْجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: «**لَا، هُوَ حَرَامٌ**»، ثُمَّ قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: «**قَاتَلَ الله الْيَهُودَ، إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**» متفق عليه.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: ذبح للأصنام، والطواغيت، أو ذكر عليه غير اسم الله، ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ ألجئ بالجوع الشديد إلىٰ أكله ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ للذة، والشهوة ﴿وَلَا عَادٖ﴾ من

العدوان ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ فلا ذنب يلحقه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ قال مسروق: من اضطر إلىٰ الميتة، والدم، ولحم الخنزير، فلم يأكل، ولم يشرب دخل النار.

والذي يظهر أنه لا يحكم عليه أنه قاتل لنفسه، لكن قصر، إذ لم يترخص؛ لأن الأكل من الميتة رخصة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾.

يخبر سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن حال اليهود وغيرهم، ممن أوتوا الكتاب، فكتموه؛ من أجل حظٍ من الدنيا قليل، وإن كانت الآية في شأن اليهود فهي عامة في كل من أوتي علمًا فكتمه؛ من أجل الدنيا، وهذا حال كثير من أهل البدع، والأحزاب، والفرق المخالفة لمنهج أهل السنة والجماعة قديمًا، وحديثًا.

١٧٤ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾ يخفون ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ من التورة في وصف محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وغيره، وهم اليهود، ويدخل فيه من قال اخفوه فلم يبلغوه، وإذا سُئلوا لم يبينوه، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» **أخرجه أبو داود(٣٦٥٨)**.

وزد علىٰ ذلك إذا جاءت الشبهة جاءوا بما يزينها للناس.

فَضَلُّوا من ثلاثة أوجه:

١- كتم الحق. ٢- عدم بيان الحق. ٣- تحريف الحق.

﴿وَيَشۡتَرُونَ﴾ يعاوضون ﴿بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ من حطام الدنيا الفانية إما منصب، أو رئاسة، أو مال، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**بَادِرُوا**

بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا - أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا - يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا» رواه مسلم (١١٨).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي أن ما يتلقونه من الهدايا والهبات، وما يتلقونه من العطايا، هو نار في بطونهم يوم القيامة، كقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الَّذِي يَشْرَبُ فِي إِنَاءِ الْفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ فِي بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ»** متفق عليه.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بسبب غضبه عليهم.

۞ وفيه: إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية الفعلية، الذاتية من حيث أن الله عَزَّوَجَلَّ متكلم أزلًا وأبدًا متىٰ شاء وكيف شاء، بحرف، وصوت، ويأتي الكلام عليها إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٤]، وما في بابها.

ويشكل علىٰ هذه الآية قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾ [القصص:٦٥]، وهذا عام في جميع أهل الموقف؟!

فيقال: لا يكلمهم كلام رضىٰ، وإنما يكلمون كلام المؤاخذة، والمحاققة، أو أنه في موطن دون موطن.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ لا يطهرهم في الدنيا بالعمل الصالح، وفي الآخرة من الذنوب ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ شَدِيدٌ موجع.

١٧٥ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يكتمون الحق ويشترون به ثمنًا ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾ اعتاضوا ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ الكفر، والهلكة، ومخالفة الحق، والغي ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ الإسلام، والسنة، والعلم، والعمل. ﴿وَٱلۡعَذَابَ﴾ بأَخْذِ السُّبُلِ المُفْضِيَةِ إليه ﴿بِٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ بتركهم سبلها، وهو ملازمة دين الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾. فما أصبرهم علىٰ عمل أهل النار، أي ما أدومهم عليه.

﴿١٧٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه من أكلهم النار ﴿بِأَنَّ﴾ بسبب أن ﴿ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فكتموه، وحرفوه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ قيل اليهود، وقيل الكفار حيث قالوا في القرآن الباطل من القول ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ خلافٍ، وضلالٍ بعيدٍ، وكان اختلافهم في الكتاب من بعد ما جاءتهم البينات، وعرفوها، ولكنهم بغوا، وتكبروا.

۞ والآية عامة في حق الكفار ومن شابههم من أهل البدع، سواءً كانت البدع المكفرة، أو المفسقة.

فقد أخذ الله عَزَّوَجَلَّ الميثاق بعدم الكتم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران:١٨٧].

وفعلًا أن الخلاف أرداهم، وأفسد عليهم دينهم، ودنياهم، ومبدؤه الحسد، وإلا فإنهم قبل مبعث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانوا يبشرون الناس بقرب خروجه، ويحثونهم علىٰ اتباعه، وربما خطب بعضهم، وذكر الجنة، والنار، والحوض، والميزان، في أمور لا يثبتها أهل الشرك، حتىٰ قال له بعض أهل المدينة: يا فلان أهذا يكون؟! -يعني بعث، ونشور، وحوض، وصراط، وميزان، وجنة، ونار- نعم، قالوا: وما دليل ذلك؟ قال: إن يعش فيكم هذا يدرك نبي، يخبر مثل ما أخبرت.

فعاش المُخبِر، والمُخبَر، وجاء رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فآمن به الناس، وكفر به المبشِرون به، فلما خرج عمدوا إلىٰ أدلة التوراة والإنجيل التي فيها صفة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فحرفوها.

فتحريف التوراة، والإنجيل عن صفة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إنما كان بعد بعثة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإلا فإنهم كانوا يبشرون به، ومن الأدلة علىٰ ذلك ما جاء في قصة إسلام سلمان الفارسي، فإنه كان من عباد النار، ثم تنصر، فجعل يوصي به قسيس إلىٰ قسيس، حتىٰ انتهىٰ أمره إلىٰ أن قال له آخرهم: إنه قد أظلك بعث نبي بين حرتين، وذكر من دلائل نبوته من أنه

يقبل الهدية: ولا يأكل الصدقة، وبأن بين كتفيه مثل زر الحَجَلة، وهو خاتم النبوة، فأسلم سلمان عليه رضوان الله.

﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿١٧٧﴾ ﴿لَّيْسَ﴾ كل ﴿ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾أن تتجهوا بوجيهكم ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ في حال صلاتكم. مع أنه من البر بل من أعظمه.

۞ف(**البر**): كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ تَدل عَلَى جَمِيعَ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، كما في حديث عبد الله ابن مسعودرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الصحيحين ، عَنِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ**» ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ حقًا والخير صدقًا في: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ورضي بذلك.

فعن الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمحمد رسولا**» اخرجه مسلم.

والإيمان به أفضل الأعمال، كما صح عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ وهو متضمن لأربعة أمور:

١- الإيمان بوجود الله. ٢- والإيمان بربوبيته.

٣- والإيمان بألوهيته. ٤- والإيمان بأسمائه وصفاته.

ولا تدخل الجنة إلا نفس مؤمنة؛ لأن الكافر لا قيمة لعمله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

وبدأ بالإيمان بالله ؛ لأن حق الله المقدم، لفظًا ومعنًا، وهذا هو أول الأركان الستة، كما في حديث عمر عند مسلم، وأبي هريرة في الصحيحين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

سئل عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ ومن البر الإيمان باليوم الآخر، وقُرِنَ بالإيمان بالله ؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الإيمان بالمعاد، والجزاء بعد البعث، والنشور، والإنسان إذا استشعر هذا اليوم كان ذلك حائلًا بينه، وبين المعصية، وداعيًا له إلىٰ الطاعة، ولذلك يقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١].

فاجتماع الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر في قلب عبد مدعاة إلىٰ كل فضيلة، وتحذير من كل رذيلة.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ ومن البر الإيمان بالملائكة، وأنهم من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة في خلقتها وصفاتها، خلقهم الله عَزَّوَجَلَّ من نور كما في حديث عائشة عند مسلم، منهم الصافون، والمسبحون، ومنهم الموكلون بالقطر، والموكلون بحفظ الإنسان، ومنهم ملائكة الموت، وملائكة موكلة بحفظ الأعمال، وغير ذلك، وهم خلق عظيم، فعن جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ**» **أخرجه أبو داود (٤٧٢٧)** .

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةِ أُفرد ليدل عَلَى الْعُمُومِ، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد:٢٥].

فَمعَ كلّ رسول كتاب، وهي كلام الله عَزَّوَجَلَّ غير مخلوق أعلمنا منها التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم، وصحف موسىٰ، وقيل بأن صحف موسىٰ هي التوراة، فنؤمن أن جميع هذه الكتب غيرت، وبُدلت إلا ما كان من القرآن، فإنه كتاب الله عَزَّوَجَلَّ المحفوظ من بين يديه، ومن خلفه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ومن البر الإيمان بأنبياء الله عَزَّوَجَلَّ، ويدخل فيهم الإيمان بالرسل؛ لأن كل رسول نبي، ولا عكس، والكافر بواحد منهم كافر بهم جميعًا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ

نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]. إلا أن كل نبي كان يبعث إلىٰ قومه خاصة، وبُعث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ الأحمر، والأسود، وإلىٰ الناس عامة، كما يأتي في مواطنه إن شاء الله .

ولم يذكر ربنا عَزَّوَجَلَّ في هذا الموطن الإيمان بالقدر، وقد ذكره في قوله الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر٤٩-٥٠]، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب:٣٨]، وقد يؤخذ الدلالة عليه من قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فإنهم يصبرون علىٰ أقدار الله، التي قدرها علىٰ العباد.

﴿وَءَاتَى﴾ أعطىٰ ﴿ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي ومن البر إيتاء المال، وهو إنفاقه وبذله، مع حبه، كما قال تعالىٰ : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان:٨]، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما سُئل أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ **قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى، وَتَخْشَى الْفَقْرَ، وَلَا تُمْهِلْ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا، وَلِفُلَانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ»** متفق عليه.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مادحًا من ينفق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢].

والمعنىٰ: -والله أعلم- ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ له كما قال تعالىٰ : ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠] ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بدأ بهم؛ لأنهم أصحاب حقوق، حق القرابة، وحق الإسلام. ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وهو الذي لا أب له يرعاه. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ جمع مسكين، وهو الفقير إذا افرد، وإذا اجتمع فـ(**الفقير**) الذي لا قوت له، و(**المسكين**) الذي ليس له شيء يكفيه، ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو السَائرُ في الطريق، سمي بـ(**ابن السبيل**)؛ نسبة إلىٰ الطريق، كما يقال (**أنا ابن الحرب ربتني صغيرًا**).

وقال بعضهم:

إِنْ تَسْـأَلُونِي عَـنِ الْهَـوَى فَأَنَـا الْهَـوَى وَابْـنُ الْهَـوَى وَأَخُـو الْهَـوَى وَأَبُـوهُ

﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذي يسأل الناس، وإن كان غنيًا فلا ينهر لقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى١٠] . ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أصحاب الرق، الذين كاتبوا أسيادهم للعتق.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ومن البر إقامة الصلاة، والمراد بها المفروضة. ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة؛ لأنه قد ذكر الصدقة المستحبةَ فذكر أصناف من يؤتىٰ من المال، سواءً كان في ذلك في الصدقات المفروضات؛ وهي الزكاة، والنفقات الواجبات، أو الصدقة المستحبة؛ وبقية النفقات.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ﴾ الإيمان، والعقود ﴿إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾ [النحل٩١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة:١].

ويدخل فيها الوفاء بالعهود، والعقود التي بين المؤمنين والكفار، وبين الأبرار والفجار، فأي عهد، أو عقد عقده المسلم وجب الوفاء به، ولهذا لا يجوز قتل المستأمنين، ولا قتل الذميين، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» متفق عليه.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومنه البر الصبر علىٰ أقدار الله عَزَّوَجَلَّ كما يدخل فيه الصبر علىٰ أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، والصبر عن نواهيه ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ الفقر، والشدة ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ المرض، ونحوه.﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ شدة القتال، وفي فضله قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**» متفق عليه عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكر أوصافهم ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانهم، وأقوالهم، وأفعالهم. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين أتوا بالأوامر، واجتنبوا النواهي، وقد بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ هذه الآية: (**باب أمور الإيمان**) مستدلًا بها علىٰ دخول الأعمال في مسمىٰ الإيمان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾.

١٧٨ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يأمر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين الذين انقادوا لكتابه، ولسنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وينايديهم بلفظ الإيمان الذي يدل علىٰ الإقرار، والانقياد، فيقول ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ فرض، وفرائض الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة، أعظمها التوحيد، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الصيام، ثم الحج، وهكذا بقية الفرائض والأحكام، كل بحسبه.

﴿ٱلۡقِصَاصُ﴾ أي: المساواة في الجراحات، والقتل، فمن جرح آخر، وطالب المجروح بالقصاص، وكان الجرح متعمدًا، تعين القصاص في الجراح و ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ من المسلمين ففي حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ : «**الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ**» **متفق عليه.**

وذهب بعض أهل العلم إلىٰ عدم قتل الرجل بالمرأة، والحر بالعبد.

وعموم الحديث، والآية رد عليهم، واستثنىٰ بعض أهل العلم إذا قتل السيد عبده، فعن الحسن عن سمرة: «**لَا يُقْتَلُ حُرٌّ بِعَبْدٍ**» **أخرجه أبو داود (٤٥١٧)**، وهو ضعيف للانقطاع بين الحسن وسمرة، ولا يقتل الوالد بولده عند جمهور العلماء، لحديث: «**لَا يُقْتَلُ وَالِدٌ بِوَلَدِهِ**» **أخرجه أحمد(٣٤٦) عن عبد الله بن عمرو** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، ومع ذلك ذهب الإمام مالك إلىٰ أن الوالد إذا تعمد، وترصد قتل ولده أنه يقتل به، وأما الكافر فيقتل بالمسلم، ولا يقتل مسلم بكافر مطلقًا، وإن قتله متعمدًا علىٰ الصحيح؛ لقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ**»، وخالف فيه أبو حنيفة، وأصحابه، حتىٰ أن بعض المسلمين قتل في بغداد بعض اليهود، فحكم عليه أبو يوسف بالقصاص، فرد عليه الشعراء والعلماء.

وكان مما قيل:

يـــا قاتـــلَ المســـلمَ بالكـــافرِ ... جُـــرْتَ ومـــا العـــادلُ كالجـــائرِ

قولـــوا لبغـــدادَ ومـــن حولهـــا ... مـــن فقهـــاءِ النـــاسِ أو حاضـــرِ

قـــد جـــار بـــالحكم أبـــو يوســـفَ إذ يقتـــــلُ المســـــلمَ بالكـــــافرِ

إذ لا يمكن أن يقتل ولي الله بعدو الله .

﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ ذكر بذكر، أو ذكر بأنثىٰ، أو أنثىٰ بذكر، أو أنثىٰ بأنثىٰ، ﴿وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾ أنثىٰ أو ذكر ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ المرأة بالمرأة، وهذا كله في العمد، وأما الخطأ فلا قصاص فيه، وإنما فيه الأروش، والديات ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ بأن ترك القصاص منه ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يطالبه بالدية بلا عنف.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الأصل في العمد القصاص، ولا يُنتقَل عنه إلىٰ الدية؛ إلا إذا عُلمت المصلحة في العفو، أو يكون الورثة بحاجة إلىٰ المال أكثر من حاجتهم إلىٰ القصاص، فلا بأس بذلك.

وسماه عفوًا مع أنه ليس بعفو مطلق، وإنما هو عفو من القتل إلىٰ الدية، وقد يكون عفوًا تامًا، حتىٰ لو عفىٰ واحد من الورثة، ولو كانت أخت القاتل.

كما حصل في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا قتل زوج أخته، ثم رفعت القضية إلىٰ عمر، فحكم فيه بالقصاص، فقامت أخت القاتل بالتنازل عن حقها من زوجها؛ لأن لها الثمن، فرُفع عنه القصاص.

وفي هذا الحال يدفع لبقية الورثة حصصهم من الدية، ولا سبيل لهم إلىٰ قتل القاتل بحال.

۞ وفي هذا رد علىٰ الخوارج؛ فإنهم يزعمون أنَّ الْقَاتِلَ كافرٌ كفرًا أكبر مخرج من الملة، وبهذا يستبيحون دماء المسلمين، وربنا عَزَّوَجَلَّ يصف المسلم القاتل بالإخوة لأولياء المقتول.

﴿وَأَدَآءٌ﴾ وعلىٰ القاتل تسليم الدية التي حملها ﴿إِلَيْهِ﴾ إلىٰ العافي ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ بغير مطلٍ، ولا بخسٍ، وهذا في حال ما إذا كان العفو من القصاص إلىٰ الدية، أما العفو التام فلا دية ولا قصاص ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المذكور في قاتل العمد ﴿تَخْفِيفٌ﴾ تسهيلٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾

بكم حيث خفف من إزهاق الروح إلىٰ دفع المال ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ من أولياء المقتول بحيث ظلم القاتل فقتله ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد العفو ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع في الدنيا؛ بوجوب القصاص عليه، وفي الأخرة جزاء خيانته إلا أن يعفو الله عَزَّوَجَلَّ، إلا أنهم يشترطون في قصاص الجراحات أن لا تقع إلا بعد البرؤ.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ أن القصاص، وإن كان ظاهره إزهاق النفس، وإتلاف الروح، لكن فيه حياة للمجتمع؛ وذلك أن القاتل إذا قُتِلَ كان قتله زجرًا لغيره من الأشرار، ويعلم الشرير أنه لو قَتَلَ أن روحه ستزهق بنفس الطريقة التي أزهق فيها روح النفس المعصومة، فتكون الحياة من هذا الوجه.

﴿١٧٩﴾ ﴿وَلَكُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿فِى﴾ تطبيق ﴿ٱلْقِصَاصِ﴾ المماثلة، في القتل، والجراحات ﴿حَيَوٰةٌ﴾ أي: سبب لحياتكم، وبقائكم، وسلامة المجتمع من الشرور ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يا أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

والمجتمعُ الكافرُ ومنْ إليهِ، يَصِفُ الأحكامَ الشّرعية كحدِ الردةِ، والزنا، وقطع يد السارق، والقصاص بالوحشية، ويحاربون هذه الحدود بجميع الطرق، سواءً في ذلك سن القوانين المخالفة للأحكام القرآنية، فيما يسمونه بحقوق الإنسان في الأمم المتحدة، أو بالحرب علىٰ الدول الإسلامية التي تقيم الحدود؛ بدعوىٰ أنها لا تحترم الإنسان، وأنها تخالف المبادئ والقيم، وليس عندها رحمه، والصحيح أن الرحمة في تطبيق كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، و من أسماء الله الرحمن الرحيم، ووصف نبينا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، فلو كان فيما ذكر وحشية لكان من أبعد ما يكون، زد علىٰ ذلك ما يقع عندهم من الظلم للجنس البشري؛ بسبب اعتمادهم

علىٰ قوانين وضعية لا تفي بالغرض المطلوب، ولا تقاربه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلها تتحصل لكم التقوىٰ.

۞ وفي الآية دليل علىٰ أن الأحكام الشرعية إنما يستفيدها أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

وأما من تلوثت فطرته بعلمنة، أو حداثة، أو عولمة أو غير ذلك من المدارس الحديثة التي تدعو إلىٰ نبذ الدين خلف الظهر، فإنه يرىٰ أنه هذه الأحكام تخالف العقل والفطرة، ثم إن إقامة الحد فيه إذهاب للغل من قلوب المعتدىٰ عليهم، فإذا كانوا من العقلاء عادوا إلىٰ ما كانوا عليه من الألفة، والمحبة، والمصافاة، وغير ذلك، والله المستعان.

وفي المثل: (القتل أنفىٰ للقتل)؛ لأنه إذا علم أنه سيقتل يتحرج من ذلك، ويبتعد.

والأدلة في القرآن والسنة متكاثرة، في تحريم قتل النفس المعصومة، جمعت فيها مصنفًا مستقلًا بعنوان: (أحكام قتل النفس المعصومة).

۞ والنفس المعصومة ثلاثة أنواع:

الأول: نفسُ المسلم؛ لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَنِّي رسول الله إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ؛ الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**» متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

الثاني: نفس المستأمن الذي يؤمنه ولي الأمر، وإن كان كافرًا، كحال السفراء، ومن يسلك سبيلهم في بلاد الإسلام فعن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ذِمَّةُ المسلمينَ واحدةٌ يسعى بها أدناهم، فمن أَخْفَر مسلمًا، فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يُقبَلُ منه عَدلٌ ولا صَرفٌ**» متفق عليه.

الثالث: نفس الذمي، فإنه لا يجوز أن يُقتل مادام معاهدًا، فإن نقض عهده جاز لولي الأمر أن يعزره بما شاء، فعن أَبِي بَكْرَةَ قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من قَتَلَ مُعَاهَدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ الله عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**» أخرجه أبو داود (٢٧٦٠).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿١٨٠﴾ ﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ النَّزْعُ، وأسباب الموت ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ مالًا ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ الأب، والأم ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الإخوة، وما في بابهم.

❖ **وتضمنت هذه الآية الحكم في الوصية، وهي من مهمات أبواب الفقه، وهي متعلقة بحالين:**

الأول: ما علىٰ الميت من الحقوق. **الثاني:** إثبات ما أراد أن يتطوع به من الحقوق.

أما الحال الأول: فيدل عليه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١٢].

وحديث عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ**» متفق عليه.

وأما الحالة الثانية: المتعلقة بحق الغير فتدل عليه هذه الآية مع قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**» متفق عليه.

❁ **النَّسْخُ:** وقيل بأن هذه الآية نسخت بآيات المواريث كقوله: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾ [النساء:٧].

وقيل بأنها نُسخت من وجه، وبقي حكمها من وجه آخر، أي أنها نُسخت فيمن حقه الميراث، وبقي حكمها فيمن ليس له ميراث؛ فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ**» **اخرجه أحمد وغيره**، وجاء عن عدة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ثابت بمجموع طرقه.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما لا ضرر فيه علىٰ الورثة، ويُبينه ما تقدم من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**»، ولو جعله إلىٰ الربع فهو أفضل، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَىٰ الرُّبُعِ، فَإِنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ**».

﴿حَقًّا﴾ واجبًا ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، والمنتهين عن نهي الله عَزَّوَجَلَّ ؛ وقد تقدم أن هذا الحق صار مستحبًا في حق من لا يرث.

﴿١٨٢﴾ ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ﴾ غير الوصية ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ بعدما بُينت وكُتبت، أو أُشهد عليها ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ﴾ ذنبه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ علىٰ المُغيرين.

فالواجب علىٰ الورثة أن يؤدوا الوصية كما أُمِرَ بها إذا كانت وصية شرعية، أما إذا أوصىٰ بما هو من البدع كبناء رباط للصوفية، أو قبة، أو قبر، أو مولد، فمثل هذه الوصية لا تطبق، ثم ننظر إلىٰ التعامل معها، فإن كان الرجل من الموحدين وعنده بعض البدع، يُنصح ورثته بتغييرها إلىٰ ما هو أفضل منها، وإن كان الحال عكس هذا ردت الوصية إلىٰ المال، وقُسّم المال بالأنصبة بين ورثة المتوفى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالكم، وهذا علىٰ التهديد.

﴿١٨٣﴾ ﴿فَمَنْ خَافَ﴾ علم ﴿مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ حيفًا وميلًا ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بغيًا ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بحيث ينصح بين المُوْصِي، والمُوصَى له بما يؤدي بالوصية علىٰ الوجه المرضي ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في ذلك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ متجاوز عن الخطأ، والزلل، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾.

١٨٣ هذا شروعٌ في بيان أحكام الصيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ﴾ فُرِض ﴿عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ وهو: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس؛ بقصد التقرب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ فُرِض ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ اليهود، والنصارىٰ.

وقد ثبت أن اليهود كانت تصوم يوم عاشوراء، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، فَوَجَدَ الْيَهُودَ صُيَّامًا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ أَنْجَى الله فِيهِ مُوسَى، وَأَغْرَقَ فِيهِ فِرْعَوْنَ، فَصَامَ مُوسَى شُكْرًا، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ**» متفق عليه.

وقال الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ في "أحكام القرآن" (١/ ٤٢٠): عَنْ دَغْفَلِ بْنِ حَنْظَلَةَ: «أَنَّ النَّصَارَى فُرِضَ عَلَيْهِمْ شَهْرُ رَمَضَانَ فِي الإِنْجِيلِ، فَكَانُوا يَصُومُونَ شَهْرًا، ثُمَّ مَرِضَ مَلِكٌ مِنْ مُلُوكِهِمْ، فَجَعَلَ عَلَيْهِ، إِنْ هُوَ بَرَأَ، أَنْ يَزِيدَ فِيهِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَبَرَأَ، فَزَادَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَكَانُوا يَصُومُونَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَهَلَكَ ذَلِكَ الْمَلِكُ وَجَاءَ مَلِكٌ آخَرُ، فَاشْتَكَى فَاهُ، فَجَعَلَ عَلَيْهِ، إِنْ هُوَ بَرَأَ أَنْ يَزِيدَ فِيهِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، فَبَرَأَ فَزَادَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْمَلِكَ هَلَكَ وَجَاءَ مَلِكٌ آخَرُ، فَقَالَ: مَا يُنْصِفُونَ هَذِهِ الأَيَّامَ، كَمِّلُوهَا خَمْسِينَ، وَاجْعَلُوهَا فِي حِينٍ لَا حَرٍّ وَلا قُرٍّ». اهـ.

ومما يدل علىٰ صيامهم ما جاء عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**فَصْلُ مَا بَيْنَ صِيَامِنَا وَصِيَامِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ**» رواه مسلم (١٠٩٦).

وفي الجملة فأركان الإسلام الخمسة مفروضة علىٰ جميع الأمم، وإن اختُلف في شريعتها كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة:٤٨].

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

❁ والحكمة من فرض الصيام؛ حصول التقوىٰ؛ لأن الصائم حين يترك المفطرات لله عَزَّوَجَلَّ تنكسر شهوته، وتذهب بطنته، ويزداد إقباله علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، لاسيما وقد جاء في فضل رمضان ما جاء من مثل قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، فُتِّحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أي: أن الصيام فرض عليكم في أيام معدودات، ليس بأشهر ولا سنوات، وقد كان مبدؤه صيام عاشوراء.

ففي الصحيح عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: **أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَمَرَ** رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بِصِيَامِهِ، حَتَّىٰ فُرِضَ رَمَضَانُ، وَقَالَ** رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ شَاءَ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ**» متفق عليه.

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ **أَنَّ** رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بَعَثَ رَجُلًا يُنَادِي فِي النَّاسِ يَوْمَ عَاشُورَاءَ: «أَنَّ مَنْ أَكَلَ فَلْيُتِمَّ أَوْ فَلْيَصُمْ، وَمَنْ لَمْ يَأْكُلْ فَلَا يَأْكُلْ»** متفق عليه.

ولما فُرض رمضان كان الناس فيه علىٰ التخيير، من شاء صام ومن شاء افتدىٰ بإطعام مسكين، علىٰ ما يأتي ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ ممن وجب عليه الصيام: ﴿مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: يقضيه بعد عافية من مرض، أو رجوع من سفر، ولا يلزمه مع القضاء كفارة علىٰ الصحيح.

❖ **واختلفوا في حد المرض الذي يجوز لصاحبه الإفطار.**

والصحيح أنه شامل لأي مرض؛ وإن كان لا يشق عليه الصيام فصيامه أولىٰ؛ لأنه إن كان يتحمل الصيام بدون كلفة، فأفطر بقي الصيام في ذمته وتعين عليه المجيء به.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ في قراءة ﴿يُطَوَّقُونَهُۥ﴾ أي: علىٰ الذين يطيقون الصيام ولكنهم أفطروا بغير ما عذر: ﴿فِدْيَةٌ﴾ كفارة ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عن كل يوم.

❁ **النَّسْخُ: وكانت هذه رخصة في أول الإسلام، وهي منسوخة بما يأتي،** فعن سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ** ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ **كَانَ**

مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْطِرَ وَيَفْتَدِيَ حَتَّى نَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا؛ فَنَسَخَتْهَا» متفق عليه، وفي رواية «﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:١٨٥]» **أخرجه مسلم** (١١٤٥).

وفي قراءة: ﴿طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ والذي يظهر أن قراءة الإفراد أقرب؛ لأن الواجب عليه إطعام مسكين واحد، عن كل يوم.

وممن ذهب إلىٰ النسخ أيضًا ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ورواه ابن أبي ليلىٰ عن أَصْحَابُ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«نَزَلَ رَمَضَانُ فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ مَنْ أَطْعَمَ كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا تَرَكَ الصَّوْمَ مِمَّنْ يُطِيقُهُ، وَرُخِّصَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، فَنَسَخَتْهَا: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فَأُمِرُوا بِالصَّوْمِ»** صحيح **البخاري** (٣/ ٣٤) باب (وَعَلَىٰ الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ).

وذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أن الآية منسوخة إلا في حق الضعيف، والمريض، والكبير، فإنه يفطر، ويطعم مسكينًا.

وقال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَمَّا الشَّيْخُ الكَبِيرُ إِذَا لَمْ يُطِقِ الصِّيَامَ فَقَدْ أَطْعَمَ أَنَسٌ بَعْدَ مَا كَبِرَ عَامًا أَوْ عَامَيْنِ، كُلَّ يَوْمٍ مِسْكِينًا، خُبْزًا وَلَحْمًا، وَأَفْطَرَ. اهـ

والصحيح: أن الآية منسوخة بما بعدها، ومن أفطر لعذر فليس عليه غير القضاء، وأما فعل أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو علىٰ التطوع.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بالصيام وذلك قبل الفرض ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ من الإفطار، وإن أفطر وفدىٰ جاز ذلك ﴿وَأَن تَصُومُواْ﴾ صيامكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنه دال علىٰ مراقبتكم لربكم، وسبب لرفع درجاتكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما يوحىٰ إليكم من الحكمة التي من أجلها فرض الصيام، وكان فرض الصيام في السنة الثانية من الهجرة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

(١٨٥) والشهر الذي فُرِضَ عليكم صيامه هو: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾، ويجوز أن يقال: **(رمضان)**، خلافًا لمن زعم غير ذلك، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِذَا كَانَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ**» **أخرجه مسلم (١٠٧٩) عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**» **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وسمي رمضان؛ لأن الشهور حين سميت كان في الرمضاء، وهي الحر، وقيل: لأنه يرمض السيئات، ويذهبها.

﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ أي: ابتداء نزول القرآن كان فيه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣] ثم نزل بعد ذلك منجمًا حسب الوقائع، وجاء عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ أَنْزَلَهُ جِبْرِيلُ عَلَى** محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَكَانَ فِيهِ مَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ وَرَدَّهُ عَلَيْهِمْ**» **الإيمان لابن منده (٧٠٤).**

۞ واستنكره بعضهم من جهة كيف يكون في **(اللوح المحفوظ)**، ونحن نؤمن أن الله يتكلم متىٰ شاء وكيف شاء، ونؤمن أن الله عَزَّوَجَلَّ تكلم بالقرآن فسمعه منه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبلغ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا نكارة في ذلك، كما وجهه شيخ الإسلام ابن تيمية، ونقله الشيخ ابن عثيمين، فإن **(اللوح المحفوظ)** قد كتب الله فيه علمه إلىٰ قيام الساعة ففي حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: الْقَدَرُ قَالَ: فَكَتَبَ مَا يَكُونُ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ**» **أخرجه أبو داود (٤٧٠٠).**

۞ ومن جملة العلم الذي كتب القرآن، إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يتكلم بالقرآن إلا حين بعث محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأنزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القرآن ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ هاديًا من الضلالة بما فيه من البيان، فيدلهم إلىٰ طريق الخير، ويحذرهم من طريق الشر والضير، ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾ دلالات واضحات ﴿مِّنَ

﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ بما يهدي إلىٰ الحق من الأحكام ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ التفريق بين الحق، والباطل، والنور، والظلمة، والتوحيد، والشرك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال٢٩].

﴿فَمَن شَهِدَ﴾ حضر ﴿مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ رمضان ﴿فَلۡيَصُمۡهُ﴾ والمراد به من حضره من المكلفين، إلا أن يكون له عذر يخرجه من ذلك، ﴿وَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿مَرِيضًا﴾ بأي مرض كان فله الفطر، وقد أفطر البخاري من جرح في إصبعه فأنكر عليه فاستدل بالأية علىٰ جواز ذلك ﴿أَوۡ﴾ كان ﴿عَلَىٰ سَفَرٖ﴾ ضاربًا في الأرض فله الفطر.

❖ **واختلفوا متىٰ يبدأ الفطر.**

فقيل: يجوز له أن يفطر من بيته كما في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الترمذي عَنْ محمد **بْنِ كَعْبٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَتَيْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ يُرِيدُ سَفَرًا، وَقَدْ رُحِلَتْ لَهُ رَاحِلَتُهُ، وَلَبِسَ ثِيَابَ السَّفَرِ، فَدَعَا بِطَعَامٍ فَأَكَلَ، فَقُلْتُ لَهُ: سُنَّةٌ؟ قَالَ: «سُنَّةٌ» ثُمَّ رَكِبَ.**

ومع ذلك قد أعلَّ العلماء الحديث، وقالوا الصواب أن السنة بعد أن يضرب في الأرض.

❖ **ويجوز الصوم في السفر.**

لمن لم يشق عليه، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: «**سَأَلَ حَمْزَةُ بْنُ عَمْرٍو الْأَسْلَمِيُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصِّيَامِ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَصُمْ وَإِنْ شِئْتَ فَأَفْطِرْ**» متفق عليه.

﴿فَعِدَّةٞ﴾ فعدد ما أفطر من الأيام يصومها ﴿مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي فقضاؤه من أيامٍ أخر.

❖ **وقد استثنت السنة ممن يجوز له الفطر:**

الحامل، والمرضع، وحرم الله الصيام علىٰ الحائض، والنفساء، فهي داخلة في هذا المعنىٰ فيفطرن ثم يقضين؛ وأما حديث «**إِنَّ الله تعالى وَضَعَ شَطْرَ الصَّلَاةِ - أَوْ نِصْفَ الصَّلَاةِ - وَالصَّوْمَ عَنِ الْمُسَافِرِ، وَعَنْ الْمُرْضِعِ أَوِ الْحُبْلَى**»، فليس معناه أنه وضعها عنهم

وضعًا مطلقًا بحيث لا يجب القضاء، بل رخص لهم في الفطر فقط مع القضاء متىٰ رفع العذر.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ بهذا التخفيف علىٰ المريض، والمسافر، والمرضع، والحامل، وما في بابها من اليسرية، وعدم المشقة ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ المشقة أي: أن جميع أمور الدين علىٰ اليسرية لا العسرية، وَعَنْ أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلَا تَخْتَلِفَا**» متفق عليه.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في البخاري عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**».

﴿وَ﴾ يريد منكم ﴿لِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ﴾ وهي تمام الشهر، ويُعلم ذلك برؤية الهلال، أو بصيام ثلاثين يومًا، كما أن دخول الشهر يعرف برؤية الهلال، أو بعدة شعبان ثلاثين يومًا كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا الْعَدَدَ**» متفق عليه.

❖ **ويكفي في إثبات دخول الشهر شاهد واحد.**

كما في حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**تَرَاءَى النَّاسُ الْهِلَالَ، فَأَخْبَرْتُ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنِّي رَأَيْتُهُ، فَصَامَهُ وَأَمَرَ النَّاسَ بِصِيَامِهِ**» رواه أبو داود(٢٣٤٢).

❖ **ويشترط لانتهاء الشهر شاهدان.**

علىٰ الصحيح، وعليه جماهير أهل العلم.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تعظموا الله عند إكمال عدة رمضان.

۞ وبهذه الآية احتج الشافعي علىٰ أن تكبير عيد الفطر يبدأ بغروب شمس آخر يوم من رمضان؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ عطفه بالواو.

﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وفقكم وأعانكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله علىٰ ذلك ويكون الشكر بلسان الحال والمقال، فإن شكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه من أسباب مضاعفتها،

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم٧]. ومن ترخص بالفطر في رمضان، فالأصل أنه يعجل القضاء قبل أن يأتي رمضان الآخر، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ إِلَّا فِي شَعْبَانَ، الشُّغْلُ مِنْ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» **متفق عليه.**

۞ وذهب بعض أهل العلم كالظاهرية أنه يجب عليه أن يصوم بمجرد انتهاء الشهر، وهذا قول ضعيف، بل إنه يصوم متىٰ تيسر له الصيام، فإن دخل عليه رمضان، ولم يقض قضىٰ بعد رمضان، ولا يلزمه الفدية، وذهب الجماهير إلىٰ أنها تلزمه.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

﴿١٨٦﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ يا محمد ﴿عِبَادِي﴾ من المسلمين، فالمراد به العبودية الخاصة التي هي التذلل لله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَنِّي﴾ قريب أم بعيد ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ نؤمن به علىٰ ظاهره.

۞ ونثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفة القرب، ولا يلزم من ذلك اتحادًا، واختلاطًا، فهو قريب وهو في علوه.

فعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّه**» **متفق عليه.**

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣]، فنؤمن بعلوه، ولا يتعارض مع معيته وقربه، ونؤمن بمعيته وقربه علىٰ الوجه الذي يليق به، ولا يتعارض هذا مع إثبات علوه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد جمع بينهما في آية واحدة، وهذا يدل علىٰ عدم التناقض والاختلاف، وإنما أتي المبتدعة من قصور فهمهم، وفساد تلقيهم، وفساد عقائدهم، وفي حديث عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ**» **أخرجه الترمذي (٣٥٧٩).**

﴿أُجِيبُ﴾ استجيب ﴿دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو الله بِدُعَاءٍ إِلاَّ اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ فِي الدُّنْيَا، وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُكَفَّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ أَوْ يَسْتَعْجِلْ. قَالُوا: يَا رسول الله وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ؟ قَالَ: يَقُولُ: دَعَوْتُ رَبِّي فَمَا اسْتَجَابَ لي**» أخرجه الترمذي(٣٩٢٥) وغيره. أي: حين نزول الله عز وجل إلىٰ السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " «**يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**».

۞وفي هذا رد علىٰ الصوفية الذين يقولون: علمك بحالي يغنيك عن سؤالي، وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء، ووعد بالإجابة فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**» **أخرجه أحمد (١٨٣٥٤)، وغيره.**

۞ وفي الآية رد علىٰ الحلولية، والاتحادية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أثبت داعٍ، ومدعو، وأثبت عبدًا وربًا، وهم عندهم العبد رب، والرب عبد.

﴿فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي﴾ بالطاعة كما قال تعالىٰ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال:٢٤] ، فإذا أردت أن يستجيب الله لك فاستجب له، فالجزاء من جنس العمل.

﴿وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي﴾ أي: ليؤمنوا بالله ربًا، ويقرون بذلك، ويعتقدونه، ويعملون به، فإذا فعلوا ذلك استجاب الله دعاءهم، وحقق رجاءهم، وفرج كربهم، وقضىٰ حاجاتهم، وحصل لهم الرشد.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ يهتدون فالرشد هو السبيل الذي جعله الله لأنبيائه، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ في

شأن القرآن: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:٢]، وقال مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨] أي: سبيل الهدىٰ:

وإذا الفتىٰ عرفَ الرشادَ لنفسِهِ ... هانتْ عليهِ ملامةُ الجُهَّالِ

فموطن هذه الآية من حيث السياقة بين آيات الصيام دليل علىٰ أن شهر الصيام نهاره وليله من أسباب استجابة الدعاء، ودليل علىٰ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده، حيث رغبهم باللجوء إليه، ولا غنىٰ للعبد عن الدعاء، لفقره إلىٰ ربه، وحاجته إليه.

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

فِي الآيَةِ عِدةُ مِن أَسْبَابِ النُّزُولِ:

● **الأول**: ما أخرجه البخاري عَنِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ أَصْحَابُ** محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا فَحَضَرَ الْإِفْطَارُ فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ، لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلَا يَوْمَهُ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الْأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الْإِفْطَارُ أَتَى امْرَأَتَهُ فَقَالَ لَهَا أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ لَا، وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ خَيْبَةً لَكَ فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾، فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾**».

● **والثاني**: ما يتعلق بالرفث فهو في شأن عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانَ النَّاسُ فِي رَمَضَانَ إِذَا صَامَ الرَّجُلُ، فَأَمْسَىٰ فَنَامَ حَرُمَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ، وَالشَّرَابُ، وَالنِّسَاءُ حَتَّىٰ يُفْطِرَ مِنَ الْغَدِ، فَرَجَعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مِنْ عِنْدِ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَقَدْ**

سَهِرَ عِنْدَهُ فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ قَدْ نَامَتْ، فَأَرَادَهَا فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ نِمْتُ، قَالَ: مَا نِمْتِ ثُمَّ وَقَعَ بِهَا، وَصَنَعَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ مِثْلَ ذَلِكَ، فَغَدَا عُمَرُ إِلَىٰ رسول الله ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾» اخرجه أحمد (١٥٧٩٥).

● **الثالث**: في البخاري ومسلم، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أُنْزِلَتْ**: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ **وَلَمْ يَنْزِلْ** ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، **فَكَانَ رِجَالٌ إِذَا أَرَادُوا الصَّوْمَ رَبَطَ أَحَدُهُمْ فِي رِجْلِهِ الْخَيْطَ الْأَبْيَضَ وَالْخَيْطَ الْأَسْوَدَ، وَلَمْ يَزَلْ يَأْكُلُ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُ رُؤْيَتُهُمَا، فَأَنْزَلَ** الله **بَعْدُ مِنَ الْفَجْرِ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ إِنَّمَا يَعْنِي اللَّيْلَ وَالنَّهَار**». وجاء أيضًا بنحوه عن عدي ابن حاتم.

﴿١٨٧﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ بعد أن كان محرما ﴿لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ الليل، فدل أن النهار علىٰ حكمهِ في التحريم، ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ الجماع، ويطلق علىٰ مقدماته، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]. ﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ زوجاتكم وما ملكت أيمانكم ﴿هُنَّ﴾ أي: الزوجات ﴿لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وهذا بيان لمنة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده، حيث خلق لَهُ امرأة من جنسه يسكن، ويأوي إليها، وتكون له كاللباس تستره، ويُسترها فالمرأة ستر للرجل، والرجل ستر للمرأة.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ علم وقوع أي: حصول الفعل من العبد ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: بإتيانكم زوجاتكم بالليل علىٰ حين تخوف ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قبل توبتكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ من مُخالفة الأمر، وتاب عليكم بنسخ الحكم. ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ وهذا للإباحة؛ لأن الأمر بعد الحظر يرجع إلىٰ ما كان عليه قبله،﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾ اطلبوا ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من الحلال الطيب. قال قتادة: وابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل، والشرب، والجماع في اللوح المحفوظ.

﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ بالليل ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ يظهر ﴿لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ أي: الفجر الصادق، فعن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**لما نَزَلَتْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عَمَدْتُ إِلَى عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَى عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ، فَلَا يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَى** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ، فَقال: إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ**» متفق عليه.

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ﴾ أكملوا ﴿ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ وهذا إجماع، فيجب علىٰ المسلم أن يبتعد عن المفطرات، من الأكل، والشرب، والجماع، وما يلتحق بها، من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس؛ فإن من تعجل الفطر قبل غروب الشمس متوعد بوعيد عظيم، كما في حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ؟ **هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ**» صحيح ابن خزيمة (١٩٨٦)، وصحيح ابن حبان (٧٤٩١)، والمستدرك للحاكم (١٥٦٨)، (٢٨٣٧).

والليل يُعرفُ بذهاب الشمس وإقبال الليل من المشرق، فعن عبد الله بن أبي أوفىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَاهُنَا، وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَاهُنَا، وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ**» متفق عليه.

۞ وأما ما ذهب إليه الرافضة، ومن إليهم من أن الليل لا يكون إلا بطلوع النجم، مستدلين عليه بقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗا﴾ [الأنعام:٧٦]، فهذا يخالف دلالة الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة الكرام؛ إذ أن أول الليل غروب الشمس، ثم يستمر حتىٰ تُظلم.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ﴾ تجامعوهن؛ لأن المباشرة بمعنىٰ: (اللمس) مباحة مع الاعتكاف، وعدمه فقد قالت عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**كَانَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **إِذَا اعْتَكَفَ، يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ فَأُرَجِّلُهُ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ**» متفق عليه.

﴿وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ﴾ مقيمون بنية الاعتكاف: ﴿فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ ومن جامع: وهو معتكف، فقد بطل إعتكافه.

۞ وهذا دليل لمذهب الجمهور علىٰ أن الاعتكاف يجوز في جميع المساجد.

وما جاء من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا اعْتِكَافَ إِلَّا فِي المَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَمَسْجِدِ بَيْتِ**». يعني: لا اعتكاف أفضل وأتم، وإلا فقد أطلقت المساجد في هذا الموطن، وعليه بوب البخاري.

﴿تِلْكَ﴾ الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ محارم الله حدها لعباده؛ ليقفوا عندها ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ فلا تأتوها؛ لأن النهي عن القرب نهي عن إتيانها من باب أولىٰ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ﴾ يوضح، ويجلي ﴿ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الشرعية في القرآن، والسنة ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: تحصل لهم التقوىٰ فينزجرون عن المعاصي، والسيئات ويبادرون إلىٰ الطاعة والقربات.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

﴿١٨٨﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾ أي: يأكل بعضكم مال بعض ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الحرام يحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المسلمين في هذه الآية من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا الأكل يتنوع، فمنه ما يقع بالبيوع المحرمة كبيع الغرر، والربا، وما يدخل في ذلك من مثل بيع حبل الحَبلة، والمزابنة، والمنابذة، والملامسة، وغير ذلك.

۞ ويدخل فيه غش المسلمين في تزيين البضاعة لهم، فتأخذ أكثر مما تستحق، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا**» **أخرجه مسلم (١٠١) عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ ويدخل في ذلك الغصب والنهبة، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**» **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ ويدخل في ذلك السرقة، وأكل مهور النساء، بغير إذنهن، وأكل مال اليتيم، والآية عامة يُستدل بها علىٰ منع أخذ جميع الأموال بغير وجه حق، وأضاف الله عَزَّوَجَلَّ الأموال إلىٰ أصحابها؛ لأنه ملكهم إياها وأذن لهم فيها، حتىٰ ولو كانت أموالهم حرامًا فلا يجوز لك أن

تأخذها، فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ قَالُوا نَعَمْ اللهمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ» متفق عليه. ويقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَايَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ» أخرجه أحمد (٢٠٦٩٥) عن رجل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وليحذر الإنسان من أكل المال الحرام حتىٰ ولو حكم به القاضي؛ فإن قضاء القاضي لا يُحل حرامًا ولا يُحرم حلالًا فعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلَا يَأْخُذْهَا» أخرجه مسلم (١٧١٣).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا لَئِنْ حَلَفَ عَلَى مَالِهِ، لِيَأْكُلَهُ ظُلْمًا لَيَلْقَيَنَّ الله، وَهُوَ عَنْهُ مُعْرِضٌ»، وفي رواية: «لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» متفق عليه.

﴿وَتُدْلُوا۟﴾ تلقوا ﴿بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ من أجل أن يحكموا لكم ﴿لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ مما لا يجوز لكم ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ تأكلونها تأثمًا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها لا تجوز لكم، وإنما أخرج مخرج الغالب، وإلا فلا يجوز أكل مال الغير.

فهذه آية عامة تضبط بها مسألة الأموال، ولو أن الناس أخذوا بما جاء في كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن رواجًا للاشتراكية، ولا للرأسمالية؛ ولكن الناس أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوقعوا فيما وقعوا من فساد المعاملات التجارية، وغيرها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾.

جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا:

ما أخرجه البخاري، ومسلم عن الْبَرَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «**نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا؛ كَانَتِ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ، فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ؛ فَنَزَلَتْ** ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾».

﴿١٨٩﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال، والمراد به تعاقب الشهور بتعاقب الأهلة ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾ جمع ﴿لِلنَّاسِ﴾ يعرفون بها أوقات الشهور، ومواسم العِدد، وقضاء الديون، وحولان الحول، وغير ذلك مما يتعلق بالأهلة، إذ أن هذه الأمور لا تعلق للشمس بها، فإن الشمس تطلع وتغرب كل يوم علىٰ حال واحد، وإن كانت في الصيف يطول نهارها ويقل ليلها، وفي الشتاء يطول ليلها ويقل نهارها، إلا أن القمر يتغير حاله في الشهر، فيبدأ هلالًا ثم بدرًا إلىٰ أن يصير محاقًا، ثم يرجع إلىٰ أن يصير هلالًا.

﴿وَٱلْحَجِّ﴾ أي: أن الأهلة مواقيت للحج، وعطفه؛ لعظم شأنه؛ ولأنه يقع في أشهر كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة:١٩٧]، بخلاف الصلاة، فإن الصلاة تقع في الصباح والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، لا تعلق لها بالهلال.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ الطاعة ﴿بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ كما كان يظنه الأنصار ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ بامتثال أمره، واجتناب نهيه، ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ نسخ ما كانوا عليه من أمر الجاهلية من إتيان البيوت من ظهورها.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إذ أن التقوىٰ لا تعلق لها بالدخول من الباب، أو النافذة، من الأمام، أو الخلف، ولكن اتقوا الله عَزَّوَجَلَّ، وراقبوه في السراء، والضراء، وفي الشدة، والرخاء، وَعَنْد ذلك يقع لكم الفلاح وهو: السلامة من المرهوب والفوز بالمطلوب، وأي بدعة فإنها تقوم علىٰ غير دليل فينبغي للمسلم أن يتحرج من مخالفة الكتاب والسنة، مهما كانت دقة المخالفة، وعليه أن لا يتحرج من موافقة الكتاب والسنة، وإن ظهر في أعين الناس أنه خالف.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾.

﴿١٩٠﴾ ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ جاهدوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة التوحيد، وإقامة الدين الخالص ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ من الكفار، ومن في بابهم من الخوارج، والبغاة.

۞ وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية أول آية نزلت في الإذن بالقتال لمن اعتدىٰ علىٰ المسلمين.

ويسمىٰ هذا النوع من أنواع القتال بجهاد الدفع، إذ أن الجهاد ينقسم إلىٰ جهاد طلب، وجهاد دفع، وجهاد الطلب يقوم به المسلمون في حال قوتهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩].

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ تتجاوز في الابتداء بقتالهم، والتمثيل بهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين لشرع الله.

۞ فيه: إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، إذ هو يحب المؤمنين، والصالحين والصابرين، ولا يحب الكافرين والمعتدين.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم أي: في حال دفعكم عن أنفسكم، وفي حال الثأر من مظلمتهم لكم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ كما أخرجوكم من مكة ومن دياركم، إن تمكنتم من إخراجهم، فأخرجوهم، وقد فعل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حين فتح الله مكة، لولا أنهم أسلموا لأُخرجوا، ﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَشَدُّ﴾ أعظم ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ لهم في

الحرم كما زعموا، فالقتل إذا كنت علىٰ الإسلام مصيرك إلىٰ الجنة، ودار السلام، والفتنة قد تكون سببًا في ردة العبد، وهلاكه ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في الحرم ﴿حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ معناه: أنكم لا تبتدئوا قتالهم عند المسجد الحرام؛ إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ حرم القتال فيه، إلا إذا بدأوكم فقاتلوهم، والجزاء من جنس العمل، ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ في الحرم ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ فيه ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾ عقوبة ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿١٩٢﴾ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: تابوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بإسلامهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يتجاوز عما سلف منهم، وهذا دليل علىٰ سعة رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بعباده.

﴿١٩٣﴾ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾ توجد ﴿فِتْنَةٌ﴾ بشرك، وبدعة، وقطع سبيل، وغير ذلك ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ﴾ العبادة ﴿لِلَّهِ﴾ لا شريك له لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلًا ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ عن كفرهم وعدوانهم ﴿فَلَا عُدْوَٰنَ﴾ اعتداء بقتل، وغيره ﴿إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، والمشركين.

❖ وهل يقاتل الكفار لإدخالهم في الإسلام، أم لإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ ؟

اختلف العلماء في هذه المسألة، **والصحيح** وهو الذي رجحه شيخ الإسلام، وابن القيم: أنهم يقاتلون لإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ ، والدليل علىٰ ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة:٢٩]، ولم يقل حتىٰ يسلموا، وفي حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى**

الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ، وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ» أخرجه مسلم (١٧٣١).

۞ فدلّ على أن الكفار يُقاتَلون؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وإن دخلوا في الإسلام فذلك مطلب سامي، ولو كان لإدخالهم في الإسلام لما قبلت منهم الجزية، وغيرها.

﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

﴿١٩٤﴾ ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ﴾ المحرم الذي مكنكم الله فيه من بلوغ بيت الله الحرام؛ لأداء العمرة سنة سبع وهو ما يسمىٰ بعمرة القضاء ﴿بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ الذي صدكم المشركون فيه عن دخول مكة في سنة ست، أي: بين المسلمين والكافرين، ﴿وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ﴾ فلكم أن تدافعوا وتردّوا بالمثل من غير زيادة، فالحرمات متكافئة بالقصاص ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ تجاوز ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بالقتال في الحرم، أو في حال الإحرام ﴿فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ لدفع شره، ورفع ضرره ﴿بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ بدون تجاوز، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورىٰ:٤٠].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في حال دفاعكم عن أنفسكم، وفي حال إقدامكم علىٰ عدوكم، وفي جميع شؤونكم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يمدهم وينصرهم ويحفظهم، ويعينهم.

۞ فإن المعية هنا معية حفظ ونصر وتأييد، مع إثباتنا أن الله عَزَّوَجَلَّ بكل شيء عليم.

إلا أن الفرق بين المعيتين: أن المعية العامة مقتضاها الإحاطة والقهر والسلطان، والمعية الخاصة يُزاد إليها النصر، والتأييد، والحفظ، والكلاءة، وهي دالة علىٰ عناية من الله عَزَّوَجَلَّ بهذا العبد.

(١٩٥) ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ببذل الأموال العينية، والنقدية ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الجهاد، وكل ما يرضاه الله عَزَّوَجَلَّ ، فعن أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ**» **أخرجه مسلم (١٨٩٢).**

وفي الآية دليل على عظم الإخلاص؛ إذ أن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، موافقًا لسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ﴾ أنفسكم ﴿إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الهلاك بسبب البخل.

فقد ظن بعضهم أن الآية مانعة من الجهاد، والصحيح أن الله عَزَّوَجَلَّ حذر من البخل، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**» **اخرجه مسلم (٢٥٧٨).** وفي البخاري عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، **نَزَلَتْ فِي النَّفَقَةِ**».

وفي الترمذي (٢٩٧٢) عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ: «كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا سُبْحَانَ الله ، يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ الله الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ الله قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا فَأَنْزَلَ الله عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا : ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةَ عَلَى

الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحِهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ الله حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ».

۞ **ويُستدل بعمومها علىٰ** أن الإنسان لا يلقي بنفسه إلىٰ التهلكة، فلا يجوز له أن يفجر نفسه، ولا أن يتعاطىٰ ما يؤدي إلىٰ هلاكها فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**» متفق عليه.

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ﴾ بالنفقة وغيرها.

۞ وهذا لفظ عام يدخل فيه الإحسان بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، والإحسان بمتابعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإحسان فيما بين العباد ببذل الندىٰ، وكف الأذىٰ، وطلاقة الوجه.

ومقتضىٰ سياق الآية أي: أحسنوا بالبذل، والإنفاق في أوجه الخير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾.

📖 جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

ما أخرجه الطبراني كما في **"مجمع البحرين من زوائد المعجمين"**، عن صفوان بن يعلىٰ ابن أمية عن أبيه: «جاءَ إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكيفَ تأمرُني يا رسول الله في عُمرتي، فأنزلَ الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾، **فقالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « **منِ السّائلُ عنِ**

العمرةِ؟»، ها أنا ذا، قال: «**فألقِ ثيابَكَ واغتسل واستنشِق ما استطعتَ، وما كنتَ صانعًا في حجَّتِكَ فاصنع في عمرتِك**». وأصل الحديث في الصحيحين بدون ذكر سبب النزول.

وما أخرجه البخاري ومسلم عن كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **وَقَفَ عَلَيَّ** رسول الله ﷺ **بِالْحُدَيْبِيَةِ وَرَأْسِي يَتَهَافَتُ قَمْلًا، فقال: فَيُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟ قُلْتُ نَعَمْ ، فقال: فَاحْلِقْ رَأْسَكَ، أَوْ احْلِقْ، فِيَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ** ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ **إِلَى آخِرِهَا، فَقَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**صُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ تَصَدَّقْ بِفَرَقٍ بَيْنَ سِتَّةٍ، أَوِ انْسُكْ بِمَا تَيَسَّرَ**».

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّواْ﴾ أكملوا ﴿ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ .

احتج به بعض أهل العلم علىٰ وجوب الحج والعمرة علىٰ جميع المكلفين، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الآية لا تدل علىٰ ما سبق، وإن كان وجوب الحج والعمرة قد تعين من أدلة أُخرىٰ، إلا أن الآية في حق من تلبس بإحرامٍ لحجٍ أو عمرةٍ، فإنه لا يجوز له أن يحل؛ حَتْىّ ينتهي من نسكه.

ولهذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ دم المُحصر لمن حج أو اعتمر إذا لَم يشترط، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **دَخَلَ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ، فَقَالَ لَهَا: «**لَعَلَّكِ أَرَدْتِ الْحَجَّ؟**» قَالَتْ: وَاللهِ لَا أَجِدُنِي إِلَّا وَجِعَةً فَقَالَ لَهَا: «**حُجِّي وَاشْتَرِطِي، قُولِي اللهمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي**» **متفق عليه.**

❖ **وقد اختلف العلماء في هذه المسألة.**

فذهب الحنابلة إلىٰ أنهُ لا يقولها إلا المريض أو من يخشىٰ علىٰ نفسه الإحصار؛ لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لم يُؤثر عنهم قولها، **وهذا هو الصحيح**.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ منعتم من الوصول إلىٰ البيت العتيق؛ لإكمال نسككم: ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ﴾ فعليكم ما تيسر وتسهل ﴿مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ من الإبل، أو البقر، أو الغنم، إذ أن الهدي لا يجوز إلا أن يكون من بهيمة الأنعام. ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ حال إحرامكم بحجٍ أو عُمرة ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ﴾ يصل ﴿ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ مكان وجوب ذبحه، وهو مكان الإحصار عند الشافعي، **والصواب أنه**

أعم، فإن كان ممنوعًا من الحرم، فكما قال الشافعي، وإن كان غير ممنوع من الحرم فإنه يذبحه يوم النحر، وما بعده من أيام التشريق.

وأما ما ذهب إليه بعضهم من جواز ذبح الهدي قبل يوم النحر، فهو قول ضعيف لا يعتمد علىٰ دليل، إلا إذا كان الهدي مما يتطوع به.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم﴾ من الحجاج، والعُمَّار ﴿مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ﴾ فاحتاج معه إلىٰ حلقه ﴿فَـ﴾ يلزمه ﴿فِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ إطعام ستة مساكين، نصف صاع عن كل مسكين ﴿أَوۡ نُسُكٖ﴾ ذبيحه يذبحها ويفرقها في فقراء الحرم، ولا يلزم الترتيب بل هو مخير فيها.

۞ والقاعدة عند بعض أهل العلم: أن من ترك واجبًا ففيه الفدية من بهيمة الأنعام، ومن ارتكب محظورا فهو مخيرٌ بين أحد الثلاث المذكورات.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ برفع الإحصار ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ﴾ والتمتع أفضل أنواع النسك؛ إذ أن النسك ثلاثة: التمتع، والإفراد، والقران.

❖ **والفرق بينها:**

● **أن (المتمتع)** يهل بعمرة في أشهر الحج (شوال، وذي القعدة، وذي الحجة)، ثم إذا جاء البيت العتيق طاف البيت سبعًا، وصلىٰ خلف المقام ركعتين، وطاف بين الصفاء والمروة سبعًا، ثم حلق أو قصر، ويحل له كل شي حرم عليه، حَتّىٰ إذا كان يوم التروية أهل بالحج.

● **وأما (القِران)** فهو أن يحرم من الميقات بحج، وعمرة معًا، ويسوق معه الهدي، ويبقىٰ علىٰ إحرامه حَتّىٰ ينحر هديه.

● **وأما (الإفراد)** أن يهل بالحج وحده، ويبقىٰ في إحرامه، وليس عليه هدي.

وأفضلها التمتع لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، مَا سُقْتُ الْهَدْيَ، وَلَحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا»** متفق عليه عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا.

وكان أهل الجاهلية يَرَوْن أن العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، فأباح الله للمسلمين التمتع في أشهر الحج.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ﴾ تيسر وسهل ﴿مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ عليه وهو شاة يذبحها يوم النحر وما يليه من أيام التشريق وأفضلها يوم النحر وذهب بعض الظاهرية إلىٰ جواز الديك أو ما يطلق عليه هدي، والصحيح أن الديك أو النعامة أو الحمار الوحشي أو الضبع لا يجزئ في ذلك، وإنما تجزئ بهيمة الأنعام ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ هديا ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ وهذا في حق المتمتع.

فيصوم وهو متلبس بالحج، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ جواز الصيام قبل يوم النحر، والصحيح أن أفضله أن يصوم في أيام التشريق؛ لما جاء في البخاري عن ابن عمر ثم إن الإنسان قد لا يكون معه قيمة هدي، ويتيسر له ذلك إما هبة وإما سلفًا، وإما صدقةً.

﴿وَسَبْعَةٍ﴾ أيام ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي، إلىٰ أهليكم، ولا يلزم فيهن التتابع، فإن صامهن متتابعات فهو أفضل حَتْىٰ يبرأ من العهدة، وإن صامهن مفترقات، صح منه. ﴿تِلْكَ﴾ الأيام التي تُصام بدلًا عن النسيكة ﴿عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وهذا من تخفيف الله عَزَّوَجَلَّ، إذا جعل ثلاثة أيام في الحج؛ لثقل السفر، وضيق الحال، وسبعة أيام في بيتهِ بين أهله وولده.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم المتقدم ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ معناه: أن الهدي إنما يلزم الآفاقي، أما من كان من سكان مكة، وإن حج مُتمتعًا فلا يلزمه الهدي؛ لهذه الآية.

❖ **واختلف أهل العلم في حد ذلك:**

فذهب الشافعي إلىٰ أن من كان أهله في دون مرحلتين من مكة، **والصحيح** أن الحكم خاص بسكان الحرم خاصة، ومن يلتحق بهم.

۞ وبهذه الآية استدل جمهور العلماء علىٰ أن المسجد الحرام هو البلد الحرام، فذهبوا إلىٰ أن الصلاة في جميع الحرم مضاعفة إلىٰ مائة ألف صلاة، حَتْىٰ ولَو لم يكن في مسجد

الكعبة، ويرده ما أخرجه مسلم عن ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَصَلَاةٌ فِي مَسْجِدِ الكعبة أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ**».

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الإتيان بما أمركم به، وفي اجتناب ما نَهَاكُم عنه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره، وارتكب نهيه، وزجره.

۞ **وفي هذه الآية بيانٌ** لأهمية الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو الحج، وفيه بركات عظيمة:

- منها: الطواف، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].
- ومنها: شهود المنافع، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج:٢٨]
- ومنها: قضاء النذور، : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج:٢٩].
- ومنها: تكفير السيئات، ومضاعفة الحسنات لحديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلْحَجِّ الْمَبْرُورِ ثَوَابٌ دُونَ الْجَنَّةِ**» **أخرجه النسائي**(٢٦٣١).
- ومنها: بركات القيام في مقامات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وما فيها من الأجور كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران:٩٧].
- ومنها: بركات الدعاء في مواطن الاستجابة مثل الصفا والمروة، وَعَنْد الجمرات وفي عرفة، وَعَنْد المشعر الحرام.
- ومنها ما يقع من دنو الله عَزَّوَجَلَّ من أهل عرفة عشية عرفة، فعن عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يعتق الله فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟**» **أخرجه مسلم** (١٣٤٨).

وهنا تنبيه: في الجمع بين الأحاديث التي ظاهرها الاختلاف، في باب حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

• فما جاء من حديث عائشة أنهم حجوا حجا مفردًا؛ فإن ذلك علىٰ ما كان من حج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**لبيك حجًا**».

• وما جاء أنهم حجوا متمتعين؛ فعلىٰ ما أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة بقوله: «**من أهل منكم بحج فليجعلها عمرة**» فقد آل شأنهم إلىٰ التمتع.

• وما جاء أنهم قرنوا بين الحج والعمرة، فعلىٰ ما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبعض أهل العلم قد يطلق التمتع علىٰ القران، وقد تواتر النقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أحرم بالحج، ثم قرن معه العمرة، ثم لم يزل محرمًا حتىٰ رمىٰ جمرة العقبة ونحر مئة بدنة، باشر ثلاثًا وستين، وأتم علي بن أبي طالب البقية، فهذا هو المشهور.

أنه تحلل بعد العمرة، فهذا لا دليل عليه لمن يقول به، بل الأدلة علىٰ خلافه ففي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ، مَا سُقْتُ الْهَدْيَ، وَلَحَلَلْتُ مَعَ النَّاسِ حِينَ حَلُّوا**».

❖ **وأما مسألة الدماء فللعلماء فيها مذهبان :**

• **الأول**: مذهب جمهور العلماء علىٰ أن من تطيَّب، أو لبس مخيطا، أو غير ذلك من محظورات الإحرام أن عليه فدية، مستدلين بما رواه مالك وغيره: عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ: «**مَنْ نَسِيَ مِنْ نُسُكِهِ شَيْئًا، أَوْ تَرَكَهُ، فَلْيُهْرَقْ دَمًا**».

• **الثاني**: أن هذا ليس علىٰ إطلاقه، وإنما تكون الدماء فيما صح به الدليل، ومن ذلك أن رجلًا جاء إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليه جبة، وهي من محظورات الإحرام، وعليه الطيب، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ فَاغْسِلْهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَأَمَّا الْجُبَّةُ فَانْزِعْهَا، ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ كَمَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ**» **متفق عليه عن يعلىٰ بن أمية** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يذكر الفدية، ولا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة.

۞ **وما ثبت فيه الدليل من الدماء ستة وهي:**

١- دم التمتع. ٢- القران. ٣- المحصر.

٤- الفدية للحلق، ونحوه. ٥- دم الصيد.

٦- كفارة من أتىٰ امرأته، وهو محرم قبل التحلل الثاني.

وعلىٰ هذا من المتأخرين شيخنا مقبل رحمه اللهأ وشيخنا الحجوري حفظه الله.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

﴿١٩٧﴾ ﴿ٱلْحَجُّ﴾ وقته ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ معروفات فيخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه وَقّتَ لعباده الحج في شوال وذي القعدة، وتسع من ذي الحجة، وقيل وذو الحجة، وقيل إلىٰ الثالث عشر من ذي الحجة، **والصحيح** أن ذا الحجة من أشهر الحج، إلا أن من فاته وقوف عرفة لم يدرك حجًا؛ لقول رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَجُّ عَرَفَةُ**»، وأما من أدرك الوقوف في عرفة فإنه يجوز له عند بعض أهل العلم تأخير طواف الإفاضة إلىٰ آخر ذي الحجة.

﴿فَمَن فَرَضَ﴾ أوجب علىٰ نفسه ﴿فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ بالإحرام ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ جماع، وقيل هو مقدمات الجماع وما في بابها، وذهب بعضهم إلىٰ أنه الجماع، أو التكلم بذلك في وجود النساء مستدلين بما كان يأتي به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله:

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا إِنْ تَصْدُقِ الطَّيْرُ نَنِكْ لَمِيسَا

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ المعاصي بأنواعها، ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ خصام، بحيث يبقىٰ مع الناس في جدال ومراء في المسائل، العلمية أو العملية، فإن كانت علمية فلا بأس من الجدال؛ لإحقاق الحق وبيان الصواب، وإن كانت غير علمية فإن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهىٰ عن الجدال، فعن أبي أمامة قَالَ رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا**» أخرجه أبو داود (٤٨٠٠).

﴿فِي ٱلۡحَجِّ﴾ أي: في حال تلبسه بهذه الشعيرة، ويدخل في هذا المعنىٰ المتمتع، وأما الرفث، فقد أباح الله له الاستمتاع بزوجه إن أحل من عمرته، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ عام في جميع أنواع الخير من الحج، والصلاة، والذكر، والدعاء، والصدقة، وغير ذلك﴿ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ لا تخفىٰ عليه خافية، فيجازيكم به، ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ ما يبلغكم في سفركم، من الطعام، والشراب، والكساء.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما أخرجه البخاري (١٥٢٣) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يَحُجُّونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ الله تعالى ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾**».

❁ **ولذلك كان من شروط الحج: الزاد، والراحلة، وأمن الطريق.**

والزاد الذي ينبغي أن يوفره زاد بيته وزاد سفره، ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ من أن يكون الإنسان مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ في حضره، وسفره، وليله، ونهاره، ومن راقب الله عَزَّوَجَلَّ كفاه الله ما يهمه، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق:٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق:٤].

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ يا أصحاب العقول، وخصهم؛ لأنهم يستفيدون الأوامر ويعملون بها، ويستفيدون الزواجر فينتهون عنها، أما غيرهم فلا ينفعه ذلك

وفي فضل الحج عن أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**» متفق عليه. وَعَنْهُ أيضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ**» متفق عليه، وَعَنْد الترمذي، وغيره عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: «**أَيُّ الحَجِّ أَفْضَلُ؟ قَالَ: العَجُّ، وَالثَّجُّ**».

- و(**العَجُّ**): رفع الصوت بالتلبية.

- و(الثَّجُّ): ذبح الأضاحي.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾.

﴿١٩٨﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج في حال حجكم وعمرتكم ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا ﴿فَضْلًا﴾ الزيادة في الخير الدنيوي، والأخروي ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

📖 وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا:

ما أخرجه البخاري، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (كَانَتْ عُكَاظٌ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا كَانَ الإِسْلاَمُ تَأَثَّمُوا مِنَ التِّجَارَةِ فِيهَا، فَأَنْزَلَ **الله** لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ، قَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ كَذَا).

وأخرجه أبو داود (١٧٣٣) عن أَبِي أُمَامَةَ التَّيْمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ رَجُلًا أُكْرِي فِي هَذَا الْوَجْهِ، وَكَانَ نَاسٌ يَقُولُونَ لِي إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ حَجٌّ فَلَقِيتُ ابْنَ عُمَرَ فَقُلْتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنِّي رَجُلٌ أُكْرِي فِي هَذَا الْوَجْهِ، وَإِنَّ نَاسًا يَقُولُونَ لِي إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ حَجٌّ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ أَلَيْسَ تُحْرِمُ وَتُلَبِّي، وَتَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَتُفِيضُ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَتَرْمِي الْجِمَارَ؟ قُلْتُ بَلَى، فَإِنَّ لَكَ حَجًّا، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَهُ عَنْ مِثْلِ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ، فَسَكَتَ عَنْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُجِبْهُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَرَأَ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةَ، وَلَكَ حَجٌّ».

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم﴾ دفعتم ﴿مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ ويكون ذلك عند غروب شمس يوم التاسع من ذي الحجة، ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ مشعر مزدلفة، ويقال له جمعٌ، ويكون الذكر بالدعاء، وغيره.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما أخرجه الشيخان، قَالَ عُرْوَةُ: «كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ - وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ- وَكَانَتِ الْحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَىٰ النَّاسِ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِي الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الْحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَكَانَ يُفِيضُ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَيُفِيضُ الْحُمْسُ مِنْ جَمْعٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْحُمْسِ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ كَانُوا يُفِيضُونَ مِنْ جَمْعٍ فَدُفِعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ».

وقال أيضًا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كَانَتْ قُرَيْشٌ، وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾».

وقد أفاض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ عرفات قبل هجرته، ففي حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَضْلَلْتُ بَعِيرًا لِي فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَرَأَيْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفًا بِعَرَفَةَ، فَقُلْتُ هَذَا وَاللهِ مِنَ الْحُمْسِ، فَمَا شَأْنُهُ هَاهُنَا؟» متفق عليه.

﴿وَٱذْكُرُوهُ﴾ اشكروه ﴿كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ دلكم وأرشدكم لمعالم دينه وشرعه ومناسك حجه ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل هداه ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الجاهلين كما قال الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحىٰ:٧].

۝١٩٩ ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ﴾ ادفعوا يا قريش ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ من عرفة.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ اطلبوا المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قرن الإستغفار بكثير من العبادات كما في، دبر الصلاة، فعن ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» أخرجه مسلم (٥٩١).

وفي السحر حين الإنتهاء من قيام الليل، قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وبعث الله الرسل بالاستغفار، كما قال تعالىٰ : ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

وفي ختم المجلس كان من دعاء رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سُبْحَانَكَ اللهمَّ وَبِحَمْدِكَ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ**» أخرجه أبو داود (٤٨٥٧).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لرسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**». أخرجه أبو داود (١٥١٦) وفي رواية: «**إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**».

وكان ﷺ يكثر الإستغفار، فعن الأغر بن يسار المزني رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»، وفي رواية «**سبعين**» أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

❁ وفي هذا دليل علىٰ أن النقص حاصل في العبد، فبعد عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وتقربه بأنواع النسك أُمر بالاستغفار؛ لما يقع من النقص، والرفث، والفسوق، والعصيان، شعر الإنسان أو لم يشعر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين المشعرين بالتجاوز من الله عَزَّوَجَلَّ في الماضي، والتوفيق في المستقبل.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾.

﴿٢٠٠﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم﴾ أديتم ﴿مَّنَاسِكَكُمْ﴾ مناسك الحج، من الوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ذكرًا كثيرًا بالتكبير، والثناء في أيام التشريق

﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا يتفاخرون بآبائهم في هذا الموطن فحث الله علىٰ ذكره تعالىٰ: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ وذلك أن الإنسان قد ينسىٰ ذكر أبيه، فليلازم ذكر الله في الشدة، والرخاء، وفي السراء، والضراء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

❁ وذكر الله ينقسم إلىٰ قسمين:

١- ذكر اللسان ٢- وذكر الطاعة.

وهذا أكملها، وأتمها.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾ نصيبًا ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ يطلب الدنيا، ويحرص عليها، ولا رغبة له في الآخرة؛ إما لعدم إيمانه بها، وإما لعدم إدراكه ما فيها من النعيم المقيم، والخير العميم فيعطىٰ طلبه ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ من حظ، ولا نصيب.

❁ وهذا دليل علىٰ ضعف الإيمان، إن لم يكن عدمه، وعلىٰ تسلط حب الدنيا علىٰ القلوب والأبدان، والله المستعان.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورىٰ:٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩].

﴿٢٠١﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ من الناس وهم أهل الإيمان ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نعمة، ويدخل فيها العلم، والعمل، والطاعة، وغير ذلك ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ الجنة، ويدخل فيها رؤية الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَقِنَا﴾ سلمنا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وفي حديث أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اللهمَّ رَبَّنَا، آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» **متفق عليه.**

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَادَ رَجُلًا مِنَ قَدْ خَفَتَ، فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ، فَقَالَ لَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ، أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟ قال نَعَمْ، كُنْتُ أَقُولُ**

اللهمَّ، مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الْآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«سُبْحَانَ الله لَا تُطِيقُهُ أَوْ لَا تَسْتَطِيعُهُ أَفَلَا قُلْتَ اللهمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، فَدَعَا الله لَهُ فَشَفَاهُ»** أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

﴿٢٠٢﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين سبق ذكرهم، ﴿لَهُمۡ نَصِيبٞ﴾ حظ وثواب ﴿مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ مما عملوا ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾ حين يرجعون إليه، فيوافيهم بأعمالهم في قدر نصف نهار.

﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٠٣ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖ﴾ يأمر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بذكره في أيام معدودات، وهي أيام التشريق، وأما قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ [الحج:٢٨]، فهي عشر ذي الحجة علىٰ ما يأتي إن شاء الله .

وأيام التشريق أيام أكل، وشرب وذكر لله، كما صح عن نبيشة الهذلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجاء من حديث عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَوْمُ عَرَفَةَ وَيَوْمُ النَّحْرِ وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ»** أخرجه أبو داود (٢٤١٩).

❖ **واختلف العلماء في مبدأ التكبير في الأيام المعدودات:**

فذهب جمهورهم إلىٰ أنه من فجر يوم عرفة إلىٰ غروب شمس يوم الثالث عشر، وذهب بعضهم إلىٰ أنه من ظهر يوم عرفة، وذهبوا إلىٰ غير ذلك، والقول أنه من فجر يوم عرفة هو الأظهر، روي عن عمر ابن الخطاب و عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وغير واحد من أهل العلم.

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ متعين في جميع الأوقات، واللحظات إلا أنه في تلك الأيام، والأماكن يزداد تعينه ولذلك كانت منىً ترتج بالتكبير، والتهليل.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ ونفر من منىٰ ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: في اليوم الثاني عشر، ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بالتعجيل ولا يلحقهُ نقص، بل إنهُ إن كان قد صان حجَّه عن الرفث، والفسوق، والجدال، فهو راجع من حجِّه كيوم ولدته أمه.

وتظهر حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في الترخيص للمسلمين بهذا التعجل، فمن حج لاسيما أصحاب الأشغال، والأعمال يجد في هذا اليوم فرجه وفسحه ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ إلىٰ يوم الثالث عشر ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بذلك، وترمىٰ الجمار بعد الزوال في يوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، وهذا قول جمهور العلماء، وتدل الأدلة عليه إلا ما كان من يوم النحر، فإن جمرة العقبة ترمىٰ في الضحىٰ، كما ثبت عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ويجوز له أن يُؤخر رمي يومين إلىٰ يوم، ولا يجوز له التقديم، ويجوز النيابة في هذا الرمي لمن عجز عنه، ويرمي الرامي بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة مثل حصىٰ الخذف، ولا يجوز أن يرمي بها دفعة واحدة ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ في حجه، فالمتعجل المراقب لله عَزَّوَجَلَّ لا يضره تعجله، والمتأخر لا يضره تأخره إلا أن المتأخر يناله مزيد أجر؛ لأنه يبقىٰ في منىً يومًا آخر، فيقع فيه تكبير وتحميد ورمي وكثير من النسك، ولا ينبغي أن يعيب المتعجل علىٰ المتأخر، ولا المتأخر علىٰ المتعجل؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد أباح ذلك، ورخص فيه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في امتثال أمره، واجتناب نهيه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون وتجازون علىٰ أعمالكم، فمن كان من أهل الصلاح وجد ما وعده الله عَزَّوَجَلَّ به، ومن كان علىٰ غير ذلك وجد ما توعده الله به، إلا أن يعفوا الله عن عصاة المسلمين كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

﴿٢٠٤﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بتملقه، وهذا حال المنافقين ربما زينوا أقوالهم، وأفعالهم، وقلوبهم على حال سيئة من البغض لأهل الإسلام كما قال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة:١٠]، ويهتمون بالظاهر ويهملون الباطن، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٤٢]، ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ [البقرة:١٤].

فيُعجب بهم السامع ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [البقرة:١٤] والجزاء: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥]. يعجبك قوله؛ لموافقته ظاهرًا للحق ولتملقه، وشر الناس عند الله ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، وقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً**» **أخرجه مسلم** (٢٧٨٤).

ومنهم من ذهب إلىٰ أن الآية نزلت في الأخنس ابن شريق الثقفي، لكن **الصحيح** أنه لم يسلم.

﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾ وهو كاذب ﴿عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ أنه موافق لما يظهر من قوله: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ شديد الخصومة، وعظيم البغض لأهل الإسلام، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**» **متفق عليه**.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾ [مريم:٩٧] أي: شديد الخصومة والبغض للمسلمين، ومثل هؤلاء لا ينفع معهم علاج، ولا موعظة، ولا يقربهم لين، وكم دارىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المنافقين، فما نفع فيهم.

﴿٢٠٥﴾ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ انصرف عنك أي: هذا القائل من المنافقين ﴿سَعَىٰ﴾ مشىٰ، وعمل بما يخالف الكتاب والسنة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ بالشرك، وغيره من أنواع الفساد ﴿وَيُهۡلِكَ﴾ بفساده ﴿ٱلۡحَرۡثَ﴾ الزرع ﴿وَٱلنَّسۡلَ﴾ الأبناء، ويلحق الفساد بسبب المعاصي، كما

قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ لا يحب الفساد، والمفسدين.

۞ وفيه: إثبات صفة المحبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه يُحِب الصالحات من الأعمال، والأقوال والأفعال، ويبغض الفساد، وما إليه.

٢٠٦ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ لهذا المفسد ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ راقب الله في فعلك، ونُصح بعدم الإفساد، وخوف بذلك ﴿أَخَذَتۡهُ﴾ حملته ﴿ٱلۡعِزَّةُ﴾ الحمية، والأنفة ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ بالذنب، وتمادىٰ في ظلمه وبغيه، بل ربما غضب إذا قيل له اتق الله ، وراقب الله ﴿فَحَسۡبُهُۥ﴾ كافيه عذاب ﴿جَهَنَّمُ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ أي: بئس الفراش الذي يتوسده هذا المجرم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩﴾.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا:

ما أخرجه الحاكم (٥٧٦٨) عن عكرمة مرسلًا: قَالَ: « **لَمَّا خَرَجَ صُهَيْبٌ مُهَاجِرًا تَبِعَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَنَثَلَ كِنَانَتَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهَا أَرْبَعِينَ سَهْمًا، فَقَالَ: لا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَضَعَ فِي كُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ سَهْمًا، ثُمَّ أَصِيرَ بَعْدُ إِلَى السَّيْفِ فَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَجُلٌ، وَقَدْ خَلَّفْتُ بِمَكَّةَ قَيْنَتَيْنِ فَهُمَا لَكُمْ** » ، **وحدَّثنا حمّادُ بنُ سَلمةَ عن ثابتٍ عن أنسٍ نحوَه ونزلَت علىٰ رسول** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ﴾ **الآيةُ فلمّا رآهُ رسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **قال: «أبا يحيى رَبِحَ البَيعُ، وتلا عليهِ الآيةَ»** قال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم، ولم يخرجاه.

قال الشيخ مقبل الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحديث له طرق أخرىٰ، أغلبها مراسيل كما في الإصابة، والطبقات لابن سعد، وهي بمجموعها تزيد الحديث قوة وتدل علىٰ ثبوته.

﴿٢٠٧﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي المؤمنين ﴿مَن يَشْرِى﴾ يبيع ﴿نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ﴾ طلب ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ رضاه عَزَّوَجَلَّ. فالمسلم في جميع شأنه مخلصًا لربه، مسارعًا إلىٰ مرضاته، متبعًا لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فهو يشتري نفسه من الله بالطاعات والقربات، ويبيع نفسه من الله بالمبادرة إلىٰ الخيرات والمبرات.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ﴾ شديد الرحمة ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾ الذين يسارعون إلىٰ مرضاته، فيجازيهم الجزاء الأوفىٰ؛ علىٰ ما قدموا في ذات الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٢٠٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نداء من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين جميعًا، وناداهم بلفظ الإيمان؛ لأنه أحرىٰ إلىٰ الاستجابة، والامتثال للأمر الإلهي ﴿ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ بالفتح، والكسر الإسلام ﴿كَآفَّةً﴾ في جميع شرائعه، سواءً في ذلك مسائل الاعتقاد فحققوها، أو مسائل العبادات فأتوا بها، أو مسائل المعاملات فأدوا الحق الذي عليكم واسألوا الله الذي لكم، فلا انتقاء في الدين بحيث يختار منه شيئًا ويترك أشياء، بل ما فرضه الله، وشرعه تعين الإتيان به علىٰ الوجه الذي شرعه، فما كان من الواجبات أُتي به علىٰ أنه واجب، وما كان من المستحبات أُتي به وبودر إليه علىٰ أنه مستحب.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ تقتفوا وتلحقوا ﴿خُطُوَٰتِ﴾ طرق ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ؛لأن اتباع خطوات الشيطان، وآثاره، وتزيينه؛ سبب للظلال المبين، والله المستعان. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ خصم ﴿مُّبِينٌ﴾ بين العداوة، فبين تعالىٰ السبب الذي من أجله دعا إلىٰ منابذة الشيطان، وعدم السير في خطواته، فهو مترصد لإضلال الإنسان.

﴿٢٠٩﴾ ﴿فَإِن زَلَلْتُم﴾ زغتم، وانحرفتم عن طريق الله ، وشرعه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ والدلائل الواضحات، والحجج القاهرات علىٰ صحت دين الإسلام، وصدق الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب، و﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه فيجعل الأمور في مواطنها، ومن حكمته أنه لا يعاجل المذنب بالعقوبة؛ لعل المذنب أن يتوب، أو يستعتب، والله المستعان.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾.

٢١٠ ﴿هَلۡ﴾ ما ﴿يَنظُرُونَ﴾ الذين تركوا الدخول في الدين، وتمردوا علىٰ شرع رب العالمين ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ وهو السحاب الأبيض الرقيق، ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: ويأتيهم الملائكة، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ﴾ بإهلاكهم إذ لا مستعتب، ولا حياة يرجعون إليها فيعملون.

۞ وفيه إثبات صفة الإتيان لله عَزَّوَجَلَّ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر:٢٢]، ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦﴾ [الفرقان:٢٥-٢٦].

۞فنثبت لله عَزَّوَجَلَّ صفتي المجيء، والإتيان كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ:١١]، ولا يجوز تفسير مجيء الله عَزَّوَجَلَّ، وإتيانه بمجيء أمره، أو ملك من ملائكته، فهذا خروج عن الظاهر.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ أي: يرجع جميع العباد إلىٰ الله في ذلك اليوم المشهود فيجازي كل عبد علىٰ عمله.

٢١١ ﴿سَلۡ﴾ يا محمد ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ اليهود الذين يجاورونك في المدينة؛ تبكيتا لهم ﴿كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ جئناهم ﴿مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ﴾ بدلائل واضحات، كفلق البحر، وإنزال المن، والسلوىٰ، وحجج علىٰ صدق نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ومع ذلك لم يؤمنوا، ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ﴾ يغير ﴿نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ نعمه الكثيرة، ومنها القرآن، والسنة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ﴾ بلغته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ له، وهذا على الوعيد في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء ٨٨:٨٩].

وهذا لفظ عام، وإن أريد به الخصوص، فكل من بدل نعمة الله كفرا يوشك أن يعاجله الله عَزَّوَجَلَّ بعقوبة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

۝٢١٢ ﴿زُيِّنَ﴾ أي: زين الله عَزَّوَجَلَّ، وقيل بأن المزين هو الشيطان ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فأحبوها، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لفقرهم كبلال، وعمار، وصهيب، وغيرهم، مع أن المؤمن أكرم علىٰ الله من ملء الأرض من الكافرين.

وفي حديث سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا**» قَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَاللهِ حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا**» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**» **اخرجه البخاري (٦٤٤٧).**

ثم يقول مغبطًا للمؤمنين علىٰ ما هم فيه، وعدم النظر إلىٰ ازدراء الكافرين لهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك والمعاصي ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فوق الكافرين ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في الجنة في نعيم لا ينفد فلا عبرة بالدنيا، وإن نظر الناس إلىٰ أن لكافرٍ منزلةً ومقامًا، فإنه كالسراب يوشك أن يذهب، والذين اتقوا تُحفظ لهم أعمالهم وحسناتهم، فيرفعون يوم القيامة الغرف كما قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأُفُقِ**»؛ **متفق عليه عن أبي موسىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ﴾ يعطي ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ رزقًا واسعًا، فما علىٰ المسلم إلا أن يسأل ربه ويلجأ إليه، فهو الرزاق الذي يعطي عباده العطاء الواسع، كما قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ يَمِينَ اللهِ مَلْأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْفَيْضُ - أَوِ الْقَبْضُ - يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ**» متفق عليه عن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥﴾.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مجتمعين علىٰ دينٍ واحد، وهو دين التوحيد والإيمان، وقد أخبر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن الفترة بين آدم ونوح عليهما السلام كانت عشرة قرون، ظلّ الناس خلالها علىٰ الفطرة السليمة والهدىٰ، لا يعرفون الشرك ولا يعبدون غير الله.

﴿فَـ﴾ لما فشا فيهم الشرك وعبادة الأصنام: ﴿بَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ والرسل إليهم، وكان أول رسول إلىٰ أهل الأرض هو نوح عليه السلام، كما جاء في حديث الشفاعة: «**فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا**» متفق عليه، ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين بما لهم عند الله من النعيم المقيم، والجزاء العميم ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ للكافرين بالنار، والعذاب الأليم، وَعَنْ النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ حَتَّى لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَى السُّوقِ سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ**» أخرجه أحمد (١٨٣٦٠).

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتب، فلكل رسول كتاب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق، ﴿لِيَحْكُمَ﴾ به ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من شأن الدين، فإن كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ولا سلامة من الاختلاف إلا بملازمة الكتاب والسنة.

وقد اختلفوا في عدّ الرسل، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أنه قال: يا رسول الله كم الأنبياءُ؟ فقال: «مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا»، قلت: كم الرسلُ من ذلك؟ قال: «ثلاثمائةٌ وثلاثةَ عشرَ جمٌّ غفيرٌ»** أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨).

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ﴾ في الدين والكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي: الكتاب فآمن به بعضهم، وكفر بعضهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الدلائل الواضحات، والحجج الظاهرات علىٰ صدق ما جاءت به الرسل، فلما لم يعملوا بها وكثر خلافهم لأنبيائهم هلكوا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»** متفق عليه.

وكان اختلافهم ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فوقع منهم البغي وحصل الاختلاف، والتفرق، وحصل ما لا يحمد: **«إِنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، أَوِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ هذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»** موارد الظمآن إلىٰ زوائد ابن حبان (١٨٣٤).

۞ والاختلاف يؤدي إلىٰ البغي، والظلم والحسد والغل والحقد، وغير ذلك من أمراض القلوب، وفي حديث أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ؛ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»** أخرجه أبو داود (٤٩٠٢).

﴿فَهَدَى﴾ وفق، وسدد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل المؤمنون من كل أمة ﴿لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أهل الكتاب ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الوحي ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ الكوني، والشرعي.

وقد يكون معنىٰ الآية ما هو أخص، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ، وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أُوتِيَتِ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ الله عَلَيْنَا، هَدَانَا الله لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**» أخرجه مسلم (٨٥٥).

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى﴾ يوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ ممن علمه اهلا للهداية ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ طريق ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام أي: أن التوفيق، والهداية، والتسديد بيد الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا أردتها فاسألها منه.

ولهذا كان من دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**»، **أخرجه مسلم (٢٧٢١) عن ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦].

۞ وفيه: إثبات صفة المشيئة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية، وتأتي بمعنىٰ الإرادة الكونية، فما شاءه الله عَزَّوَجَلَّ وقع وما شاءه لم يقع، ومشيئته متعلقة بالمحبوب وغير المحبوب، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير:٢٩].

وفي الأبيات المعزوة إلىٰ الشافعي:

مَـا شِـئتَ كَـانَ، وإنْ لَـم أَشَـأْ ... وَمَـا شِـئتُ إن لَـمْ تَشـأْ لَـمْ يكـنْ

﴿٢١٤﴾ ﴿أَمْ﴾ بل ﴿حَسِبْتُمْ﴾ ظننتم أيها المكلفون ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بغير ابتلاء، ولا تمحيص، وهذا لا يكون فإن الجنة حفت بالمكاره فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**» **أخرجه مسلم (٢٨٢٢)**.

﴿وَلَمَّا﴾ لم ﴿يَأْتِكُم مَّثَلُ﴾ شبه ما أتىٰ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ ولوا ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ من مؤمني كل أمة حيث ابتلوا وزلزلوا ومسهم البلاء العظيم، من الأمراض والأسقام وبغي الأعداء، ومع

ذلك صبروا، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

وفي حديث خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شَكَوْنَا إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو الله لَنَا؟ قال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**» متفق عليه.

﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ الشدة ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ الأمراض، وغير ذلك ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ ازعجوا بأنواع البلاء حتىٰ ضاق بهم الحال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في شأن المؤمنين يوم الأحزاب: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]. ﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿يَقُولَ﴾ قال ﴿ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ بسبب استبطاء النصر من الله ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي وعدناه ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قريب إتيانه، وَعَنْ سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلاَءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**» أخرجه الترمذي(٢٣٩٨).

وَعَنْ المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أخرجه أبو داود (٤٢٦٣) وغيره**، وجاء من حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من أموالهم في سبيل الله ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَآ أَنفَقْتُم﴾ بذلتم ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ من مالٍ ﴿فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ بدأ بالنفقة علىٰ القريب، وهو الوالد لعظيم

حقه ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ بقية الأرحام كالأعمام، والأخوال، وأبناء الأعمام، والأجداد، ومن يدخل فيهم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم، وهو في حق الإنسان من مات أبوه قبل بلوغه.

﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذي لا مال له أو له مال لا يكفيه، وقد حثَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإنفاق على اليتيم، والمسكين في غير ما حديث، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ**»، (**وَأَشَارَ بِأُصْبُعَيْهِ - يَعْنِي السَّبَّابَةَ، وَالْوُسْطَى**) متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله - وَأَحْسِبُهُ قَالَ - وَكَالْقَائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**» متفق عليه.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو الذي يسير في الطريق فتنقطع عنه النفقة؛ فإنه يُعَانُ من الصدقات الواجبة، والمستحبة ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ مهما تفعلوا من خير من الإنفاق وإن قل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨].

۞ وفيه: ما كان عليه أهل الإيمان من محبة الإنفاق، فعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وَكَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ.

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رسول الله، إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا **وَذُخْرَهَا عِنْدَ** الله، فَضَعْهَا يَا رسول الله حَيْثُ أَرَاكَ الله، قَالَ: فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ**» متفق عليه.

وقد جاء عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ؛ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ الله ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي**

سَبِيلِ الله»، قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَبَدَأَ بِالْعِيَالِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو قِلَابَةَ: وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عِيَالٍ صِغَارٍ يُعِفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ الله بِهِ وَيُغْنِيهِمْ؟» أخرجه مسلم (٩٩٤).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

﴿٢١٦﴾ ﴿كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾ للكفار، وهذه الآية مدنية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أمر محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومن معه في مكة بالصبر، كما قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل:١٠]، و قال تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، وقال: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

فلما هاجر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ المدينة، وقويت شوكة الإسلام أذن الله تعالىٰ لهم بجهاد الدفع، كما قال تعالىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج:٣٩]، ثم فرض الله عَزَّوَجَلَّ جهاد الطلب بهذه الآية: ﴿وَهُوَ﴾ أي: الجهاد ﴿كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ مكروه؛ لما فيه من مشقة السفر، ومشقة المسايفة، والجراحات، والقتل، إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ جعل علىٰ ذلك الأجور العظيمة.

فعن أَبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الْجِهَادَ؟: «لَا أَجِدُهُ، هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ.

أخرجه البخاري (٢٧٨٥).

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا﴾ كالأمر بالجهاد ﴿وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ في عاقبة أمركم في دنياكم أو أخراكم ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ في عاقبة أمركم في دنياكم أو أخراكم.

۞ فكم من أمر يظن الإنسان فيه الخيرية وفيه شر، وكم من أمر يظن فيه الشر وفيه خير لاسيما الأوامر الإلهية، والأوامر النبوية، فإنها خير، وتفضي إلىٰ الخير، وإن ظننت فيها المشقة وغير ذلك، فعن رَافِعِ بْنِ خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كُنَّا نُحَاقِلُ الْأَرْضَ عَلَى عَهْدِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنُكْرِيهَا بِالثُّلُثِ وَالرُّبُعِ، وَالطَّعَامِ الْمُسَمَّى، فَجَاءَنَا ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ مَنْ عُمُومَتِي، فَقَالَ: نَهَانَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَمْرٍ كَانَ لَنَا نَافِعًا، وَطَوَاعِيَةُ الله وَرسوله أَنْفَعُ لَنَا، نَهَانَا أَنْ نُحَاقِلَ بِالْأَرْضِ فَنُكْرِيَهَا عَلَى الثُّلُثِ وَالرُّبُعِ، وَالطَّعَامِ الْمُسَمَّى، وَأَمَرَ رَبَّ الْأَرْضِ أَنْ يَزْرَعَهَا، أَوْ يُزْرِعَهَا، وَكَرِهَ كِرَاءَهَا وَمَا سِوَى ذَلِكَ**» أخرجه مسلم (١٥٤٨).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ ما هو خير لكم، وما يصلحكم في الحال، والمآل ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ إلا ما أعلمكم الله إياه.

﴿٢١٧﴾ فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراياه في الشهر الحرام فعيره المشركون؛ بقتاله في الشهر الحرام، فقال الله : ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ﴾ وهذا سؤال إنكار.

۞ **والأشهر الحرم أربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب** مضر بين جمادىٰ وشعبان، سمي برجب مضر؛ لأنهم كانوا يعظمونه أكثر من غيرهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞ﴾ [التوبة: ٣٦].

﴿قُلۡ﴾ لهم يا محمد ﴿قِتَالٖ فِيهِ﴾ القِتَال فيه ﴿كَبِيرٞ﴾ كبيرة، وهذا في حال الابتداء، أما في حال الدفع، والمجازاة، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ :﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورىٰ:٤٠].

﴿وَصَدٌّ﴾ المنع، والدفع ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دين الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَكُفۡرُۢ بِهِۦ﴾ والكفر به ﴿وَ﴾ الصد، والمنع عن ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ لمن قصده للعمرة، ونحوها، ﴿وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ﴾

بطردهم، والتضيق عليهم حتىٰ خرجوا مهاجرين ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فالمعنىٰ: أن ابتداء القتال في الشهر الحرام كبيرة، ومع ذلك ما حصل منكم يا معاشر المشركين بالصد عن سبيل الله تعالىٰ، والكفر به، والصد عن المسجد الحرام أن يأتيه المسلمون بحج أو عمرة، وإخراج أهله منه كبرًا وعنادًا، حيث أخذت أموالهم وشردت أنفسهم أكبر عند الله .

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم ﴿مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ ومن غيره من البلايا، فكونكم تعترضون علىٰ فرض القتال، ما أنتم فيه من عبادة الأصنام أكبر من القتل في الشهر، والبلد الحرام. ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ الكفار ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: وعداوتهم ظاهرة للمسلمين يقاتلونهم، ويؤذونهم ﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ يفتنوكم، وتقع منكم الردة ﴿عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، ومن هذا ينبغي للمسلم أن يثبت علىٰ دينه؛ فإن الكفار يحرصون كل الحرص علىٰ زحزحت المسلمين عن دينهم بأنواع الشبه، والأذىٰ.

۞والردة ثابتة بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعجب أن تجد أن بعض الفرق التي تدعي تحكيم الإسلام، كالإخوان المسلمين، ينكر كثير منهم حكم الردة، والله المستعان من غربة الدين، والجهل بأحكامه.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ﴾ يكفر ﴿مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ الإسلام بعد أن دخله ﴿فَيَمُتْ﴾ يوافيه الأجل ﴿وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ولم يتب من ردته ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ﴾ ذهبت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فلا قيمة لها البتة كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] بينما من وقعت منه الردة ثم تاب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

۞فلهذا كان القول الصحيح من أقوال أهل السنة: أن من وقعت منه الردة من صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم عاد إلىٰ الإسلام بقي له اسم الصحبة قال الحافظ بن حجر: الصحابي من لقي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مؤمنًا به ومات علىٰ ذلك، ولو تخللت ردة علىٰ الصحيح.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين ارتدوا وماتوا عليها ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مؤبدون.

وفي العقيدة الطحاوية: "وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ".

﴿٢١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ربًا، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا، وانقادوا للأمر، والنهي ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ فارقوا الأوطان، والديار من أجل إقامة دينهم ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وبذلوا الجهد في إعلاء كلمة الله ، بالسنان، وإن كان الجهاد باللسان أيضًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم وصفهم ﴿يَرْجُونَ﴾ يؤملون ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ بسبب أعمالهم التي بذلوها في طاعة الله ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ متجاوز عما مضىٰ من الذنوب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ موفق لما يأتي.

وهذه من أعظم آيات الرجاء، لكن لابد أن يكون الرجاء مع ملازمة العمل الصالح .

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾﴾.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما جاء في مسند الإمام أحمد (٣٧٨) عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، قَالَ: اللهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً. فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] . قَالَ: فَدُعِيَ عُمَرُ، فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، فَكَانَ مُنَادِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَقَامَ الصَّلَاةَ نَادَىٰ: أَنْ لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلَاةَ سَكْرَانُ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً. فَنَزَلَتِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ، فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١] قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ: انْتَهَيْنَا، انْتَهَيْنَا.

﴿٢١٩﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ وهو الشراب المسكر ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ القمار، وذلك أن الريبة قد وقعت في القلب بسببهما، وقد علم من تعاليم الإسلام أنه جاء بحفظ

الضروريات الخمس العقل، والمال، والنفس، والدين، والعرض، ويدعو إلىٰ مكارم الأخلاق وينهىٰ عن سفاسفها.

ومن أسوىٰ ما يتعطاه الإنسان أنه يتعاطىٰ شيئًا يؤدي إلىٰ فقد عقله ويصيره كالمجنون، وقد وقعت بين أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعض الأفعال التي جعلتهم يستنكرون هذا المشروب الخبيث.

فعن مصعب بن سعد، عن أبيه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «**فِيَّ نَزَلَ تَحْرِيمُ الْخَمْرِ، شَرِبْتُ مَعَ قَوْمٍ، ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تُحَرَّمَ، فَضَرَبَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنْفِي بِلَحْيِ جَمَلٍ، فَأَتَيْتُ رسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ، فَأَنْزَلَ الله تَحْرِيمَ الْخَمْرِ، قَالَ: وَأَصَبْتُ سَيْفًا يَوْمَ بَدْرٍ، فَسَأَلْتُ رسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، **فَنَزَلَتْ** ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]».

وكانت تسمىٰ أم الخبائث؛ لأنها أصل لكل شر، فإذا شُربت الخمر ساءت الأخلاق، وتغيرت الطباع، وانتُهكت المحارم، وسُفكت الدماء، وربما جعلت صاحبها لا يتورع عن المحارم بأنواعها.

فعن عثمان بن عفان، رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**اجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا أُمُّ الْخَبَائِثِ، إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ مِمَّنْ خَلَا قَبْلَكُمْ يَتَعَبَّدُ وَيَعْتَزِلُ النَّاسَ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَوِيَّةٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ جَارِيَتَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا نَدْعُوكَ لِشَهَادَةٍ، فَدَخَلَ مَعَهَا فَطَفِقَتْ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ، حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ عِنْدَهَا غُلَامٌ وَبَاطِيَةُ خَمْرٍ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَالله مَا دَعَوْتُكَ لِشَهَادَةٍ، وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ، أَوْ تَقْتُلَ هَذَا الْغُلَامَ، أَوْ تَشْرَبَ الْخَمْرَ، فَسَقَتْهُ كَأْسًا، فَقَالَ: زِيدُونِي، فَلَمْ يَرُمْ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهَا وَقَتَلَ النَّفْسَ، فَاجْتَنِبُوا الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ هِيَ وَالْإِيمَانُ أَبَدًا إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرِجَ صَاحِبَهُ**» أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (١٧٣٣٩).

والخمر مشتقٌ من التخمير أي التغطية، فإنه يغطي العقل ويُذهبه، حتىٰ يصير متعاطيه كالمجنون الذي لا يميز، وقد ترك جملة من العرب الخمر في الجاهلية؛ لسوأتها.

وخير الله عَزَّوَجَلَّ محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بين الخمر، واللبن، فاختار اللبن؛ لأنه علامة الفطرة، ودليل علىٰ الدين والعلم، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إِنَّ رسول الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **أُتِيَ**

لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِإِيلِيَاءَ بِقَدَحَيْنِ مِنْ خَمْرٍ وَلَبَنٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِمَا فَأَخَذَ اللَّبَنَ، فَقَالَ لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: **الْحَمْدُ اللهِ الَّذِي هَدَاكَ لِلْفِطْرَةِ، لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ»** أخرجه مسلم (١٦٨).

وكانت الخمر حين حُرمت من العنب والتمر، حتىٰ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْخَمْرُ مِنْ هَاتَيْنِ الشَّجَرَتَيْنِ؛ النَّخْلَةِ، وَالْعِنَبَةِ»** أخرجه مسلم (١٩٨٥).

وذكر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها حُرمت من خمسة: **العنب، والزبيب، والتمر، والشعير، والبسر.**

وكان تحريم الخمر علىٰ ثلاث مراحل:

- **المرحلة الأولىٰ:** حيث بين الله في الأولىٰ أن الخمر وإن كان فيه منافع، من حيث اللذة بشربة والطرب حين تناوله، وإذهاب بعض ما في الإنسان من بعض الأمراض، أو هضم الطعام وغير ذلك، إلا أن إثمه أكثر من ذلك.

ومثله الميسر، والقمار، حيث تأخذ فيه أموال الناس بالباطل، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»**، ويقول: **«إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»**.

والميسرُ منفعته من جهة أن الفقير قد يتحصل علىٰ مال من غير تعب ونصب؛ لكن مفسدته العظيمة في أكل أموال الناس بالباطل، زِد علىٰ ذلك ما يؤدي إليه من تشاحن القلوب وتنافرها، فإن الإنسان إذا دخل مع آخر في مقامرة ثم أخذ ماله، أثر ذلك علىٰ نفسه، فلذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:٩١].

- **المرحلة الثانية:** تحريم الخمر علىٰ من أراد الصلاة، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ [النساء: ٤٣].

- **المرحلة الثالثة:** تحريم الخمر فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب بالمدينة، قال: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الله تعالى يُعَرِّضُ بِالْخَمْرِ، وَلَعَلَّ الله سَيُنْزِلُ فِيهَا أَمْرًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ، وَلْيَنْتَفِعْ بِهِ»** أخرجه مسلم (١٥٧٨).

وعن عائشة قالت: «لَمَّا أُنْزِلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرِّبَا»، قَالَتْ: «خَرَجَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَحَرَّمَ التِّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ» متفق عليه.

ونهىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخمر أن تتخذ خَلا، وأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من شرب الخمر في الدنيا، ومات ولم يتب منها لم يطعمها في الآخرة، فيُحرم من نعيم عظيم؛ بسبب ارتكاب منكر جسيم، ربما تكون لذته في ساعة.

وأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن من شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يومًا، كما في حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً» أخرجه الترمذي (١٨٦٢).

وقد «جلد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخمر بالجريد، والنعال أربعين، وضرب أبو بكر أربعين، فلما فشى الخمر في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جمع الناس واستشارهم، فقال عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أرى أن يجعل كأقل الحدود، فجُعل ثمانين» أخرجه مسلم (١٧٠٧) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومع ذلك قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «جَلَدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، وَعُمَرُ ثَمَانِينَ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ، وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ» أخرجه مسلم (١٧٠٧).

﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ من حيث ما تجر إليه من ضيق الصدور، وذهاب المروءات، والأموال، حتىٰ أن متعاطيها لاسيما الخمر يتغير وجه، وتبرز عيونه، وينتفخ جسمه، وتشاهده كالمخبول. ﴿وَ﴾ فيها ﴿مَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يسيرة تقدم ذكرها، ليست بشيء أمام الإثم ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وهذا للتزهيد فيهما، والتحقير من شأنهما، والعاقل يتنزه عن مثل من كان هذا حاله.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ من الأموال ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ الزائد، وقيل المراد به الأفضل، والأول أولىٰ؛ فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ» متفق عليه.

وَعَنْ أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لا زَادَ لَهُ فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ**» أخرجه مسلم (١٧٢٨).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: بالتحليل، والتحريم ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ يجلي ويوضح، ﴿لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الشرعية ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ تتعقلون، فتنزجرون عما نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عنه وتلتزمون شرعه. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ وما يقع منكم ولكم ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ ما يقع من الحرج من الأكل مع اليتامىٰ، فإن بعضهم كان يجعل مال اليتيم علىٰ حدة؛ حتىٰ لا يختلط بماله، فأمر الله عَزَّوَجَلَّ أن الإصلاح محمود، وأن الإفساد هو المذموم، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ تنمية أموالهم ﴿خَيْرٌ﴾ يعتبر من الأجر العظيم عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لما فيه من المحافظة علىٰ أموالهم والنفقة عليهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ في أكلكم، وشربكم بالمعروف فلا حرج عليكم، ﴿فَ﴾ إنهم ﴿إِخْوَٰنُكُمْ﴾ في الدين، وشأن الأخ أن يخالط أخاه ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لأموالهم بمخالطته ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لها فيجازي كل واحد علىٰ عمله.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ ضيَّق عليكم بعدم المخالطة للأيتام، ولكنه خفف عنكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب علىٰ أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه وشرعه.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾.

هذا شروعٌ في ذكر بعض آيات النكاح والطلاق، وما يلي ذلك، فيأمر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين أن تكون المزاوجات بينهم للمؤمنين، فيجوز للمسلم الكفء أن يتزوج المسلمة الكفء له، وينبغي للإنسان أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ في مُوَلِّيَتِهِ، فلا يزوجها إلا من كفء لها، من حيث الديانة، والصيانة، وغير ذلك، حتىٰ أن بعض أهل العلم تكلم في مسألة زواج أهل البدع، وخرج أن تزويج أهل البدع يعتبر من قطيعة الرحم، فكيف إذا كانت المزاوجة بين

المسلمين والمشركين، فإن هذا من أعظم القطيعة فنهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين أن يتزوجوا المشركات، واستثنىٰ من ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المحصنات من أهل الكتاب. حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

وإلا فبقية المشركات لا يجوز أن تبقىٰ مع المسلم، حتىٰ ولو كانت تاركة صلاة لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**» **اخرجه مسلم (٨٢) عن جابر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ تتزوجوا ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ يسلمن، فإذا لم يقع منها الإيمان فليست بكفء، ولو كانت من الأقربين.

ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ محضضًا علىٰ زواج المسلمة علىٰ أي حال كانت، وإن كانت فقيرة، أو دون المشركة في الجمال، ﴿وَلَأَمَةٌ﴾ جارية مملوكة ﴿مُّؤْمِنَةٌ﴾ مع ضعف حالها ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ تعبد الأصنام، والأوثان، وتشرك بالله ، ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ المشركة بمالها، أو جمالها، أو حسبها، أو نسبها، فإن هذا ليس بشيء أمام ما هي عليه من الشرك.

فعن سهل بن سعد السَّاعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه: «مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ لرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا**» فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا وَالله حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لَهُ رسول **الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا**» فَقَالَ: يَا رسول الله، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لاَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لاَ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لاَ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**» **اخرجه البخاري (٥٠٩١)**.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟﴾ تُزَوجوا ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الكافرين ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ يسلموا، وإن كثرت أموالهم، وحسن حسبهم، ونسبهم، ﴿وَلَعَبْدٌ﴾ مولىٰ مملوك ﴿مُّؤْمِنٌ﴾ تزوجونه ﴿خَيْرٌ﴾ لكم في دينكم، ودنياكم من الزواج ﴿مِّن مُّشْرِكٍ﴾ كافر ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾؛ ماله، وحسبه؛ لأن

كثيرًا من الناس نظرتهم إلىٰ الدنيا، فعن بُرَيْدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَحْسَابَ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّذِي يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ الْمَالُ**» أخرجه النسائي (٣٢٤٩).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكفار، والمشركين ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بأعمالهم الشركية، وأفعالهم الكفرية، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: بما فرض عليكم من أمور الإيمان، والإسلام، فكلها دعوة إلىٰ جنة عرضها السماوات والأرض ﴿وَ﴾ يدعوكم إلىٰ ﴿ٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ ليتجاوز عنكم؛ إن رجعتم إليه ولزمتم شرعه ﴿وَيُبَيِّنُ﴾ يوضح ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ الشرعية ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتعظون، وينزجرون.

وقد ذهب بعض من لا يحسن، كالترابي، وأصحاب حزب التحرير إلىٰ جواز تزويج الكتابي من المسلمة؛ قياسًا علىٰ تزويج المسلم من الكتابية.

وهذا قياس فاسد لأمور:

- **الأول:** أن الكتابية إذا تزوجها المسلم يرجىٰ أن تسلم؛ لأن القوامة للرجل.
- **الثاني:** إذا بقيت علىٰ شركها، فإن أبناءها لأبيهم المسلم، أما المسلمة إذا تزوجت الكافر وكانت القوامة للرجل فيوشك أن يحرفها عن دينها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾.

جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما أخرجه الإمام مسلم (٣٠٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا، وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ، فَسَأَلَ أَصْحَابُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول **الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**»، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْيَهُودَ، فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ، وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ، فَقَالَا: يا رسول الله ، إِنَّ الْيَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟

فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا، فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا، فَسَقَاهُمَا، فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا».

﴿٢٢٢﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد ﴿عَنِ﴾ إتيان النساء في حال ﴿ٱلْمَحِيضِ﴾، والحيض خاص ببنات آدم، وهو واقع من بعض الحيوانات كما يذكر بعض أهل العلم، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ الله عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**» متفق عليه.

۞ وما جاء عن ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (**كَانَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يُصَلُّونَ جَمِيعًا، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ لَهَا الْخَلِيلُ تَلْبَسُ الْقَالَبَيْنِ تَطَوَّلُ بِهِمَا لِخَلِيلِهَا، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِنَّ الْحَيْضُ، فَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ: أَخِّرُوهُنَّ حَيْثُ أَخَّرَهُنَّ الله ، فَقُلْنَا لِأَبِي بَكْرٍ: مَا الْقَالَبَيْنِ؟ قَالَ: رَفِيصَيْنِ مِنْ خَشَبٍ**» أخرجه عبد الرزاق (٥١١٥).

فيحمل علىٰ أنه ألقي عليهن من حيث كثرة زمنه، وسيلانه؛ عقوبة لهن، فإنهن كن يخرجن متبرجات متزينات للفتنة.

۞ و(**الحيض**) لغة: **السيلان**؛ ولذلك يقولون حاض الوادي أي: سال وهو دم يخرج من المرأة في وقت محدود، وليس هو بدم علة، أو مرض، وإنما هو دم طبيعي يتحول في أيام الحمل إلىٰ غذاء للجنين، فإذا خرج الجنين تحول إلىٰ لبن، ولذلك قل أن تحيض المرضع، فإذا ما ذهب عنها ذلك عاد الدم إلىٰ السيلان: وهو دم نجس بخلاف بقية الدماء، فلا ينجس من دم الإنسان إلا دم الحيض، ودم النفاس، إذ أن حكمه حكم الحيض؛ لأنه في الغالب من الدماء المتجمعة في أيام الحمل، والحيض

❖ **وقد اختلف العلماء في أقل زمن الحيض:**

فقيل تسع سنوات، وقيل ست.

واختلفوا في أكثره فقيل خمسون سنة، وقيل ستون سنة في حق العربية، وخمس وستون في حق غيرها، **والصحيح** الذي عليه المحققون أنه لا حد لأقله، وأكثره، فإذا خرج الدم بصفاته المعهوده بالحيض، فهو دم حيض.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ أَذًى﴾ أي: نجس ينبغي أن يبتعد عنه، وعن موطنه، ولهذا «**كان رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا أراد أن يباشر أزواجه وهن حيض يأمر إحداهن أن تأتزر في فور حيضتها ثم يباشرها**» **متفق عليه عن عائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿فَٱعْتَزِلُواْ﴾ اجتنبوا جماع ﴿ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾ وهذا الأمر قد بينته السنة، وأن المراد بالاعتزال اعتزال غشيانهن من حيث الجماع، وما في بابه، وتجوز المواكله، والمضاجعة المباشرة لها بلا خلاف كما تقدم في سبب النزول: «**افعلوا كل شيء إلا النكاح**» وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ**: «بَيْنَا أَنَا مَعَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُضْطَجِعَةٌ فِي خَمِيلَةٍ حِضْتُ، فَانْسَلَلْتُ، فَأَخَذْتُ ثِيَابَ حِيضَتِي، فَقَالَ: «**أَنُفِسْتِ**»، فَقُلْتُ: نَعَمْ فَدَعَانِي، فَاضْطَجَعْتُ مَعَهُ فِي الخَمِيلَةِ» **متفق عليه**.

۞ **وللحيض عشرة أسماء**، وقيل خمسة عشرة نظمها بعضهم:

للحيض عشرة أسماء لنا وردت	طمس وطمث وإعصار وإكبار
ضحك دراس عراك بعد ذاك أتىٰ	حيض نفاس فراك هم يا جار

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بالجماع ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ من الحيض، ويتوقف ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ اغتسلن في قول جمهور العلماء

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد اتفق العلماء علىٰ أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتىٰ تغتسل بالماء، أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده: إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلىٰ غسل" .اهـ.

﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ جامعوهن، والأمر للإباحة ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ في القبل في صمام واحد، سواءً أتاها من قبلها في قبلها، أو من دبرها في قبلها، أما ما يفعله بعضهم من إتيانها في دبرها فهذا حرام، وكبيرة من كبائر الذنوب وعظيم الآثام، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**إِنْ شَاءَ مُجَبِّيَةً، وَإِنْ شَاءَ غَيْرَ مُجَبِّيَةٍ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ**» **أخرجه مسلم** (١٤٣٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ التوبة الرجوع، وهي واجبة من كل ذنب.

۞ وفيه: إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية التي دل عليها الكتاب والسنة والعقل، قال الله عَزَّوَجَلَّ :﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ**» أخرجه مسلم (٢٩٦٥) عن أبي سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ سواءً في ذلك طهارة الظاهر، أو الباطن، فالظاهر الطهارة من النجاسات والأحداث، والباطن طهارة القلب من الشرك، والعقائد الباطلة، والحقد، والحسد، وغير ذلك.

قال البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ:" وَلَا يَجُوزُ لِلْحَائِضِ الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ، وَلَا الِاعْتِكَافُ فِي الْمَسْجِدِ، وَلَا مَسُّ الْمُصْحَفِ، وَلَا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ، وَلَا يَجُوزُ لِلزَّوْجِ غِشْيَانُهَا".

أَقُولُ: وهذا قول مرجوح في مسألة مس المصحف، وقراءة القرآن فعمدتهم حديث: «**أَنْ لَا يَمَسَّ الْقُرْآنَ إِلَّا طَاهِرٌ**»، وعلىٰ القول بصحته فالمراد به المسلم؛ لأن المؤمن لا ينجس، وأما قول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فالمراد به: اللوح المحفوظ، والمراد بالمطهرين الملائكة.

● قوله: (**وَلَا قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**)، هذا أيضًا قول مرجوح والأدلة تدل علىٰ جواز قراءتها له فإن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقرأ القرآن علىٰ كل أحيانه، ويقول لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ**» متفق عليه، والحاج يقرأ القرآن.

● قوله: (**وَلَا الِاعْتِكَافُ فِي الْمَسْجِدِ**)، **الصحيح أنه** إذا وقع عليها الحيض وهي معتكفة في المسجد، فيجوز لها البقاء، ويجوز لها الخروج، قد كن أزواج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعتكفن، ويعتكف غيرهن، ولم يذكر أنهن إذا حضن خرجن من المسجد.

وعمدة هذا القول حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**لا أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ وَلَا جُنُبٍ** » أخرجه أبو داود (٢٣٢) ، وهو حديث ضعيف في سنده جسرة بنت دجاجة.

❖ مسألة: طلاق الحائض:

واختلف العلماء في هذه المسألة، **والصحيح** من أقوال أهل العلم أنه يقع، كما حققت ذلك في شرحي علىٰ عمدة الأحكام، وبينت أن ما ذهب إليه ابن القيم، ونصره الشيخ ابن عثيمين؛ احتجاجًا بنصرة ابن حزم لهذا المذهب لا يستقيم؛ لأن رسول الله ﷺ أمر ابن عمر أن يراجع امرأته، ففي الصحيحين عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: طَلَّقْتُ امْرَأَتِي عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهِيَ حَائِضٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ عُمَرُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيَدَعْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ حَيْضَةً أُخْرَى، فَإِذَا طَهُرَتْ فَلْيُطَلِّقْهَا قَبْلَ أَنْ يُجَامِعَهَا، أَوْ يُمْسِكْهَا، فَإِنَّهَا الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ يُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ**». قَالَ عُبَيْدُ اللهِ: قُلْتُ لِنَافِعٍ: مَا صَنَعَتِ التَّطْلِيقَةُ؟ قَالَ: «وَاحِدَةٌ اعْتَدَّ بِهَا».

وفي مسلم من طريق سالم بن عبد الله ، وكان عبد الله طلقها تطليقة واحدة، فحسبت من طلاقها، وراجعها عبد الله كما أمره رسول الله ﷺ، فهذا تصريح بالاعتداد بها، فلا يحمل قوله بعد هذا التصريح علىٰ المراجعة اللغوية من أنه أرجعها إلىٰ البيت، ولكن علىٰ المراجعة الشرعية، كما بين ذلك غير واحد من أهل العلم، وكيف يترك ما في **"الصحيحين"** من الأحاديث الثوابت المصرحة بالاعتداد بها إلىٰ رواية شاذة جاءت من طريق أبي الزبير، فردها ولم يرها شيئا، وقد قال أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا شذوذها : والأحاديث كلها علىٰ خلاف ما قال أبو الزبير. اهـ

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَتِ الْيَهُودُ تَقُولُ إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ، فَنَزَلَتْ:** ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾» **متفق عليه.**

وفي زيادة لمسلم: «**فَإِنْ شَاءَ مُجَبِّيَةً، وَإِنْ شَاءَ غَيْرَ مُجَبِّيَةٍ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ**».

۞ وأما ما جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أنها نزلت في إتيان النساء في...**» كما في البخاري الإشارة إليه ولم يذكر لفظ الدبر.

وقال أبو جعفر ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره بعد ذكره الرد علىٰ ذلك: وتبين بما بينا صحة معنىٰ ما روي عن جابر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لأن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين: (كَانَتِ الْيَهُودُ، تَقُولُ إِذَا أَتَىٰ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبُرِهَا فِي قُبُلِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ).

وقال العلامة الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذكره بعض القائلين بالجواز: وليس في أقوال هؤلاء حجة البته، ولا يجوز لأحد أن يعمل علىٰ أقوالهم، فإنهم لم يأتوا بدليل يدل علىٰ الجواز، فمن زعم منهم أنه فهم ذلك من الآية فقد أخطأ في فهمه، وقد فسرها لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأكابر أصحابه، بخلاف ما قاله هذا المخطئ في فهمه كائن من كان، ومن زعم منهم أن سبب نزول الآية أن رجلا أتىٰ امرأة في دبرها فليس في هذا ما يدل علىٰ أن الآية أحلت ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ، بل الذي تدل عليه الآية أن ذلك حرام، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة علىٰ أسباب تأتي تارة بتحليل هذا وتارة بتحريمه انتهىٰ.

وأما الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ فبعد أن ذكر قول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سبب نزول الآية، قال: وهذا الحديث محمول علىٰ ما تقدم وهو أن يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي عن علي بن عثمان النفيلي، عن سعيد بن عيسىٰ، عن المفضل بن فضالة، عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمه، عن أبي النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولىٰ ابن عمر: إنه قد أكثر عليك القول أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتىٰ أن تأتىٰ النساء في أدبارهن، قال كذبوا علي، ولكن سأحدث كيف كان الأمر إن ابن عمر عرض المصحف يومًا وأنا عنده حتىٰ بلغ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ فقال: يا نافع هل تعلم من أمر هذه الآية؟

قلت: لا. قال: إنا كنا معشر قريش نجبي النساء فلما دخلنا المدينة، ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثلما كنا نريد، فآذاهن فكرهن ذلك، وأعظمنه، وكن نساء الأنصار قد

أخذن بحال اليهود إنما يوتين علىٰ جنوبهن، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ وهذا إسناد صحيح.

ثم ساق جملة من الأحاديث الدالة علىٰ تحريم إتيان النساء في أدبارهن، وتقدم قول ابن مسعود وأبي الدرداء، وأبي هريرة، وابن عباس، وعبد الله ابن عمرو في تحريم ذلك، وهو الثابت بلا شك عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه يحرمه.

قال أبو محمد عبدالرحمن الدارمي في مسنده: وروىٰ عبد الله بن صالح، حدثني الليث، حدثني الحارث بن يعقوب، عن سعيد ابن يسار أبي الحباب قلت لابن عمر: ما تقول في الجواري أيُحمض لهن؟ قال: وما التحميض؟ فذكرت الدبر، قال: هل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟!

وهكذا رواه ابن وهب، وقتيبه عن الليث به، وهذا إسناد صحيح، ونص صريح منه بتحريم ذلك، وكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلىٰ هذا المحكم. اهـ

❖ ومما يبين أن الإتيان في الدبر لا يجوز

• **الأول**: أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ﴾ فإذا كان ذلك الأمر جائزًا لما أمر بالاعتزال، وكان بديلًا.

• **الثاني**: أن الحرث إنما يكون في الموطن الذي يزرع فيه، والمرأة إنما يكون ولدها في قبلها، وأما الأحاديث التي جاءت بلفظ: «**مَلْعُونٌ مَنْ أَتَى امْرَأَتَهُ فِي دُبُرِهَا**»، أو «**من فعل كذا فهو كافر**»، فهي أحاديث لا تثبت.

﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: بإلتزام الطاعات وفعل القربات، فإنكم محشورون إلىٰ ربكم وستجدون أعمالكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: راقبوه في فعل المأمور واجتناب المحظور ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ﴾ يوم القيامة، وذكر جماهير العلماء أن اللقاء يقترن برؤية علىٰ ما يأتي كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما لهم عند الله عَزَّوَجَلَّ من الأجر العظيم، والرفعة في الدارين، ويبشرهم ملائكة الرحمة عند موتهم: (**اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ**

الطَّيِّبِ، وَاخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ) أخرجه أحمد (٢٥٠٩٠)، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت:٣٠-٣١]، وقال:﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨].

﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾.

﴿٢٢٤﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ﴾ لا تصيروا الله عَزَّوَجَلَّ، والحلف به ﴿عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ مانعًا لكم من ملازمة المبرات والخيرات، بل يتعين علىٰ الإنسان أن يفعل الخير، وأن يبتعد عن الشر.

فإن صدّر اليمين بالانتهاء عن فعل الخير ننظر إن كان ما حلف أن لا يأتيه يعتبر واجبًا، فيجب عليه أن يحنث في هذا اليمين، كأن يقول: والله ما أصلي في المسجد، فيجب عليه الكفارة، والصلاة في المسجد.

وإن كان المحلوف عليه محرمًا، كأن يقول: والله لأشربن الخمر، فتجب عليه الكفارة، ولا يجوز له المضي في يمينه فتجري علىٰ اليمين الأحكام الخمسة: الواجب، والمستحب، والحرام، والمكروه، والمباح، علىٰ ما بينته في كتابي: «التبيان في أحكام الأيمان».

﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ تلازموا أعمال البر، والطاعات ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ وتراقبوا الله عَزَّوَجَلَّ باجتناب المنهيات. ﴿وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيما يقع بينهم من المشاجرات علىٰ مقتضىٰ حكم الله عَزَّوَجَلَّ، وحكم رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[النساء:١٢٨]، وقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء:١١٤].

فالصلح مأمور به من الله عَزَّوَجَلَّ، ومرغب فيه، وهو سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما يؤدي إليه من حقن للدماء، وحفظ الأعراض، والأموال ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾

بأفعالكم، وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنِّي وَاللهِ إِنْ شَاءَ اللهُ لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي، وَأَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ**» متفق عليه.

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَاللهِ لَأَنْ يَلِجَّ أَحَدُكُمْ بِيَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ، آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ**» متفق عليه.

﴿٢٢٥﴾ ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾ الكائن ﴿فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ وهو ما يسبق إليه اللسان بغير قصد الحلف وهي الأيمان المطرحة التي لا أثر لها، وهي قول الرجل: كلا والله ، وبلىٰ والله ، ولم يكن قد عقدها، ولا نواها بقلبه ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ﴾ قصدت ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ وهذه كقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة:٨٩]، أي: بما عقدت عليه القلوب من النية بإمضائه، فمن حنث وجب عليه الكفارة التي أوجب الله عليه، وستأتي أحكام الكفارات بإذن الله عَزَّوَجَلَّ في تفسير ﴿سورة المائدة﴾.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما كان من اللغو ﴿حَلِيمٌ﴾ بتأخير العقوبة عن مستحقها فهو عَزَّوَجَلَّ متجاوز وساتر لعباده مما وقعوا فيه، حليم لا يعاجلهم بالعقوبة؛ ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعفو ويصفح، وهذا من فضله العظيم.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْيَمِينَ لَا تَنْعَقِدُ إِلَّا بِاللهِ أَوْ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ، أَوْ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، وهذا الذي عليه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ".

أَقُولُ: وهو المذهب الحق، بينما ذهب شيخ الإسلام إلىٰ أن أيمان المسلمين ستة، وذكر منها الطلاق، والعتاق، ونحو ذلك، **والصحيح** أن الحلف بغير الله عَزَّوَجَلَّ لا ينعقد مطلقًا، بل يجب علىٰ صاحبه التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، واليمين المنعقدة: هي التي تكون علىٰ فعل، أو ترك في المستقبل أما ما كان في الماضي أنه فعل ولم يفعل، أو لم يفعل وقد فعل، فهي يمين الغموس.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " وَإِذَا حَلَفَ عَلَىٰ أَمْرٍ مَاضٍ أَنَّهُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ أَوْ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقَدْ كَانَ، إِنْ كَانَ عَالِمًا بِهِ حَالَةَ مَا حَلَفَ فَهُوَ الْيَمِينُ الْغَمُوسُ، وَهُوَ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَتَجِبُ فِيهِ الْكَفَّارَةُ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ ".

أَقُولُ: **الصحيح** أنها لا تجب فيه الكفارة؛ بل يجب عليه التوبة النصوح، فهي من الكبائر، فعن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بالله ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ**» متفق عليه.

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

﴿٢٢٦﴾ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ﴾ يحلفون ﴿مِن﴾ جماع ﴿نِّسَآئِهِمْ﴾ زوجاتهم ﴿تَرَبُّصُ﴾ انتظار ﴿أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ قمرية، والألية اليمين، والمراد بها: ترك وطء المرأة أن لا يجامعوهن، فله أن يتربص أربعة أشهر، وأما ما كان دون ذلك فليس عليه تبعه، فإن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد آلى من نسائه شهرًا، ولم تلحقه أحكام الإيلاء، مع أن بعض أهل العلم ذهب إلىٰ أن ما دون الأربعة الأشهر لا يسمىٰ إيلاء، وهذا قول غير صحيح، ففي الصحيحين عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «**أَنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آلَى مِنْ نِسَائِهِ شَهْرًا، فَلَمَّا مَضَى تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ يَوْمًا، غَدَا أَوْ رَاحَ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ حَلَفْتَ أَنْ لاَ تَدْخُلَ شَهْرًا، فَقَالَ: إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا**».

﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا إلىٰ أزواجهم بالعشرة، والوطء، فإن كان مجبوبًا، أو عاجزًا عن الجماع كان رجوعه بالقول، أو ما يقوم مقامه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ متجاوز عن إساءته إليها في هذه الفترة ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

﴿٢٢٧﴾ ﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي: بعد أربعة أشهر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلامهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بحالهم.

والمعنىٰ: ليس لهم بعد تربص هذه الفترة إلا الفيئة، أو الطلاق.

وقد ذهب بعض أهل العلم منهم ابن مسعود، وابن عباس، وبه قال سفيان الثوري، وأصحاب الرأي إلىٰ أن من آلىٰ من زوجه أربعة أشهر، فإذا مضت فإنها تطلق منه، **فهذا غير صحيح**، وإنما يؤمر بالفيئة، وهو الجماع في هذا الموطن، وإما الطلاق، حتىٰ قال ابن حزم: فإن طلق وإلا ضربه الحاكم حتىٰ يطلق، فإن مات في ذلك الضرب فإنه قتيل الله ورسوله.

۞ والإيلاء إنما يكون من الزوجة الحرة، فلا يقع الإيلاء في الأمة؛ لأن الأمة ليس لها حق في الوطء.

۞ وفي الآية أنه يجوز للرجل أن يهجر زوجته تأديبًا لها، وكبحًا لنفورها، وشدتها.

۞ وفيه: بيان أن الإسلام دين الحقوق للرجال، والنساء، وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»** أخرجه أحمد(١٧٦٦٣).

﴿٢٢٨﴾ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ ينتظرن، ويعتددن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أطهار.

والمعنىٰ: أن المطلقة، بقوله فلانة طالق، أو نحو ذلك، تتربص بنفسها ثلاثة قروء، وهذا في حال ما إذا كانت المرأة ممن تحيض، مدخول بها، وأما إذا لم تكن من الحائضات فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت من الحوامل، فعدتها وضع الحمل، لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق:٤]، وفي غير المدخول بها قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾[الأحزاب:٤٩]، وإن خلعت منه، أو فسخت فعدتها حيضة، كما في حديث ابن عباس وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

❖ **وقد اختلف العلماء في القرء:**

فذهب كثير من الصحابة وغيرهم إلىٰ أن القرء الحيض، وذهبت عائشة في جمع من أهل العلم إلىٰ أن القرء الطهر، فعلىٰ هذا إذا دخلت في حيضتها الثالثة انتهت عدتها، وأما من قال بأن القرء الحيض فتستمر في عدتها حتىٰ تغتسل من حيضتها الثالثة، وقد رجح القرطبي في تفسيره، والشنقيطي في أضواء البيان بدلائل لغوية، وشرعية أن القرء الطهر.

﴿وَلَا يَحِلُّ﴾ لا يجوز ﴿لَهُنَّ﴾ للزوجات ﴿أَن يَكْتُمْنَ﴾ يخفين ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ من الولد، أو الحيض، ويجوز للزوج في هذا الحال إذا كان الطلاق رجعيًا أن يراجعها بدون إذنها، أو إذن أوليائها.

۞ وفيه: أن النساء مأمونات علىٰ أنفسهن في شأن الحيضة، والحمل، والرضاع، ونحو ذلك.

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ﴾ مراقبات لله ممتثلات لأمره وشرعه، فيجب عليها أن تكون صادقة ظاهرًا، وباطنًا مع زوجها، سواءً كانت معه في عشرتها، أو قد فارقها بطلاق﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يخفن الله أن يجازيهن في ذلك اليوم، فإنه يوم الجزاء، والمعاد، ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أزواجهن الذين وقع منهم الطلاق، ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ مراجعتهن إلىٰ عصمتهم ﴿فِي ذَٰلِكَ ﴾ في زمن التربص والعدة ﴿إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ لا ضرر علىٰ المرأة فيه، وأما إذا كان الحال علىٰ النشوز، والنفرة فالمضي في الطلاق أولىٰ.

وبهذا تعلم أنه لا يجوز أن تخطب المطلقة طلاقًا رجعيًا، بل ولا يجوز التعريض لها، فإن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ خَبَّبَ زَوْجَةَ امْرِئٍ أَوْ مَمْلُوكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا**» **أخرجه أبو داود (٥١٦٩) عن بريدة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ وفيها: أن الحياة الزوجية مبنية علىٰ الإصلاح فيما فيه مصلحة العباد جميعًا.

۞ ويستثنىٰ من هذه الآية الطلاق المبتوت، فإنه إذا كانت الطلقة الثالثة فلا حق له في ردها حتىٰ تنكح زوجًا غيره، كما سيأتي.

﴿وَلَهُنَّ﴾ الزوجات من الحقوق ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ من الحقوق لأزواجهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعًا وعقلًا علىٰ قدر الاستطاعة بغير كلفة ولا مشقة، وفي حديث معاوية الْبَهْزِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إِنِّي حَلَفْتُ هَكَذَا وَنَشَرَ أَصَابِعَ يَدَيْهِ حَتَّى تُخْبِرَنِي مَا الَّذِي بَعَثَكَ الله بِهِ؟ قَالَ: «**بَعَثَنِي الله بِالْإِسْلَامِ**»، قَالَ: وَمَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرسوله وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، أَخَوَانِ نَصِيرَانِ لَا يَقْبَلُ الله مِنْ أَحَدٍ تَوْبَةً أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ**». قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله، مَا حَقُّ زَوْجِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «**تُطْعِمُهَا إِذَا أَكَلْتَ، وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ وَلَا تُقَبِّحْ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ**» **أخرجه أحمد (٢٠٠١١).**

۞ وفي هذه الآية دليل علىٰ أن طاعة الزوج بالمعروف واجبة، وليست علىٰ سبيل التطوع فقط.

وإننا لنشكوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الزمن من تسلط النساء علىٰ أزواجهنَّ؛ بسبب تقليد الكافرات، والخروج عن هدي القرآن والسنة في هذا الباب تحت ذريعة المناداة بتحرير المرأة، وما تقوم به المنظمات في البلاد الإسلامية لدليل علىٰ حرص الكفار علىٰ إفساد نساء المسلمين.

﴿وَلِلرِّجَالِ﴾ الأزواج ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ النساء ﴿دَرَجَةٌ﴾ فضيلة في الحق، وهذا كقوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤]، فدرجة الرجال من حيث القوامة، والفضل، والإحسان، قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**» **أخرجه الترمذي(١١٥٩) عن معاذ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَعَنْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةً تَتَبَجَّسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ تَلْحَسُهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ**» **أخرجه أحمد(١٤٢٦٤) عن أنس** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ في ملكه لا يغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ في فعله وما شرع.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾.

٢٢٩ ﴿ٱلطَّلَٰقُ﴾ الرجعي ﴿مَرَّتَانِ﴾ اثنتان، وهذا تقييد لما كان عليه الناس قبل ذلك، فقد جاءت مراسيل تدل علىٰ أن أهل الجاهلية، وفي بداية الإسلام، كان من أراد أن يطلق امرأته طلقها، ثم يردها ما شاء، ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل ذلك في طلقتين، وأما الثالثة فهي البينونة الكبرىٰ فلا تحل له حتىٰ تنكح زوجا غيره علىٰ ما يأتي.

﴿فَإِمۡسَاكُۢ﴾ بعد مراجعتهن ﴿بِمَعۡرُوفٍ﴾ من غير ضرر، وأذىٰ ﴿أَوۡ تَسۡرِيحُۢ﴾ إرسال لهن ﴿بِإِحۡسَٰنٖ﴾ من غير إساءة من الزوج والزوجة، فإن لم يكن الإمساك بمعروف علىٰ مقتضىٰ الشريعة، فليكن التسريح بإحسان علىٰ مقتضىٰ الشريعة، والله عَزَّوَجَلَّ رؤوف بعبادة، فهو القائل: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا﴾ [النساء:١٣٠].

فالمرأة تستغني، والزوج يستغني ﴿وَلَا يَحِلُّ﴾ لا يجوز ﴿لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا﴾ أي: من مهورهن فإنه حق لها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء:٢٠].

وفي الحديث: «**لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**».

﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ الزوج، والزوجة ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بطاعة زوجها بالمعروف، فلها عند ذلك أن تفتدي منه بالخُلع.

❖ **وقد اختلف العلماء هل الخلع طلاق، أم فسخ؟**

ففي البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَارسول الله، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلاَ دِينٍ، وَلَكِنِّي**

أَكْرَهُ الكُفْرَ فِي الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟**» **قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً**».

والصحيح أنه ليس بطلاق، فهذه اللفظة قد انتقدها أهل العلم، علىٰ **أزهر بن جميل**، قال البخاري: **لا يتابع فيه**.

وعدة المختلعة حيضة، كما جاء عن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنها تعتد بثلاثة قروء كحال بقية النساء، والصحيح الأول.

ويجوز أن تخلع نفسها بأكثر من مهرها، وإن اكتفىٰ بمهرها فهو الموافق ليسرية الشريعة، وإن اختلعت بغير ذلك ورضي فله ذلك، ولا يتم الخلع إلا برضىٰ الزوج، فإذا لم يرض رفعت القضية إلىٰ القاضي ويكون الفسخ.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ من الطاعة، ونحوها ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إثم ﴿عَلَيْهِمَا﴾ الزوج والزوجة ﴿فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: من مهرها، أو ما دونه. ﴿تِلْكَ﴾ ما تقدم من مسائل الطلاق، والخلع، وما في بابها من المسائل ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أحكامه، وفرائضه ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ تتجاوزوها ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ بالمجاوزة، أو الإفراط، أو التفريط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب نهي الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿٢٣٠﴾ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزَّوج الطلقة الثالثة، وليس المراد أن يطلقها ثلاثًا في مجلس واحد، فعن ابْنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ، طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ**» اخرجه مسلم (١٤٧٢).

وإنما المراد بأن يطلقها طلقتين رجعيتين، ثم يطلقها الثالثة بعد أن راجعها.

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ الطلقة الثالثة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ﴾ تتزوج ﴿زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ ويطأها، ويكون هذا النكاح نكاحًا شرعيًا لا لقصد التحليل، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةُ رِفَاعَةَ

إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ، فَطَلَّقَنِي، فَبَتَّ طَلَاقِي، فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الزَّبِيرِ، وَإِنَّ مَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فَتَبَسَّمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ، وَيَذُوقَ عُسَيْلَتَكِ**» متفق عليه.

❖ **وقد اختلفوا في ذوق العسيلة.**

فذهب بعضهم إلىٰ أنه مجرد الإيلاج، وذهب بعضهم إلىٰ اشتراط الإنزال، **والصحيح** أنه الجماع أنزل أم لم ينزل، فإن نكحت زوجًا غيره بعقد شبهة، أو فاسد، أو وطء زنا، أو غير ذلك، فلا تحل لزوجها الأول.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي زوجها الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ﴾ الزوج الأول والزوجة ﴿أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ إلىٰ النكاح بعد انقضاء العدة من الزوج الثاني ﴿إِن ظَنَّآ﴾ تيقنا علىٰ الراجح ﴿أَن يُقِيمَا﴾ يلتزما ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أما إذا كان الأمر سيعود إلىٰ ما كان إليه، فالأولىٰ أن يبقوا علىٰ فراقهما. ﴿وَتِلْكَ﴾ لمذكورات ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا﴾ وضحها، وجلاها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يتذكرون.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾.

﴿٢٣١﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الزوجات ﴿فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن الأجل، إذ أنه بعد إنتهاء الأجل لا سبيل له إليها إلا بعقد جديد، ومهر جديد إن كانت الطلقة رجعية. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بالمراجعة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بالإحسان إليهن ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ﴾ اتركوهن حتىٰ تنقضي عدتهن، ويمضين لحال سبيلهن ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ من غير تضييق عليهن.

﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ﴾ بالرجعة ﴿ضِرَارٗا﴾ لتضروهن و﴿لِّتَعۡتَدُواْ﴾ عليهن بالالجاء إلىٰ الافتداء إذ أنهم كانوا يطلقون المرأة، فإذا قرب إنتهاء العدة أعادها إلىٰ عصمته، وهكذا.

فيتجاوزن الحد في المعاملة معهنَّ، بما يؤدي إلىٰ الإضرار بهن، ودين الإسلام فيه تأدية الحقوق إلىٰ أهلها وفي حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّ اللهَ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**» اخرجه احمد (١٧٦٩٩).

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**» متفق عليه.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ الإمساك للمضارة ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ بارتكاب هذا الذنب العظيم؛ لأنه ذنب إلىٰ الغير، ومعلوم أن حقوق العباد مبنية علىٰ المشاحة، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والظلم ظلمات يوم القيامة**» متفق عليه عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ لا تجعلوا ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾، للاستهزاء، والسخرية وعدم العمل، إلا أن المعنىٰ العام: أنه لا يجوز الاستهزاء بشيء من دين الله ؛ فإن ذلك يعد من الكفر، والعياذ بالله كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

۞وفي هذا **الموطن يذكر العلماء** حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِد وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ النِّكَاحُ، وَالطَّلَاقُ، وَالرَّجْعَةُ**» أخرجه أبو داود (٢١٩٤) وفيه عبد الرحمن بن حبيب ضعيف، ويحسنه بعض أهل العلم، والعمل عليه.

﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالإسلام، وغيره فالنعمة إذا أضيفت أفادت العموم.

والمراد به في هذا الموطن: نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليكم بإباحة الرجعة بعد الطلاق، وفي ذلك من المصالح ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الإنسان قد يطلق ثم يندم، ويريد الإصلاح، ومنه عودة المرأة إلىٰ أبنائها، ومنها عمارة البيوت، فإن الطلاق هدم للأسر، وتضييع للأبناء.

وأما المعنىٰ العام: فاذكروا نعمة الله عليكم إذ أنعم عليكم بجميع أنواع النعم، الظاهرة، والباطنة، كما قال تعالىٰ : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وذكر نعمة الله عَزَّوَجَلَّ شكره عليها: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧].

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿مَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ من الأحكام في القرآن العظيم، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ جعله تبيانًا، وشفاءً، وموعظةً، ورحمة، فما أبركه، وأنفعه. ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الموضحة للكتاب والمبينة له، فإنها المبينة لمجمله، والمقيدة لمطلقه، والمخصصة لعامه. ﴿يَعِظُكُم﴾ يذكركم ﴿بِهِ﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإلتزام أوامره، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا تخفىٰ عليه أعمالكم، إن خيرًا نلتم الخير، وإن كان غير ذلك نلتم ما تستحقون، وهذا علىٰ التهديد كما أنها علىٰ الوعيد.

۝٢٣٢ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انتهت عدتها قبل المراجعة ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خطاب للأولياء فلا تمنعوهن من الرجوع إلىٰ أزواجهن.

📖وَجَاءَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه البخاري عَنِ الحَسَنِ: «**أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجُهَا فَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، فَخَطَبَهَا، فَأَبَى مَعْقِلٌ» فَنَزَلَتْ:** ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾.

۞ **وفي هذه الآية موافقة لقول رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا نِكَاحَ إلا بِوَلِيٍّ**»؛ لحديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود(٢٠٨٥)، وعليه جمهور العلماء، فمن زوجت نفسها، أو زوجتها مثيلتها فنكاحها باطل، فإن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خُطِبَت إليها بعض جواريها، فلما كان العقد قالت: اعقد بها يا فلان، فإنه ليس للنساء في ذلك شيء.

ووجه الدلالة من الآية أنه لو كان لها أن تزوج نفسها لرجعت إليه، بدون رضىٰ وليها إذ أنها كانت راضية، وخالف أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ فذهب إلىٰ صحت تزويج المرأة لنفسها، وهذا كما ترىٰ قول باطل مخالف للأدلة، وإنما الواجب أن تُستأذن المرأة فلا تزوج مكرهة فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْأَيِّمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا، وَالْبِكْرُ تُسْتَأْذَنُ فِي نَفْسِهَا، وَإِذْنُهَا صُمَاتُهَا**» مسلم (١٤٢١).

تقع المراجعة والعودة ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ﴾ المطلقة مع طليقها ﴿بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بحسن العشرة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما تقدم ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ؛ لأن الذي لا يؤمن بالله ، واليوم الآخر لا يستجيب لأمر الله، ولا ينزجر عن نهيه. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إمتثال شرع الله عَزَّوَجَلَّ برد المولية إلىٰ زوجها، وترك العصبية ﴿أَزۡكَىٰ﴾ خير وأفضل ﴿لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ لقلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ بالمصالح والمفاسد، فشرع لكم الخير وحذركم من الشر، والضير ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك فالواجب أخذ ما أمر به؛ لما فيه من المصالح.

﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾.

ومن تمام حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه حين شرع الطلاق بيَّن أحكام المولود الذي يكون بين الزوجين المتفرقين، وهذا من تمام الرعاية لهذا المخلوق الضعيف الذي يحتاج في قوته إلىٰ أمه، أو إلىٰ حاضنة أخرىٰ.

﴿٢٣٣﴾ ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ﴾ المطلقات، ولهن أولاد في حال الإرضاع، ﴿يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ جملة خبرية، والمراد بها الأمر أي: ليرضعن أولادهن، ويدخل فيه الذكور، والإناث ﴿حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ﴾ عامين.

وبهذا استدل جمهور العلماء علىٰ أن الرضاعة لا تكون جارية الأحكام إلا إذا كانت في الحولين، فما زاد علىٰ الحولين فليس برضاع مُحرم.

والصحيح في هذه المسألة أنه إن كان قد فُطم في الحولين، فالرضاع بعد الحولين غير محرم؛ لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ**» **اخرجه مسلم(١٤٥٥)عن عائشة**

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُحَرِّمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ، إِلَّا مَا فَتَقَ الْأَمْعَاءَ فِي الثَّدْيِ وَكَانَ قَبْلَ الْفِطَامِ**» **أخرجه الترمذي (١١٥٤) عن أم سلمة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وأما إذا كان لم يفطم، فيشمله أحكام الرضاعة، فمن رضع خمس رضعات فإن المرضعة تصير أُمًّا له لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا **قَالَتْ: «كَانَ فِيمَا أَنْزَلَ الله** عَزَّوَجَلَّ- **وَقَالَ الْحَارِثُ: فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ -: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَهِيَ مِمَّا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ»**

وتأتي إن شاء الله بعض هذه الأحكام في تفسير ﴿سورة النساء﴾ عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء:٢٣].

۞ واحتج بهذه الآية علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، علىٰ أن أقل فترة الحمل ستة أشهر، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أُتِيَ بِامْرَأَةٍ قَدْ وَلَدَتْ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُرْجَمَ، فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: لَيْسَ ذلِكَ عَلَيْهَا. إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ:** ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ **وَقَالَ:** ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ **فَالْحَمْلُ يَكُونُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ. فَلَا رَجْمَ عَلَيْهَا فَبَعَثَ عُثْمَانُ فِي أَثَرِهَا. فَوَجَدَهَا قَدْ رُجِمَتْ»** أخرجه مالك (٣٠٤٥).

﴿لِمَنۡ أَرَادَ﴾ من الآباء والأولياء ﴿أَن يُتِمَّ﴾ لصغيره ﴿ٱلرَّضَاعَةَ﴾ حتىٰ تمام الحول.

❖ **وهذه المسألة عائدة إلىٰ ثلاثة:**

١- الزوج المطلق. ٢- والأم المطلقة. ٣- والولد الذي بينهم.

﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ﴾ الزوج ﴿رِزۡقُهُنَّ﴾ إطعام الوالدات ﴿وَكِسۡوَتُهُنَّ﴾ بما يقوم بشأنها ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بما تعارف عليه أهل البلد من النفقة المتوسطة، فلا يجحف في النفقة عليها حتىٰ يلحقها الضرر، ولا يلزم بالتوسعة عليها حتىٰ يلحقه الضرر، ولكن بين ذلك، وتختلف نفقة الموسرة عن نفقة الفقيرة. ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ طاقتها وهذا من تخفيف الله عَزَّوَجَلَّ بعباده أنه لا يكلف نفسًا إلا ما آتاها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، وقال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

۞ **وبهذه الآية ونحوها** احتج العلماء علىٰ أن من عجز عن نفقة أهله، فهي مخيرة بين أن تصبر عليه وبين أن يفارقها، وذهب كثير من العلماء إلىٰ أنه إذا عجز عن النفقة عليها، فإنه يلزم بطلاقها، أو يقوم الحاكم بفسخها، **والصحيح** أن الأمر يعود في هذا الحال إلىٰ المرأة، فإن النفقة حق لها فإن صبرت وتنازلت فهذا من المعروف الذي بينهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وإن أبت إلا الفراق فلها ذلك.

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ فتجبر علىٰ إرضاعه إذا لم يقبل غيرها، أما إن قبل الصبي من مرضعة سواها فلا تُلزم؛ لأنه غير واجب عليها، ﴿وَلَا﴾ يضار ﴿مَوۡلُودٞ لَّهُۥ﴾ وهو الزوج ﴿بِوَلَدِهِۦۚ﴾ أي: بسببه فلا يلحق الضرر الأب، من حيث التكليف، والإلزام له بما لا يستطيع، فالمرأة ترضع ولها أجرها، والزوج يكفي ولده النفقة بالمعروف، ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ﴾ وارث الأب في حال موته ﴿مِثۡلُ ذَٰلِكَ﴾ الحكم الذي تقدم وهذا من تمام حكمة الله وعلمه وكماله، فقد يكون الأمر للورثة من باب الإلزام، ولكن لا يقول قائل أبوه مات وليس علينا شيء، فعليه مِثْلُ ذلك أي: من الرزق، والكسوة لأم ولدهم، ولهم من الحقوق ما لمورثهم.

﴿فَإِنۡ أَرَادَا﴾ الوالدان ﴿فِصَالًا﴾ فطامًا له قبل الحولين ﴿عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا﴾ اتفاق ﴿وَتَشَاوُرٖ﴾ بما يكون لمصلحة الصبي، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إثم ﴿عَلَيۡهِمَا﴾ في ذلك، إلا أنه ينبغي أن يراعا حالة الولد؛ حتىٰ لا يضيع، ﴿وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ﴾ خطاب للآباء ﴿أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ﴾ مرضع من غير الوالدات فلكم ذلك.

وقد استأجر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لولده إبراهيم مرضعًا، وكانت العرب علىٰ هذا، ولما مات إبراهيم ولد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ لَهُ مُرْضِعًا فِي الجَنَّةِ**» **أخرجه البخاري (١٣٨٢)**.

﴿إِذَا سَلَّمۡتُم﴾ إليهن ﴿مَّآ ءَاتَيۡتُم﴾ أردتم إتيانهن ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بالجميل، وطيب النفس، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بإلتزام أمره وشرعه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ يرىٰ أعمالكم، ويجازيكم عليها، الإحسان بالإحسان، والإساءة بالعقوبات إن شاء.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۬ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾.

❁ بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ بعض أحكام العدد، ذكر ما يتعلق بعدة المتوفى عنها زوجها، وجميع النساء في ذلك سواء، المدخول بها وغير المدخول بها، واليائسة والتي لم تحض، ويستثنى من ذلك الحوامل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

وفي حديث سبيعة الأسلمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: «أَنَّ أَبَاهُ كَتَبَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الْأَرْقَمِ الزُّهْرِيِّ يَأْمُرُهُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى سُبَيْعَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيَّةِ، فَيَسْأَلَهَا عَنْ حَدِيثِهَا، وَعَنْ مَا قَالَ لَهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ اسْتَفْتَتْهُ، فَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ الْأَرْقَمِ إِلَى عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ يُخْبِرُهُ، أَنَّ سُبَيْعَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ، أَنَّهَا كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ وَهُوَ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، فَتُوُفِّيَ عنها فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهِيَ حَامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أَنْ وَضَعَتْ حَمْلَهَا بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَلَمَّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفَاسِهَا تَجَمَّلَتْ لِلْخُطَّابِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ - رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ - فَقَالَ لَهَا مَا لِي أَرَاكِ تَجَمَّلْتِ لِلْخُطَّابِ تُرَجِّينَ النِّكَاحَ؛ فَإِنَّكِ وَالله مَا أَنْتِ بِنَاكِحٍ حَتَّى تَمُرَّ عَلَيْكِ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ قَالَتْ سُبَيْعَةُ فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي حِينَ أَمْسَيْتُ، وَأَتَيْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَفْتَانِي: «بِأَنِّي قَدْ حَلَلْتُ حِينَ وَضَعْتُ حَمْلِي، وَأَمَرَنِي بِالتَّزَوُّجِ إِنْ بَدَا لِي» متفق عليه.

﴿٢٣٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يموتون ﴿مِنكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ زوجة أو أكثر. ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ ليتربصن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ بِبُعدهن عن النكاح والزينة ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل السبب في ذلك؛ حتىٰ يظهر الحمل، فإنه يتركب في أربعة أشهر، ويكون النفخ في العشر الليال، كما ذكر ذلك ابن المسيب وغيره، فإذا كان موت المتوفى في أول الشهر، فإنها تعتد بالأشهر، وأما إذا كان موته في غير ذلك فلابد من حساب الثلاثين، وقيل بأن السبب زيادة العشرة الأيام في العدة؛ لما يقع في الأشهر من الزيادة والنقصان، وهذا في غير الحامل كما تقدم، أما الحامل فعدتها بالوضع.

❖ **ولا يجوز للمعتدة عدة الوفاة أن تكتحل، أو أن تمس طيبًا، ولا أن تتجمل.**

فعن أمَّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يا رسول الله ، إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَقَدِ اشْتَكَتْ عَيْنُهَا، أَفنَكْحُلُهَا؟ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لاَ**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ: «**لاَ**» ثُمَّ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرٌ، وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الحَوْلِ**».

قَالَ حُمَيْدٌ: «فَقُلْتُ لِزَيْنَبَ، وَمَا تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَىٰ رَأْسِ الحَوْلِ؟ فَقَالَتْ زَيْنَبُ: كَانَتِ المَرْأَةُ إِذَا تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، دَخَلَتْ حِفْشًا، وَلَبِسَتْ شَرَّ ثِيَابِهَا، وَلَمْ تَمَسَّ طِيبًا حَتَّىٰ تَمُرَّ بِهَا سَنَةٌ، ثُمَّ تُؤْتَىٰ بِدَابَّةٍ، حِمَارٍ أَوْ شَاةٍ أَوْ طَائِرٍ، فَتَفْتَضُّ بِهِ، فَقَلَّمَا تَفْتَضُّ بِشَيْءٍ إِلَّا مَاتَ، ثُمَّ تَخْرُجُ فَتُعْطَىٰ بَعَرَةً، فَتَرْمِي، ثُمَّ تُرَاجِعُ بَعْدُ مَا شَاءَتْ مِنْ طِيبٍ أَوْ غَيْرِهِ سُئِلَ مَالِكٌ مَا تَفْتَضُّ بِهِ؟ قَالَ: تَمْسَحُ بِهِ جِلْدَهَا» **متفق عليه.**

❁ **وذهب بعض العلماء:** إلىٰ أن هذه الآية ناسخة للتي بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]، وقيل غير ناسخة، وسيأتي الكلام عليها إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ .

وهذه العدة تشترك فيها الحرة وغيرها.

و(الأمة) علىٰ قول لأهل العلم، وذهب جمهور العلماء إلىٰ أن ملك اليمين تعتد بشهرين وخمس ليال، نصف عدة الحرة، وذهب جمهورهم أيضًا إلىٰ أن الكتابية يلزمها حكم الحرة المسلمة سواء؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَحِلُّ لِامْرَأَةٍ، تُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، تُحِدُّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ، إِلَّا عَلَى زَوْجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا**» متفق عليه.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انتهت عدتهن، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ من التزين ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ شرعا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مطلع علىٰ سرائركم، وظواهركم.

﴿٢٣٥﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا حرج، وهذا خطاب للمؤمنين ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ﴾ لوحتم به بقوله: أنا قد عزمت علىٰ الزواج، وإن شاء الله يتيسر لي امرأة صالحة، أو أرجو أن أجد امرأة لها مثل صفاتك، ونحو هذا من الكلام الذي ليس فيه تصريح بالخطبة، وهذا في حق المرأة المتوفىٰ عنها زوجها، أو في حق المرأة المبتوتة بالطلاق، وأما المطلقة طلاقًا رجعيًا فلا يجوز التعريض لها بحال؛ لأن زوجها أحق بها من غيره، ما زالت في العدة؛ ولأنها لازالت في عصمته حتىٰ يبت طلاقها.

﴿مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: من التعرض لهن بعرض النكاح ﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ﴾ أضمرتم ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ من حديث النفس أنه سيتزوج هذه المرأة. ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ علم وقوع ﴿أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بالخطبة؛ لأنه بكل شيء عليم، ولا حرج في هذا الذكر ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾؛ لما يفضي إليه من الخلوة بالأجنبية، وربما يكون سبيلًا إلىٰ ما هو أغلظ منه، كما قيل:

نظـــــرةٌ فابتســـــامةٌ فســـــلامٌ ... فكـــــلامٌ فموعـــــدٌ فلقـــــاءُ

۞ وفي هذه الآية دليل علىٰ حرمة العمل الاختلاطي بين الرجال والنساء؛ لما يفضي إليه من الخلوة، وكثرة الملامسة حتىٰ يقع مالا يحمد، والله المستعان.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ من التعريض بالخطبة، وليس معنىٰ ذلك أنه يختلي بها، ويقول لها القول المعروف، ولكن يرسل لها، أو يتكلم بكلمة بغير خلوة، ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ لا يقع منكم المبادرة إلىٰ النكاح بالخطبة والعقد ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ المكتوب وهو العدة ﴿أَجَلَهُۥۚ﴾ تنتهي عدتها، فإذا عُقد له في حال العدة فالعقد باطل.

❖ **واختلفوا هل تحرم عليه مؤبدًا، أم أنه يجوز أن يتزوجها بعد إنتهاء عدتها؟**

• **والذي يظهر** أن لا دليل علىٰ القول بالتحريم المؤبد، ولكنها تعود إلىٰ عدتها فإن كان لها زوج وقد نكحها وهي في عدتها من طلاقه، فإن شاء زوجها راجعها وتبقىٰ حتىٰ تستبرأ بحيضة؛ من أجل نكاح الثاني لها، وإن لم إذا انتهت عدتها يخطبها ويتزوجها بعقد جديد ومهر جديد.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من العزم ﴿فَٱحۡذَرُوهُ﴾ وهذا تهديد من الله عَزَّوَجَلَّ، فعلىٰ الإنسان أن يراقب الله في جميع هذه الشؤون، من الخطبة والنكاح. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ متجاوز وساتر لذنوبكم، ﴿حَلِيمٞ﴾ بتأخير العقوبة علىٰ مستحقها.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦ وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٧﴾.

٢٣٦ ﴿لَّا جُنَاحَ﴾ لا إثم ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ ولا حرج ﴿إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامعوهن ﴿أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ مهرًا فإن لم يوجب لها مهرًا، وكان قد طلقها قبل الدخول بها فلا عدة عليها، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾ [الأحزاب: ٤٩].

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهن مالًا ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ﴾ الغني ﴿قَدَرُهُۥ﴾ بقدر ما عنده من السعة ﴿وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ﴾ الفقير ﴿قَدَرُهُۥ﴾ بغير تجاوز ويكون ذلك ﴿مَتَٰعًۢا﴾ تمتيعا، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بما لا مضرة عليها، ولا ضرر عليه، ﴿حَقًّا﴾ قيل واجبًا، وذهب الجمهور بأنه من المستحبات، **وهذا هو الصحيح**، ﴿عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المطيعين.

﴿٢٣٧﴾ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ من قبل الدخول بها ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ سميتم المهر ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ من المهر أما إذا كان قد دخل بها فلها المهر كاملًا ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ النساء عن حقهن ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟﴾ يتجاوز ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ اختلف في هذا فقيل يعفوا وليها، وقيل الذي بيده عقدة النكاح زوجها، وهو الأظهر، فيكون العفو منه بأن يتم لها المهر.

والمعنىٰ العام لهذه الآية: أن الإنسان يحسن لمن أحسن إليه، وإذا قدر، ووقعت بينهم المفارقة فيذكر بعضهم محاسن بعض، ولا ينسوا ما مضىٰ من المعروف، ورسول الله ﷺ لما جاءه جبير ابن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فداء أسارىٰ بدر قال لو جاءني المطعم ابن عدي لدفعتهم إليه؛ لأنه كان قد صنع معروفًا إلىٰ رسول الله ﷺ، ولو سلك الناس هذا المسلك بعدم نسيان ما بينهم من الفضل؛ لحصلت الألفة والمحبة، ولكن من الناس إذا أبغض شد في بغضه، وإذا أحب أفرط في حبه،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾.

📖وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

عن زيد ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها، فنزلت: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وإن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين**» **أخرجه أحمد (٢١٥٩٥)**.

والمعتمد في الصلاة الوسطىٰ أنها صلاة العصر، فعن عَلِيٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: «**شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا**» **متفق عليه**.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره:" وقد أشكل هذا الحديث علىٰ جماعة من العلماء، حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في الصلاة كان بمكة، قبل الهجرة إلىٰ المدينة وبعد الهجرة إلىٰ أرض الحبشة، كما دل علىٰ ذلك حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا نُسَلِّمُ عَلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَرُدُّ عَلَيْنَا السَّلَامَ، حَتَّىٰ قَدِمْنَا مِنْ أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيَّ، فَأَخَذَنِي مَا قَرُبَ وَمَا بَعُدَ، فَجَلَسْتُ حَتَّىٰ إِذَا قَضَىٰ الصَّلَاةَ، فسألتُهُ فقال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ مِنْ أَمْرِهِ أَنْ لَا يُتَكَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ**» **اخرجه النسائي (١٢٢١)**.

وقد كان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن أسلم قديمًا وهاجر إلىٰ الحبشة، ثم قدم منها إلىٰ مكة مع من قدم، وهاجر إلىٰ المدينة، وهذه الآية ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ مدنية بلا خلاف، وقال قائلون إنما أراد زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة الإخبار عن جنس الكلام، استدل علىٰ تحريم ذلك، بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم، قال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع في المدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبيح مرتين، وحرم مرتين، كما اختار ذلك قوم أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر، والله أعلم". اهـ.

قال الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ:"الذي يظهر لي -والله أعلم- أن الكلام حرم بمكة بالسنة المطهرة، كما في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلما قدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة صار بعضهم ممن لم يبلغه التحريم فتكلم في الصلاة كما حصل من معاوية ابن الحكم السلمي فنزلت الآية، والله أعلم". اهـ

﴿٢٣٨﴾ ﴿حَٰفِظُواْ﴾ لازموا، وواظبوا ﴿عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ المفروضات المكتوبات، فإن المحافظ عليهن واجب وحتم، وأما غيرهن من المندوبات والمستحبات، فالمحافظة عليها زيادة في الخير.

❁ **والمحافظة علىٰ الصلوات يكون بأمرين:**

الأول: المحافظة عليها في أوقاتها. **الثاني**: المحافظة عليها بهيئاتها، والملازمة لها.

﴿وَ﴾ حافظوا علىٰ ﴿ٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ وهي صلاة العصر، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالمحافظة علىٰ الصلوات، ثم أمر ورغب بالمحافظة علىٰ الصلاة الوسطىٰ؛ لما يقع من التفريط فيها؛ ولذلك قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ حَبِطَ عَمَلُهُ**» **متفق عليه عن ابن عمر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

وفي قراءة عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ **أخرجه مسلم**، من باب عطف الشيء علىٰ نفسه، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [مريم:٩٦].

وعن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في مسلم (٦٣٠) قَالَ: «**نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: فَقَرَأْنَاهَا مَا شَاءَ الله، ثُمَّ نَسَخَهَا الله، فَنَزَلَتْ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾، فَقَالَ رَجُلٌ كَانَ جَالِسًا عِنْدَ شَقِيقٍ لَهُ: هِيَ إِذَنْ صَلَاةُ الْعَصْرِ، فَقَالَ الْبَرَاءِ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ كَيْفَ نَزَلَتْ، وَكَيْفَ نَسَخَهَا الله**» مع أن كل صلاة من حيث النظر يصح أن تكون وسطىٰ؛ لكن الأخذ بالدليل هو المتعين.

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾.

❁ وهذا دليل علىٰ وجوب القيام في الصلاة، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**» **أخرجه البخاري (١١١٧) عن عمران بن حصين** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

❁ وهذا في الصلاة المفروضة، وأما صلاة النافلة فيجوز الجلوس فيها لغير علة.

فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: حُدِّثْتُ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**صلاةُ الرجلِ قاعدًا نصفُ الصلاة**». فأتيتُه فوجدتُه يُصلي جالسًا، فوضعتُ يدي على رأسي، فقال: ما لَكَ

يا عبدَ الله بنَ عمرو؟ قلتُ: حُدّثتُ يا رسول الله أنك قلتَ: صلاةُ الرجل قاعدًا نصفُ الصلاة وأنت تُصلي قاعدًا، قال: أجل، ولكني لستُ كأحدٍ منكم» أخرجه مسلم (٧٣٥).

﴿قَٰنِتِينَ﴾ تأتي بمعنىٰ طائعين، وخاشعين، وتأتي بمعنىٰ الإطالة، والسكوت، والمراد بها قوموا الله طائعين، خاشعين، مخبتين منيبين.

كما ذكر الحافظ في الفتح.

وَلَفْظ الْقُنُوت اُعْدُدْ مَعَانِيهْ تَجِدهْ ... مَزِيدًا عَلَىٰ عَشْرْ مَعَانِي مَرْضِيّهْ

دعاء خشوع والعبادة طاعةٌ ... إِقَامَتُهَا إِقْرَارُهُ بِالْعُبُودِيَّهْ

سكُوت صَلَاة وَالْقِيَام وَطوله ... كَذَاك دوَام الطَّاعَة الرَّابِح الْقُنِيَّهْ

﴿٢٣٩﴾ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي إذا خفتم من عدوكم أن يرصد صلاتكم، ويأتيكم علىٰ غرة، ﴿فَـ﴾ صلوا ﴿رِجَالًا﴾ وأنتم تمشون ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ وأنتم راكبون للقبلة، أو لغير القبلة عن ابن عمر، ولو صلىٰ ركعة أجزأه: فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **عَلَى الْمُسَافِرِ رَكْعَتَيْنِ، وَعَلَى الْمُقِيمِ أَرْبَعًا، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً**» أخرجه مسلم(٦٨٧).

۞ ويسمىٰ هذا قصر الصفة، وهناك قصر العدد، ويكون في السفر، فإن الصفة قد تقصر حتىٰ لا يحسن ركوعًا ولا سجودًا، وتسمىٰ بصلاة المسايفة.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من عدوكم ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ صلوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ علىٰ الوجه الذي شرعه الله عَزَّوَجَلَّ لكم، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» أخرجه البخاري (٦٠٠٨) عن مالك بن الحويرث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾.

﴿٢٤٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يموتون ﴿مِنكُمْ﴾ من المزوجين ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ﴿أَزْوَٰجًا﴾ زوجة، أو زوجات ﴿وَصِيَّةً﴾ عليهم ﴿لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ بالنفقة عليهن، والإحسان إليهن، والإكرام لهن ﴿مَّتَٰعًا﴾ من كسوة، ونحوها يتمتعن به ﴿إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ إلىٰ عام من موت الزوج ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ غير مخرجات من مساكنهن، فلا يعمد أولياء الميت إلىٰ إخراج المرأة من بيت زوجها؛ لقصد الإضرار بها، ومنعها مما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ لها.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ من أنفسهن إلىٰ بيوت آبائهن، أو أوليائهن ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ حرج، وإثم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من ذلك ﴿فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ شرعًا.

والمعنىٰ: إذا خرجن، وتزين الزينة التي إنما تكون للخطاب علىٰ الوجه المشروع، وحصل منهن الخروج لغير قصد تبرج أو خنىٰ، فلا جناح عليكم، ولا عليهن في ذلك مادام الأمر إلىٰ المعروف، والمعروف هو ما وافق الكتاب والسنة، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب قاهر لمن تمرد علىٰ شرعه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في أوامره، ونواهيه.

❁ وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذه الآية منسوخة بالآية التي تقدم ذكرها، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ﴾ [البقرة:٢٣٤]. وقال بعض أهل العلم بأن الآية علىٰ إحكامها، والمرأة إن أحبت أن تبقىٰ أربعة أشهر وعشرًا، فهذه هي العدة الواجبة، وإن أرادت أن تزيد علىٰ ذلك إلىٰ نهاية الحول، فإنها تكرم، وتعطىٰ، وينفق عليها بالمعروف، وإلىٰ هذا المعنىٰ ذهب بعض أهل العلم.

﴿٢٤١﴾ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ﴾ سواءً طلاقًا رجعيا أو بائنًا، إذا لم يرد إرجاعها ﴿مَتَٰعٌۢ﴾ يمتعها ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من النفقة أو الطعام أو الكسوة أو نحو ذلك، وهذا علىٰ مقتضىٰ ما تقدم من قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦]، فالمعروف يكون علىٰ قدر الزوج، فمتاع الغني يختلف عن متاع الفقير، وهكذا.

﴿حَقًّا﴾ واجبًا، أو مستحبًا ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المؤمنين.

۞ وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ وجوب المتاع للمرأة؛ استدلالًا بهذا النص، وذهب بعضهم إلىٰ استحباب ذلك، وقد تقدم القول فيه بما يغني عن الإعادة، من أنها إذا كانت مطلقة ولها مهر أعطاها من باب الإحسان والمعروف، وإن كانت مطلقة ولم يجعل لها مهرًا، فتمتع وجوبا علىٰ الوجه المعروف.

﴿٢٤٢﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما بين لكم ما ذكر ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حججه، وبيناته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون، فيحصل لكم التعقل والتدبر.

۞ وهذا رد علىٰ المفوضة، فإن المفوضة يزعمون أن معاني القرآن والسنة غير معلومة المعنىٰ، ويذكرون أنها مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ :﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و ﴿الٓمٓصٓ﴾ فرُد عليهم بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد أخبر أن القرآن أنزل للتدبر، والتعقل، والتفهم، وهذا دليل علىٰ أنه معلوم المعنىٰ.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾.

﴿٢٤٣﴾ هذه عودة إلىٰ قصة بني إسرائيل ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ ويذكر أنها قرية كانت من قرىٰ بني إسرائيل، فسلط الله عليهم الطاعون فخرجوا من ديارهم؛ ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ فرارًا من الموت ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قدرًا ﴿مُوتُوا۟﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾؛ لبيان قدرته التي لا يخرج عنها شيء، والله علىٰ كل شيء قدير،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي في جميع أحوالهم وما هم فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾؛لكفرانهم وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۖ﴾ [ص:٢٤].

﴿٢٤٤﴾ ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ جاهدوا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء، دينه، وشرعه، فعن أَبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : **أَنَّ رَجُلًا أَعْرَابِيًّا أَتَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يا رسول الله، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ الله ؟ فَقَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله أَعْلَى، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله** » **متفق عليه.** ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم ﴿عَلِيمُۢ﴾ بحالكم.

﴿٢٤٥﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ بإنفاق ماله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» **أخرجه أبو داود(٢٥٠٤)**، ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ عن طيب قلب وسعة صدر، والله عَزَّوَجَلَّ غني عن عباده، ولكن الإنفاق في أوجه الخير كالإقراض لله عَزَّوَجَلَّ، وأجر القرض عظيم. فعن سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ قُلْتُ سَمِعْتُكَ يَا رسول الله تَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلُهُ صَدَقَةٌ، ثُمَّ سَمِعْتُكَ تَقُولُ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ قَالَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ الدَّيْنُ، فَإِذَا حَلَّ الدَّيْنُ فَأَنْظَرَهُ فَلَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ مِثْلَيْهِ صَدَقَةٌ**» **أخرجه أحمد (٢٣٠٤٦).**

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ ينميه ويكثره ﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ من عشرة إلىٰ سبعمائة ضعف، علىٰ ما يأتي في آيات النفقة إن شاء الله، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم:٣٩]. ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ﴾ عمن يشاء ﴿وَيَبۡصُۜطُ﴾ لمن شاء، فهو الرزاق ذو القوة المتين وبسطه وقبضه يعود إلىٰ حكمته، كما

قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ:٢٧]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي كلًا بما قدم وعمل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾.

﴿٢٤٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ الجماعة ﴿مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ﴾ موت ﴿مُوسَىٰ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ لم يسم في القرآن، وربما تجد أن أصحاب التفسير يذكرون له اسم مثل (شمويل)، وهو بالعبرانية إسماعيل، لكن الله أعلم.

﴿ٱبْعَثْ﴾ أَقِمْ ﴿لَنَا مَلِكًا﴾ قائدًا ﴿نُّقَٰتِلْ﴾ معه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تنتظم به كلمتنا ﴿قَالَ﴾ رسول الله لهم ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟﴾ إذا فرض عليكم الجهاد، قد لا يقع منكم القتال ﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما الذي يزهدنا عن القتال في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ بسبب ظلمهم، وقتلهم، فشجعهم علىٰ القتال، والجهاد: أنه في سبيل الله وأنه للانتقام من عدوهم، الذين أخرجوهم من ديارهم، وفرقوا بينهم، وبين أبنائهم.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ الجهاد، واستجاب الله دعوة نبيه، وبعث لهم ملكًا يقاتلون تحت رايته ﴿تَوَلَّوْا۟﴾ أعرضوا، وأبوا، وجبنوا.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الذين عبروا النهر ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم علىٰ ظلمهم، وبغيهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ﴾ أقام ﴿لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ عليكم ﴿قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ هذا أول الاعتراض علىٰ توليته، ومخالفة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ أولىٰ ﴿بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ نظروا إلىٰ أنسابهم، أو أحوالهم من كثرة أموالهم، ونحو ذلك، وهذه نظرة أهل الدنيا .

﴿وَلَمْ يُؤْتَ﴾ طالوت ﴿سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ يستعين به علىٰ إقامة الملك، وهذا دليل علىٰ أن نظرتهم كانت قاصرة؛ إذ جعلوا الأحق بالملك هو صاحب المال، وصاحب الجاه.﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾ اختاره ﴿عَلَيْكُمْ﴾.

۞ وفيه: أن الله يصطفي من شاء من عباده كما قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص:٦٨]، من غير نظر إلىٰ لون، أو جنس، أو لغة، أو مال، أو غير ذلك، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣].

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ قوة، وسعة ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾، يستطيع أن يستنبط به الأحكام الشرعية، ومثله يوفق للخير، بحيث يقيم فيكم حكم الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ قوي يستطيع أن يكر، ويفر، وربما استطاع أن يرتب الجيش علىٰ أحسن حال، زد علىٰ ذلك أن من كان هذا حاله يكون شجاعًا.

﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى﴾ يعطي ﴿مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في ذاته وفضله وعطائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل لذلك، ومع ذلك أبوا إلا الإعراض.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ﴾ علامة ﴿مُلْكِهِۦٓ﴾، التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ دالة على ذلك ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ الصندوق، ذكر المفسرون في شأنه أن فيه صور الأنبياء أنزله الله إلى آدم، وقال غيرهم بل هو تابوت بناه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفيه عصاه، ورضاض الألواح، والتوراة، وكان وجوده علامة على النصر.

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ طمأنينة، وذهب بعضهم إلى أن السكينة هرة، أو ريح، أو طست، وغير ذلك مما ينقلونه، **والصحيح** أنها طمأنينة جعلها الله لهم إذا رأوا التابوت. ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ آثار ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ ككسر التوراة، وعصا موسى، وغير ذلك.

﴿تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ معهم أينما ذهبوا، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ التابوت ﴿لَءَايَةً﴾ علامة ﴿لَّكُمْ﴾ على ملكه عليكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين منقادين، لأمر نبيكم.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ خرج ﴿طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ من بيت المقدس، وكان في زمن حرٍ شديدٍ، وطلبوا منه الماء، ويَذكر أهل التفسير أنهم كانوا سبعين ألف أو يزيدون، ثم قال لهم

ملكهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم﴾ مختبركم ﴿بِنَهَرٍ﴾ اختبار من يطيعه ممن يعصيه ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ من مائه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ ليس من أهل الطاعة، والاستقامة ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ لم يشرب منه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ من أتباعي، ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ وهذا كالترخيص لهم، أن الإنسان إذا احتاج إلىٰ القليل فلا بأس أن يغترف، ولكن لا يشرب منه شرب العطشان حتىٰ يروىٰ.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ﴾ حتىٰ رووا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، والقليل كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر، فعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاَثَ مِائَةٍ**» أخرجه البخاري (٣٩٥٨).

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ جاز النهر ﴿هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهم من تقدم ذكرهم (بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاَثَ مِائَةٍ) ﴿قَالُواْ﴾ الذين شربوا لطالوت ﴿لَا طَاقَةَ﴾ لا قوة ﴿لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لما رأوا أن عددهم قليل. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يوقنون ﴿أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ بالبعث ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ طائفة ﴿قَلِيلَةٍ﴾ وهم أهل الإيمان ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾من أهل الكفران ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بإرادته الكونية، ومشيئة النافذة، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي ينصر من يشاء

۞ والمراد به: الإذن الكوني، مع أنه موافق للإذن الشرعي، حيث أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ بالجهاد، فالنصر من عند الله ليس بكثرة ولا بقلة، ولما قال بعض المسلمين في غزوة حنين: **(لن نهزم اليوم عن قلة)**، ابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ بما قد عُلم.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

۞فيه: تثبيت للصابرين، وأن الله ينصرهم، والمعية هنا معيةٌ خاصةٌ مقتضيةٌ للنصر، والتأييد.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ﴾ ظهر طالوت ومن معه ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: للقتال ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ دعوا الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقهم الصبر حال المسايفة، وهو حال عصيب؛ ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**» (٢٠٥٣).فسألوا الله عَزَّوَجَلَّ أن ينزل عليهم الصبر والسكينة، ولا ثبات للعبد إلا بتثبيت الله عَزَّوَجَلَّ،

وهذا موافق لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**» متفق عليه عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: عند المنازلة فلا يقع منهم الفرار، فإن الفرار من الزحف كبيرة من الكبائر، ومؤداه إلىٰ تسليط الأعداء علىٰ الفار، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ﴾ : الذي لا يغلب، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: في فعله وأمره.

﴿٢٥١﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ أي: هزم أصحاب طالوت أصحاب جالوت ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، الكوني القدري ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ﴾ وهو رسول الله الكريم أبو سليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿جَالُوتَ﴾ الملك الظالم، وهذه منقبة عظيمة، فإن من قتل الملك، أو قائد المعركة يكون له حظوة، ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: آتىٰ داود الملك علىٰ بني إسرائيل ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوة، والرسالة ﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ آتاه الزبور.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: أن هذه الحروب، وهذا الذي يقع بين المسلمين، والكفار فيه مصالح يرفع الله به درجات من يشاء من المؤمنين، وكذلك يدفع الله شر الكافرين بثبات المؤمنين ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بسبب البغي، والمعاصي، والذنوب ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ﴾ فدفع بعضهم ببعض ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث يسخر لهم من يقوم بشرعه، ودينه.

﴿٢٥٢﴾ ﴿تِلْكَ﴾ المذكورة ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ البينات الواضحات ﴿نَتْلُوهَا﴾ نقصها ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق، والواقع: ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ.

الجزء الثالث

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ اختلف العلماء في معنىٰ هذه الكلمة، هل هي إشارة إلىٰ الرسل الذين ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ في ﴿سورة البقرة﴾، أو إشارة إلىٰ جميع الرسل؟ فلا مانع من ذلك، والله أعلم.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

فيه جواز التفضيل بين الأنبياء، إلا إذا كانت المفاضلة تفضي إلىٰ تنقص بعضهم، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ - يَعْنِي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -: «**لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ لِي - وقَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى: لِعَبْدِي - أَنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ» **أخرجه مسلم** (٢٣٧٦)، و عن أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ**» **متفق عليه.**

واختلف العلماء في سبب قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لذلك.

فذهب بعضهم: إلىٰ أنه قال ذلك قبل أن يوحىٰ إليه أنه أفضل الأنبياء والمرسلين.

وذهب بعضهم: إلىٰ أنه قال ذلك تواضعًا.

وذهب بعضهم: إلىٰ أنه قال ذلك؛ سدًا لذريعة الجدال المفضي إلىٰ الخصومات، أو إلىٰ تنقص بعض الأنبياء، فكلهم فاضل إلا أن المفاضلة بينهم حاصلة، فأفضلهم محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ونوح، الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وفضيلة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كونه آخر الأنبياء والمرسلين، وسيدهم، وأعبدهم، وأكرمهم، وأُرسل إلىٰ الخلق جميعًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، أي: المكلفين ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨]، والناس يدخل فيهم الجن والإنس، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]؛ ولأن دينه ناسخ لجميع الأديان؛ ولأن أمته أكثر أمة تدخل الجنة، كما صحت بذلك الأحاديث والآيات علىٰ ما يأتي إن شاء الله في تفسير ﴿سورة آل عمران﴾ عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]. ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له خصائص خاصة به دون الأنبياء، وله خصائص خاصة به دون أمته.

﴿مِّنۡهُم﴾ من الرسل ﴿مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهو موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، شُهر بذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء:١٦٤]، حتىٰ سمي بالكليم، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ قد كلم غيره، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُكَلَّمًا» قَالَ: كَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشَرَةُ قُرُونٍ»** للدارمي(٢٩٩).

وقد كلم الله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة المعراج، ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ قيل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقيل هو التفاضل الذي بينهم والله أعلم. ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الإنجيل وما فيه، ومنها أنه يحيىٰ الموتىٰ، ويداوي المرضىٰ بإذن الله ، ويبرء الأكمه، والأبرص، ويخلق الطير بإذن الله، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ ، ﴿وَأَيَّدۡنَٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ﴾ قال بعض أهل العلم المراد لو شاء الله ما اختلفوا، ولا مانع أن الآية تحمل علىٰ المعنيين؛ لأن الاقتتال إنما يقع بعد الاختلاف.

۞ وفي الآية إثبات مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ النافذة، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، خلافًا لمذهب القدرية في هذا الباب.

﴿ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم﴾ أي من بعد عيسىٰ وموسىٰ، ومن تقدم بيانه ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الدلائل الواضحات علىٰ صدق الأنبياء والمرسلين ﴿وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ في فهم

الكتب المنزلة، ولا سيما من تقدم، فإنهم حرفوها وغيروها وبدلوها، فحصل من وراء ذلك الشر العريض، وحفظ الله الإسلام، بحفظ كتابه لفظًا ومعنىٰ بأهل السنة.

﴿فَمِنْهُم﴾ من الناس بعد الأنبياء ﴿ مَّنْ ءَامَنَ﴾ أي: سلك سبيل المؤمنين بامتثال أمر الله ، وأمر رسله، وثبت علىٰ ذلك ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ أعرض عن دين الله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا، وباطنًا. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ أي: ما وقع بينهم الخلاف، وما وصل بهم الحال إلىٰ الاقتتال ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

۞ وفي هذا رد علىٰ الأشاعرة والمعتزلة ومن إليهم، الذي يعطلون الله عَزَّوَجَلَّ من الصفات الاختيارية، فهو ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود:١٠٧]، يغضب متىٰ شاء، ويرضىٰ متىٰ شاء، وينزل متىٰ شاء، وكيف شاء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورىٰ:١١].

وقديمًا قيل:

مـــا للْعِبَـــادِ عَلَيْـــهِ حَـــقٌّ وَاجِـــبٌ ... كَـــلاَّ وَلا سَـــعْيٌ لَدَيْـــهِ ضَـــائِعُ
إنْ عُـــذِّبُوا فَبِعَدْلِـــهِ أو نُعِّمُـــوا ... فَبِفَضْـــلِهِ وَهُـــوَ الكَـــرِيمُ السَـــامِعُ

۞ وفي هذا بيان أن الله له الملك المطلق، لا يشاركه فيه أحد، وليس له معين ولا ظهير ولا نصير، تعالىٰ الله عن قول المبطلين علوًا كبيرًا.

۞وعلىٰ العبد أن لا ينقب في باب القدر، بل عليه أن يؤمن بأن الله قد قدر الخير والشر، وأنه بكل شيء عليم، وعلىٰ كل شيء قدير، وما شاء الله كان، ولم يشأ لم يكن، وأنه خالق كل شيء، هذا الذي يجب علينا الإيمان به، وعدم التنقيب لماذا وفق هذا، وخذل هذا، حتىٰ قال بعض السلف فلا يسأل عن أفعاله بـ(**لِمَ فعل**)، ولا عن صفاته: (بكيف).

﴿٢٥٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ قيل في الجهاد، وقيل المراد به الزكاة المفروضة، وقيل بأنها عامة في الزكاة المفروضة والصدقة، والأمر في حق الزكاة، والنفقات الواجبات يقتضي الوجوب وفي غيرها الاستحباب. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ﴾ القيامة ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ بحيث أن الإنسان يفدي نفسه بمال أو غيره، وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «**يَقُولُ اللهُ**

تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ» متفق عليه.

﴿وَلَا خُلَّةٌ﴾ صداقة فتنفع في ذلك اليوم، بل البراءة حاصلة بينهم قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]. ﴿وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ الشفاعة المنفية هنا الشفاعة للكافرين، وإلا فالمؤمن قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨].

فمن توفر فيه هذه الشروط حصلت له الشفاعة:

١- رضىٰ الله عن الشافع. ٢- رضىٰ الله عن المشفوع. ٣- إذن الله عَزَّوَجَلَّ للشافع.

وأما الشفاعة في حق الكافرين فهي منفية لا تنفعهم مطلقًا، ولا يجوز لأحد أن يشفع لهم حتىٰ بالدعاء قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ بظلمهم لأنفسهم، والظلم الذي بينهم، وبين ربهم بالشرك، والتنديد، وظلمهم لغيرهم، فالظلم صفة لهم لا تنفك عنهم.

ولم يقل: والظالمون هم الكافرون؛ لأن هذا المعنىٰ سيؤدي إلىٰ تكفير كل من ظلم نفسه وغيره.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

هذه الآية العظيمة - هي آية الكرسي - وهي أعظم آية في القرآن.

ففي مسلم (٨١٠) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح مسلم (٦/ ٩٤): قَالَ الْعُلَمَاءُ: **إِنَّمَا تَمَيَّزَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ بِكَوْنِهَا أَعْظَمَ لِمَا جَمَعَتْ مِنْ أُصُولِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْإِلَهِيَّةِ والوحدانية وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْمُلْكِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَهَذِهِ السَّبْعَةُ أُصُولُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ**. اهـ

ومن فضلها أنها تضمنت من المعاني الجليلة المتعلقة ببيان كمال الرب تعالىٰ، واتصافه بكل كمال، وتنزهه عن كل نقص علىٰ ما يأتي إن شاء الله تعالىٰ، وإلا فإن القرآن كله كلام الله، ووحيه، وتنزيله.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**وَكَّلَنِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يا رسول الله، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟»، قُلْتُ: يا رسول الله شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رسول الله، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ الله بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ الله حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ**

شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رسول اللهﷺ: «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ؟»، قُلْتُ: يا رسول الله، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفعني الله بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «مَا هِيَ؟»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ الله حَافِظٌ، وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ فَقَالَ رسول الله ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «ذَاكَ شَيْطَانٌ»، رواه البخاري (٢٣١١)، بصورة التعليق، وهو ثابت.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نفسه المقدسة أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وهذه أعظم كلمة، وأعظم شهادة، وأعظم خبر: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

وهي أعظم ما يجب أن يُعْلَمَ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه المتفرد بالأُلوهية، والتصرف في هذا الكون العظيم، فلا شريك له في عبادته، ولا شريك له في خلقه، ولا في أسمائه وصفاته.

فهو المستحق تعالىٰ للعبادة إذ هو المتفرد بالخلق، والملك، والتدبير، وهو المتصف بصفات الجمال، والكمال، والعظمة، والكبرياء.

۞ وفضائل كلمة (لا إله إلا الله) كثيرة :

(فهي كلمة التقوىٰ، والعروة الوثقىٰ.

(وهي الكلمة التي جعلها إبراهيم في عقبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨]، قَالَ ابنُ عُيَيْنَةَ: مَا أَنْعَمَ الله عَلَىٰ العِبَادِ نِعْمَةً أَعظَم مِنْ أَنْ عَرَّفَهم لا إِلَهَ إِلاَّ الله، وَإِنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله لأَهْلِ الجَنَّةِ كَالمَاءِ البَارِدِ لأَهلِ الدُّنْيَا.

(من قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه هدر، ففي صحيح مسلم: (٢٣) عَنْ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ الْأَشْجَعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ، يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مَنْ دُونِ الله ، حَرُمَ مَالُهُ، وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله ».

(وهي أول ما يُطلب من الكفار عندما يُدعَوْن إلىٰ الإسلام ،فإن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما بعث معاذًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلىٰ اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ...» الحديث متفق عليه.

وعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الحَمْدُ لِلَّهِ» رواه الترمذي (٣٣٨٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وأخرجه الحاكم (١٨٣٤) وقال: صَحِيحُ الْإِسْنَادِ.

(وهي أثقل شيء في الميزان: فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصَّنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ».

رواه ابن حبان (٦٢١٨)، والنسائي (١٠٩١٣)، والحاكم (١٩٣٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ، والصحيح أنه ضعيف بهذا السند ففيه دراج عن أبي الهيثم؛ لكن له شواهد منها حديث عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عند أحمد (٦٥٨٣)، في وصية نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لولده وفيه: «آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله فِي كِفَّةٍ، رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ، كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً، قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ».

وَعَنْ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ الله عَزَّوَجَلَّ : هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرسوله، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟

فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ».

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى: الْبِطَاقَةُ: الرُّقْعَةُ، وَأَهْلُ مِصْرَ يَقُولُونَ لِلرُّقْعَةِ: بِطَاقَةً» اخرجه ابن ماجه (٤٣٠٠) واللفظ له، والترمذي (٢٦٣٩).

(وهي مفتاح الجنة، وأمان من العذاب، فعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَتَيْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ، وَهُوَ نَائِمٌ، ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدِ اسْتَيْقَظَ، فَقَالَ: « مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ».

قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ» قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ عَلَىٰ رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ» رواه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ» رواه مسلم (٣١).

(وهي موجبة لشفاعة المصطفىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يا رسول الله مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» رواه البخاري (٩٩).

(وهي أفضل الأعمال فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ» متفق عليه .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ حِينَ يُصْبِحُ، كُتِبَ لَهُ بِهَا مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَ عَنْهُ بِهَا مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ عَدْلَ رَقَبَةٍ، وَحُفِظَ بِهَا يَوْمَئِذٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي، كَانَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ**» رواه أحمد (٨٧١٩).

وهذا قليل من كثير في فضل هذه الكلمة العظيمة.

﴿ٱلْحَىُّ﴾ ذو الحياة الكاملة من كل وجه الحياة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]، فثبوت الحياة يلزم منه نفي الموت، ونفي الموت يلزم منه إثبات الحياة.

وفي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقُولُ: «**اللهم لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللهم إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ**» أخرجه مسلم (٢٧١٧).

وقال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص:٨٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية الشافية (٣٦):

ولـــه الحيـــاة كمالهـــا فلأجـــل ذا	مـــا للممـــات عليـــه مـــن ســـلطان
وكـــذلك القيّـــوم مـــن أوصـــافه	مـــا للمنـــام لديـــه مـــن غشـــيان
وكـــذاك أوصـــاف الكمـــال جميعهـــا	ثبتـــت لـــه ومـــدارها الوصـــفان

﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ القائم بنفسه المقيم لغيره إذ هو الغني وغيره فقير إليه، فما من مخلوق في هذه الحياة إلا وهو مُفتقر لإقامة الله له مهما عظُم وزنه وكثُر ماله وكثُر أتباعه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

وفي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «**اللهم لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**» متفق عليه.

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو [كثيرًا]: **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**» **أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٦١٢).**

فيتوسل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بهذين الاسمين العظيمين، تدعو حيًا سميعًا قريبًا مجيبًا، وتدعو قيومًا قادرًا لا يعجزه شيء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية:

هذا ومن أوصافه القيوم والـ ... قيوم في أوصافه أمران

فالأول استغناؤه عن غيره ... والفقر من كل إليه الثاني

والوصف بالقيوم ذو شأن كذا ... موصوفه أيضا عظيم الشان

والحي يتلوه فأوصاف الكمال ... هما لأفق سمائها قطبان

فالحي والقيوم لن تتخلف ال ... أوصاف أصلا عنهما ببيان

ولهذا تجد الإتقان في ملك الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه الحي الذي لا يموت يمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض، ولا يغيب عنه شيء من أعمال العباد، وأفعالهم، ومن مصالحهم.

وفي حديث أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، فَقَالَ: «**إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - وَفِي رِوَايَةٍ: النَّارُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**» رواه مسلم (١٧٩).

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ملكًا، وتصرفًا كما قال تعالىٰ مبينًا ذلك: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

[البقرة:١٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك:١]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦].

وقال جل ذكره: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وذلك لكمال قوته، وقهره، وعظمته لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦].

۞ والناس في الشفاعة ثلاثة أقسام:

(**الأول**: من أثبتها للأوثان، والأصنام، والمقبورين وهذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهي أحد أسباب عبادة الكفار لمعبوداتهم.

(**الثاني**: من نفاها مطلقًا، وهم الخوارج، والمعتزلة ومن إليهم، لا سيما الشفاعة في خروج الموحدين من النار علىٰ ما يأتي.

(**الثالث**: أهل السنة والجماعة، وقد توسطوا في ذلك فاثبتوا منها ما كان بشرطه علىٰ ما تقدم.

فشروط الشفاعة المقبولة عند الله تعالىٰ ثلاثة:

١- رضىٰ الله عن الشافع. ٢- المشفوع له. ٣- إذن الله تعالىٰ للشافع.

وهذا لكمال قهره وقوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي يوم القيامة يأتي رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسجد بمقدار جمعة كما جاء في بعض أحاديث الشفاعة، ويحمد الله بمحامد يفتح الله عَزَّوَجَلَّ له بها حتىٰ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ تُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**».

وقد ذكر الله تعالىٰ الشفاعة في القرآن منفية، ومثبتة فالمثبتة ما كملت شروطه المذكورة.

(والمنفية: هي التي تطلب من الآلهة المربوبة، أو تكون لغير المسلم.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في مقدمة كتابه إثبات الشفاعة (٢٠):**

"**فشفاعات نبينا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعة:**

- فأولها: شفاعته الكبرىٰ العامة في الخلائق، الخاصة به حين يرغب الخلق إليه، فيشفع في أهل الموقف ليقضىٰ بينهم، وذلك هو (المقام المحمود) الذي يغبطه به الأولون والآخرون.
- الثانية: شفاعته إذ يسجد ويحمد ربه، ثم يقول: «**أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيقولُ الله له: أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِ الجَنَّةِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ**» أخرجه البخاري (٤٧١٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
- الثالثة: شفاعته في دخول سائر أهل الجنة، الجنة، كما خرجه مسلم من طريق أنسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
- الرابعة: شفاعته في من دخل النار من أهل الكبائر قال: «**فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ، وَأُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. إلى أن قال في الثالثة: يَا رَبِّ، مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ**» أخرجه مسلم (١٩٣) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
- الخامسة: شفاعته في بعض أهل النار حتىٰ يخفف من عذابه، كما في الصحيح من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر عمه أبا طالب فقال: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي [يَوْمَ القِيَامَةِ]، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**» متفق عليه.

وفي حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك، وينصرك، ويغضب لك، فهل نفعه ذلك؟ قال: «**نَعَمْ، وَجَدْتُهُ فِي غَمَرَاتٍ** [مِنَ] **النَّارِ، فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى ضَحْضَاحٍ**» رواه مسلم برقم (٢٠٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

● السادسة: شفاعته في قوم استوجبوا دخول النار بذنوبهم، فيشفع فيهم، فلا يدخلون النار ويدخلون الجنة.

● السابعة: يشفع في رفع درجات أقوام، وزيادة نعيمهم، كما في حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا لأبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قبض، فقال: «**اللهم اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ**» **وذكر الحديث أخرجه مسلم برقم (٩٢٠)**" اهـ .

۞ وأهل البدع من المعتزلة والخوارج ينكرون شفاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إخراج أصحاب الكبائر من الموحدين من النار مع أن الأدلة في الصحيحين وغيرها ترد قولهم الفاسد.

وذكر الحديث بطوله، إلىٰ أن قال: «**فَيَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنَ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَقُولُ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ**» متفق عليه.

وفي لفظ للبخاري: «**يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ شَعِيرَةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ، وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا الله ، وَفِي قَلْبِهِ وَزْنُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ**».

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» **أخرجه أحمد (١٣٢٢٢) وغيره، وهو حديث صحيح ذكر طرقه، وصححه شيخنا مقبل الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في كتاب "الشفاعة"**.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما أمامهم، وما خلفهم إحاطته بالمعلومات ظاهرها، وغائبها قال تعالىٰ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٣]، وقال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩].

(فـ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾: ما غاب عنك.

(و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: هو الظاهر.

فالله عَزَّوَجَلَّ عالم بكل شيء كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ مهما بلغ علم العباد فإنهم عاجزون قاصرون أن يبلغوا شيئًا من علم الله ، إلا إذا أطلعهم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ذلك: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

۞ وللآية معنىٰ آخر: وهو ما دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠].

أي: أنهم لا يعلمون شيئًا من أسمائه وصفاته إلا بما أخبرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه.

۞ وفي الآية دليل لمذهب اهل الحق: أن أسماء الله تعالىٰ وصفاته غير داخلة تحت عدد معلوم لنا، ومن هذا الباب ينبغي أن نثبت لله عَزَّوَجَلَّ ما أثبته لنفسه من أسماءه وصفاته كما يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكما أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريف، ولا تمثيل، ولا تكيف، ولا تعطيل، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ:١١]، ولا يجوز أن الله عَزَّوَجَلَّ بشيءٍ لم يرد في الكتاب والسنة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ له الكمال المطلق من كل وجه، وهذا الباب لا يعلم كيف هو إلا الله تعالىٰ .

﴿إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾:

۞ فيه إثبات المشيئة لله تعالىٰ، وهذا في القرآن كثير منه قوله تعالىٰ: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:١١١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٣٠]، فمشيئته نافذة لا رادَّ لها.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يخبر تعالىٰ عن عظم مخلوقاته، ومنها كرسيه.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ**».

رواه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وابن أبي شيبة في العرش (٩٠)، والدارمي في الرد علىٰ المريسي، وعبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٥٨٦)، والحاكم في المستدرك (٣١١٦).

وقال أبو موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الْكُرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَلَهُ أَطِيطٌ كَأَطِيطِ الرَّحْلِ**»، **رواه عبد الله ابن الإمام أحمد في السنة (٥٨٨)، وابن أبي شيبة في العرش (٦٠)، وابن جرير (٤/ ٥٣٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٥٩)، وغيرهم.**

۞ وهذان الأثران لهما حكم الرفع، ويدلان علىٰ إثبات القدمين لله تعالىٰ، وعلىٰ هذا درج أهل السنة.

۞ والكرسي كالمرقاة إلىٰ العرش كما قال ذلك غير واحد من أهل العلم، وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن (الكرسي) هو (العرش)، وهذا قول باطل فهما مخلوقان متغايران، ومن أهل البدع من ذهب إلىٰ أن: (العرش): هو الملك، و(الكرسي): هو العلم.

وهذه أقوال مخالفة للعقيدة الصحيحة، وبالله التوفيق.

وجاء في وصف هذا الكرسي: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلْقَةِ**» **أخرجه ابن حبان (٣٦١) كما في حديث أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يُكرثه، ولا يُعجزه حفظ السموات والأرض، وهذا لكمال علمه وقدرته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ العلي في صفاته وقهره، والعلي في عليائه علىٰ عرشه بائن من خلقه قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] ، وفي قول المؤمن في السجود: «**سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى**» دليل علىٰ ذلك، ومن الأدلة علىٰ علو الله تعالىٰ قوله:﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦]، وغير ذلك من الأدلة المبسوطة في موطنها.

فمن عقيدة اهل السنة والجماعة أن الله عليٌ في عليائه، ولا يجوز بحال أن يعتقد المسلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كل مكان بذاته، فإن هذه عقيدة فرعونية، وعقيدة حلولية اتحادية، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع علىٰ تكفير هذه الطائفة التي تعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ في كل مكان بذاته بل هو معنا بعلمه، وبصره، وسلطانه، وقهره، فهو علي علىٰ عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وهو العلي الظاهر العظيم الكبير كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد:٩] وسيأتي مزيد بيان لهذه الصفة في موطنها إن شاء الله .

﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ أي: صاحب العظمة الكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أبي داود (٨٧٣) : «أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في ركوعه: **سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَالَ الله: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»

وقد قال تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٧٤]. «وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في ركوعه: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**» كما في مسلم (٧٧٢) **عَنْ حُذَيْفَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي مسلم (٤٧٩) أيضًا من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ** عَزَّوَجَلَّ، **وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**».

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في الكافية الشافية (٢٠٣):

وهو العظيم بكل معنىٰ يوجب الـت عظـــيم لا يحصـــيه مـــن إنســـان

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾.

٢٥٦ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ﴾ على الدخول ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ لظهور حججه، وبيناته، وهداه، ونوره، ومحاسنه؛ لأن الإكراه إنما يكون على أمر خفيت أعلامه، غامضة آثاره.

وقد ذهب جمع من العلماء على أن هذه الآية خاصة بأهل الكتاب، وقيل منسوخة بآية السيف، وقيل بأن معناها محكم، وأنه لا يكره على الدخول في الدين أحد، لكن يكره على التزام أحكام الدين.

ففي حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ، وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَقَاتِلْهُمْ**» أخرجه مسلم (١٧٣١).

وما أخرجه البخاري (٣٠١٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**عَجِبَ اللهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ فِي السَّلاَسِلِ**» يعني به: الأسارى الذين يقادون إلى بلاد الإسلام، ثم يدخلون في الإسلام، فيحسن حالهم، ومآلهم.

﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ ظَهَرَ، وبَانَ ﴿ٱلرُّشۡدُ﴾ الهدى، والإيمان ﴿مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ الكفر، والبغي. ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ الشيطان، والكفر، والسحر، وما في بابه ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، ومعبودًا.

۞ وفيها معنى لا إله إلا الله لجمعها بين النفي، والإثبات.

(والطاغوت): ما تجاوز حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع، وقد اختلف أهل العلم في مسماه فقال بعضهم بأنه الشيطان، وهذا تفسير للآية ببعض المعنىٰ، وقيل الساحر، وقيل غير ذلك.

۞ وذكر الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن رؤوس الطواغيت خمسة:

١- الشيطان. ٢- ومن عُبد وهو راض. ٣- ومن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه.

٤- ومن حكم بغير ما أنزل الله. ٥- والساحر.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: يقرُّ به ربًا، ومعبودًا ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ تمسك ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ العقد المحكم ،وسمي بذلك؛ لأنه كالعروة التي من تمسك بها لا يسقط.

وَعَنْ عبد الله بن سلام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «رَأَيْتُ كَأَنَّ عَمُودًا وُضِعَ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ، فَنُصِبَ فِيهَا، وَفِي رَأْسِهَا عُرْوَةٌ، وَفِي أَسْفَلِهَا مِنْصَفٌ - وَالْمِنْصَفُ الْوَصِيفُ - فَقِيلَ لِيَ ارْقَهْ فَرَقِيتُ حَتَّى أَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَمُوتُ عَبْدُ اللهِ وَهُوَ آخِذٌ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى»**. أخرجه مسلم (٢٤٨٤).

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ لا انقطاع، أو انكسار، بل هي ثابتة مصمتة؛ لأنها كلمة عظيمة لا يمكن أن تزول إلا بالشرك، وإلا فحسنتها باقية، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقال ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يفعل.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه الطبري في تفسيره (ج٣ ص١٤): عن ابن عباسٍ، قال: كانت المرأةُ تكونُ مِقْلاتًا، فتجعلُ علىٰ نفسِها إن عاشَ لها ولدٌ أن تُهَوِّدهُ، فلما أُجليتْ بنو النَّضيرِ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندَع أبناءنا، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ **أخرجه أبو داود (٢٦٨٢).**

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾.

٢٥٧ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ﴾ يتولىٰ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ينصرهم، ويعينهم، ويحفظهم، ومن لوازم الولاية المحبة، فيحبهم، ويعادي من عاداهم، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **«قال الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»** أخرجه البخاري(٦٥٠٢).

وتنال الولاية بفعل الواجبات، والاستكثار من المستحبات، للحديث السابق، وقد أحسن من قال: بالصبر واليقين تنال الولاية في الدين، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السجدة:٢٤]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

ومن نصره، وتوفيقه لهم ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الشرك، والمعاصي، والبدع ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الإيمان، والتوحيد، والسنة، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أعرضوا عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وجحدوا ربوبيته، وأشركوا في ألوهيته، واستكبروا عن الانقياد لأمره، وشرعه. ﴿أَوْلِيَآؤُهُمُ﴾ يتولاهم ﴿ٱلطَّٰغُوتُ﴾ الشياطين ومن إليهم، ممن يصرفونهم عن عبادة الله ، كالأصنام، والسحرة، والمشعوذين، والكهان، والعرافين، وحالهم معهم أنهم. ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ من الفطرة الصحيحة والطريقة القويمة ﴿إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الشرك، والإلحاد، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حال المشركين

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. كما قال تعالىٰ : ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

﴿٢٥٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هل رأيت يا محمد ﴿إِلَى﴾ هذا الظالم ﴿ٱلَّذِى حَآجَّ﴾ جادل، وخاصم ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ فأنكر وجوده، قيل بأنه النمرود بن كنعان، رجل ادعىٰ الربوبية، وكان جبارًا عنيدًا، وقد خاصم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في ربه، وكان سبب طغيانه وكفره مبينًا صفات ربه تعالىٰ ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ﴾ الخلائق ﴿وَيُمِيتُ﴾ الخلائق بمعنىٰ أن له صفات عظيمة، ومن أظهرها أنه يحيي من شاء، ويميت من شاء، ويحيي الأرض بعد موتها، فقال الجبار معاندًا ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ وإحياؤه إنما هو إحياء مجازي كما يقال، فقد ذكر أهل التفسير أنه أتىٰ برجلين فقتل هذا وترك هذا، فقال أما ترىٰ أني أحييت هذا وأمت هذا، فعند ذلك جاءه بحجة أخرىٰ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ كل يوم تتعاقب ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ إن كنت ربًا كما تقول ﴿فَبُهِتَ﴾ تحير، وقطع، وخصم؛ فقد ظهر العجز منه ﴿ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفق ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين؛ لأنه قد عَلم منهم الإعراض، والعناد، والشقاق.

﴿٢٥٩﴾ ثم ضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا آخر لقدرته علىٰ إحياء الموتىٰ من السكان فقال: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقوفها قيل بأن القرية بيت المقدس، وأن المار هو ﴿قَالَ﴾ مستبعدًا ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُحْىِۦ هَٰذِهِ﴾ القرية ﴿ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ﴾ قبضه ﴿مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أحياه في موطنه بهيئته، وشكله، لم يتغير منه شيء ﴿قَالَ﴾ الله له ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا﴾ علىٰ الجزم ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لعلي زدت بعض يوم، حيث طال بي النوم.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير فمن الذي حفظه؟ إنه الله عَزَّوَجَلَّ، فالذي حفظ الطعام، والشراب من أن يلحقه شيء من التغير هو الذي يحفظ أجزاء الإنسان، ويبعثه من عجب الذنب، ويركب عليه الشحم،

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ وهو ميت، ومطروح في الأرض، وهذه أيضًا آية أخرىٰ في بيان القدرة علىٰ إحياء الموتىٰ ﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ علامة بينة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ علىٰ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ﴾ عظام الحمار كيف يركب الله عَزَّوَجَلَّ منها الخلق؛ فكان الحمار علىٰ هيئته الميته، قد تناثرت عظامه، وتبدد لحمه، وانتهىٰ عصبه، فانظر ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ نجمعها ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ وتعاد فيه الروح، والحياة، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ووضح ﴿لَهُۥ﴾ قدرة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ إحياء الموتىٰ، وأنه لا يعجزه شيء، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾.

﴿٢٦٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ وهو رسول الله الكريم، خليل الرحمن ﴿رَبِّ أَرِنِى﴾ رؤي العين ﴿كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الطريقة التي تحيي بها الموتىٰ، بعد أن تتبدد أجسامهم، وتخرج أرواحهم، وتتناثر ، فبين الله له أنه علىٰ كل شيء قدير، فقَالَ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: ألم

يقع اليقين عندك أني قادر علىٰ أن أحيي ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ آمنت، واستيقنت، وأقررت، ولم يكن عندي في ذلك شك ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ليزداد إيماني ويقيني؛ فإن العلم إذا تُلقي بالنظر أبلغ من العلم الذي يُتلقىٰ بالسمع.

۞ وفي هذا دليل علىٰ أن الاعتناء بالقلب من المهمات ، فعليه وبه يقوم الاعتقاد، وإذا اطمئن قلب الإنسان، لا يغيره عن هذا الاطمئنان شبهة، ولا شهوة: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، وهذا المعنىٰ يصدقه حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» **متفق عليه عن النعمان بن بشير** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قال**: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» **متفق عليه.**

۞وليس معنىٰ ذلك ما يتبادر إلىٰ الذهن من شك إبراهيم، ولكن المعنىٰ لو كان إبراهيم قد شك، فنحن أحق أن نقع في هذا الشك، لكن الواقع أن إبراهيم لم يشك، وأن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه لم يقع عندهم الشك.

﴿قَالَ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ الله أعلم بنوعهن، وما جاء من ذلك في الإسرائيليات لا يلتفت إليه ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ اجمعهن، وقطعهن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ من جبال أرضك ﴿مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فرقهن في الجبال، والأودية، والمهاد ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ إليك بأوصافهن ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ مسرعات، كأن لم يحصل لهن البلىٰ، وكأن لم يقع بهن الموت ﴿وَٱعْلَمْ﴾ يا إبراهيم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قوي لا يُغلب، وعليٌ لا يُقهر ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أفعاله.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾.

٢٦١ ﴿مَّثَلُ﴾ صفة نفقات ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطاعته، وسبيل الله مطلق الخير، وقيل الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والمعنىٰ الأول أشمل، ودلالة الآية عليه أعم، ولا مانع من الاستدلال بالآية علىٰ المعنيين.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ واحدة ألقيت في الأرض، فـ ﴿أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ فيخرج منها الحب الكثير، ثم تفرع من هذه السنابل مئات الحبوب ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾، وَعَنْ أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَجُلًا تَصَدَّقَ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ فِي سَبِيلِ الله ، فَقَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَيَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ»** أخرجه مسلم (١٨٩٢).

وعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ: **«إِنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله سَيِّئَةً وَاحِدَةً»** متفق عليه.

۞ وهـذا دليل علىٰ أن الله شكور، وشاكر؛ إذ يجازي العبد علىٰ القليل من عمله بالكثير من فضله.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ﴾ الأجر، والمثوبة أكثر من ذلك ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده المخلصين المنيبين ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في ذاته وأسمائه، وصفاته، والواسع في عطائه ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال، وأفعال العباد.

﴿٢٦٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فلا يجوز أن تنفق مال غيرك إلا بإذنه، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةٍ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ الْعَبْدُ**» أخرجه مسلم (١٦٤١).

﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قيدٌ عن الإنفاق في غير أوجه الخير، كالإنفاق في الشر، وما يليه ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ على المنفق عليه ﴿مَنًّا﴾ بإظهار الإحسان عليه ﴿وَلَآ أَذًى﴾ تطاولًا، وتفاخرًا فلا يتطاولون عليهم، ويؤذونهم بهذا العطاء، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم المضاعف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كاملًا يستوفونه يوم القيامة، وربما أُجروا في الدنيا على هذا العطاء، فعَنْ أَبِي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**» أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يقدمون عليه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قَوْلٌ﴾ للمنفق عليهم ﴿مَّعْرُوفٌ﴾ حسن، وردٌّ جميل، فالإنسان إما أن ينفق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يتبع ما أنفق منا ولا أذىٰ حتىٰ يؤجر علىٰ نفقته، وإما أن يأتي بالقول المعروف، فهو أحسن من الإنفاق ثم يجازيه بالمن، والأذىٰ، والإنسان إذا سمع من يمن عليه شق عليه ذلك، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ**» متفق عليه.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ تجاوز عمن أساء، وألحف إليك ﴿خَيْرٌ﴾ أفضل ﴿مِّن صَدَقَةٍ﴾ تنفقها، وتعطيها، ويتبعها أذىٰ؛ لأن صاحب الصدقة التي يتبعها أذىٰ قد تتحول من أجر إلىٰ إثم؛ لأن المن كبيرة من كبائر الذنوب.

فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ فَقَرَأَهَا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ثَلَاثَ مِرَارًا**

قَالَ أَبُو ذَرٍّ خَابُوا، وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يا رسول الله؟ قَالَ الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» أخرجه مسلم (١٠٦).

وأذىٰ المؤمنين من كبائر الذنوب كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب:٥٧-٥٨].

وفي حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَعِدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ فَنَادَىٰ بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: **«يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ الله عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ الله مِنْكِ»** أخرجه الترمذي(٢٠٣٢).

﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن عطائكم، الذي يشوبه المنُّ، والأذىٰ للمسلمين ﴿حَلِيمٌ﴾ بعدم معاجلتكم في العقوبة، فهو يعفوا ويصفح، فعلىٰ الإنسان أن يتوب إلىٰ الله إن وقع في ذنب قبل أنه يعاقب عليه، وتلحقه تبعاته.

﴿٢٦٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟﴾ تذهبوا ثواب ﴿صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ بالتطاول، والتعيير، فمثل المنان ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مراءة للناس فلا يؤجر علىٰ نفقته بل يأثم، فعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»** أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ -وذكر منهم- وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنْ لِيُقَالَ إِنَّهُ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ»** أخرجه مسلم (١٩٠٥).

وفي هذه الآية بيان خطر الرياء قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رسول الله؟ قَالَ الرِّيَاءُ**» اخرجه أحمد(٢٣٦٣٠) عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَ﴾ مثل من ﴿لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ربا ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ موعدا، وهو المنافق. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أجر المرائي، ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حجر أملس ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا﴾ حيث نزع التراب، وبقيٰ الحجر الأملس، لا أثر فيها لحياة، أو خير ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ المرائي، والمنافق ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ من أعمالهم فلا يجدون له ثوابًا، ولا أجرًا في الآخرة كما لم يجدوا له أثرا في الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لعلمه بسوء أحوالهم ظاهرًا، وباطنًا.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

﴿٢٦٥﴾ ﴿وَمَثَلُ﴾ نفقات ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ﴾ طلب ﴿مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ رضىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاصًا له ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تحقيقا للثواب، واحتسابًا، كقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ﴾ بستان عظيم، فيه من الأشجار الوافرة، والثمار اليانعة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أي: مكان مرتفع، بحيث لا يعلوها الماء فيؤدي إلىٰ فسادها، ولا تتسلط عليها الحشرات فتؤدي

إلىٰ تغير ألوان أشجارها وذهاب بركاتها، بل هي في مكان محبوب، بعيد عن مسببات التلف تأتيها الريح الطيبة فيحسن حالها وحال ثمارها.

﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر ﴿فَآتَتْ﴾ أعطت ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مثلي ما يثمر غيرها، فلو بقيت بدون مطر لكان فيها بركة وخير، فلما جاءها المطر ازداد خيرها، ونفعها.

﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ﴾ مطرٌ ﴿فَطَلٌّ﴾ مطر خفيف، وما يقع من الرذاذ، ومع ذلك تنتفع به؛ لصلاح مكانها، ولجمال موقعها ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازي العباد علىٰ أعمالهم.

﴿٢٦٦﴾ ﴿أَيَوَدُّ﴾ أيحب، ويرغب ﴿أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ بستان، ومزرعة ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ فيها أشجار النخيل الوافرة ﴿وَأَعْنَابٍ﴾ فيها أشجار الأعناب المثمرة، ومعلوم أن النخل ينتج التمر الذي يقتاته الناس، والعنب يكون منه الزبيب الذي يدَّخِره الناس، وهذه مزرعة عجيبة إذ حوت ثمر الصيف، والشتاء في وقت واحد.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مكتفية، لا يخشىٰ عليها فساد، ولا ضياع، ولا تلف ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ اليانعات من الأعناب والنخيل وربما زرع غير ذلك من أنواع الشجر، الذي يقتاته الإنسان والحيوان، ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ فضعف لا يستطيع العمل فيها ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أولاد صغار يعجزون عن العمل فيها ﴿فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ﴾ ريح شديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾ فذهب خيرها، وبركاتها ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ يوضح ويجلي ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ البينات الواضحات ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتعتبرون، فالمتصدق المخلص جنته باقية، حتىٰ يوافي الله عَزَّوَجَلَّ بها يوم القيامة، والمتصدق المرائي جنته تالفة، في وقت لا يستطيع لها رعاية، والله المستعان.

وفي البخاري عن عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال يَوْمًا لِأَصْحَابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قَالُوا: الله أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ:**

قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ الله عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ الله لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾.

وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه الترمذي (٢٩٨٧) وغيره، عَنِ الْبَرَاءِ بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: «﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾، نَزَلَتْ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، كُنَّا أَصْحَابَ نَخْلٍ فَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ نَخْلِهِ عَلَى قَدْرِ كَثْرَتِهِ وَقِلَّتِهِ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي بِالْقِنْوِ وَالْقِنْوَيْنِ فَيُعَلِّقُهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَكَانَ أَهْلُ الصُّفَّةِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا جَاعَ أَتَى الْقِنْوَ فَضَرَبَهُ بِعَصَاهُ فَيَسْقُطُ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ فَيَأْكُلُ، وَكَانَ نَاسٌ مِمَّنْ لَا يَرْغَبُ فِي الْخَيْرِ يَأْتِي الرَّجُلُ بِالْقِنْوِ فِيهِ الشِّيصُ وَالْحَشَفُ، وَبِالْقِنْوِ قَدِ انْكَسَرَ فَيُعَلِّقُهُ؛ فَأَنْزَلَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أُهْدِيَ إِلَيْهِ مِثْلُ مَا أَعْطَى، لَمْ يَأْخُذْهُ إِلَّا عَلَى إِغْمَاضٍ أَوْ حَيَاءٍ فَكُنَّا بَعْدَ ذَلِكَ يَأْتِي أَحَدُنَا بِصَالِحِ مَا عِنْدَهُ».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ﴾ تصدقوا، وابذلوا في أوجه الخير ﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلاله وأحسنه وأحبه إليكم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ صار ملكًا لكم بالهدية، أو الإرث، أو الكسب، ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كالثمار، ونحوها. ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ﴾ تقصدوا الرديء ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ في الزكاة ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: الخبيث لو دفع إليكم، ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ﴾ تتساهلوا، وتتسامحوا ﴿فِيهِ﴾ فتلجأون إليه. ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن صدقاتكم التي لا توافقون فيها الشرع، ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود علىٰ كل حال.

مع أن الله عَزَّوَجَلَّ غني أزلًا وأبدًا، إلا أنه ختم هذه الآية بما تقدم؛ ليبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يجب علىٰ الإنسان أن ينفق من أحسن ما يكسب؛ لأن الصدقة لا تقبل عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا إذا خرجت عن نفس طيبة، كما في حديث أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَصَدَّقَ امْرُؤٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ -وَلَا يَقْبَلُ الله إِلَّا طَيِّبًا- إِلَّا وَضَعَهَا حِينَ يَضَعُهَا فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ، وَإِنَّ الله لَيُرَبِّي لِأَحَدِكُمُ التَّمْرَةَ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ أُحُدٍ**» متفق عليه.

۞ والآية دليل علىٰ وجوب الزكاة في عروض التجارة، وهو قول جماهير العلماء.

وقد نقله أبو عبيد القاسم بن سلام إجماعا إذ لم يخالف فيه إلا الظاهرية ومن سار علىٰ سيرهم، ومن أدلته حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين قَالَ: بَعَثَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُمَرَ عَلَىٰ الصَّدَقَةِ، فَقِيلَ: مَنَعَ ابْنُ جَمِيلٍ، وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَالْعَبَّاسُ عَمُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ الله ، وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ، وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ الله ، وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ، وَمِثْلُهَا مَعَهَا ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟**».

والشاهد منه قوله: قد احتبس أدرعه، وعتاده في سبيل الله ، فمفهومها إذ لم تكن محبسة تعينت الزكاة فيها، ومن الأدلة علىٰ وجوب الزكاة في عروض التجارة عموم أدلة الزكاة ويخرج من المال إذا بلغ نصابه وحال عليه الحول ربع العشر، ويلتحق بها ما انضاف إليه في سنته.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ٢٧٠ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١﴾.

٢٦٨ بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ما يتعلق بآيات الصدقة، والترغيب في الإنفاق مما يحب الإنسان، بيّن حرص الشيطان علىٰ منع الإنسان من الإنفاق في أوجه الخير فقال: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ وأعوانه ﴿يَعِدُكُمُ﴾ يخوفكم ﴿ٱلۡفَقۡرَ﴾ إن تصدقتم ﴿وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ بمعصية الله عَزَّوَجَلَّ وهو ما فحش من الأفعال، والأقوال.

ومن هنا يعرف الإنسان أنه ينبغي أن يكون حذرًا من مداخل الشيطان، فإنه لا يدع بابًا إلا ودخل علىٰ المسلم منه؛ ليصده عن الخير، أو يسلبه عنه فتارة يخوفهم من أعداء الحق كما قال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[آل عمران:١٧٥]، وتارة: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[النساء:١٢٠]، وتارة يخوفهم الفقر، وتارة بأمرهم بالقتل، وتارة يلقي الشبه في قلوبهم؛ ليصدهم عن دين الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ أجرًا علىٰ الإنفاق، وهو تعالىٰ لا يخلف وعده، ولا ينقض عهده ﴿مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ﴾ تجاوزًا عن السيئات، والزلات، وتوفيقًا إلىٰ الطاعات، والحسنات منّة، وكرمًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَفَضۡلٗا﴾ خُلفًا، ورزقًا ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ في فضله ﴿عَلِيمٞ﴾ بالمنفق من غيره.

٢٦٩ ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة، والعلم، والقرآن، والسنة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ممن علمهم أهلا لذلك، وقد كانت الحكمة في بني إسرائيل، ثم نزعها الله عَزَّوَجَلَّ منهم وحولها

إلىٰ هذه الأمة، كما تقدم عند قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧]، ثم كان حال هذه الأمة ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠].

﴿وَمَن يُؤۡتَ﴾ يعطىٰ ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ النبوة، أو العلم، والاستقامة ﴿فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فضلًا عظيمًا واسعًا في الدنيا، والآخرة. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعظ ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿٢٧٠﴾ ﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿مَآ أَنفَقۡتُم﴾ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾ الزكاة، وغيرها، ﴿أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ﴾ ما أوجبتموه عليكم من الالتزام بالطاعات، والصدقات والصلوات، والقربات فوفيتم به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ ويُجازي عليه، ومنه النذر المطلق بحيث يلزم نفسه بشيء من الطاعة كالحج، والعمرة، وقراءة القرآن، ونحو ذلك بدون أن يقيد بمقابل، وكراهة هذا فيما قد يلحقه ممن مشقة الإتيان به، والعجز عن الوفاء به، وقد كان في فسحة من شأنه، ومنه نذر المقابل إن شفىٰ الله مريضي صمت كذا، أو تصدقت بكذا، وهذا معنىٰ حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَا تَنْذِرُوا، فَإِنَّ النَّذْرَ لَا يُغْنِي مِنَ الْقَدَرِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**» **أخرجه مسلم** (١٦٤٠)، فتقدير الله ماضٍ بالنذر أو غيره، ومع ذلك يجب الوفاء به.

ومنه نَذْرُ اللَّجَاجِ وَالغَضَبِ، فإن أغلق عليه بحيث لا يدري ما يتكلم لا يلحقه شيء، وإلا فإن كفارة النذر كفارة يمين فعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**كَفَّارَةُ النَّذْرِ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ**» **أخرجه مسلم** (١٦٤٥).

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ بمنع النفقات الواجبات، ﴿مِنۡ أَنصَارٖ﴾ أعوان يدافعون عنهم وينصرونهم، وهذا علىٰ الوعيد في حق عصاة المسلمين، والآية بعمومها في حق الكافرين مالهم من ناصر يمنعهم من بطش الله، وغضبه، وانتقامه.

﴿٢٧١﴾ ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ تظهروا ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ حين إخراجها ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ لا بأس بذلك إذا كان الإنسان مخلصًا، ففي حديث جرير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ، وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**» أخرجه مسلم(١٠١٧).

۞ وفيه: بيان أن الرياء عمل قلبي يدفعه الإنسان، فقد تتعين الصدقة لتكون ظاهرة لا سيما إذا كانت الزكوات المفروضات، وقد يكون إخفاؤها أفضل، فعن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُجْهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْمُجْهِرِ بِالصَّدَقَةِ**» أخرجه أحمد (١٧٧٩٦).

وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**» **متفق عليه.**

﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ سرًا ﴿وَتُؤْتُوهَا﴾ تعطوها ﴿ٱلْفُقَرَآءَ﴾ تدفعونها إليهم طيبة بها أنفسكم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي عند الله عَزَّوَجَلَّ إذ قد لا يدخلها الرياء، ولا يدخلها شيء من المحبطات، ﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم﴾ يغفر، ويستر ﴿مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ بعض ذنوبكم، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مطلع على الظاهر والباطن.

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا:

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كانوا لا يرضخونَ لقراباتِهِمْ منَ المشركينَ فنزلَتْ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**» أخرجه ابن جرير(ج٣ ص٩٤) وغيره.

وسبب المنع فيما ذكر المفسرون أنهم أرادوا أن يلجئوهم إلىٰ الحاجة، فإذا ما احتاجوا دخلوا في الإسلام.

وليس للكفار في الزكاة المفروضة حظ وإنما هي من حق المسلمين، إلا إذا كان من باب تألفهم علىٰ الإسلام، أو دفع شرهم علىٰ ما يأتي إن شاء الله في ﴿سورة التوبة﴾.

﴿٢٧٢﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿هُدَىٰهُمْ﴾ هدايتهم فتمنعهم من النفقات لأجل الدخول في الإسلام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ يوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إلىٰ الإسلام، وجميع الطاعات. ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ مال علىٰ أقاربكم الأبعدين الذين ليسوا بمسلمين، أو الأقربين الذين هم بمسلمين. ﴿فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ تجدون أجره عند الله عَزَّوَجَلَّ في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

﴿وَمَا﴾ ولا ﴿تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ طلبًا لمرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ أن الإخلاص شرط في صحة الأعمال.

۞ وفيه: إثبات صفة الوجه لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الذاتية الخبرية دل عليها الكتاب، والسنة، والإجماع. فمن الكتاب قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، ومن السنة حديث: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ**» **أخرجه النسائي(١٣٠٥) عن عمار بن ياسر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ مالٍ ﴿يُوَفَّ﴾ يؤدَّ ﴿إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه وافيًا ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ لا تنقصون بل يضاعفه الله عَزَّوَجَلَّ .

﴿٢٧٣﴾ ثم بين من يصرف عليهم المال فقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ يريد بهم أصحاب القلة، والحاجة ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ انقطعوا، ومنعوا من العمل.

❖ **واختُلِف فيهم إلىٰ أقوال:**

فقيل إنهم أحصروا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ بالجهاد.

وقيل أحصروا بالبقاء في المسجد لطلب العلم وغيره.

وقيل أصابتهم جراحات حتىٰ منعتهم من العمل وقيل غير ذلك.

والآية عامة، فيدخل فيها أصحاب الصفة، ومن سلك مسلكهم من طلاب العلم في هذه الأزمان؛ إذ أنهم حصروا أنفسهم في بيوت الله عَزَّوَجَلَّ ؛ من أجل طلب العلم النافع، وهو سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَهَّلَ الله لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ**» **أخرجه مسلم(٢٦٩٩)**، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ العِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى يَرْجِعَ**)، **أخرجه الترمذي(٢٦٤٧)**.

وانقطعوا حتىٰ أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ سفرًا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للتسبب ﴿يَحْسَبُهُمُ﴾ يظنهم ﴿ٱلْجَاهِلُ﴾ بحالهم ﴿أَغْنِيَآءَ﴾ علىٰ غنىٰ، وسعة ﴿مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ بسبب تعففهم عما في أيدي الناس، ممتثلين حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله**» **متفق عليه عن أبي سعيد** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ بعلاماتهم وصفاتهم من التواضع، وأثر الجهد ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ﴾ لا يطلبون ﴿ٱلنَّاسَ﴾ شيئًا ﴿إِلْحَافًا﴾ ملحين عليهم، وقيل لا يسألون الناس مطلقًا، وإن قدر

أن أحدهم استحق السؤال، فإنه لا يلحف في ذلك، فعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ**» أخرجه البخاري(١٤٧٩).

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ مال في سبيل الله ، ووجه الشرعي ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه الجزاء الأوفى.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ وهذا مدح للمؤمنين المنفقين الذي آتاهم الله من فضله ﴿أَمْوَٰلَهُم﴾ أضافها إليهم؛ لأنه ملَّكهم إياها، وإلا فإن الملك المطلق لله عَزَّوَجَلَّ وفيه رد علىٰ الاشتراكيين. ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: أنهم ينفقونها في أوجه الخير بالليل سرًا، والنهار جهرًا، أو أنهم يتصدقون في الليل ويتصدقون في النهار.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بعضها سرًا، وبعضها علانية، وأفضل صدقة التطوع أن تكون سرًا، وأفضل الزكاة أن تكون علانية؛ لأنها من شعائر الإسلام. ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة، زد علىٰ ذلك أنها تضاعف لهم أجورهم في الدنيا، وربما أخلف الله عليهم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ الله عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا**» أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يقدمون عليه؛ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مما ذهب عنهم؛ لأنهم يجدون ثوابه في ذلك اليوم.

وَعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَأَلَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ يَا رسول الله ، وَمَا الْغِنَى؟ قَالَ خَمْسُونَ دِرْهَمًا، أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ**» أخرجه أبو داود (١٦٢٦).

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾.

بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ما يتعلق بالإنفاق في سبيله، حذر من الربا وما يجر إليه، من الويلات الدنيوية، والأخروية.

أما الدنيوية فعن ابن مسعود عَنِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا أَحَدٌ أَكْثَرَ مِنَ الرِّبَا إِلَّا كَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ إِلَى قِلَّةٍ**» **أخرجه ابن ماجه (٢٢٧٩).**

ومنها أنه يستحق اللعن فعن جَابِرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: «**لَعَنَ رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ وَقَالَ هُمْ سَوَاءٌ**» **أخرجه مسلم (١٥٩٨).**

وتعاطيه من أسباب عذاب القبر، كما في حديث سمرة بن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا قَالَ قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَانِ؟ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**» **أخرجه البخاري(٧٠٤٧).**

وأما في الآخرة فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يبعث كالمصروع الممسوس، الذي لا يستطيع القيام؛ لتسلط الشيطان عليه، فهو من أشأم أنواع المعاصي، ومن الكبائر العظيمة، وقد ذكرها رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في السبع الموبقات.

ففي حديث أَبِي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ، قِيلَ: يا رسول الله ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بالله ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا**

بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ» متفق عليه.

وذلك أن الربا من أكل أموال الناس بالباطل، وأكل أموال الناس بالباطل ظلم عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»** متفق عليه.

﴿٢٧٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ علىٰ الأغلب، وإلا فيطلق علىٰ كل متعامل بالربا سواء أكله، أو اشترىٰ به لباسًا، أو مركبًا، أو بيتًا، أو علىٰ أي حال.

❖ **والربا في اللغة الزيادة، وهو منقسم إلىٰ:**

١- ربا الفضل. ٢- ربا النسيئة.

(**أما ربا الفضل** فصورته: أن يبيع منك ألفا بألف ومائة مثلًا، أو جرام ذهب بجرامين، فيدخل في بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، وغير ذلك من الربويات.

فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ، وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ، وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ، وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ، وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ، وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ سَوَاءً بِسَوَاءٍ يَدًا بِيَدٍ، فَإِذَا اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْأَصْنَافُ فَبِيعُوا كَيْفَ شِئْتُمْ إِذَا كَانَ يَدًا بِيَدٍ»** متفق عليه.

(**وأما ربا النسيئة** فهو طلب الزيادة علىٰ التأخير، ولا يشترط فيه التقابض، فبيع الذهب بالذهب يشترط فيه المثلية والتقابض، وبيع الذهب بالفضة يشترط فيه التقابض مع جواز التفاضل.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّمَا الرِّبَا فِي النَّسِيئَةِ»** متفق عليه.

أي: أن الربا المشهور ما كان في النسيئة، وإلا فإن الربا يقع في الفضل والنسيئة وكان ربا الجاهلية إما أن تقضي، وإما أن تربي.

﴿لَا يَقُومُونَ﴾ يوم القيامة من قبورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ﴾ يصرعه ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ الجنون فيقومون من قبورهم حيارىٰ سكارىٰ مضطربين.

۞ وفي هذا دليل علىٰ مسألة المس والصرع التي ينكرها العقلانيون.

۞ **والصرع الذي يصيب الإنسان علىٰ قسمين:**

١- ما يكون جسماني. ٢- ما يكون شيطاني.

۞ فأما الجسماني فيكون بسبب تغير في بعض أجزاء الجسم لا سيما الدماغ، وغير ذلك

وأما الشيطاني فيكون بدخول الجني في الإنسي، إما بسبب عين أو سحر أو بمجموعهما، أو بدخوله في الإنسان لقصد أذيته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العقاب الذي نزل بهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟﴾ تلبيسا ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ﴾ الذي أحله الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ وهذا كذب، وحيلة، ولا سواء، فإن البيع مباح، ومشروع، وأما الربا فمحرم، وممنوع.﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ فالبيع عن تراض، ﴿وَحَرَّمَ﴾ منع ﴿ٱلرِّبَوٰا۟﴾ ونهىٰ عن التعامل به، ﴿فَمَن جَآءَهُۥ﴾ بلغه ممن كان يتعاطىٰ الربا ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ ذكر وزجر ﴿مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ عن الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ قبل النهي، والعلم.

والمعنىٰ: إن كان المتعامل بالربا لا يعلم حرمة الربا قبل تعامله، فإن تاب له ما كان قبل العلم ولا يلزمه التخلص منه، وأما إن كان يعلم الحرمة فمن توبته رد المظالم إلىٰ أهلها والتخلص من الربا.

﴿وَأَمْرُهُۥٓ﴾ في التجاوز والعفو ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن علم صدقه، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يا رسول الله، أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟ قال: «مَنْ أَحْسَنَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يُؤَاخَذْ بِمَا عَمِلَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَمَنْ أَسَاءَ فِي الْإِسْلَامِ أُخِذَ بِالْأَوَّلِ وَالْآخِرِ»** متفق عليه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلىٰ التعامل بالربا أكلًا، ومعاوضة بعد علمه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ أنها كبيرة من الكبائر، وعظيمة من العظائم.

﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هذا في حق المستحل، فإنه يكفر أو أن الآية خرجت مخرج الوعيد.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾.

📖جَاءَ فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «**لَمَّا نَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، خَرَجَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاقْتَرَأَهُنَّ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ نَهَى عَنِ التِّجَارَةِ فِي الْخَمْرِ**» أخرجه مسلم (١٥٨٠).

٢٧٦ ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ينقصه، ويهلكه، ويذهب بركته، إما حسًا بتلفه، وإما معنًا بنزع البركة منه؛ ولأن الربا خبيث، والخبيث لا يبارك الله فيه: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠]. ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يزيدها، وينميها، ويضاعف ثوابها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩]، فيضاعف الله عَزَّوَجَلَّ الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة.

❖ **والفرق بين الربا والصدقة:**

١- أن الصدقة بذل لله، والربا أكل لما حرمه الله .

٢- الصدقة فيها تفريج الكربات، والربا فيه تضييق الحالات.

٣- الصدقة دليل علىٰ التراحم، والربا دليل علىٰ عدم التراحم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بتحليل الربا ﴿أَثِيمٍ﴾ فاجر بأكله إذ أن الله لا يقبل إلا ما كان حلالًا طيبًا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ**» متفق عليه.

﴿٢٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أقروا لله بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بادروا إليها من التوحيد فما دونه، ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة، وهذا من عطف الخاص علىٰ العام ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة.

۞ وذكر هاتين العبادتين؛ لعظيم شأنهما، فالصلاة حق الله ، والزكاة حق الناس.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الدنيا، والآخرة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿٢٧٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ راقبوا الله في سركم، وجهركم، وحضركم، وسفركم، وجميع شأنكم، في بيعكم وشرائكم، فلتكونوا علىٰ غاية المراقبة، فإذا اتقيتم الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور، وترك المحظور حصلت لكم المخارج كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]، ﴿وَذَرُواْ﴾ اتركوا المطالبة بـ﴿مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي: ما لم تستلموه بعد، فلا يجوز لكم أن تأخذوه، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ اللهَ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِبًا يُوضَعُ، رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ، لَا تَظْلِمُونَ، وَلَا تُظْلَمُونَ**».

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ منقادين لأمر الله ، وشرعه.

﴿٢٧٩﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ ما أمرتم به من ترك الربا ﴿فَأْذَنُواْ﴾ اعلموا، وايقنوا ﴿بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حيث تذهب البركات، وتحل النقمات، وغير ذلك من البلايا الحاصلات، والله عَزَّوَجَلَّ إذا حارب إنسانًا من الذي يقوم له فمن حاربه الله أرداه، وأسقطه، وأخزاه، والله

المستعان. ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ بتأديبهم، وزجرهم، وإقامة ما يجب في صدّهم عن هذه العظيمة ﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ عن أكل الربا، وتعاطيه ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ﴾ أصول ﴿أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ غيركم بزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ أنتم بالنقصان.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾.

﴿٢٨٠﴾ ﴿وَإِن كَانَ﴾ الغريم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ ضيقة ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ تأخيره ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ وقت ميسرة، وسعة فإذا وجد قضاء الدين، فلا يجوز له التأخير فعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ، وَمَنْ أُتْبِعَ عَلَى مَلِيٍّ فَلْيَتَّبِعْ**» متفق عليه.

وإنظار المعسر أجره عظيم، ففي حديث حذيفة وأبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا. قَالُوا: تَذَكَّرْ. قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ الْمُوسِرِ قَالَ الله** عَزَّوَجَلَّ: «**تَجَوَّزُوا عنه**» متفق عليه، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**» اخرجه الترمذي(١٣٠٦).

وعن بريدة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا كَانَ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ، وَمَنْ أَنْظَرَهُ بَعْدَ حِلِّهِ، كَانَ لَهُ مِثْلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَدَقَةٌ**» اخرجه ابن ماجه (٢٤١٨).

وكما أن الله عَزَّوَجَلَّ أمر بإنظار المعسر، فينبغي للمستطيع أن يعجل بقضاء الدين، وأن يصبر علىٰ بعض الأذىٰ إذا سمع كلمة نابية أو نحو ذلك، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا أَتَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ، فَأَغْلَظَ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعُوهُ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا**» متفق عليه.

والممنوع في الزيادة إذا كانت مشروطة، أما إذا لم تكن مشروطة فيجوز الزيادة، من باب الإكرام، ورد الجميل فعن عبد الله المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **اسْتَسْلَفَ مِنْهُ حِينَ غَزَا حُنَيْنًا ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَضَاهَا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: «بَارَكَ الله لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، إِنَّمَا جَزَاءُ السَّلَفِ الْوَفَاءُ وَالْحَمْدُ»** أخرجه أحمد (٤٤٢٤)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَىٰ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا، وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ» وَقَالُوا: لاَ نَجِدُ إِلَّا أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ، قَالَ: «اشْتَرُوهُ، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»** متفق عليه.

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا﴾ بالعفو عن المعسر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أرفع في درجاتكم؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **«مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»** أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وَعَنْ أبي اليسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ: **«مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّهِ»** أخرجه مسلم (٣٠٠٦).

﴿٢٨١﴾ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ عظيمًا وهو يوم القيامة، نُكّر؛ لعظم شأنه ﴿تُرْجَعُونَ﴾ تردون ﴿فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ حفاة عراة غرلا بهما.

فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطِيبًا بِمَوْعِظَةٍ، فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى الله حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أَلَا وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى، يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **أَلَا وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ.**

فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي.

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ.

فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قَالَ: فَيُقَالُ لِي: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ - وَفِي رِوَايَةٍ - فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ» متفق عليه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ في ذلك اليوم ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ وكل من ألفاظ العموم، من المؤمنين الأبرار، ومن الفجار الأشرار، وهكذا من الجن والإنس، ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ عملت من خير وشر كما قال تعالىٰ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة بل يُجازون بأعمالهم.

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن، وقال بعضهم بأنها أخوف وأرجىٰ آية في القرآن ففيها تخويف وبشارة، بشارة للمؤمنين، وتخويف للمخالفين، والله المستعان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ۚ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هذه الآية نزلت في السَلَمِ خاصة، ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعًا. وقال ابن خويز منداد: أنها تضمنت ثلاثين حكمًا.

۞ وقد استدل بها بعض العلماء علىٰ جواز التأجيل في القروض.

﴿٢٨٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم﴾ تعاملتم ﴿بِدَيْنٍ﴾ كالسلم، والقرض ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معلوم. قال ابن المنذر: دل قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ علىٰ أن السلم إلىٰ الأجل المجهول غير جائز، ودلت سنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ مثل معنىٰ كتاب الله تعالىٰ: فثبت أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قدم المدينة وهي يستلفون في الثمار السنتين والثلاثة فقال: «**مَنْ أَسْلَفَ فِي تَمْرٍ، فَلْيُسْلِفْ فِي كَيْلٍ مَعْلُومٍ، وَوَزْنٍ مَعْلُومٍ، إِلَى أَجَلٍ مَعْلُومٍ**» **متفق عليه رواه ابن عباس** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ و(**السَلَمَ ، والسّلف**): عبارتان عن معنىٰ واحد، غير أن الاسم الخاص في هذا الباب أنَّ (**السَلَمَ**): بيع معلوم في الذمة محصور بالصفة أو ما هو في حكمها إلىٰ أجل معلوم.

و(**السّلف**) يقال علىٰ القرض، والسَلَمَ بيع من البيوع الجائزة بالاتفاق.

❖ **وله أربعة شروط:**

- **الأول**: أن يكون في شيء معلوم.
- **الثاني**: أن يكون إلىٰ أجل معلوم.
- **الثالث**: أن يدفع المال في الحال.
- **الرابع**: أن يكون مقدور التسليم.

ففيه مصلحة للبائع، والمشتري.

﴿فَٱكْتُبُوهُ﴾ أي: الدين توثيقًا له، ويكون ذلك بالكتابة، والإشهاد عليها.

۞وقد ذهب بعض العلماء إلىٰ وجوب الكتابة استدلالًا بهذه الآية ،وهو اختيار الطبري.

وذهب جمهور العلماء إلىٰ أن الأمر بالكتابة إنما هو علىٰ الندب، والأمر للإرشاد، وقالوا الأمر بالكتابة ندب إلىٰ حفظ الأموال، وإزالة الريب.

وهذا القول اختاره القرطبي وابن العربي، وقال في هذه المسألة أربعة أقوال:

- **الأول**: أن الكتابة فرض علىٰ الكفاية
- **الثاني**: أنه فرض علىٰ الكاتب في حال فراغه.
- **الثالث**: أنه ندب.
- **الرابع**: أنه منسوخ. اهـ

﴿وَلْيَكْتُب﴾ ولم يقل أحدكم، لأنه لما كان الذي عليه الدَّين قد يُتهم في الكتابة، والعكس، شرع الله كاتبًا غيرهما، ليكتب ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بالحق فلا يكون في قلبه ولا قلمة موادة لأحدهما علىٰ الآخر ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ يرفض ﴿كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ الكتابة، والقراءة بينهم فهذا من باب الإحسان والأمر هنا للإرشاد، ويجوز للكاتب أن يأخذ مقابل الكتابة شيئًا من المال، أو نحوه.

﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الكتابة في الوثيقة ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ﴾ المديون المطلوب يقر علىٰ نفسه بلسانه ليعلم ما عليه؛ لأن الشهادة إنما تكون بسبب إقراره، ﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ في إقراره وكتابته ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ ينقص ﴿مِنْهُ﴾ من الدين ﴿شَيْـًٔا﴾ صغيرا أم كبيرًا قليلا، أو كثيرًا.

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما أملي الذي عليه الحق لأنه المقر به الملتزم له، فلو قال الذي له الحق لي كذا وكذا لم ينفع حتىٰ يقر له الذي عليه الحق، فلأجل ذلك كانت البرأه به؛ لأن القول قوله، ولمثل هذا وقعت الإشارة في قوله: «**البينة علىٰ المدعي، واليمين علىٰ من أنكر**». اهـ

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ المديون ﴿سَفِيهًا﴾ لا يحسن التصرف ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ لصغره، أو جنونه ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ لخرسه، ونحوه.

❖ **وقد جعل الله الذي عليه الحق أربعة أصناف:**

- **الأول**: مستقل بنفسه يملي هو.
- **الثاني**: سفيه لا يحسن التصرف في المال فيملي وليه.
- **الثالث**: ضعيف كبيرًا لا عقل له، لا يستطيع الإملاء إما لعيه، أو لغبائه، أو لحمقه يملي وليه.
- **الرابع**: لا يستطيع أن يمل هو فليملي وليه.

﴿فَلْيُمْلِلْ﴾ يملي ما يُراد كتابته ﴿وَلِيُّهُۥ﴾ ولي الذي عليه الحق، وطالب الدين ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ بالحق، والقسط، وهذا اختيار القرطبي، وابن العربي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ .

❖ **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اختلف الناس علىٰ من يعود الضمير إلىٰ قولين:**

● **الأول**: قيل يعود علىٰ الحق، **والتقدير**: فليملل ولي الحق.

● **الثاني**: أنه يعود علىٰ الذي عليه الحق، **والتقدير**: فليملل ولي الذي عليه الحق.

وقد دل ذلك علىٰ أن صاحب الحق مؤتمن فيما يورده ويصدره، فيقتضي ذلك قبول قول الراهن مع يمينه إذا اختلف هو والمرتهن في مقدار الدين، والرهن قائم، فيقول الراهن: رهنت بخمسين، ويقول المرتهن: بمائة فالقول قول الراهن، وهذا مذهب أكثر الفقهاء، واختاره ابن المنذر.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ اطلبوا شهودًا يشهدون علىٰ ذلك.

۞ والأمر للندب لا الوجوب، واختاره ابن العربي والقرطبي، وجعل الله عَزَّوَجَلَّ الشهادة في الحقوق الأدمية المالية، والبدنية، والحدود شاهدين إلا في الزنا جعله أربعة شهود ﴿شَهِيدَيۡنِ﴾ اثنين ﴿مِن رِّجَالِكُمۡ﴾ نص في رد الكفار، والصبيان، والنساء، والعبيد علىٰ الصحيح.

قال ابن العربي: قال مجاهد: أراد من الأحرار، وقيل المراد به من المسلمين.

وقال ابن العربي: والصحيح عندي أن المراد به البالغون من ذكوركم المسلمين، لأن الطفل لا يقال له رجل، وكذا المرأة؛ ولأن الكافر لا قول له.

﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا﴾ لم يتيسر شاهدان ﴿رَجُلَيۡنِ﴾ يشهدان علىٰ الحق ﴿فَرَجُلٞ﴾ واحد ولو كان أعمىٰ إذا اتقن ما شهد عليه.

قال ابن العربي: عموم قوله من رجالكم فيه يقتضي جواز شهادة الأعمىٰ علىٰ ما يتحققه ويعلمه.

﴿وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ اثنتان مقابل الواحد من الذكور ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ أهل العدالة ﴿أَن تَضِلَّ﴾ تخطئ ﴿إِحۡدَىٰهُمَا﴾ أو تنسىٰ ﴿فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ﴾ بالشهادة، وعن أبي سعيد الخدريّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى المُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ**» فَقُلْنَ: وَبِمَ يا

رسول الله ؟ «قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ»، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يا رسول الله ؟ «قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ»، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ»، قُلْنَ: بَلَى، «قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا» متفق عليه.

﴿وَلَا يَأْبَ﴾ يرفض، ويمتنع ﴿ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ طُلبوا لتحمل الشهادة، وأدائها بعد تحملها، وإن كان الشاهد غير معلوم، فينبغي أن يؤدي الشهادة حتىٰ لا يضيع المال، فعن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ؟ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا» أخرجه مسلم (١٧٩١).

﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ﴾ تملوا، وتضجروا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ الدين ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ قليلًا، أو كثيرًا ﴿إِلَىٰٓ﴾ أجله، ووقت حلوله.

۞ وهذا تأكيد من الله في الإشهاد بالدين، تنبيهًا لمن كسل، فقال: هذا قليل لا أحتاج إلىٰ كتبه والإشهاد عليه؛ لأن أمر الله تعالىٰ فيه، والتحضيض عليه واحد، والقليل والكثير فيه سواء.

قال ابن العربي: "قَالَ عُلَمَاؤُنَا: إلَّا مَا كَانَ مِنْ قِيرَاطٍ وَنَحْوِهِ لِنَزَارَتِهِ، وَعَدَمِ تَشَوُّفِ النُّفُوسِ إلَيْهِ إقْرَارًا أَوْ إنْكَارًا". اهـ

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الكتابة ﴿أَقْسَطُ﴾ أعدل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أثبت ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ أدعىٰ لثبوتها؛ لأنه إذا شهد، ولم يكتب ربما نسي الشاهد ﴿وَأَدْنَىٰٓ﴾ أقرب إلىٰ ﴿أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ تشكون في قدر الأجل، وفي عدالة الشهود.

❖ **وشرائط قبول الشهادة سبعة:**

١- **الإسلام**. فلا تقبل شهادة الكافر. ٢- **الحرية**. فلا شهادة العبد.
٣- **العقل**. فلا تُقبل شهادة المجنون. ٤- **البلوغ**. فلا تُقبل شهادة الصبي.
٥- **العدالة**. فلا تُقبل شهادة مخروم العدالة، الفاسق. ٦- **انتفاء التهمة**. بالزور .
٧- **المروءة**. فلا تقبل شهادة الرجل الذي لا مروءة له.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾ المعاملة بينكم عبارة عن ﴿تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ ولا أجل فيها لكثرة تداولها، وقضائها ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ في ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ توثقونها مع أنهم يقيدونها في دفاتر وحسابات؛ لكثرة المسحوب، ونوعه ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ﴾ بينكم ﴿إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ فيها، وهذا علىٰ الاستحباب لا الوجوب ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ﴾ صاحب الحق بتحريف الكتابة ﴿وَلَا شَهِيدٌ﴾ ولا يُضر الشاهد بالامتناع عن الشهادة ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ما نهيتم عنه ﴿فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ﴾ وخروج عن الطاعة لاحقٌ ﴿بِكُمْ﴾ ضرره في دنياكم وآخرتكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في أمره، ونهيه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ مصالحكم وما ينفعكم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا تخفىٰ عليه خافيةٌ وهذا علىٰ التهديد والوعد والوعيد.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾.

لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالكتابة في الديون، وكان المسافر قد لا يجد كاتبًا، ندب الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ الرهن، وذهب قوم إلىٰ وجوبه، و**الصحيح** أنه مباح وليس بواجب.

واحتج جمهور السلف والخلف علىٰ أن الرهن جائز في السفر والحضر، بهذه الآية وما في معناها من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «**تُوُفِّيَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ**» متفق عليه.

وبوب عليه البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: (باب الرهن في الحضر)، وخالف مجاهد وغيره، وذهبوا إلىٰ أن الرهن إنما يكون في السفر؛ احتجاجًا بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾.

والصحيح أن ذكر السفر خرج مخرج الغالب؛ لأن الرهان في السفر أكثر من الكتابة؛ لعدم توفر الكاتب أو القلم أو الكُرّاس، أو غير ذلك مما يكتب فيه

وتداينتم ﴿وَلَمْ تَجِدُواْ﴾ تحصلوا ﴿كَاتِبًا﴾ يكتب بينكم ﴿فَرِهَٰنٌ﴾ وفي قراءة ﴿فَرُهُن﴾بضم الهاء جمع رهن ﴿مَّقْبُوضَةٌ﴾ يقبضها صاحب الحق حتىٰ يستوثق بها الحق.

مفهومه: أنهم إذا وجدوا كاتبًا فكتب بينهم لم يحتاجوا إلىٰ الرهن، ومع ذلك حتىٰ لو وُجِدت الكتابة، وطالب صاحب الحق بالرهن له ذلك؛ إذ أن الرهن يشترط فيه رضىٰ صاحب الحق.

والرهن قد يكون صامتًا كالذهب، والفضة، وبعض العقار، وقد يكون غير صامت كرهن الإبل، والفرس، والبقرة ونحو ذلك.

فما كان صامتًا فإنه يحفظ علىٰ الحال التي وضع عليها، وأما إذا كان آكلًا شاربًا، فإن الظهر يُركب، والدر يُحلب بنفقته، كما قضىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وليس ذلك من باب قرضٍ جر نفعًا؛ لأن البقرة تحتاج إلىٰ علف، والإبل يحتاج إلىٰ رعاية، والفرس يحتاج إلىٰ من يقوم به.

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ، وَيُشْرَبُ لَبَنُ الدَّرِّ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا**» **أخرجه البخاري** (٢٥١١)، ومثله لو أن رجلًا رهن سيارة عند آخر، ثم مكثت هذه السيارة سنين، واحتاج إلىٰ تشغيلها بين الحين والآخر، واحتاج إلىٰ إعطائها بعض الزيت والبترول من أجل ذلك، جاز له أن يركبها، وأن يقوم بشأنه عليها بقدر ما أعطىٰ فيها.

وهكذا السلاح، فلا يجوز أن يستخدمها بلبس ولا بعارية ولا غير ذلك، وإنما هي ضمان في حقه.

❖ ومن المسائل أن الرهن لا يغلق:

وهو أن المرتهن يقول: أعطيك خمسين ألفًا علىٰ أن تعطيني سلاحك رهنا، فإذا جاء الأجل، ولم تؤد ما عليك فإن السلاح في مالي، فهذا لا يجوز، وإن كان ولابد وقد حل الأجل، فإن السلاح يباع ويُقَوّم بسعر يومه، ثم يأخذ المدين ماله، ويدفع الباقي إلىٰ المستدين.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي الدائن المدين ﴿فَلْيُؤَدِّ﴾ يعطي ﴿ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ﴾ المدين ﴿أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ للدائن علىٰ الشرط الذي بينهم فالأمانة صفة المؤمنين والخيانة سيماء

المنافقين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» **متفق عليه.**

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ بفعل المأمور، وترك المحظور في السر والعلن بأداء ما عليه ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ إذا دعيتم لها، وسألتموها فمن كان عنده شهادة، فيجب عليه أن يؤديها؛ حتىٰ لا تضيع الحقوق.

۞ ولا تعارض بين هذه الآية، وبين قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذم قوم: «**يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ**» **متفق عليه عن ابن مسعود** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فالحديث في ذم الذين يُبادرون بالشهادة قبل أن يُطلَبوها، ولا حاجة إلىٰ شهادتهم، وأما من كان عنده شهادة يضيع الحق بضياعها فهو ممدوح في إظهارها فعن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال:** «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِالشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا**» **اخرجه مسلم** (١٧٩١).

﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ الشهادة ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ وخُص بالذكر؛ لأنه محل الشهادة، وإذا أثم تبعته بقية الجوارح، فعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ، صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**» **متفق عليه**، فيلحقه إثم عظيم، لاسيما إذا ضاع الحق، فكم من إنسان يكتم الشهادة وتضيع الدماء، والأعراض، وربما ضاعت الأموال، فينبغي للإنسان أن يؤدي شهادته كما تحمّلها، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ببيان الشهادة، وكتمانها ﴿عَلِيمٌ﴾ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

استوعبت الكلام علىٰ هذه الثلاث الآيات في رسالة مستقلة بعنوان: «إتحاف البررة بتفسير خوا تم سورة البقرة».

وفي فضلها ما في حديث أَبِي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»** متفق عليه.

وحديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: **«هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»** أخرجه مسلم(٨٠٦).

وفي مسلم (١٧٣): عَنْ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **لَمَّا أُسْرِيَ برسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا، قَالَ:** ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، **قَالَ: «فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: فَأُعْطِيَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ثَلَاثًا: «أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ».**

وفي مسند أحمد (٣٥/ ٤٤٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»** إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

۞ **وفي معنىٰ (كفتاه) قيل**: من قيام الليل، أو من حزبه، إن كان له حزب من القرآن، وقيل: وقتاه شرَّ كل شيطان، وكل ذي شر؛ كما جاء في أن: «**من قرأ آية الكرسي لم يزل عليه من الله تعالى حافظ، ولم يقربه شيطان حتى يصبح**»، أو لكثرة ما يحصل له بقراءتهما من الثواب والأجر، والله أعلم، وسبب كفايتها له ما فيهما من معاني الإيمان، والإسلام، والالتجاء إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ،والاستعانة به والتوكل عليه، وطلب المغفرة، والرحمة منه، وغير ذلك مما تضمنته من المعاني والله أعلم.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه مسلم (١٢٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: أَيْ رسول الله، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**»، **قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ الله فِي إِثْرِهَا**: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا الله تعالىٰ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ **قَالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ **قَالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنَا وَلَا

تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ **قَالَ: نَعَمْ** ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **قَالَ: نَعَمْ»**.

وفيه (١٢٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا» قَالَ: فَأَلْقَى الله الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ الله تعالى:** ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ **قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ** ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ **قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ** ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ **قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ»**.

❁ النَّسْخُ: واختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة بما بعدها أم أنها على عمومها وحكمها.

ففي مسند أحمد (٣٠٧٠٩) عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «**دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَبَكَى. قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ:** ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾. **قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ أُنْزِلَتْ، غَمَّتْ أَصْحَابَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَمًّا شَدِيدًا، وَغَاظَتْهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا، يَعْنِي، وَقَالُوا: يا رسول الله، هَلَكْنَا، إِنْ كُنَّا نُؤَاخَذُ بِمَا تَكَلَّمْنَا، وَبِمَا نَعْمَلُ، فَأَمَّا قُلُوبُنَا فَلَيْسَتْ بِأَيْدِينَا. فَقَالَ لَهُمْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ: فَنَسَخَتْهَا هَذِهِ الْآيَةُ:** ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ **، فَتُجُوِّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأُخِذُوا بِالْأَعْمَالِ»**.

فقال بالنسخ ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والشعبي، وعطاء ومحمد بن سيرين، ومحمد بن كعب، وموسى بن عبيدة، وجماعة من الصحابة والتابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

●**ومن روي عنه القول بأنها محكمة**: ابن عباس .

قلت: لكنه يخالف الثابت عنه كما ترىٰ وروي عن عكرمة، والشعبي، ومجاهد: إنها محكمة مخصوصة، وهي في معنىٰ الشهادة التي نهىٰ عن كتمها، ثم أَعلم في هذه الآية أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب. **ذكره القرطبي في تفسيره(٤/ ٤٢١)**.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيها بيان عموم ملك الله تعالىٰ فكل موجود سواه تعالىٰ فالله مالكه والمتصرف فيه، وهذا يدل علىٰ غناه تعالىٰ عن عباده قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

ويدل علىٰ وجوب عبادة الله تعالىٰ، وإفراده بذلك، فهو المالك للعبد، فيجب علىٰ العبد أن يُطيعه، ويعبده، ويتقرب إليه بما شرع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ﴾ تظهروا ﴿مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من السوء، والعزم ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ تسروه ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يوم القيامة محتسب عليكم أعمالكم، فيجازي من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر لمن شاء منكم.

وفي حلية الأولياء (١/ ٣٠٥) عن نافع مَوْلَىٰ ابْنِ عُمَرَ قال: «**مَا قَرَأَ ابْنُ عُمَرَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ قَطُّ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِلَّا بَكَى ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ﴾، ثُمَّ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا لِإِحْصَاءٌ شَدِيدٌ**».

وفي الصحيحين عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ، قَالَتْ: قُلْتُ: يارسول الله جَعَلَنِي الله فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ٨﴾ **قَالَ:ذَاكَ العَرْضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ**».

ومعلوم: أن حديث النفس ليس بعمل فيجازي عليه إلا إذا استقر فيها.

ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ**» متفق عليه.

وفي لفظ مسلم (١٢٩): «قال الله : إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ، مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا».

وَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، وَإِنَّ عَبْدَكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً -وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ -فَقَالَ: ارقُبوه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَايَ».

وَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى الله عَزَّوَجَلَّ».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه علىٰ مسلم (٢/ ١٥٢):

"قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْحَفَظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ وَعَقْدَهَا خِلَافًا لِمَنْ قَالَ إِنَّهَا لَا تَكْتُبُ إِلَّا الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ وَالله عَلَمُ". انتهىٰ.

وما يدل علىٰ أن الله تعالىٰ لا يؤاخذ بما في الصدور من الخواطر الزائلة غير المستقرة ما في مسلم (١٣٢): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: ذَاكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».

وأخرج عَنْ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سُئِلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ» مسلم (١٣٣).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه علىٰ مسلم (٢/ ١٥٤): "فَإِنَّ اسْتِعْظَامَ هَذَا وَشِدَّةَ الْخَوْفِ مِنْهُ وَمِنَ النُّطْقِ بِهِ فَضْلًا عَنِ اعْتِقَادِهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ اسْتِكْمَالًا مُحَقَّقًا وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيبَةُ وَالشُّكُوكُ". اهـ.

﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيما هو دون الشرك، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] ، والتجاوز، ومعلوم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٨٤﴾ لكمال قوته، وقدرته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر:٤٤].

٢٨٥ ﴿ءَامَنَ﴾ صدق، ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ من القرآن، ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: ربًا، ومالكًا، ومدبرًا، ومعبودًا، ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ علىٰ الجمع، والإفراد ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ فمن كفر بواحد منهم كفر بهم جميعًا. ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا﴾ سمع استجابة ﴿وَأَطَعۡنَاۖ﴾ أمرك ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾: نسألك غفرانك.

۞ **و(الْغُفْرَانُ، وَالْمَغْفِرَةُ)** من الله هو: أن يصون العبد من أن يمسّه العذاب.

والدعاء بالمغفرة، وسؤال الستر من المتعينات علىٰ العباد لكثرة ما يتعاطونه من الذنوب ففي صحيح مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تعالىٰ: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»، وفيه (٢٧٤٩) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ الله بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ الله فَيَغْفِرُ لَهُمْ**».

﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ المرجع، والبعث يوم القيامة.

٢٨٦ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾: قدرتها، وهذا من رحمة الله تعالىٰ بعباده وهي كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق:٧]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**».

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير، وثوابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشر، وعقابه. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ بالعقاب ﴿إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ تركنا الحق لا عن عمد، وهذا من رحمة الله بعباده.

ففي "الصَّحِيحَيْنِ" عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سَمِعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: **«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»**، وجاء في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن ماجه وغيره **«إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»** والحديث ضعيف وله ما يدل عليه من عمومات الأدلة.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ﴾ تفرض ﴿عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾: أمرًا يثقل علينا حمله.

۞ وفي معنىٰ (الإصر) أنه:

العهد المؤكد.

وقيل: هو العهد، والميثاق الذي لا يطاق ولا يستطاع القيام بالوفاء به.

وقيل: هو العبء الثقيل الذي يأصر حامله.

أي: يحبسه عن الحركة والتصرف لثقله وقد أخبر الله تعالىٰ عن رحمته بهذه الأمة بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧].

﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ من اليهود والنصارىٰ حيث أخذت عليهم العهود، والمواثيق فضيعوها، وذلك بسبب تعنتهم علىٰ أنبيائهم فشُدد عليهم، ولا أدل علىٰ ذلك من كثرة مسائلهم علىٰ أنبيائهم كما تقدم في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»** متفق عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٥] .

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة:١٣] ، وكما قال تعالىٰ : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام:١٤٦].

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾ تكلفنا من الأعمال ﴿مَا لَا طَاقَةَ﴾ قوة ﴿لَنَا بِهِۦ﴾ من التكليف والبلاء، فتوسلوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ألا يفرض عليهم مالا طاقة لهم به ويسألون الله عَزَّوَجَلَّ أن يوفقهم لما افترضه عليهم كما قال تعالىٰ : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا﴾ امح ذنوبنا، قال ابن زيد: "اعْفُ عَنَّا إِنْ قَصَّرْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ مِمَّا أَمَرْتَنَا بِهِ".

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ وَاسْتُرْ عَلَيْنَا زَلَّةً إِنْ أَتَيْنَاهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَلَا تُكْشِفْهَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِإِظْهَارِهَا قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، فالله تعالىٰ هو الغفور المتجاوز، والساتر لذنوب عباده، وكم من الأدعية عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سؤال ذلك فمنها: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول في سياقة الموت: «**اللهم اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأعلَى**» متفق عليه.

وَعَنِ بِهَذَا الدُّعَاءِ: **رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» متفق عليه.

وفي حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند مسلم (٧٧١): «**اللهم اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»، مع أن الله تعالىٰ قد غفر له ما تقدم وما تأخر، ولكنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان متواضعًا لربه معلمًا لأمته.

﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ بتوفيقنا لكل خير في المستقبل، فلن ينجو أحد إلا برحمة الله تعالىٰ فعن أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رسول الله ؟ قَالَ: لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ**» متفق عليه.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣] أي: بسبب أعمالكم، فالمنفي باء العوض لا باء السبب.

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾: سيدنا، وولينا، والولاية ضد العداوة، وفي الدعاء المأثور: (**وتولني فيمن توليت**).

﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: بإقامة الحجة، والغلبة في قتالهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦] ومن أسباب النصر طاعة الله تعالىٰ فقد قال جل في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد:٧].

وكان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستغيث بالله تعالىٰ كثيرًا قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩]، وفي المسند (١٩٩٧) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو: رَبِّ أَعِنِّي وَلا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي**».

وفي المسند (١٨٩٤٠) عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ أَيَّامَ حُنَيْنٍ يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ بَعْدَ صَلاَةِ الْفَجْرِ بِشَيْءٍ، لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ يَفْعَلُهُ .

فَقُلْنَا: يا رسول الله، إِنَّا نَرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ، تَفْعَلُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي تُحَرِّكُ شَفَتَيْكَ؟

قَالَ: «**إِنَّ نَبِيًّا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَعْجَبَتْهُ كَثْرَةُ أُمَّتِهِ، فَقَالَ: لَنْ يَرُومَ هَؤُلاءِ شَيْءٌ فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ: أَنْ خَيِّرْ أُمَّتَكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَبِيحَهُمْ، أَوِ**

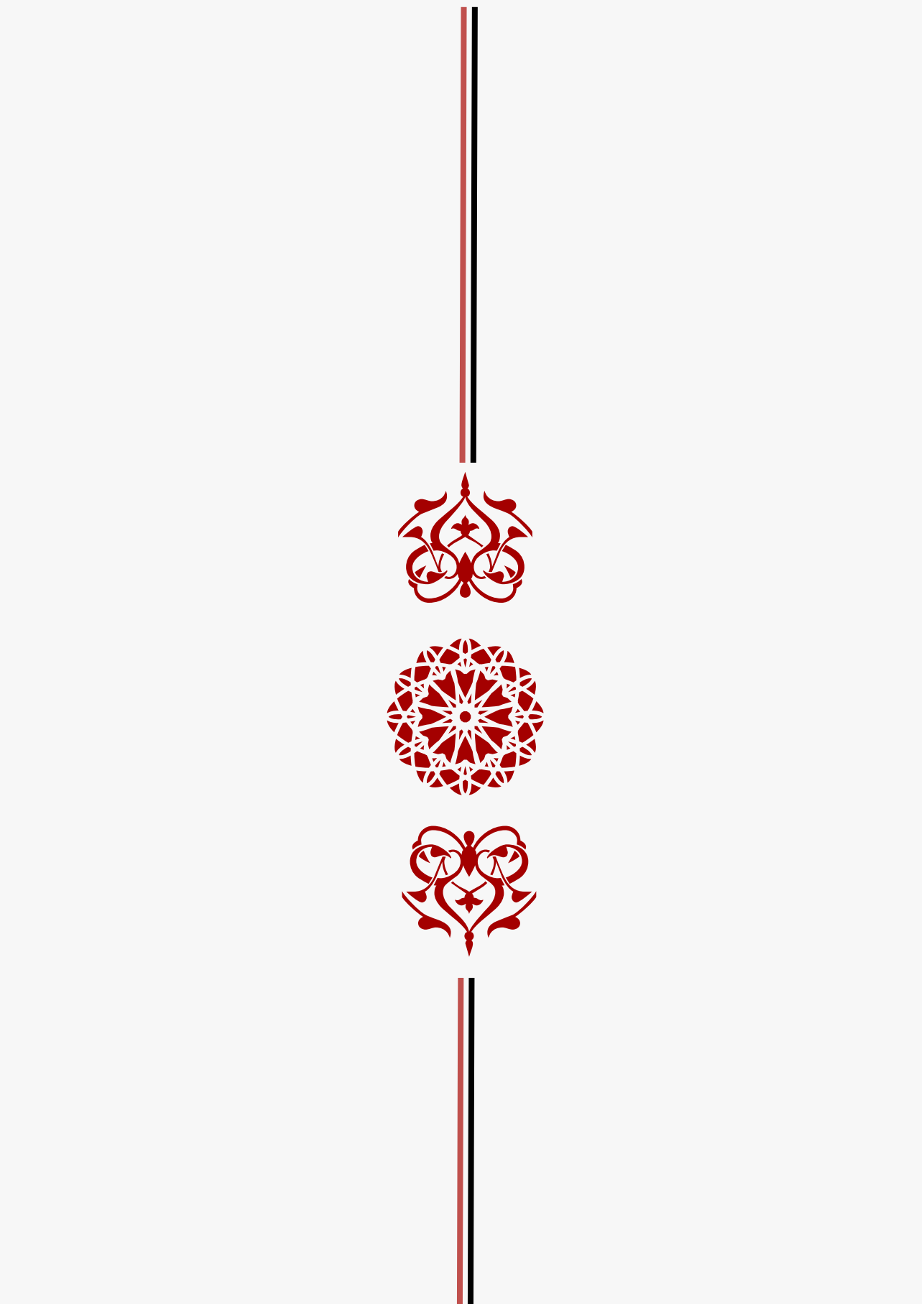
الْجُوعَ، وَإِمَّا أَنْ أُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَشَاوَرَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا الْعَدُوُّ، فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنِ الْمَوْتُ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ سَبْعُونَ أَلْفًا»، قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنَا أَقُولُ الْآنَ، حَيْثُ رَأَى كَثْرَتَهُمْ،: اللهم بِكَ أُحَاوِلُ، وَبِكَ أُصَاوِلُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ».

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ





سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

مَدَنِيَّة.

وَآيَاتُهَا مِئَتَان.

وجاء في فضلها ما أخرجه مسلم (٨٠٤)، عن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أو كأنهما فرقان من طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾.

١ - ٢ ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يُعرّف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنفسه، وأنه الإله الحق الذي لا شريك له، ولا ظهير، ولا معين، ولا ند، بل هو المألوه المعبود، محبةً، وتعظيمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وغيره إن عُبد فبباطل. ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ المتصف بحياة أزلية أبدية، لم تسبق بعدم، ولا يلحقها فناء، كما قال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] ، والقاعدة عند أهل السنة: (**أن الصفات المنفية يثبت بها كمال الضد**). ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾: الذي يقوم بنفسه ومقيم لغيره، وإلىٰ هذين الاسمين تعود بقية الأسماء والصفات؛ إذ أن الحي الكامل هو الذي يتصف بالسمع، والبصر، والقدرة، والإرادة، والكلام، وغير ذلك من خصائص الربوبية، وأن الذي يقوم به غيره هو القادر الذي لا يعجزه شيء.

۞ وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذين الاسمين هما الاسم الأعظم، وكان من توسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قام من الليل أن يقول: «**اللهم لكَ الحمدُ أنت قَيُّوم السمواتِ والأرضِ**»، وفي رواية: «**قَيَّام السمواتِ والأرضِ**» **متفق عليه عن ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

﴿٣﴾ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ممتنًا علىٰ نبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق البين الواضح ﴿مُصَدِّقًا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب المنزلة علىٰ أنبياء الله ورسله ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن الله خط التوراة بيده، ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ هو الكتاب المنزل علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿٤﴾ ﴿مِن قَبْلُ هُدًى﴾ دلالة وبيان ﴿لِّلنَّاسِ﴾ إلىٰ طريق الخير، وطريق العبادة الحقة، ولكن التوراة والإنجيل قد غُيرت، وبُدلت؛ إذ تلاعب بها اليهود والنصارىٰ، وما تراه الآن فيما يسمونه بالكتاب المقدس للنصارىٰ قد جمعوا فيه أربعة أناجيل: (إنجيل متَّىٰ، ومرقص، ولوقا، ويوحنا) وكلها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ القرآن؛ سمي بذلك؛ لأنه نزل مفرقًا مُجزءًا علىٰ حسب الحوادث؛ ولأنه مفرق بين الحق، والباطل. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: إن الذين أعرضوا ولم يحققوا الإيمان بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في القبر، وفي الآخرة، وقد يُعذبون في الدنيا بالسيف، ونحوه.

وآيات الله منقسمة إلىٰ قسمين:

١- آيات كونية. ٢- وآيات شرعية.

● **فالآيات الكونية**: مثل الشمس، والقمر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾[فصلت:٣٧].

والكفر بهن: أن ينسب إلىٰ غير الله عَزَّوَجَلَّ الشراكة، أو العون، أو غير ذلك.

●**وأما الآيات الشرعية** فهي القرآن، والسنة، والكفر بها إما بالإعراض عنها، أو التكذيب، أو الإباء، أو الجحود، أو الشك، وغير ذلك من أنواع الكفر.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجز ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ صاحب انتقام ممن خالف شرعه وأمره.

٥ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لكمال علمه، فهو بكل شيء عليم، وبكل شيء محيط ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[غافر:١٩]، فيجازي المحسن بإحسانه ،والمسيء بإساءته.

٦ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ﴾ يخلقكم ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ في أرحام أمهاتكم، ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ إن شاء ذكورًا، وإن شاء إناثًا، علىٰ اختلاف ألوانكم وألسنتكم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤]، ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ أنه المتصرف خلقًا، وملكًا، وهو المستحق للعبادة لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، وهو﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ ذو العزة، و ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة.

وعن حذيفة بن أسيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ بِهِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَمَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ**» أخرجه مسلم (٢٦٤٤).

وعن عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا**» متفق عليه.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾.

في الصحيحين عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «**تَلَا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **هَذِهِ الْآيَةَ**: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ**: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ **قَالَتْ: قَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى الله ، فَاحْذَرُوهُمْ**».

٧ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ﴾ حجج ﴿مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ مفصلات ظاهرات بينات، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [فصلت:٢-٣]، فلا إشكال في معناها لوضوح دلالتها.

وهذه الآيات ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب فهن كلمات جوامع عليهن مدار الأحكام والنصوص، فلا تحتمل غير ذلك. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل معنىٰ آخر، وقيل المتشابه المنسوخ، **والقاعدة: (أن المتشابه يرد إلىٰ المحكم)**.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (٢/ ٧): وَأَحْسَنُ ما قيل فيه هُوَ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ حَيْثُ قَالَ: مِنْهُ آيات محكمات فهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل ليس لهن تصريف عَمَّا وُضِعْنَ عَلَيْهِ، قَالَ: وَالْمُتَشَابِهَاتُ فِي الصِّدْقِ ليس

لَهُنَّ تَصْرِيفٌ، وَتَحْرِيفٌ، وَتَأْوِيلٌ ابْتَلَىٰ الله فِيهِنَّ الْعِبَادَ كَمَا ابْتَلَاهُمْ فِي الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ أَلَّا يصرفن إلىٰ الباطل ويحرفن عَنِ الْحَقِّ. اهـ

۞ثم هل التشابه يراد به التشابه المطلق، بحيث لا يعلم معناها أحد من المسلمين، أم أن المراد به التشابه النسبي؟فقد تشتبه بعض الآي علىٰ بعضهم، وتكون محكمة عند الآخرين.

● والجواب أن يقال: آية متشابهة لا يعلم معناها أحد فهذا ممتنع؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أنزل القرآن؛ للتدبر، والتعقل، والتفكر، والعمل به، فإذا كانت هذه الآية لا يعلمها أحد من الناس مطلقًا لبقيت بعض السور معطلة عن العمل.

وأما التشابه النسبي، بحيث يعلم زيد ويجهل عمرو، فهذا وارد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦]، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

۞ ثم إن أهل البدع قد ذهبوا إلىٰ أن آيات الصفات من المتشابه، والمتشابه ينبغي عدم التعرض له، وهذا القول رده عليهم العلماء؛ فإن آيات الأسماء والصفات من المحكم البين الواضح، فالله عَزَّوَجَلَّ حين يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠] فكلامه مفهوم المعنىٰ، عظيم المبنىٰ، إلا إذا أريد بالتشابه ما يتعلق بالكيفية، فنعم، لا يعلم كيفية الصفات إلا الله عَزَّوَجَلَّ .

۞ ومن باب الفائدة قد أخبر الله أن القرآن منه محكم ومتشابه، وأخبر أن القرآن كله متشابه، وأخبر أن القرآن كله محكم، والجمع في ذلك :

أن المراد بالإحكام والتشابه في هذه الآية: أن المحكم هو البين الواضح، والمتشابه هو: ما أشكل معناه علىٰ بعضهم، أو أشكلت كيفيته علىٰ القول الأخر.

• **والمراد بـ(التشابه)** في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾: أنه يشبه بعضه بعضا، من حيث القصص والأخبار، ومن حيث اتفاق المعاني فلا اختلاف، ولا تعارض، ولا تناقض.

• **وأما (المحكم)** في قوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾: فالمراد به أن القرآن متقن بين كله من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن حال النَّاس مع القرآن:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ ضلال، وميل، وخروج عن الحق إلىٰ الباطل، وهم أهل البدع والضلال ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ أشكل ﴿مِنۡهُ﴾ بحيث يمكنهم أن يحرفوه؛ من أجل أن يقذفوه في قلوب اتباعهم، فيقع منه الطعن في القرآن، فيأتون إلىٰ مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ:﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن:١٧]،وقوله عَزَّوَجَلَّ:﴿بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج:٤٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل:٩]

فيقولون: هذا القرآن فيه تناقض.

والصحيح أن لا تناقض إلا بسبب سوء فهمهم، وإلا فإن ﴿ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ المراد به مغرب الشمس ومشرقها، و﴿ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ المراد بها المطالع، والمراد بـ ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ الصيف والشتاء، وهكذا.

وفي قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]، ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه:٣٩] قالوا: هذا من الاختلاف المفضي إلىٰ أن هذا القرآن يتناقض.

ولا تناقض؛ فإن الجمع تارة يراد به التعظيم، وتارة يطلق علىٰ أقله وهو اثنان، والمفرد إذا أضيف أفاد العموم، وهكذا.

وهم يفعلون ذلك ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ طلب ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ لمن يسمع منهم ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ تحريفه.

۞ ومن باب الفائدة فإن التأويل يأتي علىٰ أوجه:

• **الوجه الأول: التفسير**، وهذا يوجد في كلام ابن جرير وغيره، حيث يقولون: تأويل هذه الآية كذا.

• **الوجه الثاني: الحقيقة والمآل،** قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣] أي: حقيقة القيامة، ويراها الناس، عند ذلك كل يؤمن، ويدل عليه أيضًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ [يوسف:١٠٠]. أي: هذا حقيقة الرؤيا التي رأيتها قبل سنين مديدة وأعوام عديدة، جعلها الله حقًا.

• **الوجه الثالث: صرف اللفظ من راجحه إلىٰ مرجوحه بقرينة تدل عليه،** مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤] أي: بمرأىٰ منا.

ومما يدل علىٰ هذا أنه يستحال أن السفينة تكون في عين الله؛ لأنها إذا كانت في عين الله كان الله محلًا للحوادث، ونحن نعلم أن الله علىٰ العرش استوىٰ، وهذا التأويل مقبول عند أهل العلم؛ لأنه يكون بدليل شرعي.

• **الوجه الرابع: التأويل بمعنىٰ التحريف،** وهو الذي عليه أهل البدع، فتجد أنهم يقولون في قول الله عَزَّوَجَلَّ:﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥] :استولىٰ تحريفًا للمعنىٰ الحقيقي الدال علىٰ العلو والظهور، وغيره، ويقولون في قول الله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] نعمتاه تحريفًا لصفة اليد علىٰ .﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن:٢٧] ذاته أو ثوابه مع أنه موصوف بوجه حقيقي يليق بجلاله.

• **الوجه الخامس: التأويل بمعنىٰ العمل،** يدل عليه قول عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**كان يتأول بالقرآن**» أي: يعمل به **أخرجه مسلم(٤٨٤).**

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في الوقف علىٰ لفظ الجلالة أي: لا يعلم حقيقة صفات الباري، وحقيقة اليوم الآخر، ومافي الجنة والنار إلا الله تعالىٰ .

وفي الوقف علىٰ قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ يكون المعنىٰ: والراسخون في العلم يعلمون تأويله، فيكون التأويل بمعنىٰ التفسير، فالآية لها معنيان يتعلقان بموطن الوقف.

وعلىٰ الوقف علىٰ لفظ الجلالة سيكون المعنىٰ ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالمحكم والمتشابه، ويقولون ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فلا اختلاف فيه، ولا تناقض، وإنما القصور في المكلف إما لعدم علم، أو لعدم فهمه إن ظن تناقضًا.

فالمحكم والمتشابه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ يتعض، ويعلم الحكمة من ذلك ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة، وأخصر الكلام في هذا: أن المحكم هو البين الواضح، سواءً كان في العقائد أو في الأحكام.

وأن المتشابه منقسم إلىٰ قسمين:

(إن أراد به كيفية صفات وأحوال اليوم الآخر، فهذا من التشابه الكلي الذي لا يعلمه إلا الله.

(وإن أراد بالمتشابه المشكل، فالإشكال قد يقع علىٰ بعض الناس لا علىٰ كلهم.

والمتعين علىٰ من أشكل عليه معاني الآيات أن يسأل من قد علم معناها، ويرفع الإشكال، وإن كان الإشكال باختلاف بين آيتين، فلابد أن يكون من المرجحات المتصلة والمنفصلة، وغير ذلك من القرائن ما يؤدي إلىٰ الجمع بينهما، أو إلىٰ ترجيح دلالة بعضها علىٰ بعض، كأن يكون أحدها منسوخًا والآخر ناسخًا، أو مطلقًا ومقيدًا، ونحو ذلك مما يعلمه طلاب العلم.

وأسوأ الأقوال في هذا الباب ما سلكه المُبتدعة: من أن المتشابه هو آيات الأسماء والصفات، فعند ذلك منعوا التحديث بها بين الناس، وزعموا أن من تكلم في باب الأسماء والصفات فهو مما حذر الله منه بقوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾، فيزعم المُبتدعة أن أهل السنة والجماعة حين يتكلمون في الصفات أنهم دخلوا في المحظور.

والصحيح: أن آيات الأسماء والصفات من المحكم البين الواضح، فالناس يقرأون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويقرأون: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ويعلمون معناه.

فكيف يأتي من يقول: بأن هذا من المتشابه الذي لا يُعلم معناه، هذا قول المفوضة، وقد ذكر شيخ الإسلام أنهم شر أهل البدع؛ إذ أن المعتزلة ما رفعت قرونها إلا حين وجد أهل

التفويض، فجعل أهل التفويض يقرأون القرآن ويقولون: لا معاني لها، والمعتزلة قالوا له معاني، لكن معنىٰ اليد النعمة، والوجه الإحسان، والغضب الانتقام، فعطلوا الله عَزَّوَجَلَّ من صفاته بعد أن حرفوها عن دلالتها.

❁ **والمعنىٰ العام**: لقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أنها تشمل جميع المبتدعة، ثم الزيغ بحسبه، منهم من زيغه مخرج من الملة، كالجهمية والقرامطة ومن إليهم ومنهم من زيغه لا يخرجه من الملة، كالمعتزلة والخوارج تعرف ذلك بالعودة إلىٰ كتب العقائد المفصلة لهذا الباب، والله أعلم.

﴿٨﴾ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخبراً عن حال المؤمنين في تضرعهم إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في تثبيتهم علىٰ الدين، وقيل هذا قول الراسخين في العلم ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ﴾ تميل ﴿قُلُوبَنَا﴾ عن الحق فإن زيغ القلوب من الله عَزَّوَجَلَّ، إذ أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، كما صح عن عبد الله بن عمرو، وغيره من صحابة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وإنما يقع لها الزيغ؛ بسبب بعدها عن الحق، وتلبسها ببعض ما يؤدي إلىٰ فساد استقامتها، ومن ذلك تغيير ما جاء به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ** رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **يَعْمَلُ بِهِ، إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، إِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ**» **أخرجه مسلم** (١٧٥٩)، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف:٥].

والدعاء بالثبات سنة نبوية، فإن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**» **أخرجه ابن ماجه**(١٩٩).

وربما قال: «**اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**» **أخرجه مسلم** (٢٦٥٤).

ومن دعاء عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأقره عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فِي أَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ**». أخرجه أحمد (٤٢٥٥).

ومن دعاء أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهم إني أسألك إيمانًا دائمًا**»، ومن دعاء عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**اللهم لا تنزع مني الإيمان بعد إن أعطيتنيه**».

﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ أي: بعد أن وفقتنا، ويسرت لنا سبل العلم والهداية. ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ اعطنا من عندك رحمه عظيمة تثبت بها قلوبنا، وتصلح بها أحوالنا، ويزداد المرء بها حكمة وعلمًا، فسألوه الرحمة المتضمنة لحصول كل خير، واندفاع كل شرٍ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ واسع العطاء والهبات كثير الإحسان، فتوسلوا إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باسمه الوهاب، الذي يهب لعباده ما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿٩﴾ ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ حيث يبعثهم من قبورهم ﴿لِيَوْمٍ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك فيه، فيجازيهم علىٰ أعمالهم حسنها، وسيئها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأعرضوا عن طاعة الرب الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴿لَن تُغْنِيَ﴾ تنفع أو تدفع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ فلن ينتفعون بكثرة مال، ولا بكثرة ولد ﴿مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وإن قلَّ أو كثر، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ الله شَيْئًا**» **متفق عليه** عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإنما ينتفع الإنسان بعمله، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكفار ﴿هُمْ وَقُودُ﴾ حطب ﴿ٱلنَّارِ﴾ يوم القيامة.

﴿١١﴾ وحالهم إن لم يتوبوا من كفرهم: ﴿كَدَأْبِ﴾ كعادة وشأن ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين أهلكوا؛ بسبب كفرهم، وشركهم، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل قوم عاد، وثمود، وقوم نوح،

وغير ذلك ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كفروا، وأعرضوا ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ عاقبهم ﴿ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ شديد البطش، والأخذ، لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

﴿١٢﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المشركين المتمردين علىٰ دين رب العالمين ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ تهزمون في حال حربكم مع المسلمين ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ وبئس الفراش؛ إذ أنه فراش من نار والعياذ بالله .

﴿١٣﴾ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ عبرة بينة وعظة، وعلامة واضحة ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ طائفة المسلمين، وكفار مكة ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ يوم بدر ﴿فِئَةٌ﴾ طائفة ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم أهل الإيمان، والإحسان، يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ يعني: معرضة عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، يقاتلون لتكون كلمة الله هي السفلىٰ ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ قيل بأن المؤمنين يرون الكافرين ضعفيهم، وقيل بأن الكافرين يرون المؤمنين ضعفهيم مع أن عدد المؤمنين كان ثلاثمائة وبضعة عشر، وعدد الكافرين كان قريب من ألف، والله أعلم ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ينصر أولياءه فيعزهم ويمكن لهم مع قلة الوسائل الظاهرة، بهزيمة؛ فهو لرفع درجاتهم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ عظة، ودلالة ﴿لِّأُوْلِى﴾ أصحاب ﴿ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ البصائر التي يبصرون بها الحق من الباطل، حيث نصر الحق وأهله مع قلتهم، وضعفهم.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٤﴾ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يخبر تعالىٰ عما زُين للناس في هذه الدنيا من حب الشهوات، جمع شهوة، وهي ما تدعوا إليه النفس فعن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، وَحُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ**» متفق عليه، والشهوات منها ما أباحه الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].ولكن مع ذلك كثير من الناس ركبوا الشهوات المحرمة، فاستحقوا العذاب الأليم، فما من معصية يرتكبها صاحبها إلا ولها شهوة، فالزنا، واللواط، والخمر، حتىٰ الغيبة، والنميمة، والكذب، وغير ذلك مما يتعاطاه الناس، فإن له شهوة في نفوسهم، ولذلك يحبونه ، ولا يتخلصون منه.

ثم بين الله عَزَّوَجَلَّ عداد الشهوات التي يتعلق بها الناس، ويحبونها، ويتفاوتون في ذلك. فمنهم من يحبها محبة طبيعية، ولا تمنعه من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وامتثال سنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهم من يتجاوز ذلك فيرتكب الحرام، ويترك الحلال، ويقع في الشرك، والبدعة، والمعصية، ويترك التوحيد، والسنة، والطاعة.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وبدأ بذكرهنَّ؛ لأنها من أعظم ملذات الدنيا والآخرة؛ ولأنهن حبائل الشيطان يدخل على الرجال من طريقهن، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَسَعِيدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أَنَّهُمَا حَدَّثَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِي النَّاسِ فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» أخرجه مسلم (٢٧٤١).

۞ ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ إذ بهم الزينة، ومنهم الحفدة، فقد يشغل الإنسان بهم عن طاعة الله كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التغابن:١٥]، ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾ الأموال ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ المضاعفة الكثيرة ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ ذكرهما دون غيرهما؛ لأنهما أصل النقدين.

۞ وأما ما طرأ مما يتعاطاه الناس، من الألماس، وغير ذلك من الأموال، فربما لم يكن يُنتبه لها في ذلك الزمان، وإن انتُبه له فيسمىٰ بالجواهر، ثم إن الذهب، والفضة يتعامل به جميع الناس، أما المجوهرات فهي خاصة ببعضهم.

﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ المعلمة من السيماء، وهي العلامة، وقيل: الراعية ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ من البقر والغنم والإبل ﴿وَٱلْحَرْثِ﴾ حب الزرع ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ متاع يفنىٰ، وحلاله زائل، وعسىٰ أن يسلم العبد من الحساب عليه، وحرامه زائل ويبقىٰ علىٰ العبد المؤاخذة به، كما في حديث عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**» أخرجه الترمذي (٢٤١٧) .

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ المرجع، يرجع المؤمنون إلىٰ جنة عرضها السموات والأرض، فيها من لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

﴿١٥﴾ ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مرغبًا للمؤمنين فيما عنده من الخير: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِخَيْرٍ﴾ بما هو أفضل ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ من زينة الحياة الدنيا وملذاتها، وما فيها من الشهوات ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ للذين راقبوا الله عَزَّوَجَلَّ بامتثال أمره واجتناب نهيه، وفي خلواتهم، وجلواتهم ﴿جَنَّٰتٌ﴾ وجُمعت؛ لأن لكل واحد جنة يجتن بها ويتلذذ فيها، وإلا فهي كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا**» **أخرجه مسلم (٢٩٦) أبي عن موسىٰ الأشعري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا﴾ أي: فيها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥] ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا.

۞وهذا دليل علىٰ أبدية الجنة، وهو عقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ أي: ولهم فيها زوجات بعضهن من الحوريات، وبعضهن من الإنسيات، وفيهن من الجمال، والأخلاق ما الله به عليم ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ منزهات من الحيض، والبول، والقذر، ومن سيء الأقوال، والأفعال، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: يحل عليكم فوق ذلك رضوانه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهذا أعظم نعيم الجنة.

وفي حديث أَبِي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**» متفق عليه.

۞وفيه: إثبات صفة الرضىٰ لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، التي دل علىٰ ثبوتها الكتاب، والسنة، والإجماع.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: مطلع عليهم وعلىٰ أعمالهم وأفعالهم، لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿١٦﴾ وأهل الجنة هم ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أقررنا وصدقنا، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ تجاوز عن سيئاتنا، واسترها ﴿وَقِنَا﴾ أجرنا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

﴿١٧﴾ وهم أيضًا ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾على طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أقدار الله، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أقوالهم، وأفعالهم، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ المطيعين المصلين، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ من أموالهم، في ذلك الزكاة الواجبة، أو الصدقة المستحبة ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ المصلين ﴿بِٱلْأَسْحَارِ﴾ قبل الفجر.

وقيد بالأسحار؛ لأنه وقت ينام فيه الناس، ولا يقوم فيه إلا من أراد الله والدار الآخرة، فيُقيم الليل ثم يستغفر لذنبه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

ويمتثلون قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وقيل: هم الذين يصلون الصبح في جماعة.

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ أي: أخبر الله وبين، وحكم، وكفىٰ به شهيدًا ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ المتفرد بالعبادة، فلا يشركه غيره، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا، مرسلًا. وهذا هو التوحيد الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[النساء:٣٦]، وقال:﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ أي: وشهد الملائكة، أنه لا إله إلا الله ، وشهادة الملائكة بمعنىٰ إقرارهم، وانقيادهم، وإعلامهم أيضا، وقد قال تعالىٰ: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ وكذلك أهل العلم شهدوا أنه لا إله إلا الله ، فهذه أعظم شهادة علىٰ أعظم مشهود، وهذه منقبة للعلماء، حيث قرن الله عَزَّوَجَلَّ شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته.

❖ **وقد اختلف العلماء في المراد بـ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾في هذه الآية.**

فذهب بعضهم إلىٰ أنهم الأنبياء، وذهب بعضهم إلىٰ أنهم المهاجرون والأنصار، وذهب بعضهم إلىٰ أنهم مؤمنوا أهل الكتاب،

● **والصحيح** أن الآية علىٰ عمومها، فكل من نال علمًا كان داخلًا في هذه الشهادة، ويدخل فيها الأنبياء دخولًا أوليًا.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: أنه لا إله إلا الله حال كونه قائمًا بالقسط، وهو العدل، فمع أنه العزيز والقوي القهار إلا أنه حرم الظلم علىٰ نفسه؛ لكمال عدله، كما قال تعالىٰ: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَموا**» **أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ توكيد للكلمة التي وقع عليها الإشهاد ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في ملكه الذي لا يرام جنابه لعظمته، وكبريائه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في فعله، وخلقه، وشرعه.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الصحيح الذي شرعه الله لعباده ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ فهو دين جميع الأنبياء،.

۞ **والإسلام له معنيان عام وخاص:**

● **فالعام**: وهو دين الله الذي يتعبد له به، منذُ آدم، وإلىٰ نهاية الحياة الدنيا.

● **والخاص**: وهو الدين الذي بعث الله به محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» رواه **مسلم (١٥٣)**.

ولا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ من مُتعبد تعبدًا بعد بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا إذا كان علىٰ الإسلام الخالص الذي بني علىٰ خمس أركان ظاهرة: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا

رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا.

وعلىٰ ستة أركان باطنة وهي: الإيمان بالله ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ومن أركانه العظام: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وتسمىٰ عند أهل العلم: بمراتب الدين، دل عليها حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أخرجه مسلم عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ» قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟ قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: الله وَرسوله أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ».**

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ﴾ تفرق ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارىٰ، فتفرقوا وتحزبوا ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فما أخذوا بالعلم ولا عظموه، ولكنهم بغوا، واختلفوا، وتنافسوا من أجل الدنيا، فحصل الخلاف، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخبراً عن سبب ضلالهم: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ**

عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»، فالخلاف شر، لاسيما بعد وجود الحجج القويمة، التي ينبغي أن يعمل بها العباد.

وأصل الفُرقة جاء منهم، حتىٰ أن المسلمين تابعوهم، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ قُلْنَا: يَا رسول الله ، الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ؟»** متفق عليه.

والبغي: هو مجاوزة الحد في الشيء، ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ الله تعالى لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ؛ مِثْلُ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**» أخرجه ابن ماجه (٤٢١١) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعرض عنها، وعن الاستقامة عليها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾ يجازيه علىٰ سوء عمله إذا لقيه.

﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥﴾.

٢٠ ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ﴾ أي: أهل الكتاب خاصموك وجادلوك في دينك وما أنت عليه من الحق ﴿فَقُلۡ﴾ لهم ﴿أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ استسلمت لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، وانقدت له بالطاعة: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أيضًا استسلم لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، ﴿وَقُل﴾ يا محمد: ﴿لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اليهود والنصارىٰ ﴿وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ يعني العرب: ﴿ءَأَسۡلَمۡتُمۡ﴾

أدخلتم في دين الله عَزَّوَجَلَّ، واستسلمتم له ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ أي: وفقوا لكل هدىٰ ورشاد، فعن عَبْدِ الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ**» رواه مسلم (١٠٥٤)، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا﴾ [البقرة:١٣٧]. ﴿وَّإِن تَوَلَّوا﴾ أدبروا وأعرضوا عن دين الله، وعن الدخول فيه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[الغاشية:٢١-٢٢]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلىٰ:٩] وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[البقرة:٢٧٢] . ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: مطلع علىٰ أعمالهم، علىٰ ظاهرها وخفيها، فيجازيهم يوم القيامة عليها.

۝٢١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية سواءً كانوا من اليهود والنصارىٰ، أو مشركي العرب ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والمراد بهم هنا قتلة الأنبياء من بني إسرائيل، لاسيما اليهود، كما قال تعالىٰ: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة:٨٧] ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظلمًا، وعدونًا.

۞ وليس معنىٰ ذلك أن هناك مسوغ لقتل الأنبياء، ولكن يسمي العلماء هذا صفة كاشفة، بمعنىٰ أنه لا يمكن أن يقتل نبي بحق، فإن الأنبياء علىٰ دين رب العالمين، إليه داعين، وبه متمسكين.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لم يكتفوا بقتل الأنبياء، وهم ذروة الصالحين، بل زادوا إلىٰ ذلك أنهم تجرأوا إلىٰ كل من أمر بالقسط، ودعا إليه ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ موجع يوم القيامة.

۝٢٢ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين اتصفوا بهذه الصفات هم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ ذهبت ﴿أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ بسبب كفرهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. فيأتون يوم القيامة ولا حسنات لهم، وإنما يحملون الأوزار الثقال ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ما لهم من مدافع، ولا ولي.

(٢٣) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ والمراد بهم اليهود والنصارىٰ، ومع ذلك كانوا كافرين، مخالفين لدين رب العالمين، ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ فيما اختلفوا فيه من كتبهم التي غيروها وبدلوها، ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يعرض﴿فَرِيقٌ﴾ طائفة ﴿مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

(٢٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ والسبب في إعراضهم؛ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهذا من سيء قولهم؛ إذ يقولون علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ غير الحق، ويقولون الباطل، ويزعمون أنهم أهل الهدىٰ، إلا أنهم في الجملة اعترفوا أنهم سيدخلون النار علىٰ مخالفتهم، والصحيح الذي لا غيره في شرعنا: أنهم يخلدون في نار جهنم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ [البينة:٦] حين زعموا ذلك، ومن أسباب إعراضهم قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ خدعهم، وأطمعهم ﴿فِى دِينِهِم﴾ الباطل ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

(٢٥) ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ﴾ القيامة الذي ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾، لا شك فيه، فيجازىٰ الناس علىٰ أعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر ﴿وَوُفِّيَتْ﴾ اعطيت ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من أعمالها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥﴾؛ لأن الله ليس بظلام للعبيد.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾.

(٢٦) يذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هاتين الآيتين بيان عموم كماله، فيقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿قُلِ﴾ يا محمد وادعو بهذا الدعاء ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾، كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١] فله ملك السماوات والأرض، لا يعزب عنه شيء. ﴿تُؤْتِى﴾ تعطي ﴿ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ سواءً كان الملك المتعلق برئاسة الدول، وغير ذلك، أو المراد به ما هو دونه من ملك الأبناء،

والزوجات، والبيوت، والعقار، فالذي يؤتي ذلك كله هو الله عَزَّوَجَلَّ، ومشيئته علىٰ مقتضىٰ حكمته، فرب إنسان إذا أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ، ووسع عليه فسد، ورب آخر يضيق الله عَزَّوَجَلَّ عليه فيصلح.

﴿وَتَنزِعُ﴾ تسلب ﴿ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ وتعيده إلىٰ الفقر، والحاجة﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ وأعظم العز أن يكون بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقين:٨]. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ وكل ذلك بحكمتك العز والذل، وأعظم الذل ما كان بمعصية الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة:٢٠]، وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَجُعِلَتِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» أخرجه أحمد (٥١١٤).﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ كله، كقوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فالكون، وما فيه تحت تصرف الله عَزَّوَجَلَّ خلقًا، وإيجادًا، وملكًا، وتصرفًا ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزك، ولا يُكْرِثكَ شيء.

﴿٢٧﴾ ومن مظاهر قدرتك أنك ﴿تُولِجُ﴾ **تدخل** ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ وهذا من أوصاف الله عَزَّوَجَلَّ البالغات، وآياته العظيمات الواضحات التي تدل علىٰ عموم كماله، ومن كمال قدرته أنه يدخل الليل في النهار، ﴿وَتُولِجُ﴾ تدخل ﴿ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فإن أول الليل مختلط فيه النور والظلمة، وآخر الليل يختلط فيه الظلمة والنور، ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ **سواءً علىٰ التفسير الخاص**: أنه يخرج المهتدي من الضال، والمؤمن من الكافر.

أو علىٰ التفسير العام: وهو أنه ينبت الأرض بعد موتها، أو يخرج الفرخ الحي من البيضة الموات، إلىٰ غير ذلك. ﴿وَتَرْزُقُ﴾ تعطي ﴿مَن تَشَآءُ﴾ رزقًا واسعًا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهو تعالىٰ فعال لما يريد، ففيها أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا رزقك، ووسع عليك فلا راد لرزقه، ولا معقب لقضائه، ويرزقك ما يعجز العباد عن تحصيله.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٨﴾ ينهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عباده عن اتخاذ الكافرين أولياء فقال: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ نظراء ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يوالونهم؛ ويحبونهم وينصرونهم بل ينبغي أن تكون المحبة والنصرة للمؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ موالاة الكفار ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ فقد برئ من الله ، وبرئ الله **منه**، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة:٥١].

والمعنىٰ: أنه ليس معه دين يدين عليه، وإنما هو إليهم أقرب؛ إذ أنه أحب نصرة دينهم، وما هم عليه من الباطل الصرف.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ التقية، بحيث يظهر شيئًا يتقي شرهم به.

والمعنىٰ: إلا أن تفعلوا ذلك ظاهرًا لا باطنًا، وهذا حيث يتسلط الكفار علىٰ المسلمين ويقع منهم الظهور عليهم، وربما كان المسلم بين أظهرهم، فإذا ما تميز بدينه قتلوه أو عذبوه وسجنوه، فلا بأس أن يُظهر لهم من السلام والكلام، ونحو ذلك، وهو غير مطمئن إليهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ :﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [النحل:١٠٦].﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾ يخوفكم ﴿ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فخافوه ولا تتعرضوا لغضبه، فهو ذو

البطش الشديد، وهو الفعال لما يريد، فينبغي أن يكون المسلم خائفًا وجلًا منه حتىٰ لا يأتيه علىٰ غرة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: الرجوع، والمآب.

۞ وفيه: إثبات صفة النفس لله عَزَّوَجَلَّ، وقد اختلف العلماء، هل النفس هي الذات أم صفة من صفات الذات، والذي يظهر أنها الذات المتصفة بالصفات، وأما المعتزلة فينكرون النفس، وغيرها من الصفات.

٢٩ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِن تُخْفُواْ﴾ تكتموا ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم من محبة الكفار وغيره، ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ تظهروه ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ يعلم سركم وجهركم فهو بكل شيء عليم، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا لبيان عموم علمه الذي لا يعزب عنه شيء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا تفوتونه إن بقيتم علىٰ هذا الباطل.

٣٠ **واذكر:** ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وهذا يوم القيامة يعرض علىٰ الإنسان مثاقيل الذر، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨]. وكل من ألفاظ العموم، فيشمل جميع المكلفين من الجن والإنس ﴿مَا﴾ الذي ﴿عَمِلَتْ﴾ في دنياها ﴿مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ مشاهدًا بين أيديها ترىٰ بركته وفضله وتفرح به ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ أي: تجد أيضًا ما عملت من شر و﴿تَوَدُّ﴾ **تتمنىٰ** ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ مسافة بعيدة، ومكانًا بعيدًا لا يلتقيان، وهيهات، فإن الإنسان بعمله لا يجاوزه إلىٰ غيره، ومما يدل علىٰ ذلك قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قَالَ: قُلْنَا: الله وَرسولهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فعنكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**» رواه مسلم (٢٩٦٩).

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ كما تقدم، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ يتجاوز عن سيئاتهم وزلاتهم، ويبارك في حسناتهم ويرفع درجاتهم.

﴿٣١﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ كما تدعون. ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ أي: اتبعوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ دينه وملته، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:٣] وهذا كقوله: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أن من أسباب محبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ التمسك بالكتاب والسنة ظاهرًا وباطنًا واتباع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾ من لوازم محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد أن يغفر ذنبه، ويستر عيبه، وييسر أمره ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لمن تاب من عباده ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم.

۞ وهذه الآية من أرجىٰ الآيات عند أهل السنة والجماعة؛ إذ أن أغلب من يخالف السنة يدعي محبة الله، لكن الواقع كما قيل:

وَكُلٌّ يَدَّعِي وَصْلًا لِلَيْلَىٰ ... وَلَيْلَىٰ لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَا

فمن ادعىٰ أنه محب لله فانظر إلىٰ ظاهره في عبادته، فإن كان علىٰ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كما قال فيما نرجوا، وإن كان مخالفًا لسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي دعوىٰ بغير برهان، وقد ادعىٰ اليهود بأنهم أبناء الله وأحباؤه، دعوىٰ بدون برهان فلم ينتفعوا بها، وهكذا قالوا: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١]. وكانت دعوىٰ بدون برهان فما انتفعوا بها.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(٢/٣٩): "هذه الآية، حاكمة علىٰ كل من ادّعىٰ محبة الله - وليس هو علىٰ الطريقة المحمدية - بأنه كاذب في دعواه، حتىٰ يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله، وأفعاله، وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» " .اهـ.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد إن كنتم كما تدعون محبة الله ، ومحبة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ ربكم، وخالقكم، ورازقكم، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي بلغكم دين ربكم. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن طاعة الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

وفي البخاري (٧٢٨٠): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قَالُوا: يَا رسول الله ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**».

وفي البخاري (٧٢٨١): من حديث جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «**جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا: إِنَّ لِصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً، وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ. فَقَالُوا: أَوِّلُوهَا لَهُ يَفْقَهْهَا. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ. فَقَالُوا: فَالدَّارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ عَصَى الله، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ**» وفي لفظ: «**فَرّقَ بَيْنَ النَّاسِ**».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

هذا بيان من الله عَزَّوَجَلَّ، في شأن ما يتعلق باصطفائه، واختياره لأنبيائه ورسله كما قال تعالىٰ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص:٦٨] ،فليست النبوة، والرسالة بالمكتسبة، وإنما هي اختيار الله عَزَّوَجَلَّ.

عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» رواه مسلم (٢٢٧٦).

ولابن القيم في مقدمة كتابه "زاد المعاد" كلام نفيس في هذه المسألة، فما صليت؛ إلا لأن الله وفقك لذلك، وما طلبت العلم؛ إلا لأن الله اختارك لذلك، فينبغي للإنسان أن يشكر الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ نعمه.

﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، واجتبىٰ ﴿ءَادَمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو البشر خلقه الله بيده، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، فاصطفاهم لطاعته، ومرضاته، ونبوته ﴿وَنُوحًا﴾ وهو أبو البشرية الثاني ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ويدخل فيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويدخل فيهم موسىٰ، وهارون، ومن إليهم.

﴿٣٤﴾ ﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّجعل المتأخر ولدًا للمتقدم، فآدم أبو البشرية أجمع، ونوح أبوهم الثاني، وإبراهيم أبو الأنبياء الثالث، وهكذا ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم، حيث اصطفاهم علىٰ كثير من الناس، كما قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿٣٥﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ﴾ زوجة ﴿عِمْرَٰنَ﴾ وليس هو بوالد موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ﴾ أوجبت ﴿لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ من الحمل ﴿مُحَرَّرًا﴾ من الأعمال وغيرها؛ ليكون متفرغًا عتيقًا خالصًا لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ هذا النذر، فالنذور، والعبادات، والصلوات لا تكون نافعة إلا إذا تقبلها الله عَزَّوَجَلَّ، والشرط ما قاله الله : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٦]، وليس القصد العمل المجرد، فكم من عامل في هذه الدنيا بما

صورته الطاعة، فلا يقبل إلا ما كان خالصًا لله موافقًا لهدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لدعائي. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بنذري.

﴿٣٦﴾ ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أي: أنثىٰ، وكانت ترجوها ذكرًا ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وحال الأنثىٰ في الضعف معلوم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾.

وفي قراءة بضم التاء ﴿وَضَعْتُ﴾ والمعنىٰ متقارب، وهي إذ تخبر بقولها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ لا تريد مجرد الإخبار، ولكن تريد الاعتذار، والمعنىٰ: رب رجوتك أن يكون ولدًا متقبلًا طائعًا، فكانت أنثىٰ فسيصيبها من القصور فتجاوز عني.

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ في القوة والخلقة، وغير ذلك، وهذه آية عامة في جميع الشؤون، فليس الذكر كالأنثىٰ، فإن الذكر أكمل، وفي الجملة أفضل من الأنثىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء:٣٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ولهذا كانت أعمال الأنثىٰ علىٰ قدرها، من تربية أولادها، والقيام بشأن زوجها، ولم تكلف بإدارة الأمة، فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً**» **أخرجه البخاري (٤٤٢٥)**.

۞ وهذه الآية ردٌّ علىٰ دعاة المساواة بين الرجال والنساء، في دعوة ماسونية تخالف الكتاب والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة السليمة، وقد وجدت لها رواجًا؛ بسبب البعد عن الدين والجهل به، والله المستعان.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ويقال لها عند النصارىٰ: ماري، وربما قالوا: مارية. ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا﴾ أجيرها ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أن ينالها بسوء، وفي الصحيحين: قالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾**».

۞ وفيه: أن الشيطان حريص علىٰ أذية الإنسان، ولا سلامة من أذاه إلا بالاستعاذة بالله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأعراف: ٢٠٠].

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أي: قبل ورضىٰ مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ من أمها (حنة) ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٖ﴾ بأحسن قبول، ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ جعلها شكلًا مليحًا، ومنظرًا بهيجًا، ونشأت علىٰ الطاعة والتوحيد والاستقامة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ضمها إليه في مكان عبادته، وقام عليها وهو نبيٌّ كريم، وفي بيت كريم؛ إذ أن زكريا كان متزوجًا لأختها، وفي حديث الإسراء: «**ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ** عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، **فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنَيِ الْخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا**» متفق عليه.

وبلغت مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ في العبادة والصلاح مبلغًا عظيمًا، حتىٰ أن الله ساق لها أرزاقها إلىٰ محرابها وكان الحال ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ مكان الطاعة، وليس هو ما يصنعه الناس في مقدمة المساجد بما يسمىٰ بالطاق، فإن هذا من البدع المحدثة. ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا﴾ عطاءً من الله عَزَّوَجَلَّ، من مطعومات، وفواكه، وغيرها قالوا وجد فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ﴾ متعجبًا ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿لَكِ هَٰذَاۖ﴾ من أين لك هذا الطعام وليس في موسمه، ووقته ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ رزقها الله إياه؛ كرامة منه وفضل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧﴾.

۞وفيه: فضيلة كفالة الإنسان لغير ابنه يقوم عليه ويعطيه لاسيما إذا كان فقيرًا، فعَنْ سَهْلِ بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى**» متفق عليه.

۞وهنا فائدة وهي أنَّ أغلب ما يجعل الناس يتهالكون في هذه الدنيا، ويرتكبون كثيرًا من المخالفات؛ هو البحث عن الرزق والتوسع فيه، وربما يكون المانع لكثير من طلاب

العلم ومحبي الخير من التفرغ؛ هو الرزق، والتخوف من قلته أو ذهابه، وهذا فهم خاطئ، فإن من أعظم أسباب الرزق التفرغ لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ .

فهذه مريم بنت عمران عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ لم تزد علىٰ أن تفرغت لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وإذا برزقها يأتيها وهي في محرابها، حتىٰ تعجب هذا الرسول الله الكريم: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ فكان الجواب القاطع ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وكان البيان الموضح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يوسع له في رزقه سعةً بعيدًا عن الإقتار.

فليطمئن طلاب العلم ومن تفرغ لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ بالرزق الطيب الحلال.

۞ ثم هنا نكته: وهي أن الرزق الذي يأتيهم من الزكوات، ونحو ذلك من التبرعات، يعتبر من الرزق الحلال الطيب، ومما أوجبه الله لهم، إذ أنهم يدخلون في كثير من المصارف التي دلت عليها آية التوبة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة:٦٠] .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٨﴾ لما رأىٰ زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ما لحق مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ من الرزق من حيث لا تحتسب، وأن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض، طمع في الولد فـ﴿هُنَالِكَ﴾ عند ذلك ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ تعالىٰ بالولد وكان سبب محبته للولد أن يهب الله له من يرثه ويرث آل يعقوب النبوة، كما قال عنه تعالىٰ : ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم:٥-٦].

وأما المال فإن الأنبياء لا يُورّثُون ما تركوه فهو صدقة، كما صح عن جمع من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم.

۞وفي هذا فضيلة الدعاء، والرغبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في تفريج الكرب، وقضاء الحاجات، وتيسير المهمات، وكان من دعاء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ لاَ سَهْلَ إلاَّ مَا جَعَلْتَه سَهْلاً، وَأَنْتَ تَجْعَل الْحَزْنَ إذَا شِئْتَ سَهْلاً**» **أخرجه ابن السني(٣٥١) عن أنس** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ وقال: (ربه)، ولم يقل دعا خالقه، ورازقه، ونحو ذلك من الأسماء، مع أن الله يدعىٰ بأسمائه الحسنىٰ، إلا أن اسم (الرب) يدل علىٰ الحفظ، والكلاءة، والمن، وغير ذلك من معاني الربوبية الخاصة، والعامة.

﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي﴾ أعطني ﴿ مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي ولدًا طيبًا مباركًا، كما قال: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦]. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجيبه، كما في حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في صحيح مسلم (٤١١) : «**وَإِذَا قَالَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا:** وهو القائل:﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

﴿٣٩﴾ ﴿ فَنَادَتْهُ﴾ خاطبته ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بالبشارة بالولد، ويعني بالملائكة جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.﴿ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾ أي: في المسجد فبشروه وهو علىٰ طاعة، وقربة، يصلي في مسجده الذي أعده لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ أي: بولد ذكر اسمه (يحيىٰ)، ولم يكن له سميًا من قبل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ [مريم:٧]. وسيكون شأن يحيىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أنه ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ **مؤمنًا** ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ومن حاله أنه مصدقًا لوعد الله ، ومقرًا بكلمة الله التي أوحاها إلىٰ رسله وأنبيائه ﴿وَسَيِّدًا﴾ يسود بني إسرائيل فالسيد الذي يفوق قومه، والسيد حقًا من جمع خصال الخير، وقد يسودهم من ليس كذلك.

۞ فينبغي للسيد أن يكون سليم الصدر ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلًا كما قال بعضهم: **(وليس رئيس القوم من يحمل الحقد)**، فإن هذا وصف مشين لرجل عظيم في قومه،

وأصحابه، وأعوانه، ثم يكون حاقدًا، بل ينبغي أن يتميز بالسماحة، والرفق، والحلم، والتؤدة، والصبر، وقد امتدح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشج عبد القيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله : الْحِلْمُ، وَالْأَنَاةُ**» أخرجه مسلم (٢٥) عن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

﴿وَحَصُورًا﴾ قيل لا يأتي النساء، وقيل محصور علىٰ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، مع قدرته علىٰ النساء لكنه ترك ذلك لله عَزَّوَجَلَّ.﴿ وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ويؤتيه الله عَزَّوَجَلَّ النبوة، فهذه عدة

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿ قَالَ ﴾ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن بشرته الملائكة بالولد ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ كيف يكون ﴿لِي غُلَٰمٌ﴾ ابن ﴿ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ الشيخوخة ﴿ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي: عقيم لا تلد ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: لا يعجزه شيء ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢].

﴿٤١﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ علامة أعلم بها وقت حمل المرأة، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ﴾ تكف عن الكلام ﴿ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إشارة. أي: أنه لا يستطيع أن يتكلم في هذه الثلاثة الأيام بدون بلية لحقت به، أو مرض حل فيه، وإنما هي آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ، فكان إنما يشير إليهم إشارة، ولا بأس أن يعقد لسانه عن الكلام في شأن الناس، ويبقىٰ منطلقا في الكلام في الدعاء والذكر، ونحو ذلك.

۞ وفيه: جواز العمل بالإشارة.

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا ﴾ أي: اشكره علىٰ هذه النعمة العظيمة، وأطعه ﴿ وَسَبِّحْ﴾ بقول سبحان الله ، ويدخل فيه الصلاة وغير ذلك ﴿ بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهو آخر النهار ﴿ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

وهو أول النهار، وهذان وقتان مباركان لذكر الله عَزَّوَجَلَّ. كما قال تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨].

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

هذا شروع في ذكر بشارة مريم بولدهاعَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، وكانت البشارة أولًا باصطفاء مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ علىٰ كثير من نساء العالمين، وهذا كالتوطئة أنها تتقبل ما جاءها به الملك.

وقد جاء في فضلها عن أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**» متفق عليه.

وجاء عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مَرْيَمُ بِنْت عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ**» رواه الترمذي (٣٨٧٨). إلا أن زيادة: «**خديجة وفاطمة رضوان الله عنهن**» قد انتقد علىٰ قتادة، ومع ذلك فمنزلتهن رفيعة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني جبريلعَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: نزهك عن الذنوب وغيرها، وقيل من مسيس الرجال، وقيل من الحيض ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ فضلك ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمي زمانك.

(٤٣) ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: داومي على الطاعة. ﴿وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ هذا أمر بالصلاة مع بقية الطاعات، ويعبر عن الصلاة بالسجود والركوع كثيرًا؛ لأنهما من أظهر أعمال الصلاة.

۞ وفيه: إشارة إلى وجوب التعاون على البر والتقوى من قوله: ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وعلى تعين الجماعة على المكلفين من الرجال.

(٤٤) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم ذكره يا محمد ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ﴾ أخبار ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ الذي لم تطلع عليه أنت، ولا قومك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ نخبرك به. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ يطرحون ﴿أَقْلَٰمَهُمْ﴾ للقرعة ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يضم إليه ﴿مَرْيَمَ﴾ لحضانتها، ورعايتها، وهذا حين ولادتها، وإرسالها إلى من يحضنها. ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يتبادرون المسارعة في حضانة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ.

(٤٥) واذكر ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾، والبشارة غالبًا تكون بالخير، وربما تكون بالشر، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية:٨]. ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وهي: (كُنْ)، وليس عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو الكلمة، وإنما كان بالكلمة.

وقد ضل النصارى، وعبدوا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ بزعمهم أنه الكلمة، التي هي صفة الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما المعنى الصحيح أن خلقه كان بالكلمة التي هي (كُنْ) فكان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وعن عُبَادة بن الصَّامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرسوله، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله، وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**» متفق عليه.

﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ **قيل: لأنه ممسوح القدمين، وقيل: لأنه مسح بالبركة، وقيل: لأنه مسح بالدهن،** وفي الغالب أن النصارىٰ إذا ولد لهم مولود يعمدونه، ويمسحونه بالماء وغيره.

وأما (المسيح الدجال) فسمي بذلك؛ لأنه يمسح الأرض، وقيل: لأن عينيه ممسوحتان، وقيل: غير ذلك، وربما أُطلق عليه **(المسيخ)**.

وفي الجملة فعيسىٰ مسيح الهدىٰ والدجال مسيح الضلالة، ولهذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ مسيح الهدىٰ قاتلًا لمسيح الضلالة.

﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ونسب إلىٰ أمه؛ لأنه لا أب له، وهذا يدل علىٰ أن الله هو الذي سماه بهذا، ويجوز التكني بأبي عيسىٰ، وإن كان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ينهىٰ عن ذلك، ولكن استدل عليه المغيرة ابن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بأن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كناه أبا عيسىٰ.

۞ والناس في هذا الباب: منهم من خلق بغير أب ولا أم، وهو آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ومن وجد بأب ولا أم، ويذكرون فيه حواء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، ومنهم من وجد من أم بلا أب، وهو عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وبقية الناس من أب وأم.

وذهب اليهود إلىٰ أن أباه يوسف النجار، بمعنىٰ: أن مريم ارتكبت الفاحشة، قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون.

۞ **ولهذا غلا الناس في عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من جهتين:**

- الجهة الأولىٰ: غلو النصارىٰ، حيث عبدوه وألهوه، وشركوه بالله عَزَّوَجَلَّ تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.
- والجهة الثانية: غلو اليهود، حيث زعموا أنه ابن زانية، فاحتقروه، وأرادوا قتله، بل هو عندهم في حكم المقتول.

وتوسط أهل الإسلام فاعتقدوا فيه الحق، والصواب من غير إفراط ولا تفريط، فهو عبد الله ورسوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ.

﴿وَجِيهًا﴾ أي: صاحب وجاهه، ومقام وشرف، فكان نبيا كريمًا ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وهذا عند الصالحين ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ له وجاهه أيضًا، ولهذا يأتي إليه الناس؛ للشفاعة عند الله يوم القيامة ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند الله عَزَّوَجَلَّ ، فهو من أولو العزم من الرسل.

﴿٤٦﴾ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ أي: من صفاته أنه يكلم الناس صغيرا كلامًا يُفهم، كما قال تعالىٰ : ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٩ - ٣٣].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، **عَنِ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **قَالَ: لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ.**

وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً، فَكَانَ فِيهَا، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ.

فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي.

فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ.

فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي.

فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ.

فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ.

فَقَالَتْ: اللهمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُومِسَاتِ.

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا.

فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لَأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ، قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ.

قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ، وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ.

فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟.

قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ، فَوَلَدَتْ مِنْكَ.

فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ؟ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ، فَصَلَّى، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ.

وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟.

قَالَ: فُلَانٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ، وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا.

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ، وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ.

فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ.

فَقَالَ: اللهمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ.

قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا.

قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهم لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا.

فَقَالَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ.

فَقَالَتْ: حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ: اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتَ: اللهمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الْأَمَةِ، وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ، سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللهمَّ لَا تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا.

قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللهمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ، وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» أخرجه مسلم(٢٥٥٠).

وممن ذكر أنه تكلم في المهد ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، حديثه في "**المستدرك**" عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند محتمل للتحسين، وكذلك غلام أصحاب الأخدود كما في حديث صهيب عند مسلم، والله أعلم.

﴿وَكَهْلًا﴾ أي: حال كهولته ونزوله لقتل الدجال، ويحكم بشريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ المتعبدين لرب العالمين، والمستجيبين لأمره، والمبتعدين عن نهيه وزجره.

وقد ذهب ابن حزم، ووافقه القرطبي إلىٰ أن مريم ابنة عمران نبيه، ، والصحيح أن ليس من النساء نبيه ولا رسول بل من شروط النبوة: أن يكون حرًا ذكرًا عاقلًا بالغًا سويًا، وغير ذلك مما ذكروه، ومما يدل علىٰ عدم نبوتها؛ أن الله وصفها بالصدّيقة، فلو كانت نبيه لوصفت بأعلىٰ المقامات.

وذهب بعضهم إلىٰ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتزوجها في الآخرة، ولم نر دليلًا يثبت في الباب، والله أعلم.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَتْ﴾ مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ لما جاءتها البشارة بعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ﴾ **يا رب** ﴿أَنَّىٰ﴾ **كيف**. ﴿يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ لا بزواج شرعي، ولا بغير ذلك، فهي عفيفة مطهرة. ﴿قَالَ﴾ لها الملك. ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي قضىٰ ذلك وقدّره.

۞ وتأمل قوله هنا: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، وفي شأن يحيىٰ قال: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأن يحيىٰ لم يقل أحد بأنه غير مخلوق، وأما عيسىٰ فقد زعم النصارىٰ أنه غير مخلوق، وأنه رب، وأنه صفة لله، فلذلك قال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ قاطعًا لذلك القول البائر.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أراد شيئا أن يكون ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾.

۞ وهنا فائدة: وهو قول بعضهم: **(أمره بين الكاف والنون)**، والصحيح **(أن أمره بالكاف والنون)** أو قل **(بعد الكاف والنون)**.

﴿٤٨﴾ ﴿وَ﴾ من فضل الله عليه أنه ﴿يُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتابة، والخط ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ العلم، والفقه ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الكتاب الذي أنزل علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ الكتاب الذي أنزل علىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿٤٩﴾ ﴿وَ﴾ يجعله أيضا ﴿رَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يجدد لهم التوراة، وما أَنْدَرَسَ من دين موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قائلًا لهم .

﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم﴾ أتيتكم ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ حجة، وعلامة علىٰ صدق نبوتي ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ سواءً الآية التي هي الإنجيل، وما حوىٰ من الحكم، والمواعظ، والتذكير، أو الآيات، والعلامات الكونية التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ علامة، ودلالة علىٰ صدق نبوته، ومنها: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ يشكل طيرًا من الطين ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ في الطير الذي صنع من الفخار ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ يطير ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ليس هو الخالق المتصرف، وإنما هو عبد سخر الله له مثل هذا الأمر، ولهذا قال: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره القدري الكوني ﴿وَأُبْرِئُ﴾ أداوي ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي يبصر نهارًا، ولا يبصر بالليل، وقيل العكس، وقيل الأعمش، وقيل الأعمىٰ، وقيل الذي يولد أعمىٰ، **وهو الأظهر**؛ لأنه أبلغ في المعجزة ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ الذي قد تغير جلده. أي: أنه يعافيه بإذن الله .

﴿وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وهل هذا الإحياء مطلق، بحيث أنه يعود الرجل إلىٰ الحياة، والأكل والشرب، والذهاب والإياب، وطول العمر، أم أنه إحياء مقيد، بحيث يقوم ويخبر بما يُسأل عنه ثم يعود إلىٰ حالته؟ هذا الذي يظهر، إحياء مقيد، والله أعلم.

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من طعامكم، أو عشائكم ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ من أقواتكم، مع عدم اطلاعه عليها؛ وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أطلعه علىٰ ذلك.﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: علامة بينة واضحة ﴿لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ منقادين مقرين بشرع الله ووحيه، والواقع أن كثيرًا منهم كفروا وغيروا وبدلوا، والله المستعان.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب علىٰ زمان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار، وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار.

وأما عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فبعث في زمن الأطباء، وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة علىٰ إحياء الجماد، أو علىٰ مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلىٰ يوم التناد؟.

وكذلك محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه الله في زمن الفصحاء، والبلغاء، ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله عَزَّوَجَلَّ، لو اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؛ وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدا". اهـ .

﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مقرر، ومثبت لما أنزله الله عَزَّوَجَلَّ من الأحكام البينات علىٰ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهكذا يصدق الأنبياء بعضهم بعضًا، وينصر بعضهم بعضًا.﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ من اللحوم والشحوم، وما كان قد منع عليهم في شريعة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم إذ أنه قد لحقهم العنت والتعب، بل دخلت عليه الحيلة، حيث جملوا الشحوم، وباعوها، وأكلوا ثمنها، واستحقوا بذلك اللعن والطرد من رحمة الله، فجاء التخفيف في شريعة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ حجة، ودلالة علىٰ صدقي ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ راقبوا ربكم، بامتثال أمره واجتناب نهيه، وأطيعوا رسولكم، فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإن ذلك من دواعي رحمه الله لكم.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ هو ﴿رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ هذا استئناف، ودعوة إلىٰ إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، وفيها معنىٰ لا إله إلا الله .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾ أي: خالقي، ورازقي، ومالكي، ومدبر جميع شأني.﴿وَرَبُّكُمْ﴾ خالقكم، ورازقكم، ومدبر جميع شأنكم ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ أفردوه بالتوحيد، فهو حقه الذي أوجد الخليقة لأجله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وهذه دعوة جميع الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

﴿هَٰذَا﴾ أي: الدعوة إلىٰ التوحيد، وما هو من لوازمه، ﴿صِرَٰطٌ﴾ طريق ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ قويم لا اعوجاج فيه فهو الموصل إلىٰ جنة النعيم، وإلىٰ مرضاة رب العالمين، وقد فسر الله عَزَّوَجَلَّ الصراط المستقيم بقوله: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ٦ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

٥٢ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ﴾ وجد ﴿عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ الإعراض، والمكابرة، والاستمرار علىٰ الكفر، وعدم الانقياد لأمر الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿قَالَ﴾ عند ذلك ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ من ينصرني في تبليغي لدين الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ يُئْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ**» أخرجه أحمد (١٤٤٥٦) عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

وقيل المعنىٰ: من يتبعني في سيري إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والقول الأول أظهر.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: قال أصحابه المحيطون به، المناصرون له ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ .

۞و(**الحواري**): الناصر، وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في شأن الزبير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**» متفق عليه عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ **ربًا** ﴿ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ مستسلمون منقادون لشرع الله وحكمه.

۞ وهذه الآية إحدىٰ الآيات التي تتلىٰ في ركعتي الفجر، كما في حديث ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «**أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ فِي رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ فِي الْأُولَى مِنْهُمَا: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، الْآيَةَ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ. وَفِي الْآخِرَةِ مِنْهُمَا: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾**» رواه مسلم (٧٢٧).

۞ وفي هذه الآيات ما عليه كفرة بني إسرائيل من الإعراض عن دين الله ، مع توافر الآيات البينات، والأدلة الباهرات الدالة علىٰ صدق نبوة أنبيائهم، وسبب ذلك؛ أنهم اختلفوا علىٰ أنبيائهم تكذيبًا وإعراضًا، فابتلاهم الله عَزَّوَجَلَّ بذلك.

وفي هذه الآيات جواز طلب المناصرة؛ لأن الإنسان وحده قد يجد الغربة، وتشتد به الكربة، فلا بأس أن يكون له من يعينه ويستشيره، والأمر لله أولًا وآخرًا؛ ولكن من السنن الكونية أن الإنسان قد يستنصر بغيره فيما يستطيعه ويقدر عليه.

وإلا فأنبياء ورسل الله يعلمون أن النصر من عند الله، ومع ذلك قال لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود:٨٠] وتقدم قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طلب النصرة.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣﴾ ومن قول الحواريين ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ الإنجيل، وهكذا التوراة ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: الذين شهدوا لك بالوحدانية، ولأنبيائك بالرسالة.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: اليهود، ومن إليهم من أعداء عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مكروا لقتله، ولاستئصال دعوته، وكان مكرهم وبال عليهم؛ إذ مكر الله عَزَّوَجَلَّ بهم.﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم فبوَّر صنيعهم، وانجىٰ عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وسلمه منهم.

وصفة المكر من صفات المقابلة، التي تثبت لله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الوجه الذي يليق به.

إذ أن الصفات من حيث هي منقسمة إلىٰ ثلاثة أقسام:

(الأول: صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالعلم والقدرة والإرادة، فهذه تثبت لله عَزَّوَجَلَّ.

(الثاني: صفات نقص من وجه وكمال من وجه، كالكيد والمكر، فهذه تثبت لله في حال كمالها.

(الثالث: صفات نقص مطلق كالعجز، والصمم، والبكم، فهذه ينزه الله عَزَّوَجَلَّ عنها.

ومكر الله عَزَّوَجَلَّ محيط بالكافرين، ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ إذ أنه مطلع علىٰ ظواهر الأمور وبواطنها، ولا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٥٥ واذكر ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ﴾.

۞ فيه إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ ابن مريم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك، وقد أبعد من زعم أن الوفاة هنا الموت، فإن النوم وفاة وليس بموت، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢]،

﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي: إلىٰ السماء، وعيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في السماء الثانية.

۞ وفيها إثبات أن الله عَزَّوَجَلَّ في العلو من قوله: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ مُسَلِّمُك، ومنجيك ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فلا يتمكنون منك، فأخرجه الله عَزَّوَجَلَّ من بينهم.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ آمنوا بك ﴿فَوۡقَ﴾ علا ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ظاهرين ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

۞ ذهب النصارىٰ إلىٰ الاحتجاج بهذه الآية، أن لهم فضلًا ومنزله علىٰ المسلمين، وهيهات أن يكون لهم فضل؛ وهم علىٰ شركهم، وضلالهم، وقد ألف ابن الأمير رسالة في معنىٰ هذه الآية، وخَلَص أن أتباع عيسىٰ هم أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذ أنهم صدّقوا محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وانقادوا للشرع الذي أنزله الله إليه، وصدقوا بعيسىٰ وبآياته.

قال البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قال قتادة، والربيع، والشعبي، ومقاتل، والكلبي: هم أهل الإسلام الذين صدقوه، واتبعوا دينه في التوحيد من أمة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهم فوق الذين كفروا ظاهرين قاهرين بالعزة، والمنعة، والحجة". اهـ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (إغاثة اللهفان ٢/٩٣٠) "فلما كان للنصارىٰ نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلىٰ يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارىٰ كانوا فوق النصارىٰ إلىٰ يوم القيامة". اهـ

وهذا هو القول الصحيح، وليس المراد ظهور النصارىٰ علىٰ المسلمين؛ إذ أن هذا يتناقض مع كثير من الآيات ويتعارض مع حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في ظهور دينه حيث قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:٣٣].

ثم إن النصارىٰ كفار، والوعد إنما هو للمؤمنين، فكيف يقع الظهور للكفار!؟.

ووجه آخر: أن النصارىٰ فوق بقية الأمم الكافرة، إلا أنه في هذه الأزمنة تسلط اليهود علىٰ النصارىٰ، واستخدموهم، واستفادوا منهم، وخدمت النصارىٰ اليهود بما لم يُخدم به اليهود من قبل، فإن النصارىٰ الأُوَل كانوا يقتلون اليهود، حتىٰ أن هرقل حين رأىٰ ملك الختان قد ظهر قال اقتلوا كل يهودي، وهكذا كثير من أمرائهم كانوا يقتلون اليهود، ومن أواخر من ذكر عنه قتل اليهود هتلر، النصراني النازي، حيث ذكر أنه حرقهم في محارق الحديد.

والنصارىٰ من حيث قوة العتاد والعدة، أقوىٰ من اليهود إلا أن اليهود طريقهم مبني علىٰ المكر، والكيد، والخبث، فلذلك لا يظهرون إلا في موطن النفاق، ومثلهم الرافضة لا يظهرون إلا في موطن النفاق، وإذا ظهروا ووجدوا لهم فرصة لا يرقبون في أحد إلا ولا ذمة.

۞ وفي هذه الآية وعد من الله عَزَّوَجَلَّ لتمكين دينه، وإعلاء كلمته، وحفظ أوليائه.

۞ وفيه: أن هذا الدين لا يزال عزيزًا منيعًا إلىٰ أن يرسل الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا من قبل اليمن، وفي رواية من قبل الشام، فلا تدع أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته.

فمهما مكر الماكرون، وكاد الكائدون، وسخر الساخرون، واستهزاء المستهزئون، وخادع المخادعون، فإن كلمة الله هي العليا.

۞وليس من شروط علو الكلمة أن تظهر القوة العسكرية والقوة المادية، ولكن من شروط علو الكلمة، وتمكنها أن الموحدين في كل زمان وإن اختلفت الأماكن يدعون إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، ويعبدونه.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: بعثكم، ونشوركم ﴿فَأَحْكُمُ﴾ أقضي ﴿بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في شأن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وغيره من الاختلافات.

۞ **فالنصارىٰ يعتقدون** أنه قتل وصلب، وأخرج، ورفع بعد ثلاثة أيام.

ويعتقد اليهود: أنهم قتلوه، وتمكنوا منه.

وعقيدة المسلمين: أنه لم يُقتل ولم يُصلب، بل رفعه الله ، كما جاءت بذلك النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية.

وزعم النصارىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ أراد أن يُطهر آدم من خطيئته، فما طهره إلا بهذه الحيلة حيث مكن اليهود من قتل ابنه، ووحيده، تعالىٰ الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

ويزعمون أنه ينزل في آخر الزمان وهو صاحب الخلاص، ونحن نؤمن أنه ينزل في آخر الزمان لكن يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ولا يقبل من أحد جزية، إما الإسلام فينقادون لشرع الله عَزَّوَجَلَّ، وإما القتل.

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: **«الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَإِنِّي أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الْإِسْلَامِ وَيُهْلِكُ الله فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّىٰ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ»** أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٩٢٧٠).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٦﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أعرضوا عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، وأبوا الدخول فيه ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل، والسبي، والجزية، ونحو ذلك ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ في نار جهنم ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم، ويمنعون عذاب الله عنهم بل يقال لهم في النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

﴿٥٧﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين أقروا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نبيًا، ثم طبقوا القول، والاعتقاد بالعمل.﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة مضاعفة كما قال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:١٦٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين المخالفين لدين رب العالمين.

﴿٥٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما تقدم من قصة عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ﴿نَتْلُوهُ﴾ نخبرك به تلاوة جبريل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْأَيَٰتِ﴾ البينات الواضحات ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ المحكم الممنوع من الباطل، وقيل الذكر الحكيم القرآن ذو الحكمة، وقيل الذكر الحكيم ما كان في اللوح المحفوظ، والصحيح أن ما ذكر في القرآن فهو مذكور في اللوح المحفوظ.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ كما أنكم آمنتم بخلق آدم حيث ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فكذلك شأن عيسىٰ حيث خلقه الله بقوله كن فكان.

﴿٦٠﴾ ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فلا يصح سواه ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الشاكين المخالفين.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٦١﴾ ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ جادلك ﴿فِيهِ﴾ في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الوحي الذي تقدم ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْا۟﴾ هَلُمُّوا ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نتضرع في الدعاء، ونَلْتَعِنْ، ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ منا، أو منكم في أمر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

📖 وَكَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما جاء في المستدرك (٤٢١٦) تحقيق العلامة مقبل الوادعي عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَقَالُوا: مَا تَقُولُ فِي عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ؟.

فَقَالَ: «**هُوَ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ وَعَبْدُ اللهِ وَرَسولهُ**».

قَالُوا لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ نُلَاعِنَكَ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ؟.

قَالَ: «**وَذَاكَ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ؟**».

قَالُوا: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَإِذَا شِئْتُمْ**» فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَمَعَ وَلَدَهُ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَقَالَ رَئِيسُهُمْ: لَا تُلَاعِنُوا هَذَا الرَّجُلَ فَو الله لَئِنْ لَاعَنْتُمُوهُ لَيُخْسَفَنَّ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ.

فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُلَاعِنَكَ سُفَهَاؤُنَا، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تُعْفِيَنَا.

قَالَ: «قَدْ أَعْفَيْتُكُمْ» ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَذَابَ قَدْ أَظَلَّ نَجْرَانَ».

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القصص المذكور في القرآن في شأن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ﴾ النبأ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الصدق ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في ملكه.

﴿٦٣﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أعرضوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الكافرين الذين يعبدون غيره فيجازيهم سوء صنيعهم.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ النصارىٰ، ويدخل فيها اليهود﴿تَعَالَوْا﴾ هلموا ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ وهي شهادة أن لا إله إلا الله ﴿سَوَآءٍ﴾ عدل.

۞ وفي قراءة بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ عَدْلٍ نجعلها كالأساس الذي نمشي عليه،﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ حكمًا، وطريقًا نعود إليه ،وفسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهذا معنىٰ لا إله إلا الله، أي: نفرده بالعبادة، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وهذا توكيد للنفي في هذه الكلمة، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تبكيتًا لمن عبد عيسىٰ، وعزير، ويدخل فيها ألا يطيع بعضهم بعضًا في معصية الله ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ اعرضوا عن الكلمة السواء، ولم يعتقدوها، ولم يعملوا بمقتضاها ﴿فَقُولُوا۟﴾ أي: يا محمد، ومن معك من المؤمنين ﴿ٱشْهَدُوا۟﴾ اعلموا يا معاشر اليهود والنصارىٰ ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴿٦٤﴾﴾ مستسلمون منقادون لرب العالمين ظاهرًا وباطنًا.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَخْبَرَهُ مِنْ فِيهِ إِلَى فِيهِ، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا بِالشَّامِ إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ مِنْ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ هِرَقْلَ يَعْنِي عَظِيمَ الرُّومِ، قَالَ: وَكَانَ دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جَاءَ بِهِ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ عَظِيمِ بُصْرَىٰ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَىٰ إِلَىٰ هِرَقْلَ.

فَقَالَ هِرَقْلُ: هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنْ قَوْمِ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟.

قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَدُعِيتُ فِي نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا عَلَىٰ هِرَقْلَ، فَأَجْلَسَنَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا مِنْ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا، فَأَجْلَسُونِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فَقَالَ لَهُ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: وَايْمُ الله ، لَوْلَا مَخَافَةُ أَنْ يُؤْثَرَ عَلَيَّ الْكَذِبُ لَكَذَبْتُ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ.

قَالَ: قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ؟.

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟.

قُلْتُ: لَا.

قَالَ: وَمَنْ يَتَّبِعُهُ؟ أَشْرَافُ النَّاسِ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟.

قَالَ: قُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟.

قَالَ: قُلْتُ: لَا، بَلْ يَزِيدُونَ.

قَالَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ سَخْطَةً لَهُ؟.

قَالَ: قُلْتُ: لَا.

قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟.

قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟.

قَالَ: قُلْتُ: تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا يُصِيبُ مِنَّا وَنُصِيبُ مِنْهُ.

قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟.

قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ صَانِعٌ فِيهَا قَالَ: فَوَ الله مَا أَمْكَنَنِي مِنْ كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ.

قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟

قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ حَسَبِهِ، فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ، فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مَلِكٌ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ، وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ، فَقُلْتَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَهُ سَخْطَةً لَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إِذَا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَزِيدُونَ أَوْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَدْ قَاتَلْتُمُوهُ فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا يَنَالُ مِنْكُمْ وَتَنَالُونَ مِنْهُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا فَقُلْتُ: لَو قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ قُلْتُ رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّلَةِ وَالْعَفَافِ، قَالَ: إِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ فِيهِ حَقًّا فَإِنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ قَالَ: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رسول الله إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ ... الحديث » رواه مسلم (١٧٧٣).

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨ ﴾.

٦٥ يقول الله عَزَّوَجَلَّ رادًا علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ إذ أن كل واحد منهم ادعىٰ أنه أحق بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيره: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ تجادلون ﴿فِيٓ﴾ شأن ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه منكم ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ يعني من بعد زمنه بأعوام مديدة، وقرون عديدة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ بطلان قولكم.

٦٦ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ﴾ جادلتم، وخاصمتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ من أمر موسىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وادعيتم أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ دينكم ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ﴾ من أنه علىٰ دينكم فينبغي أن تعودوا فيه إلىٰ العلم الذي أنزل الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ وهذا نهي عن الجدال بالباطل؛ فإنه يورث الشكوك، وقسوة القلب، ويؤدي إلىٰ غير ذلك من أسباب التنافر، والله المستعان.

۞ وفيه: جواز الجدال بحق وهو المبني علىٰ الدليل من كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

۞ وفيه: أن الدعاوىٰ إن لم تقم عليها بينات أصحابها أدعياء، فهؤلاء حين زعموا أنهم أولىٰ بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غيرهم كبّتهم الله، ورد عليهم دعواهم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٦٧ ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا﴾ موحدًا مائلًا عن الشرك إلىٰ التوحيد.

۞ وأكثر الناس يفسر الحنيف بالمائل، ولو فسر بالموحد فهو تفسير بالإثبات، و التفسير بالإثبات يقدم علىٰ التفسير بالنفي، إلا في مواطن مخصوصة، ومع ذلك لا بأس بذكر القولين بأن الحنيف المائل عن الشرك إلىٰ دين الإسلام، أو الحنيف الموحد الملتزم بدين الإسلام.

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل إنه قد تبرأ منهم براءة عامة، كما قال تعالىٰ : ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] .

﴿٦٨﴾ ﴿إِنَّ أَوْلَى﴾ أحق ﴿ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: من كان علىٰ طريقته موحدًا، مقتفيًا ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ إذ أنه يدعو إلىٰ ما كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، وإفراده بالذكر لتعظيم قدره ومنزلته﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يحفظهم وينصرهم، كما قال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧] .

۞ وهكذا تجد أصحاب الباطل في كل زمن وحين يَدّعون الأحقية بالمصلحين المتقدمين، مع أنهم يخالفونهم في طرقهم، واعتقاداتهم، وتمسكهم بالكتاب والسنة، فكم من الطوائف التي تدعي أنها علىٰ طريقة السلف، وهي في الحقيقة علىٰ طريقة الخلف.

فهاهي المفوضة والأشاعرة، ومن إليهم يعتقدون أن طريقهم هو طريق السلف، مع أن طريق السلف منهم بريء بل هم محرفة علىٰ طريقة محمد بن سعيد بن كُلاب الذين قدموا المعقول زعموا علىٰ المنقول.

۞وفيه: أن أصحاب الباطل يقعون في الباطل عن هوىٰ، وإلا فإنهم يعلمون الحق بدلائله الواضحات وحججه القويمات.

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿وَدَّت﴾ أحبت، وتمنت. ﴿ طَّآئِفَةٌ ﴾ أي: مجموعة. ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ قد يكون من اليهود، أو النصارىٰ ﴿ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ أي: يفتنونكم عن دينكم، ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: أن وبال ذلك وإثمه يعود عليهم، فيتعمقون في الضلالة، وهذا من مكر الله عَزَّوَجَلَّ بهم، ولكنهم لا يشعرون بضلال أنفسهم.

﴿٧٠﴾ ثم قال مكبتًا لهم: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ من وصف محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في التوراة، والإنجيل. ﴿ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ تعلمون صدقها، وقد أخبرتم ببعضها.

﴿٧١﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ﴾ تخلطون. ﴿ ٱلْحَقَّ ﴾ الإسلام. ﴿ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ الشرك بدعوىٰ أن الإسلام كاليهودية والنصرانية، وأن إبراهيم كان يهوديًا، أو نصرانيًا.

۞ **وبهذه الآية تعلم** أن أصل دعوة وحدة الأديان كان من قبل أهل الكتاب.

وقد أخرج ابن أبي حاتم (٣٦٧٤) عن الربيع بن انس رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: " **لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ يَقُولُ لِمَ تَلْبِسُونَ الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِالإِسْلامِ وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ دِينَ اللهِ لا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ غَيْرُ الإِسْلامِ** ". اهـ

فالحذر من هذه الدعوة الكفرية المناقضة للإسلام جملة وتفصيلا، والله المستعان.

﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ ﴾ الذي في التوراة والإنجيل، من وصف محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(٧٢) ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ﴾ أشراف، ورؤساء ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لسفلتهم، واتباعهم ﴿ءَامِنُواْ﴾ أقرّوا ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَجْهَ ٱلنَّهَارِ﴾ أول النهار رياءً، ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ من أجل تشكيكهم في دينهم، فيشعر الإنسان بالهزيمة الداخلية، إذ يقول: لو كان الإسلام حقًا لما ارتد هؤلاء، وهذا من سوء صنيعهم، وسوء ظنهم بالله عَزَّوَجَلَّ ومن تلبيس الشيطان بهم، وإلا فأهل الإسلام علىٰ ثبات من دينهم، لاسيما من خالط بشاشة دينه القلب، وذاق طعم الإيمان وحلاوته.

(٧٣) وقالت هذه الطائفة اليهودية أيضا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ لا تصدقوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ملتكم اليهودية، فتظهرون لهم حقيقة صنيعكم وذلك حتىٰ لا تفتضحوا، ثم جاءت جملة اعتراضية حيث قال الله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ﴾ العلم، والتوفيق هو ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ وتوفيقه، وهذا خبر من الله كالرد عليهم في أمرهم بعدم الإيمان بأهل الإسلام، فأخبر أنه يهدي من يشاء فضلًا، ويضل من يشاء عدلًا.

ثم عاد إلىٰ كلام اليهود والمعنىٰ: قال افعلوا ذلك حتىٰ لـ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ من العلم، ﴿أَوْ﴾ افعلوا ذلك حتىٰ لا ﴿يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: يجادلوكم عن بطلان اليهودية، والنصرانية بشهادة أنفسكم كأن المعنىٰ يقول: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تؤمنوا لأهل الإسلام، ولا تصدقوهم، فبعد ذلك يحتجون علىٰ بطلان دينكم بما ظهر من إيمانكم.

ويجوز أن يكون الخبر عن اليهود قد تم عند قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ كلام الله يثبت به قلوب المؤمنين؛ لئلا يشكوا عند تلبيس اليهود، وتزويرهم في دينهم، يقول: لا تصدقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدقوا أن يؤتىٰ أحد مثل ما أوتيتم من الدين والفضل، ولا تصدقوا أن يحاجوكم في دينكم عند ربكم أو يقدروا علىٰ ذلك فإن الهدىٰ هدىٰ الله، و﴿إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فتكون الآية كلها خطاب الله للمؤمنين عند تلبيس اليهود؛ لئلا يرتابوا. **أفاده البغوي.**

والذي يظهر رجحان القول الأول، وهذا يتكرر في القرآن في مواطن يقع جملة اعتراضية بين الكلام ثم يعود إلىٰ الكلام الذي قد بدأه، وكلها تفاسير للسلف، فمن أراد أن يجعل الكلام كلام اليهود، ومن دعا إلىٰ لبس الحق بالباطل فله معنىٰ، ومن رأىٰ أنه من كلام الله عَزَّوَجَلَّ فله معنىٰ؛ لكن الأقرب في ذلك أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ من المقدم الذي حقه التأخير في المعنىٰ، وذلك من المؤخر الذي حقه التقديم في المعنىٰ، ولله عَزَّوَجَلَّ الحجة الدامغة، والحكمة البالغة.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ﴾ الإسلام، وغيره من الفضل العظيم ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ واسع العطاء، والذات، والصفات، ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن هو أهل للفضل وغيره.

٧٤ ﴿يَخْتَصُّ﴾ يختار ﴿بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ممن علمه أهلًا للهداية ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، ومعنىٰ ذلك، أن من أضله الله عَزَّوَجَلَّ فقد أضله علىٰ علم؛ لأنه ليس أهلًا للهداية، ولم يختصه برحمته لذلك ومن هداه الله عَزَّوَجَلَّ فلعلمه به.

﴿۞وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾.

٧٥ ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال أهل الكتاب من حيث الأمانات، وأنهم ينقسمون إلىٰ قسمين، فمنهم: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ وهو المال الكثير ﴿يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ ؛ لأمانته، ووفاء عهده، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ وهو المال القليل ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾؛ لخسته، وخيانته ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: مطالبًا مشددًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الفعل القبيح منهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب ﴿سَبِيلٌ﴾ عتاب، وذم، أو إثم، وحرج، أو تبعة، أو مطالبة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بدعواهم أن ليس عليهم في الأميين سبيل ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾، فإن الله حرم الأموال إلا بحقها: «**إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**»، بل أن الكافر ماله محترم، إلا إذا أخذ كجزية، أو وقع كغنيمة، أو فيء، أو غير ذلك مما يُعلم في

بابه، وقد كان اليهود يتعدون حكم الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وذلك لفساد دينهم واستقامتهم.

﴿٧٦﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما يقولون، بل عليهم حرج وتبعة، لكن﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ مع الله من الإيمان به، والإيمان برسله، وأوفى بعهده مع الناس، فأدَّىٰ ما عليه كما شرع ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ، فراقبه في السراء، والضراء، وأدىٰ الأمانة واتقىٰ الخيانة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والخيانة من علامات النفاق ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» **متفق عليه.**

وفي حديث عن عبد الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**» **متفق عليه.**

وهذه علامات النفاق العملي، وصاحبها لا يخرج من الإسلام، وإنما فيه تشبه بأهل النفاق والإجرام، فلذلك ينبغي عليك أيها المسلم أن تُنَزِّه نفسك عن كل خلق ذميم، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» **أخرجه أحمد(٨٩٥٢) عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

📖 جَاءَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا:

ما أخرج الشيخان عَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ عَلَيْهَا فَاجِرٌ، لَقِيَ الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**»، فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الْآيَةَ، فَجَاءَ

الْأَشْعَثُ فَقَالَ: مَا حَدَّثَكُمْ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ فِيَّ أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، كَانَتْ لِي بِئْرٌ فِي أَرْضِ ابْنِ عَمٍّ لِي، فَقَالَ لِي: «شُهُودَكَ». قُلْتُ: مَا لِي شُهُودٌ. قَالَ: «فَيَمِينُهُ». قُلْتُ: يَا رسول الله، إِذَنْ يَحْلِفَ، فَذَكَرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْحَدِيثَ، فَأَنْزَلَ الله ذَلِكَ تَصْدِيقًا لَهُ».

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي أَوْفَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ بِالله لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِ لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَنَزَلَتْ:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾» **أخرجه البخاري**(٢٠٨٨).

قال الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ **(الصحيح المسند من أسباب النزول/ص٥٢)** : "ولا منافاة بينهما، ويحمل علىٰ أن النزول كان بالسببين جميعًا، ولفظ الآية أعم من ذلك علىٰ أن حديث عبد الله بن مسعود أصح؛ لأن حديث عبد الله بن أبي أوفىٰ من حديث إبراهيم بن عبدالرحمن السكسكي قال الحافظ الذهبي في الميزان: ليِّنه شعبة، والنسائي ولم يترك. إلي آخر ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقوله في بعض الروايات (في أرض) وفي بعضها (في بئر)، قال الحافظ في الفتح: ويُجمع أن المراد أرض البئر لا جميع الأرض، والبئر من جملتها". اهـ.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ أي: يبيعون، ويستبدلون، ولفظ الشراء من الألفاظ المشتركة. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بوصية الله، و يُراد به اليمين، وقد بوب البخاري في صحيحه: **(باب عهد الله هل يكون يمينًا؟)**. **والصحيح أنه يمين**، وذهب بعض أهل العلم إلىٰ التفصيل وهم الشافعية، وأن الأمر يعود إلىٰ النية.

﴿وَأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: التي يحلفون بها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: عرضًا من أعراض الدنيا، فيأخذونه ظلمًا بالكذب واليمين الفاجرة، وهي اليمين الغموس التي تدع الديار بلاقع. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يستحلون الحرام باليمين الفاجرة ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمْ﴾ لا نصيب لهم، ولا حظ ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تكليم من يَرحمهم، أو أنه في موقف دون موقف، وإلا

فإن الله عَزَّوَجَلَّ يكلم كل مكلفٍ كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥]. وَعَنْ عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ**» متفق عليه.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: نظر رحمه، وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ مُبصِرٌ لكل مُبصَر، لا تخفىٰ عليه خافية، وفي معنىٰ هذه الآية ما جاء في صحيح مسلم (١٠٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ**».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا أَعْطَى، وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ؛ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَاءٍ، فَيَقُولُ الله : الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ**» متفق عليه.

وفي لفظ: «**وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِدُنْيَاهُ، إِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ**».

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يثني عليهم بالجميل، ولا يطهرهم من الذنوب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ موجع.

۞وهذا الوعيد في حق الكافر، وفي حق من أراد الله من المسلمين، إلا أن المسلم مآله إلىٰ الجنة بعد أن يهذب، وينقىٰ إن كان قد أراد الله له العذاب؛ إذ أن عقيدة أهل السنة والجماعة أن أصحاب البكائر من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت المشيئة.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًا ۚ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ من أصناف أهل الكتاب الخونة في الأموال، ذكر الخونة في الأديان؛ وذلك أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ما لم يقله، فيحلون الحرام ويحرمون الحلال.

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ من: للتبعيض أي: من أهل الكتاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ أي: طائفة ﴿يَلْوُۥنَ﴾ يميلون ﴿أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: يتكلمون بالكتاب ظاهرًا، ولكنهم يحرفونه باطنًا ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ لتظنوه ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراة، فربما زادوا فيه ونقصوا ﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: ليس من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ولا من شرعه ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كذبًا وافتراء ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بل هو من عند أنفسهم ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يكذبون في هذا القول، وهذا من شدة مخالفتهم للحق وبعدهم عنه.

﴿٧٩﴾ ثم قال عَزَّوَجَلَّ مبينًا أن قولهم في عيسىٰ أو عزير عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ أنه رب مردود عليهم: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ لعيسىٰ، وعزير عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ومن ألّهوه ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾ يعطيه ﴿ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الوحي المنزل الذي تكلم الله عَزَّوَجَلَّ به﴿وَ﴾ يؤتيه ﴿الْحُكْمَ﴾ الحكمة، والسنة ﴿وَ﴾ يؤتيه

﴿النُّبُوَّةَ﴾ وهي الرفعة، حيث جعل الله وسائط بينه وبين الناس ﴿ ثُمَّ يَقُولَ ﴾ هذا النبي المرسل من الله ﴿لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يعني قد اختاره نبيًا ورسوله واصطفاه؛ لعلمه أنه أهل لذلك، ثم يذهب ويقول أنه رب، وأنه يعبد من دون الله ! هذا لا يكون؛ وهذا يخالف العلم، والحكمة الإلهية، ﴿ وَلَٰكِن﴾ قوله لهم ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

و(الرَّبَّانِيين) أي: المتعبدين المتنسكين لله عَزَّوَجَلَّ، وقيل الرباني هو: الذي يعلم الناس صغار العلم قبل كباره.

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : **(والربانيون الذين جمعوا مع العلم البصارة بسياسة الناس)** .

وهذا معنىٰ طيب، فكم من إنسان عنده علم، وما عنده بصيرة بسياسة الناس، والناس يحتاجون إلىٰ سياسة؛ حتىٰ يسهل لهم تلقي العلم والأخذ به، لا سيما الجدد في أي فن، فإنه يَتعب ويُتعب، يَتعب حيث يكون ثقيلًا عليه، ويُتعب مدرسه.

﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ﴾ تُدَرِّسون ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليكم، وهو الإنجيل هنا ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي: تكتبون، وتقرءون.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ رسول الله ﴿ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ تعبدونهم من دون الله ، فكل رسول يدعو إلىٰ إفراد الله بالعبادة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

فكيف يدعو الناس إلىٰ غير ما أوحاه الله عَزَّوَجَلَّ إليه.

﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ الرسول ﴿بِٱلْكُفْرِ﴾ مخالفة التوحيد ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لله عَزَّوَجَلَّ، فهذا إن صدر من آحاد الناس كان ضالًا مضلًا، فكيف يجوزون صدوره من نبي كريم، ورسول أمين اختاره الله عَزَّوَجَلَّ للدعوة إلىٰ توحيده، ثم إن هذا طعن في جميع الرسالات والنبوات، إذا وقعت الردة من نبي من الأنبياء -وهذا لا يكون- يقول هرقل:

(كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب)، يعني لا يرتد صاحبه، فكيف يجوزون ارتداد الأنبياء، وأنهم يدعون إلىٰ الكفر، وإلىٰ تأليه غير الله عَزَّوَجَلَّ، معاذ الله من هذا القول الساقط.

﴿٨١﴾ ثم قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن حال أنبيائه، وما أخذ عليهم من العهد، والميثاق لمؤازرة، ومناصرة محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذا خرج وهم أحياء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾ عهد ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ﴾ مهما ﴿ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ وبلغ ما بلغ من إتيان الوحي المنزل الذي تكلم الله به، والحكمة هي السنة في قول جماهير أهل العلم ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وهو محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ من التوراة، والإنجيل التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ وهم قد آمنوا به من قبل أن يأتي.

۞ لكن هذا إيمان خاص بمعنىٰ أنهم يؤمنون بشرعته، وبدينه؛ لأن دين محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ناسخ لجميع الأديان بخلاف بقية الرسل، فإنهم كانوا يرسلون إلىٰ قومهم خاصة، فيجوز أن يكون في الأرض أكثر من رسول، أما مع محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فلا يكون إلا رسول واحد مطاع، فعن أَبِي هُرَيْرَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**» أخرجه مسلم(١٥٣).

﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ علىٰ مخالفيه.

۞ **وبهذه الآية** احتج كثير من أهل العلم علىٰ أن الخضر ليس بحي كما يزعم الكثير من الصوفية، والطرقية، ومن إليهم؛ فإن الخضر لو كان حيًا للزمه أن يكون مشاركًا في غزوة بدر وغيرها من الغزوات؛ إذ أن الله أخذ العهد والميثاق علىٰ جميع الأنبياء بذلك.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أيها الأنبياء بهذا العهد، والميثاق الذي أُخذ عليكم ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ العهد الثقيل، والميثاق العظيم، فأجابوا ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ استجبنا، والتزمنا بما أمرتنا به يا رب ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ علىٰ أنفسكم، وأممكم ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ مطلع عليكم، وعلىٰ أممكم.

(٨٢) ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أعرض ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد، والميثاق، وبعد هذه الحقائق البينات ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكافرون المعرضون عن دين رب العالمين.

(٨٣) ثم قال مكبتًا لهم: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام الخالص الذي أوحاه إلىٰ محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿يَبْغُونَ﴾ يطلبون ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ انقاد وخضع ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلائق حيث انقاد لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿طَوْعًا﴾ كحال المؤمنين ﴿وَكَرْهًا﴾ كحال الكافرين ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ فيجازهم بأعمالهم، وإنما يثاب من استجاب لله عَزَّوَجَلَّ طوعًا، وأما من استجاب كرهًا، فإن عبوديته، واستسلامه إنما هو استسلام وعبادة قهر لا يؤجر.

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ (٢/ ٦٩) : "فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع". اهـ.

۞ وفي هذه الآية بيان أن دين الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ سواه، كما قال: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٨٥)﴾.

(٨٤) ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المخالفين ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ ربًا وإلهًا، وبما ثبت له من الأسماء والصفات ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي من الوحي ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ رسول الله الكريم، وإليه ينسب جميع الأنبياء بعده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ ابنه من جهة هاجر، وهو جد محمد رسول اللهصَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ ابنه من جهة سارة، وهو جد بني إسرائيل ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو: إسرائيل ابن إسحاق عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ قيل أبناء يعقوب، وقيل غير ذلك، كما تقدم في تفسير ﴿سورة البقرة﴾.

﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ أي: وآمنا بما أوتي موسىٰ وعيسىٰ،عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿ وَ ﴾ آمنا بما أوتي ﴿ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فنؤمن بهم جميعًا بما علمنا من أسمائهم، وبما لم نعلم ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ منقادون مستسلمون.

﴿٨٥﴾ ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ أي: يدين به، سواءً كانت يهودية، أو نصرانية، أو مجوسية، فإن الله لا يقبلها منه ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ عمل ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ المخلدين في النار، فعن أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، لَا الْيَهُودِيَّةُ، وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ، وَلَا الْمَجُوسِيَّةُ، مَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ**» أخرجه الترمذي (٣٨٩٨).

۞ والمراد بالإسلام هنا: الإسلام الذي أنزله الله علىٰ نبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فمن زاد منه أو نقص فقد ابتغىٰ غير الإسلام بقدر زيادته، ونقصانه.

۞ فالآية بعمومها يستدل بها علىٰ ضلال أهل البدع وغيرهم، وأما بخصوصها فهي فيمن أبىٰ دخول الإسلام بالكلية.

۞ وبها يستدل علىٰ أن الإسلام شرط في قبول الأعمال، فلا يقبل الله من كافر عملًا مهما كان.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

(٨٦) ﴿كَيْفَ﴾ لفظه استفهام، ومعناه: لا ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ أي: بعد أن عرفوا الحق، ثم جحدوه ﴿وَشَهِدُوٓا۟﴾ اقروا، واعلموا ﴿أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ وأنه مبعوث من الله عَزَّوَجَلَّ، ثم كذبوه ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ﴾ القرآن، والسنة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الكافرين؛ لأنهم ليسوا أهلًا للهداية؛ لأن مخالفة شرع الله عَزَّوَجَلَّ حائلة بين العبد، وبين سبيل الهداية.

📖 وَجَاءَ فِي أَسْبَابِ النُّزولِ:

في تفسير ابن جرير(٧٣٦٠) : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ نَدِمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: أرسلوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟.

قال: فنزلت: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ قومه فَأَسْلَمَ».

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أي: من تقدم ذكرهم من الكافرين والمعرضين ﴿جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ المتتابعة في الدنيا والآخرة، المقتضية لطردهم من رحمته ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أيضًا يلعنونهم ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إما بلسان الحال، أو بلسان المقال، أو أن هذا اللعن يكون يوم القيامة حين ينادىٰ: ألا لعنة الله علىٰ الكافرين.

(٨٨) ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في هذا الجزاء، وهذا العذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر:٤٨]، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يؤخر عنهم، بل يجازون به علىٰ الفور.

(٨٩) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ استثنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من تاب قبل موته، قبل الغرغرة، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

۞ فإن التوبة تكون صحيحة إذا استوفت الشروط:

من الإقلاع عن الذنب، والندم، والعزم علىٰ عدم العود، والبيان والإصلاح لمن كان ذنبه بدعة وكفر.

﴿ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ ﴾ من بعد كفرهم ﴿ وَأَصۡلَحُواْ ﴾ أي: أصلحوا دينهم بإخلاصه لله عَزَّوَجَلَّ ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ متجاوز عنهم.

۞ ختم الله الآية بهذين الاسمين العظيمين؛ ليبين أن التوبة تجب ما قبلها، وأنها ماحية لما سبقها من الذنوب السوالف.

﴿٩٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ﴾ هذا إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ عن المتلاعبين بدينهم يؤمنون ثم يكفرون ﴿ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا ﴾ ؛ لأن المعصية والكفر كلما ازداد منها الإنسان ازداد بعده عن الحق ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ ﴾؛ لأنها غير مستوفية للشروط ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ عن الصراط المستقيم، وإلا فمن تاب توبة صادقة نصوحه تاب الله عليه.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (ازْدَادُوا كُفْرًا كُلَّمَا نَزَلَتْ آيَةٌ كَفَرُوا بِهَا، فَازْدَادُوا كُفْرًا).

كما أنها كلما نزلت آية آمن . ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [التوبة:١٢٤].

﴿٩١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ اليهود أو النصارىٰ، ومن إليهم أو غيرهم ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ ﴾ ماتوا حال كفرهم، ولم تقع منهم توبة ﴿ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا ﴾؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يجعل ما لهم من الحسنات هباءً منثورًا؛ ولأنهم ارتكبوا الذنب الأعظم الذي لا يغفره الله بحال ولا تكفره حسنة، كما أن التوحيد لا تهدمه سيئة.

﴿ وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ ﴾ ليسلم من العذاب كما قال تعالىٰ : ﴿ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ ﴾ [المعارج: ١١ - ١٤]، وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسِبُهُ قَالَ -: وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»** متفق عليه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ موجع ﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ يكفون عنهم العذاب.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٩٢ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾.

❁ بعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ما تقدم مما وقع بين رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وبين نصارىٰ نجران، وما لحق ذلك من أحكام، أخبر سُبۡحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن البر لا ينال إلا بإيثار الطاعة علىٰ غيرها، فقال:

٩٢ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ﴾.

❁(البر): الإحسان، وذُكر أنه الجنة، ولكنه أعم، فهو الطاعة الموصلة إلىٰ الجنة، وهو من أعلىٰ درجات الإيمان، وقد يطلق علىٰ التقوىٰ.

﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ وهذه صفة عظيمة؛ لأن المال محبوب إلىٰ النفس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد التزم الصحابة هذا الأمر، ففي الصحيحين عن أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَإِلَى رسولِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ** قَالَ: فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ».

وَعَنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا

وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ»، فَلَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رسول الله، إِنَّ الله تعالىٰ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله ، **فَضَعْهَا يَا رسول** الله **حَيْثُ شِئْتَ**. فَقَالَ: «**بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَائِحٌ**»، -وفي رواية: «**رابح- قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا، وَأَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**»، قَالَ: أَفْعَلُ يَا رسول الله . فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ».

عن أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رسول الله، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «**أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلَا تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، قُلْتَ: لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا. وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ**» متفق عليه.

ويذكرون أن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أعتق ألف عبد، وهذا يدل علىٰ مسارعته في هذا الباب.

وكما قيل:

أنـــــتَ لِلمَـــــالِ إذا أَمْسَـــــكَتَهُ وَإِذا أَنفَقتَـــــهُ فَالمَـــــالُ لَـــــكْ

فكانوا يحبون الإنفاق كما نحب الإمساك، ويفادون الدين بأنفسهم كما نفادي أنفسنا بالدين إلا من رحم الله ، ولذلك أعلىٰ الله شأنهم ورفع درجتهم.

والبر يتحصل عليه بالصدق، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا**» متفق عليه.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ من كثيره، أو قليله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ مطلع، ويجازي عليه بالإحسان في الدنيا والآخرة.

﴿٩٣﴾ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ المباح الذي سخره الله للإنسان ﴿كَانَ حِلًّا﴾ حلالا طيبا ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ حيث حرم لحوم الإبل وألبانها، وهذا التحريم كان ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ علىٰ موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وبين موسىٰ وإبراهيم أعوامًا مديدة، وسنينًا عديدة ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾ أقرأوها﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لتعلموا كذب أنفسكم في مخالفتكم لشرع الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٧٦) :" وَلِهَذَا السِّيَاقِ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ مُنَاسَبَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: أَنْ إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْهِ وَتَرَكَهَا لِلَّهِ، وَكَانَ هَذَا سَائِغًا فِي شَرِيعَتِهِمْ فَلَهُ مُنَاسَبَةٌ بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ فَهَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ عِنْدَنَا، وَهُوَ الْإِنْفَاقُ فِي طَاعَةِ اللهِ مِمَّا يُحِبُّهُ الْعَبْدُ ويشتهيه كما قال تعالى : ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] الآية.

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى، وَاعْتِقَادِهِمُ الْبَاطِلِ فِي الْمَسِيحِ وتبيين زَيْفُ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ وَظُهُورُ الْحَقِّ وَالْيَقِينِ في أمر عيسى وأمه، كيف خَلَقَهُ الله بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَبَعَثَهُ إِلَى بَنِي إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تبارك وتعالى، شَرَعَ فِي الرَّدِّ عَلَى الْيَهُودِ قَبَّحَهُمُ الله تعالىٰ، وَبَيَانِ أَنَّ النَّسْخَ الَّذِي أَنْكَرُوا وُقُوعَهُ، وَجَوَازَهُ قد وقع، فإن الله تعالىٰ قَدْ نَصَّ فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَاةِ أَنَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ، أَبَاحَ الله لَهُ جَمِيعَ دَوَابِّ الْأَرْضِ يَأْكُلُ مِنْهَا، ثُمَّ بَعْدَ هَذَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ لُحْمَانَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا فَاتَّبَعَهُ بَنُوهُ فِي ذَلِكَ، وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى زِيَادَةً عَلَى ذَلِكَ.

وَكَانَ الله عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَذِنَ لِآدَمَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ بَنِيهِ، وَقَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَ التَّسَرِّي عَلَى الزَّوْجَةِ مُبَاحًا فِي شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد فعله إِبْرَاهِيمُ فِي هَاجَرَ لَمَّا تَسَرَّى بِهَا عَلَى سَارَّةَ، وَقَدْ حُرِّمَ مِثْلُ هَذَا فِي التَّوْرَاةِ عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغا، وَقَدْ فَعَلَهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمَعَ بَيْنَ الأختين، ثم حرم عليهم ذلك فِي التَّوْرَاةِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي التوراة عندهم.

وهذا هُوَ النَّسْخُ بِعَيْنِهِ، فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ مَا شَرَعَهُ الله لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِي إِحْلَالِهِ بَعْضَ مَا حَرَّمَ فِي التَّوْرَاةِ، فَمَا بَالُهُمْ لَمْ يَتْبَعُوهُ؟ بَلْ كَذَّبُوهُ وَخَالَفُوهُ؟ وَكَذَلِكَ مَا بَعَثَ الله بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدين الْقَوِيمِ، وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَمِلَّةِ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ، فَمَا بَالُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ؟". اهـ.

٩٤ ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ اختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد إحضار التوراة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون لاسيما إذا كان الكذب بالشرك الأكبر؛ فإنه ظلم أكبر.

٩٥ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾، في أخباره كما أنه صادق في أحكامه ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ﴾ دين وطريقة ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ فإنه كان ﴿حَنِيفًا﴾ موحدا لربه وكان مائلا عن الشرك إلىٰ التوحيد ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩٧﴾.

٩٦ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ للعبادة. ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ في الأرض. ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ أي: مكة، ومن أسمائها (بكة)؛ قيل: لأن الله عَزَّوَجَلَّ يهلك فيها الجبابرة، وقيل من الجمع، وقيل (بكة) لموضع البيت، وقيل للمسجد، وقيل غير ذلك.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رسول الله ، أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ أَوَّلَ؟ قَالَ: «**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى**». قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: «**أَرْبَعُونَ**» ثُمَّ قَالَ: «**حَيْثُمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، وَالْأَرْضُ لَكَ مَسْجِدٌ**» **متفق عليه**.

وهذا –والله أعلم– يحمل علىٰ الوضع الأول الذي أسس بنيانه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبنوه، وقيل الملائكة.

قال الحافظ في الفتح (٦/ ٤٠٨): "قَوْله أَرْبَعُونَ سنة قَالَ بن الْجَوْزِيِّ: فِيهِ إِشْكَالٌ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ بَنَى الْكَعْبَةَ، وَسُلَيْمَانَ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَبَيْنَهُمَا أَكْثَرُ مِنْ أَلْفِ سَنَةٍ انْتَهَى. وَمُسْتَنَدُهُ فِي أَنَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي بَنَى الْمَسْجِدَ الْأَقْصَى مَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ مَرْفُوعًا بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمَّا بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ سَأَلَ الله تعالى خِلَالًا ثَلَاثًا الْحَدِيثَ وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ رَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ أَنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْتَدَأَ بِبِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ أَوْحَى الله إِلَيْهِ إِنِّي لَأَقْضِي بِنَاءَهُ عَلَى يَدِ سُلَيْمَانَ وَفِي الْحَدِيثِ قِصَّةٌ.

قَالَ: وَجَوَابُهُ أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى أَوَّلِ الْبِنَاءِ وَوَضْعِ أَسَاسِ الْمَسْجِدِ وَلَيْسَ إِبْرَاهِيمُ أَوَّلَ مَنْ بَنَى الْكَعْبَةَ، وَلَا سُلَيْمَانُ أَوَّلَ مَنْ بَنَى بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَقَدْ رُوِينَا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ بَنَى الْكَعْبَةَ آدَمُ، ثُمَّ انْتَشَرَ وَلَدُهُ فِي الْأَرْضِ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُمْ قَدْ وَضَعَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ثُمَّ بَنَى إِبْرَاهِيمُ الْكَعْبَةَ بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَكَذَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: إِنَّ الْحَدِيثَ لَا يَدُلُّ عَلَى أَن إِبْرَاهِيم وَسليمَان لما بنيا المسجدين ابتدأا وَضْعَهُمَا لَهُمَا بَلْ ذَلِكَ تَجْدِيدٌ لِمَا كَانَ أسسه غَيرهمَا". اهـ

﴿مُبَارَكًا﴾ أي: أن هذا البيت فيه بركة عظيمة، فالصلاة تضاعف فيه إلىٰ مئة ألف صلاة، وفيه بركة في حرمه إذ دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالبركة فيه، وفيه بركة في ماء زمزم، وبركات في أجر الطواف والسعي، وما يتقرب به الإنسان من الهدي إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي: فيه هداية للعالمين إذ يتعبدون الله عَزَّوَجَلَّ فيه، هذا بصلاة، وهذا بحج وعمرة، وهذا باعتكاف، وغير ذلك.

﴿٩٧﴾ ﴿فِيهِ﴾ أي: البيت العتيق ﴿ءَايَـٰتٌۢ﴾ علامات. ﴿بَيِّنَـٰتٌ﴾ ظاهرات علىٰ أنه من بناء إبراهيم منها مقام إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والصفا، والمروة وغير ذلك ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فسره بعض أهل العلم: بأنه المقام الذي كان إبراهيم يقوم عليه عند البناء، والذي يُصلىٰ عنده بعد الانتهاء من الطواف قال الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

وذهب جمع من أهل العلم: إلىٰ أن هذا مفرد أضيف، فأفاد العموم، فيدخل فيه جميع مقامات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: من الطواف، والسعي، ورمي الجمار، والوقوف بمشعر منىٰ، : ذلك بعرفات، فكل مناسك الحج تعتبر من مقامات إبراهيم.

ولا بأس أن تفسر الآية بعمومها، وخصوصها.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ أي: الحرم ﴿كَانَ ءَامِنًا﴾ بالقدر الشرعي، وأما الكوني فقد يقع من بعض المتمردين ما يقع، كما حصل من القرامطة والحجاج، فإن القرامطة قتلوا وسفكوا الدم، وكسروا الحجر وأخذوه، وكان قائلهم يقول: أين الطيور الأبابيل؟ أين الحجارة من سجيل؟ أما قال ربكم: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ ؟!.

وكان ممن قتل في ذلك اليوم العالم الرباني أبو الفضل الشهيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحب التتبعات علىٰ صحيح مسلم، وحصل منهم من الإلحاد في الحرم ما يندىٰ له جبين كل مسلم، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ أوجب علىٰ أن من دخله أن يُؤمّن، ولا يُتعرض له بسوء، حتىٰ كان الجاهليون إذا أرادوا أن يقتلوا أحدًا ممن استوجب القتل أخذوه إلىٰ الحل.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أوجب الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الناس حق متعلق بالحرم وهو ﴿حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ زيارته في أوقات مخصوصة، وبهيئة معلومة مخصوصة بيَّنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال: «**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» **أخرجه مسلم (١٢٧٩) عن جابر** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ و(السبيل)

١- الزاد. ٢- والراحلة. ٣- وأمن الطريق.

وهذه شروط وجوب الحج علىٰ المكلف، ولو حج من لا زاد له، أو من لا راحلة له، أو حج خائف، صح حجه عن حجة الإسلام.

والحج واجب مرة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ فَقَالَ: «**إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ، قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ**» فَقَالَ رَجُلٌ: فِي كُلِّ عَامٍ؟ فَسَكَتَ عَنْهُ حَتَّىٰ أَعَادَهُ ثَلَاثًا، فَقَالَ: «**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ، مَا قُمْتُمْ بِهَا، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ**

كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالشَّيْءِ فَخُذُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَاجْتَنِبُوهُ» متفق عليه.

وهناك شرط رابع لوجوب الحج علىٰ المرأة: وهو وجود المحرم.

❖ **وهل يجوز أن يحج عنها وهي مستطيعة للركوب إذا لم تجد المحرم؟**

إذا كانت متيقنة أنها لا تجد محرمًا، فلها أن توكل من يحج عنها علىٰ القول الصحيح، وجوز بعض أهل العلم خروجها إذا أمنت الفتنة، ولكن القول الأول أظهر؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أعرض، وجحد هذا الفرض، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

❖ **وقد اختلف أهل العلم في تكفير تارك الحج.**

والصحيح أن من ترك الحج لا عن جحود، وإنما عن تكاسل وبخل أنه لا يخرج من الإسلام، ولكنه ضيع ركنا عظيمًا من أركان الإسلام، والله المستعان.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿٩٨﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من اليهود، والنصارىٰ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تجحدونها، وتردونها ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلع ﴿عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ علىٰ أعمالكم ما ظهر منها، وما خفي.

﴿٩٩﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تمنعون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ من أراد الإيمان، وتوردون عليه الشبه، وأنتم بفعلكم هذا ﴿تَبْغُونَهَا﴾ تطلبونها ﴿عِوَجًا﴾ في

الشرك، والبدعة ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ وأنتم مطلعون، وتعلمون أن ما تدعون إليه باطل ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنه لا تخفىٰ عليه خافية.

﴿١٠٠﴾ ثم قال محذرًا للمسلمين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا﴾ طائفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اليهود، أو النصارىٰ ممن يدعونكم إلىٰ الردىٰ، ويصدونكم عن الهدىٰ سواءً كانت طاعة كلية أو جزئية، فينال المسلم العنت بقدر طاعته لهم، وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»، قُلْنَا: يَا رسول الله ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ؟ قَالَ: «**فَمَنْ**» **متفق عليه.**

﴿يَرُدُّوكُم﴾ يرجعونكم ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ لحصول الردة، وذلك بسبب متابعتهم، فالواجب علىٰ المسلمين أن يتمسكوا بكتاب الله ، وبسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ فهم السلف بعيدًا عن تقليد الكافرين؛ الذي هو سبب للذل والهوان، ولو تأمل العاقل ما وصل إليه المسلمون في هذه الأزمان المتأخرة؛ بسبب تقليد الكافرين، والركون إليهم، والله المستعان.

﴿١٠١﴾ ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ القرآن، والسنة ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يُعلِّم، ويوجه، ويدل، ويرشد، وإن كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات، فقد بقيت سنته مدونة، ومحفوظة، ومشروحة، فما علينا إلا الأخذ بها، والسير عليها ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ يلتجئ إليه، ويستمسك بدينه ﴿فَقَدْ هُدِىَ﴾ وفق ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريق واضح بين، وهو الإسلام، كما فسره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ ﴾.

١٠٢ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي: راقبوه في السراء، والضراء، والشدة، والرخاء، والتزموا أمره، وابتعدوا عن نهيه، وزجره ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ بقدر ما تستطيع، فإن الأدلة كلها في الأوامر تدل علىٰ الاستطاعة ففي الحج قال: «**من استطاع إليه سبيلًا**». وفي الأمر: «**ما أمرتكم فأتوا منه ما استطعتم**».

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يطاع فلا يعصىٰ، وأن يذكر فلا ينسىٰ، وأن يشكر فلا يكفر. وقال بعضهم من الصعب أن يصل الإنسان إلىٰ هذا المعنىٰ إلا أن يشاء الله ، لكن هذه الآية تعود إلىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن:١٦]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ ﴾ [الطلاق:٧]، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ ﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ ﴾ أي: اثبتوا علىٰ الإسلام، ولا يقع عليكم الموت ﴿ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ مخلصون موحدون لرب العالمين.

١٠٣ ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا ﴾ أي: تمسكوا بعهده ودينه، أو بكتاب الله ، وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فعن أبي شريح الخزاعي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ الله عَزَّوَجَلَّ وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**» **أخرجه الطبراني (٤٩١)**.

فمن أخذ بهذا القرآن أخذه إلىٰ الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلىٰ النار؛ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**القرآنُ شافعٌ مُشفَّعٌ، وماحلٌ مُصدَّقٌ، من جعله أمامه قاده إلى الجنَّةِ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النّارِ**» **أخرجه الطبراني(١٠٤٥٠)**.

وفي حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا خَطِيبًا، فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رسول رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ، أَوَّلُهُمَا كِتَابُ الله ، فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَتَمَسَّكُوا بِكِتَابِ الله وَخُذُوا بِهِ. فَحَثَّ عَلَيْهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ الله فِي أَهْلِ بَيْتِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» رواه مسلم (٢٤٠٨) والدارمي وهذا لفظه (٣٣٥٩).

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ من الفرقة والتحزب، كما افترقت اليهود والنصارىٰ، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الله يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلَاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ: أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ» اخرجه مسلم (١٧١٥).

﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: باجتماعكم علىٰ الإسلام بعد ﴿ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ﴾ جمع ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾ حيث كانوا متناحرين، يقتل بعضهم بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا، فألف بين قلوبهم، وهذه منة من الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٣].

﴿ فَأَصْبَحْتُم﴾ صرتم ﴿ بِنِعْمَتِهِۦٓ ﴾ بنعمة الإسلام ﴿إِخْوَٰنًا﴾ متحابين، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات:١٠]. ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا ﴾ طرف ﴿ حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ جاء بالإسلام لكنتم قد قربتم من الهوي إلىٰ النار.

ونعم إن لم يتدارك الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان بالإسلام لكان من أهل هذه الحفيرة ﴿ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: بمبعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الشرعية البينة الواضحة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ فيحصل لكم الهدىٰ بعد الضلال.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ يقول تعالىٰ مُحضضًا هذه الأمة علىٰ الدعوة إلىٰ الخير: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أي: طائفة ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ إلىٰ توحيد الله ، وإفراده بما يجب له، وإلىٰ بقية شعائر الإسلام، فالإسلام خير؛ لقول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ**» متفق عليه. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهو: ما وافق الكتاب والسنة، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهو : ما خالف الكتاب والسنة، وفي مسلم (٤٩)، عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ**».

والأمر بالمعروف درجات، إن عجزت عن أعلاها فلا تعجز عن أدناها، فإن استطعت أن تغير بيدك فيما هو من تحت تصرفك ولا فتنة فيه فافعل، وإن استطعت أن تغير بلسانك فافعل، والتغيير باللسان قد يكون بالتصريح، وقد يكون بالتلميح، وقد يكون مباشرة، وقد يكون بغيرها.

والدعوة إنما تقوم علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة، إلا أنه ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون عالمًا بالمعروف، وعالمًا بالمنكر؛ حتىٰ يعلم ما يأمر به وما ينهىٰ عنه؛ لأن كثيرًا من الناس يفسدون في هذا الباب، لاسيما الخوارج ومن إليهم، فإنهم يخرجون علىٰ المسلمين؛ بدعوىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقتلون المستضعفين، ويقطعون الطرق والسبل.

ومن قواعد المعتزلة الخمسة: "أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"، ومرادهم بذلك الخروج علىٰ جماعة المسلمين.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي تقدم ذكر صفاتهم ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ باجتناب المرهوب، والحصول علىٰ المطلوب.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ﴾ نهي للمسلمين أن يكونوا كاليهود والنصارىٰ الذين ﴿تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ إلىٰ بدع، وأحزاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ العلم البين الواضح، والسبب في ذلك؛ كثرة مسائلهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم، والرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**فَمَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ بَحْبَحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ**» رواه أحمد(١١٤) عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ وفي هذه الآية ذم الخلاف، وأنه سبب للشر.

وَعَنْ عبد الله ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خرج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَىٰ أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ، فَقَالَ: «بِهَذَا أُمِرْتُمْ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ **تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم**» أخرجه ابن ماجه (٨٥) .

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ شديد موجع، وهذا العذاب العظيم يكون في يوم القيامة.

﴿١٠٦﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وجوه أهل الإسلام ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وجوه أهل البدع، والكفران، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: علاها السواد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس:٢٧]. ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: هذا الصنيع الذي لحقكم؛ بسبب كفركم بعد إيمانكم ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ الموجع ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ تتمردون علىٰ شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ والسبب في بياض وجوه أهل الإيمان، وسواد وجوه أهل الشرك والإجرام؛ أن وجوه المؤمنين مستبشره بما لهم من الوعد من الله عَزَّوَجَلَّ، ووجوه الكافرين عابسة لما لهم

من الوعيد من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: ٣٨-٤٢].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي: أهل الإيمان ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ الجنة، ففي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الجنة: «**أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي**» **متفق عليه.**

وفي مسند أحمد (٢٢٢٠٨) عن أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ رَأَىٰ رُءُوسًا مَنْصُوبَةً عَلَىٰ دَرَجِ مَسْجِدِ دِمَشْقَ فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: «كِلَابُ النَّارِ كِلَابُ النَّارِ، ثَلَاثًا، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ خَيْرُ قَتْلَى مَنْ قَتَلُوهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

قُلْتُ لِأَبِي أُمَامَةَ: أَسَمِعْتَهُ مِنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: لَوْ لَمْ أَسْمَعْهُ إِلَّا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا أَوْ سِتًّا أَوْ سَبْعًا مَا حَدَّثْتُكُمْ».

۞ وأما ما أخرجه اللالكائي في "**شرح أصول اعتقاد أهل السنة**(٧٤)" عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه تلا قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ فقال "فأما الذين ابيضت وجوههم، فأهل السنة والجماعة، وأولو العلم، وأما الذين اسودت وجوههم، فأهل البدع والضلالة "

فهو أثر لا يثبت، في سنده مجموعة من الضعفاء، بل ومن أتهم بالكذب كـ(ميسرة بن عبد ربه).

﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ حال كونهم يتنعمون بما أنعم الله عليهم في دار المقام، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الآيات البينات ﴿نَتْلُوهَا﴾ نقرؤها ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق الذي لا يشوبه كذب، وبالوعد الذي لا يشوبه خُلف، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث أمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، ولكنهم أبو إلا الإعراض.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا﴾ الذي ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا﴾ الذي ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما، فالعالم وما فيه ملك الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ في وقوعها من عدمه، فيقع في هذا العلم كل ما قدره الله عَزَّوَجَلَّ من خير أو شر، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

﴿١١٠﴾ ﴿كُنتُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ خير طائفة، وأهل ملة ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغير واحد من أهل العلم إلىٰ أن الآية خاصة بالصحابة رضوان الله عليهم، ولا مانع من أن الصحابة يدخلون فيها دخولًا أوليًا، وغير الصحابة من الصالحين المتابعين يدخلون فيها تبعًا.

وفي فضل هذه الأمة: ما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله**» رواه أحمد (١١٥٨٧).

وعن بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ؛ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ**» أخرجه ابن ماجه (٤٢٨٩).

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ، أَوْ يَدْخُلُ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، لِأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتَرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِيْنَ، لا وَلَكِنَّهَا لِلْمُتَلَوِّثِينَ الْخَطَّاءُونَ**» أخرجه أحمد (٥٤٥٢).

وَعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟**» **قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ:** «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟**» **قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ:** «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ، مَا**

الْمُسْلِمُونَ فِي الْكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ، أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ» متفق عليه.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«نَحْنُ الْآخِرُونَ، وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ أُوتِيَتِ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، ثُمَّ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ الله عَلَيْنَا، هَدَانَا الله لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»** متفق عليه.

و عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ»** متفق عليه.

وفي حديث ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ»**، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بالله ، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: **«مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟»** فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: **«هُمُ الَّذِينَ لَا يَرْقُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ، فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: **«أَنْتَ مِنْهُمْ؟»** ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ: **«ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ»**، فَقَالَ: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»** متفق عليه.

إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصفها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٩] ﴿وَسَطًا﴾ أي عدلًا خيارًا، وقد تقدم حديث أبي

سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ وسبب خيريتكم أنكم ﴿ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ بالتوحيد، فما دونه من المبرات ﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ من الشرك، فما دونه من الخطايا والسيئات ،﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ تقرون به ربًا، وتستجيبون لأمره، وتنتهون عن نهيه وزجره، ويدخل في الإيمان بالله الإيمان بألوهيته، وربوبيته وأسمائه وصفاته، ومن لوازم الإيمان بالله : الإيمان بكتبه، ورسله، وملائكته، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ﴾ أقرَّ، وهو: التصديق مع الانقياد ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارىٰ بربهم، واستجابوا لنبيهم ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ في الدنيا والآخرة، في الدنيا تسلم أموالهم وأنفسهم، وتشملهم أحكام الإسلام، وفي الآخرة يسلمون من العذاب المهين، والخزي العميم، ومع ذلك﴿ مِّنْهُمُ﴾ من أهل الكتاب ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ممن اتبع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ الكافرون، المخالفون، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: **«لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنَ اليَهُودِ، لآمَنَ بِي اليَهُودُ»** أخرجه البخاري (٣٩٤١).

﴿١١١﴾ ثم قال مطمئنا المؤمنين: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ ﴾ أي: الكفار ﴿إِلَّآ أَذًى﴾ فمهما مكر الماكرون، وتخرص المتخرصون، وكذب الكاذبون، فإنهم لن يضروا أهل الإيمان ﴿ إِلَّآ أَذًى﴾ والأذىٰ يحصل، وقد آذوا الله عَزَّوَجَلَّ كما قال تعالىٰ :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب:٥٧] .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»** متفق عليه.

وفي حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ »** متفق عليه .

﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ أي: يتصدرون لقتال المسلمين؛ لاستئصالهم زعموا﴿ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ لما لحقهم من الهزيمة، ولما في قلوبهم من الخوف والجزع ﴿ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

لا يكون لهم نصر، ودولة بحيث يستأصلون المسلمين، وإن كانت لهم بعض الوقائع التي ربما انتصروا فيها.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ﴾ أي: جعلت علىٰ بني إسرائيل ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾، والهوان محيط بهم ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أينما نزلوا، وحلوا، ووجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، فلا سلامة لهم إلا بعهد يكون لهم بأن يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ موادعة ﴿وَبَآءُو﴾ رجعوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ واستحقوا ذلك الغضب؛ بسبب ما هم عليه من الكفر والإجرام، والعداء لأنبياء الله ورسله ﴿وَضُرِبَتْ﴾ جعلت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فقر النفس، وشحها فلا قوام لهم، بل إنهم حقراء، وضعاء ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: سبب الذلة، والمسكنة التي حلت بهم، والغضب الذي لحقهم؛ ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الشرعية ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ المعصومة ، والمحترمة أنفسهم، الذين أمرنا أن نعزرهم، وأن نوقرهم، وإذا بهم يقتلونهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ:﴿فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠]. ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ صفة كاشفة، وليس معناه أن هناك أنبياء يُقتلون بحق، ولكنهم يفعلون ذلك ظلمًا، وعدوانًا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: العقوبة التي لحقتهم، والحال الذي وصلوا إليه ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وأوامر رسله صلوات الله ، وسلامه عليهم ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون الحد في أفعالهم، وأقوالهم، وفي جميع شأنهم.

﴿١١٣﴾ ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ أي: ليس كل أهل الكتاب علىٰ هذا الحد مستحق للغضب، والذلة، والمسكنة، فـ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ هذا من العام الذي يراد به الخصوص، فإن الذين استثنوا في هذه الآية هم من آمن بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وليس معنىٰ ذلك أن من بقي علىٰ كفره يوجد منه هذا الصنف، أبدًا ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة ﴿ قَآئِمَةٌ ﴾ مهتدية مستقيمة لأمر الله ، وأمر رسله ﴿ يَتْلُونَ ﴾ يقرأون ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلون، قيل المراد بها صلاة الليل، وقيل صلاة العشاء، ولا مانع من دلالتها عليهما جميعًا.

❖ **وقد اختلف العلماء في معنىٰ: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ إلىٰ أقوال:**

(**الأول**: ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة وأمة غير قائمة.

(**الثاني**: أن الله لما أخبر بحال المؤمنين ثم بحال الكافرين قال: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً ﴾.

(**الثالث**: أنه قال: ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ووقف، أي لا يستوي المؤمن والكافر، ثم بين أن من أهل الكتاب أمة قائمة، وهم من آمن وأسلم بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ذكرت هذا؛ لأن كثيرًا من الناس يغلطون في معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ لاسيما أصحاب الدعوة إلىٰ وحدة الأديان وحواره بالطرق الغير مرضية، حيث يقولون: قد فرق الله بينهم، وامتدح منهم طائفة.

ويستدل بها كذلك أصحاب منهج الموازنة، الذين يذكرون حسنات المبتدع مع مساوئه، ويقولون: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران:٧٥]، فلا يصلح شرعًا وعقلًا أن تقول: هذا المبتدع الذي أحذركم منه يصوم، ويصلي، ويحج، ويعتمر، وربما حفظ القرآن وله وله وله ... ، ثم تقول: وعنده بدعة كذا، سيقول العامي: أما هذه المخالفة سهلة، فمنهج السلف ذكر سبب جرحه تحذيرًا من شره.

فقد ذكر الله الكفار في كتابه، وذكرهم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسوء، مع أنهم كانوا يُعتِقون، ويتصدقون، وربما يصلون الأرحام، وربما يصدقون الحديث، ويفعلون كثيرًا من الأفاعيل الحسنة، لكن تهدم هذه الأفعال؛ بما هم عليه من الإجرام، والضلال.

والمدح في قوله: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ ليس لمن بقي علىٰ كفره، وإنما لمن أسلم مِنهم؛ لأنه لا يعقل أن يمدح كافر وهو باق علىٰ كفره، أو يأتي ما يجوز للكافر البقاء علىٰ كفره، وإن عمل اليهود والنصارىٰ ما عملوا من الأعمال، وهم يكفرون بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفيدهم ذلك.

ولو قالوا كما تقول طائفة من النصارىٰ: محمد لم يرسل إلىٰ الناس كافة، وإنما أرسل إلىٰ العرب كما كان بنو إسرائيل يرسلون إلىٰ قومهم، لكفروا؛ فمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلىٰ الخلق كافة كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأرسِلْتُ إلى الأحمرِ والأبيضِ**»، وفي رواية: «**أرسِلْتُ إلى النّاسِ كافَّةً**» متفق عليه عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالذي ينبغي أن يقرأ ويكرر كفر اليهود والنصارىٰ؛ لما نرىٰ من دعاوىٰ علماء الضلال في عدم كفرهم.

﴿١١٤﴾ ثم قال في أوصاف المؤمنين منهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، بخلاف من سبقهم، ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ موعدًا، ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ من الدعوة إلىٰ التوحيد فما دونه، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من التحذير من الشرك فما دونه، ﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾ يسابقون ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ المبرات، ممتثلين أمر الله عَزَّوَجَلَّ القائل: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المائدة:٤٨]، وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» أخرجه مسلم(١١٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من تقدم وصفهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في أنفسهم المصلحين لغيرهم.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما أخرج الإمام أحمد (٣٧٦٠) في مسنده عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «أَخَّرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ **قَالَ**: «**أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ الله هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ، قَالَ: وَأُنْزِلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتُ:** ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، حَتَّىٰ بَلَغَ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ ».

(**هذا وقد ورد للآية سبب آخر**: ففي مجمع الزوائد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لما أسلم عبدُ الله بنُ سلامٍ، وثعلبةُ بنُ شعبةَ، وأسدُ بنُ عبيدٍ، ومَن أسلم مِن يهودٍ، فآمنوا، وصدقوا، ورغبوا في الإسلامِ قالت أحبارُ يهودَ أهلُ الكفرِ: ما آمن بمحمدٍ، ولا تبعه إلا شرارُنا، ولو كانوا من خيارِنا ما تركوا دينَ آبائِهم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك من قولِه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾».

قال شيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ في **(أسباب النزول / ٥٤)**: "واختار الإمام أبو جعفر الأول، حيث قال بعد ذكره جملة من الأقوال: غير أن الأولىٰ بتأويل الآية قول من قال عنها بذلك تلاوة القرآن في صلاة العشاء؛ لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب، فوصف الله أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب الذين كفروا بالله ورسله". اهـ.

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟﴾ أي: الأمة لقائمة بأمر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: خير، عظم أو دق، علىٰ أي حال كان ﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾ بل سيجزيهم الله عَزَّوَجَلَّ عليه الجزاء الأوفىٰ، وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ بالمؤمنين فيجازيهم علىٰ أعمالهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾.

١١٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ سواءً كانوا من أهل الكتاب، أو غيرهم ﴿لَن تُغۡنِيَ﴾ تدفع ﴿عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ في الدنيا، ولا في الآخرة ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ بسبب كفرهم ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعذبون، وحالهم كما قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء:٥٦].

١١٧ ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: مثل النفقات التي ينفقها الكفار في الصد عن سبيل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ﴾ السموم الحارة التي تقتل، وقيل التي فيها صوت، أو برد شديد.

وهذا أظهر، فإن هذه الريح إذا أصابت حرث قوم تحرقه كما يعرف ذلك من يسكن الأماكن الجبلية، فإنها إذا جاءت في الشتاء تقضي علىٰ ما يزرعه الناس من الخضروات وغيرها، ولا تكاد ترىٰ شجرة خضراء.

﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ﴾ زرع ﴿قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالكفر، والمعاصي ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُ﴾ أتلفته فهذا مثل لحسناتهم، فإنها تذهب هباءً منثورًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بهذا الصنيع، بحبوط عملهم ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر، والبغي، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل من كافر عملا؛ إذ أن من أعظم شروط قبول العمل: الإسلام، والمتابعة لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: يَا رسول الله! ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**» أخرجه مسلم (٢١٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾.

﴿١١٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ﴾ لكم ﴿بِطَانَةً﴾ خاصة، وتظهرون لهم ما خفي عنهم من شأنكم، تجالسونهم، وتودونهم ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ من اليهود، وممن هو علىٰ شاكلتهم من المنافقين ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يفترون، أو يقصدون أن يوقعوكم في **(الخبال)**، وهو: فساد الدين، ويقع منكم ما يخالف الكتاب والسنة من الشر والفساد.

﴿وَدُّواْ﴾ أحبوا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ما يشق عليكم؛ لشدة بغضهم لكم ﴿قَدْ بَدَتِ﴾ ظهرت ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾ الكرهُ للمسلمين ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ وذلك بما يتلفظون به من الأقوال السيئة، والأفعال المخالفة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ [محمد:٢٩]، وكما قال عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما أسر عبد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه**». ﴿وَمَا تُخْفِى﴾ تكتم ﴿صُدُورُهُمْ﴾ قلوبهم، من الحقد، والغل، والحسد ﴿أَكْبَرُ﴾ مما يظهرونه، فإنه لا يظهر علىٰ الوجه إلا ما قد استوطن القلب ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وضحنا، وجلينا ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ العلامات الدالة علىٰ بغضهم للمؤمنين، وعدم محبتهم لدين الله القويم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تتدبرون، وتتفهمون.

﴿١١٩﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿أُولَآءِ﴾ هؤلاء ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾؛ بسبب ما يظهرون لكم من الإيمان ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾؛ بسبب ما في قلوبهم من الحقد علىٰ الدين وأهله، وهذا تناقض عجيب أن المسلم علىٰ ظاهره يحب الخير للمسلمين، وقد عاملوا هؤلاء بما ظهر منهم،

ولكن الواقع أن المنافقين واليهود لا يحبون المؤمنين ﴿وَتُؤْمِنُونَ﴾ تقرون ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿كُلِّهِۦ﴾ ليس عندكم فيه شك وقيل: تؤمنون بالقرآن، والتوراة، والإنجيل ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ظاهرًا، وهم قد أبطنوا الكفر في صدورهم .

﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ انفردوا مع بعضهم ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ﴾ الأصابع ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من شدة الغضب، والحنق علىٰ المسلمين؛ بسبب ما ينال المسلمين من العز، والشرف ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ بحسرتكم، وحنقكم، وكمدكم، وما في قلوبكم من الغل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مطلع عليها.

﴿١٢٠﴾ ولشدة غيظهم، وبغضهم أنهم: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ﴾ تصبكم ﴿حَسَنَةٌ﴾ خير، ورزق، وصحة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم، ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من نقص مال، أو عدد، أو عدة، أو حصول مرض، أو غير ذلك ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ علىٰ ما ينالكم من الأذىٰ منهم، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ تراقبون الله عَزَّوَجَلَّ في فعلكم، وأمركم ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ لا ينقصكم ﴿كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾، بل إن الضرر يعود عليهم، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق:١٥-١٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ محيط بهم وبأعمالهم، لا تخفىٰ عليه خافية، فيُبوّر مكرهم، ويفسد ما هم قادمون عليه من الشر.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

۞ هذا شروعٌ في ذكر ما يتعلق بغزوة أحد، وكانت في السنة الثالثة من الهجرة في شوال. قال قتادة: لإحدىٰ عشر ليلة خلت من شوال، حيث خرجت قريش للثأر مما حصل لهم في غزوة بدر، فقد قتل منهم سبعون، وأسر سبعون، فخرجوا في ثلاثة آلاف، وكان قائدهم فيها أبو سفيان صخر بن حرب، سيد قريش في حينه.

فيخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حيث خرج بأصحابه يوم بدر، علىٰ قول بعضهم، وذهب سائر المفسرين إلىٰ أنه يوم أحد، وهو الأظهر، فرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حين خرج من بيته إلىٰ أحد، مع أنه كان يرغب أن تكون المعركة في المدينة، فأشار عليه أهل المدينة بالخروج، ثم بعد ذلك ندموا؛ أن عارضوا أمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولكن كان قد لبس لأمته فقال: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا**»، فلما خرجوا إلىٰ العرصة التي أمام أحد وهي عرصة واسعة، جعل الرماة علىٰ جبل صغير وتلة مرتفعة، وأمرهم أن لا يجاوزوها، فتقسيم الجيوش من الأمور المهمة، إلىٰ ميمنة، وميسرة، وقلب، وما يتبع ذلك حتىٰ يقوم كل واحد بما يلزم عليه، ويحمي الثغر الذي هو فيه.

﴿١٢١﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ خرجت أول النهار من المدينة، ﴿تُبَوِّئُ﴾ تنزل، وتوطن ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ﴾ مواطن ميمنة، وميسرة، وقلب استعدادًا ﴿لِلْقِتَالِ﴾ أي:

تضعهم في مواطن القتال كل علىٰ تقسيمه، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم، وأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ فريقان ﴿مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ تجبنا، وتضعفا، وتتخلفا ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ ناصرهما، وحافظهما، وفي المتفق عليه عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾، بَنِي سَلِمَةَ، وَبَنِي حَارِثَةَ، وَمَا أُحِبُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾**».

أن عبد الله بن أبي انخذل بثلث الناس، وهمت بنو سلمة، وبنو حارثة بالانصراف، فعصمهم الله ؛ لما علم في قلوبهم من الصدق والإيمان .

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ يعتمد ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: في حال حربهم، وسلمهم.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ في غزوة بدر، وهذا مما يدل علىٰ أن الآيات في سياقة أحد، فامتن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عباده أن نصرهم بـ(بدر)، وهو موضع بين مكة والمدينة، يبعد عن المدينة قريب مائة وثمانين كيلوا متر، وهو عرصة منبسطة إذ أن الجيوش كانوا يتوخون المكان المنبسط؛ لأنه أسهل لكرهم وفرهم، وكانت في السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، ويأتي ذكرها في تفسير ﴿سورة الأنفال﴾ إن شاء الله .

﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: قلة مستضعفون ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اتقوا الله بامتثال أمره، واجتناب نهيه؛ لعله يقع منكم الشكر، وليس المراد الشكر القولي فقط، بل الشكر بأنواعه القولي، والفعلي، والاعتقادي.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ تَقُولُ﴾يا محمد﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين خرجوا معك لقتال الكفار ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ أليس يكفيكم ﴿أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم﴾ أي: يمددكم، ويعينكم في حربكم بعدد كبير من الملائكة يقاتلون معكم، ويقع به الربط علىٰ قلوبكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ هذا كان في (بدر)، وأما (أُحد) فقد وعدهم الله إن ثبتوا، وصبروا أن يمدهم الله بخمسة آلاف، لكن لم

يتحقق منهم الصبر، ووقعت من بعضهم المخالفة، فلم يكن ما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به؛ لتخلف الشرط.

﴿١٢٥﴾ ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟﴾ حين قتالكم عدوكم في غزوة أحد، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله بطاعته ﴿وَيَأْتُوكُم﴾ المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ من ساعتهم هذه بلا تأخر، أو إبطاء. ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ معلمين هم، وخيلهم، ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا المدد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ بشارة لكم بالنصر، والثبات ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ حين تعلم أن الملائكة تقاتل معهم، ويدافعون عنهم، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ﴾ الظفر، والغلبة للأعداء ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ينصر من يشاء، فهو نعم المولىٰ ونعم النصير. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه، وفي ذاته، فلا يقهر ولا يُغلب. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في فعله وأمره، وهذا النصر الذي حصل في (بدر).

﴿١٢٧﴾ ﴿لِيَقْطَعَ﴾ يهلك ﴿طَرَفًا﴾ طائفة ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يخزيهم، ويغمهم بالهزيمة ﴿فَيَنقَلِبُوا۟﴾ يرجعوا من غزوتهم ﴿خَآئِبِينَ﴾ خاسرين، لم يقع لهم نصر، ولا ظفر، وقد انتصر المسلمون في أول معركة أحد حتىٰ نزل الرماة من أماكنهم، فحصلت المقتلة العظيمة، والجراحات الكثيرة حتىٰ جرح رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وظن الناس أنه قتل علىٰ ما يأتي بيانه إن شاء الله .

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٢٨﴾ وجعل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يدعو علىٰ من ظلم المسلمين فقال الله له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ بل الأمر كله لله عَزَّوَجَلَّ رفعًا، وخفضًا، وإحياءً، وإماتةً، ورزقًا، ومنعًا، وقبولًا، وطردًا، فالأمر له أولًا وآخرًا، وظاهرًا، وباطنًا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن رسول

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا علىٰ قوم ولعنهم، ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الأمر لله؛ إذ أنه قد يتوب عليهم من شركهم إلىٰ الإسلام ﴿أَوْيُعَذِّبَهُمْ﴾؛ بسبب شركهم ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ، مستحقون للعذاب.

📖وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه البخاري (٤٠٦٩): عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: **«اللهم الْعَنْ فُلَانًا، وَفُلَانًا، وَفُلَانًا، بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ»** فَأَنْزَلَ الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾. إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾».

وفي رواية: «**كَانَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ، وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ:** ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾».

وكلهم قد أسلموا.

وأخرج مسلم (٤٠٦٩): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «دَعَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ ثَلَاثِينَ صَبَاحًا، يَدْعُو عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَلِحْيَانَ وَعُصَيَّةَ – عَصَتِ الله وَرسولهُ – قَالَ أَنَسٌ: أَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي الَّذِينَ قُتِلُوا بِبِئْرِ مَعُونَةَ قُرْآنًا قَرَأْنَاهُ حَتَّى نُسِخَ بَعْدُ: **(أَنْ بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَرَضِينَا عَنْهُ)**».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ عَلَى أَحَدٍ، أَوْ يَدْعُوَ لِأَحَدٍ قَنَتَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، فَرُبَّمَا قَالَ: «إِذَا قَالَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ اللهم: رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، اللهم أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ، اللهم اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ، وَاجْعَلْهَا سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ، يَجْهَرُ بِذَلِكَ، وَكَانَ يَقُولُ فِي بَعْضِ صَلَاتِهِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: اللهم اللعن فُلَانًا، وَفُلَانًا، لِأَحْيَاءٍ مِنَ الْعَرَبِ، حَتَّى أَنْزَلَ الله : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الْآيَةَ»** أخرجه البخاري(٤٥٦٠) .

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨/ ٢٢٧): تَقَدَّمَ اسْتِشْكَالُهُ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ وَأَنَّ قِصَّةَ رعل وذكوان كَانَت بعد أُحُدٍ وَنُزُولَ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كَانَ فِي قِصَّةِ أُحُدٍ فَكَيْفَ يَتَأَخَّرُ السَّبَبُ عَنِ النُّزُولِ ثُمَّ ظَهَرَ لِي عِلَّةُ الْخَبَرِ -يعني خبر نزول: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾- وَأَنَّ فِيهِ إِدْرَاجًا وَأَنَّ قَوْلَهُ: حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ مُنْقَطِعٌ مِنْ رِوَايَةِ الزُّهْرِيِّ عَمَّنْ بَلَغَهُ بَيَّنَ ذَلِكَ مُسْلِمٌ فِي رِوَايَةِ يُونُسَ الْمَذْكُورَةِ، فَقَالَ هُنَا قَالَ يَعْنِي الزُّهْرِيَّ، ثُمَّ بَلَغَنَا أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ لَمَّا نَزَلَتْ وَهَذَا الْبَلَاغُ لَا يَصِحُّ لَمَا ذَكَرْتُهُ، وَقَدْ وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ شَيْءٌ آخَرُ لَكِنَّهُ لَا يُنَافِي مَا تَقَدَّمَ بِخِلَافِ قِصَّةِ رِعْلٍ وَذَكْوَانَ فَعِنْدَ أَحْمَدَ وَمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ وَجْهُهُ حَتَّىٰ سَالَ الدَّمُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾الْآيَة.

وَطَرِيق الْجمع بَينه وَبَين حَدِيث بن عُمَرَ: أَنَّهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا عَلَىٰ الْمَذْكُورِينَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي صَلَاتِهِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِي الْأَمْرَيْنِ مَعًا فِيمَا وَقَعَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ الْمَذْكُورِ وَفِيمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ وَذَلِكَ كُلُّهُ فِي أُحُدٍ بِخِلَافِ قِصَّةِ رِعْلٍ وَذَكْوَانَ فَإِنَّهَا أَجْنَبِيَّةٌ وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ قِصَّتَهُمْ كَانَتْ عَقِبَ ذَلِكَ وَتَأَخَّرَ نُزُولُ الْآيَةِ عَنْ سَبَبِهَا قَلِيلًا ثُمَّ نَزَلَتْ فِي جَمِيعِ ذَلِك، وَالله أعلم. اهـ.

۞ وفي هذه الآية رد علىٰ عباد القبور الذين يرفعون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق منزلته، ويدعونه من دون الله ، ويعظمونه تعظيمًا لا يليق به، من حيث إخراجه عن نبوته ورسالته إلىٰ مقام الأُلوهية، وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرسوله**» أخرجه البخاري (٣٤٤٥) عن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

۞ وفيها أنه لا يُجزم لحي بجنة أو نار، حتىٰ يعلم ما يكون من آخر أمره، فإن الذين دعا عليهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسلموا، وحسن إسلامهم.

۞ وفيه: أن أمر التوبة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء أن يقبلها، وذلك إذا استوفت شروطها، وإلا ردها.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: له الملك كله يفعل ما يشاء فـ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ من أهل الإسلام، وأما الكفار فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ علىٰ كفره، وإن كان صاحب الكبيرة من أهل الإسلام، فهو تحت المشيئة إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: متجاوز عن المؤمنين.

﴿١٣٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ الزيادة. ﴿أَضْعَٰفًا﴾ كثيرة. ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾ علىٰ ما أعطيتم من الأموال فأمر الله المؤمنين بالبعد عن الربا، وهو الزيادة في المال في حال التفاضل بين الأصناف الربوية، وما كان من أجل التأخير علىٰ طريقتهم: إما أن تقضي، وإما أن تربي.

وقد يكون أيضًا النسيئة في الربا بحيث تصرف الأصناف الربوية بغير تقابض، والربا أمره عظيم وخطره جليل، لُعن صاحبه، كما تقدم في آخر ﴿سورة البقرة﴾، والحمدلله.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: بامتثال أمره، واجتناب نهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بحصولكم علىٰ المطلوب، وبعدكم عن المرهوب.

﴿١٣١﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أي: اجعلوا بينكم، وبينها، وقاية بالتوحيد، والأعمال الصالحة ﴿ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

۞ دليل علىٰ أنها موجودة الآن، وهو مذهب أهل الحق، فالنار في الأرض السفلىٰ، والجنة سقفها عرش الرحمن علىٰ ما يأتي.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أمره، واجتناب نهيه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وأمر الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو أمر الله، وطاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طاعة لله، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء:٨٠]

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: تتحصل لكم رحمات؛ بسبب امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ وأمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿١٣٣﴾ حث الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآيات المؤمنين علىٰ المسارعة إلىٰ الخيرات: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وهذا كقوله: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [المائدة:٤٨]، وقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا – أَوْ: يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا – يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**» **أخرجه مسلم (١١٨) عن أبي هريرة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وقد امتدح الله أصحاب المسارعة فقال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ إلىٰ الأعمال التي توجب لكم مغفرة الله عَزَّوَجَلَّ لذنوبكم والتجاوز عنها، ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: وسارعوا إلىٰ جنة واسعة ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ وجود الجنة الآن، وهي كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

۞ و المراد بـ(المتقين): الملازمين للطاعات، والمجتنبين للنواهي والسيئات.

﴿١٣٤﴾ ثم قال في وصفهم هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ أموالهم ﴿فِي ٱلسَّرَّآءِ﴾ اليسر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ العسر أي: أنهم ينفقون في حال يسرهم، وعسرهم، وهذه درجة علية، ومنزلة رفيعة.

۞ وحين ذكر النفقة قبل غيرها دل علىٰ أن من أعظم موجبات الجنة الإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ﴾ الحابسين ﴿ٱلْغَيْظَ﴾ الغضب في قلوبهم، مع قدرته علىٰ الانتقام، وفي حديث معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَفِّذَهُ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الخَلاَئِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الحُورِ شَاءَ**» أخرجه الترمذي (٢٠٢١).

وكظم الغيظ يعتبر من أعلىٰ مناقب المسلم، فإنه يدل علىٰ الحلم، وعلىٰ أن الإنسان يملك نفسه عند الغضب، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**» متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَٱلْعَافِينَ﴾ المتجاوزين ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ في إساءتهم إليهم، ويدخل في ذلك العفو عن الأبناء والزوجات، والعفو عن الجيران والأرقاء وغير ذلك، لكن بشرط أن يكون المعفو عنه مستحق للعفو، فإن بعض الناس إذا عفي عنه تمادىٰ في شره، وبعضهم إذا عفي عنه كان ممتنًا للعافي، كما يقال:

إن أنــت أكرمــتَ الكــريمَ ملكتــهُ ... وإن أنــتَ أكرمــتَ اللئــيمَ تمــردَ

وكما قيل:

ومن يصنعْ المعروفَ في غير أهلهِ ... يجــدُ حمــدهُ ذمًــا عليــه وينــدمُ

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المتصفين بمثل هذه الأخلاق.

۞ وفيه إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، والإحسان كلمة جامعة، يدخل فيها جميع أعمال البر من التوحيد فما دونه.

﴿١٣٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أي: ومن صفات المتقين أنهم ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ ما فحش من الذنوب، ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بغيرها من المعاصي والسيئات ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: بالتوبة، والاستغفار ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ ويلزم فيه استغفار الظاهر والباطن، لا يكفي

أن يستغفر بلسانه، وهو لاجٌ بفعله، أو مسرور بقلبه ﴿وَمَن﴾ لا أحد ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ يتجاوز عن السيئات والزلات ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

۞وفي هذا رد علىٰ من يدعو رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من دون الله، فإن هذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة؛ لأن الذي يغفر الذنوب ويتجاوز عنها، ويسترها هو الله عَزَّوَجَلَّ، والذنوب كلمة عامة تدخل فيها الكبائر والصغائر.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ﴾ يقيمون ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ أي: ومن سمات هذا الصنف أنهم لا يستمرون علىٰ المعاصي وإن وقعوا فيها، بل يبادرون بالتوبة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنها معاصي الله عَزَّوَجَلَّ بل إنهم يبادرون إلىٰ الإستغفار والله المستعان.

﴿١٣٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتقون الذين تقدم ذكرهم ووصفهم ﴿جَزَآؤُهُم﴾ ثوابهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر وتجاوز ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لرحمته لهم، وإحسانه إليهم.

۞وذكر اسم الرب دون غيره؛ لأن الرب بمعناه الخاص يدل علىٰ الإكرام، والإحاطة والحفظ، والتجاوز.

﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي: بساتين عظيمة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المتنوعة في المشروبات كما قال تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

۞ وهذا دليل لمذهب أهل السنة علىٰ أبدية الجنة والنار، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة، ومن إليهم.

﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: نعم الأجر أجر المطيعين لرب العالمين. ففي هذه الآيات من الرجاء: والوعد ما تُشحذ به الهمم؛ لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿١٣٧﴾ ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت، وانقضت ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ طرق، ومثلات، ووقائع، فيمن سلف من الأمم المكذبة حيث يستدرجهم الله بالنعم ثم يهلكهم ويدمر عليهم،

كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: ٤٤-٤٥].

﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: للنظر فيما أخبرتم به، ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ نظرة تفكر ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾ آخرة ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من تدميرهم، وجعل الدبرة عليهم، وهذا كثير في القرآن، وفي حوادث الزمان، فقد أُهلك قوم نوح، وعاد، وإرم، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة، وغير ذلك من المكذبين.

١٣٨ ﴿هَٰذَا﴾ أي: القرآن ﴿بَيَانٞ﴾، وإرشاد ﴿لِّلنَّاسِ﴾ عامة إلىٰ طريق الحق التوحيد، فما دونه، ﴿وَهُدٗى﴾ وفيه طريق، وسبيل الفلاح، ودلالة إلىٰ كل خير، ﴿وَمَوۡعِظَةٞ﴾، وفيه زواجر عن اقتراف الكبائر، وترغيب في ملازمة الطاعات، والقربات ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ الذين يجتنبون المنهيات، ويلازمون المأمورات، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [ق: ٣٧]، ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾.

١٣٩ ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ ولا تضعفوا في قتال أعدائكم ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي: لما حصل لكم من الجراحات، ونحوها ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ المنصورون، والغالبون؛ لأنكم تأخذون بكتاب الله، وبسنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونصركم محقق، إما بالغلبة علىٰ الكافرين في الدنيا، وإما

بالرفعة في الآخرة لمن قُتل منكم شهيدًا ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مقرين موقنين بما أخبر الله رب العالمين.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾ يصيبكم ﴿قَرْحٌ﴾ جراحة، وقتل في أحد، بقتل سبعين منكم، وببعض جراحات لحقتكم، كما حصل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد شج رأسه، وكسرت رباعيته، وكسرت البيضة علىٰ رأسه، علىٰ ما يأتي إن شاء الله .

﴿ فَقَدْ مَسَّ﴾ أصاب ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ كفار قريش ﴿ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يوم بدر،﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾ نصرفها، ونعاقبها ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بنصر بعضهم، ثم بهزمتهم أخرىٰ؛ للابتلاء، والاختبار، فيبتلي الله من يشاء بنصر، ويبتلي من يشاء بهزيمة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ علم، وقوع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أيقنوا بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، وامتثلوا لأمره،

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾ يُرفعون الدرجات العلىٰ، والنعيم المقيم.

والقتل في سبيل الله أكمل أنواع الشهادات، وإلا فهناك شهادات أخرىٰ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟ قَالُوا: يَا رسول الله ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذَنْ لَقَلِيلٌ، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رسول الله ؟. قَالَ: مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطَنِ فَهُوَ شَهِيدٌ**» متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**الْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَالْمَطْعُونُ شَهِيدٌ**» أخرجه البخاري(٥٧٣٣).

ثم إن تعجل النصر فيه نقص من الأجور، كما في حديث عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**قَالَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **مَا مِنْ غَازِيَةٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فَتَغْنَمُ، وَتَسْلَمُ إِلَّا كَانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أُجُورِهِمْ، وَمَا مِنْ غَازِيَةٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ تُخْفِقُ، وَتُصَابُ إِلَّا تَمَّ أُجُورُهُمْ**» أخرجه مسلم (١٩٠٦).

فكم من أمر تراه شرًا وفيه خير، فقتل المسلم يعتبر مصيبة علىٰ أهله، ولكن إذا نظرت إلىٰ ما يلحقه من الأجر العظيم يعتبر مثوبة، ورفعة، واصطفاء، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

الكافرين، المعرضين عن دين رب العالمين، وكان سبب هزيمة المسلمين ما سيأتي من مخالفة بعضهم لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿١٤١﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ﴾ يصفي، ويطهر من الذنوب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بهذا الابتلاء؛ ﴿وَيَمْحَقَ﴾ يذهب صنيعهم، ويهلكهم، ويلحقهم الفتنة ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ بسبب كفرهم وبغيهم، والشيء إذا محق لا بركة فيه.

﴿١٤٢﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ ظننتم ﴿أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ بغير ابتلاء أو اختبار، هذا لا يكون، فعن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عن أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْتُ: يَا رسول الله ، **أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»** أخرجه الترمذي (٢٣٩٨).

وقد تقدم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ علم وقوع، وإلا فإن الله بكل شيء عليم ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ بذلوا الجهد في نصرة دين الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الذين صبروا علىٰ قدر الله الشرعي، وقدره الكوني.

❁ وإنك لتعجب حين ترىٰ بعضهم، ما ضُرب، ولا شُتم، ولا لُعن، ولا لحقه شيء من ذلك، غاية ما فيه أن يتنكر له بعضهم بكلمة أو نحو ذلك، وإذا بقلبه يكاد ينفجر من الغيظ، انظر إلىٰ هذه الأمثلة العظيمة التي مرت بسلفك الصالحين، من قتل رجالهم، وترويع نسائهم، وهجر بلدانهم، وقد ابتلوا حتىٰ في صلاتهم.

فعن حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**أَحْصُوا لِي كَمْ يَلْفِظُ الْإِسْلَامَ؟**» قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رسول الله ، أَتَخَافُ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ مَا بَيْنَ السِّتِّمِائَةِ إِلَىٰ السَّبْعِمِائَةٍ؟

قَالَ: «**إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ لَعَلَّكُمْ أَنْ تُبْتَلَوْا**» قَالَ: فَابْتُلِينَا حَتَّىٰ جَعَلَ الرَّجُلُ مِنَّا لَا يُصَلِّي إِلَّا سِرًّا»

أخرجه مسلم (١٤٩).

وقد خرجوا مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليس عليهم قلانس ولا عمائم، ولا قمص، ولا نعال، وأقلنا حالًا معه عدة من القمص، والعمائم وغيرها، وفي الباب العلمي أنت تكتب في أوراق بيضاء، وبأقلام سلسلة، وفي مسجد مكيف، وتسمع الصوت، وأولئك كانوا يكتبون في الحجارة، والجلود، وأوراق الشجر، فنحن في خير، إلا أنه لا سواء بيننا وبينهم، من حيث أنهم علموا عظم ما هم فيه من الخير، فهانت أنفسهم علىٰ أنفسهم، ونحن لم نعلم -وإن كنا نعلم في الجملة ما نحن فيه من الخير- ولذلك تضيق صدورنا من أدنىٰ الدون في هذا الشيء، وما نصبح، ولا نمسي إلا وعندنا حزن؛ إما تخوف علىٰ المستقبل، وإما تخوف من الأعداء، وإما من هذا وهذا، وأولئك اعتمادهم علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي سياقة غزوة أحد نذكر ما أخرجه البخاري عن الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يُحَدِّثُ، قَالَ: جَعَلَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَىٰ الرَّجَّالَةِ يَوْمَ أُحُدٍ - وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلًا - عَبْدَ الله بْنَ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: «**إِنْ رَأَيْتُمُونَا تَخْطَفُنَا الطَّيْرُ فَلَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ**» فَهَزَمُوهُمْ قَالَ: فَأَنَا وَالله رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ، قَدْ بَدَتْ خَلاَخِلُهُنَّ وَأَسْوُقُهُنَّ، رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ.

فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ الله بْنِ جُبَيْرٍ: الغَنِيمَةَ أي: قَوْمِ الغَنِيمَةَ، ظَهَرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟.

فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟.

قَالُوا: وَالله لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وُجُوهُهُمْ، فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، فَذَاكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرسول فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ أَصَابُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً، سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلًا.

فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا، فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ.

فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللهِ يَا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ.

قَالَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي القَوْمِ مُثْلَةً، لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ: أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ**»، قَالُوا: يَا رسول الله ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: الله أَعْلَى وَأَجَلُّ**».

قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّىٰ وَلاَ عُزَّىٰ لَكُمْ.

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟**»، قَالَ: قَالُوا: يَا رسول الله ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: الله مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**» **أخرجه البخاري (٤٠٤٣).**

تنبيه: القول بأن هند بنت عتبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا هي التي كلفت وحشي بقتل حمزة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، مبني علىٰ غير دليل، لا من قريب ولا من بعيد، ما هو إلا قول الرافضة، وإلا فوحشي لم يكن عبدًا لهند، ولا لأبيها.

فَقَالَ لِي مَوْلاَيَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ: إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ.

قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ، وَعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِحِيَالِ أُحُدٍ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادٍ، خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَىٰ القِتَالِ، فَلَمَّا أَنِ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ، خَرَجَ سِبَاعٌ فَقَالَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟ قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ.

فَقَالَ: يَا سِبَاعُ، يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ البُظُورِ، أَتُحَادُّ اللهَ وَرسولهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟.

قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ، فَكَانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، قَالَ: وَكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ تَحْتَ صَخْرَةٍ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي، فَأَضَعُهَا فِي ثُنَّتِهِ حَتَّىٰ خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ وَرِكَيْهِ.

قَالَ: فَكَانَ ذَاكَ العَهْدَ بِهِ، فَلَمَّا رَجَعَ النَّاسُ رَجَعْتُ مَعَهُمْ، فَأَقَمْتُ بِمَكَّةَ حَتَّىٰ فَشَا فِيهَا الإِسْلاَمُ، ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَىٰ الطَّائِفِ، فَأَرْسَلُوا إِلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسولا، فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ لاَ يَهِيجُ الرُّسُلَ.

قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّىٰ قَدِمْتُ عَلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَآنِي.

قَالَ: «**آنتَ وَحْشِيٌّ**».

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَ: «**أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ**».

قُلْتُ: قَدْ كَانَ مِنَ الأَمْرِ مَا بَلَغَكَ.

قَالَ: «**فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُغَيِّبَ وَجْهَكَ عَنِّي**».

قَالَ: فَخَرَجْتُ فَلَمَّا قُبِضَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَخَرَجَ مُسَيْلِمَةُ الكَذَّابُ. قُلْتُ: لَأَخْرُجَنَّ إِلَىٰ مُسَيْلِمَةَ، لَعَلِّي أَقْتُلُهُ فَأُكَافِئَ بِهِ حَمْزَةَ. قَالَ: فَخَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، قَالَ: فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي ثَلْمَةِ جِدَارٍ، كَأَنَّهُ جَمَلٌ أَوْرَقُ ثَائِرُ الرَّأْسِ، قَالَ: فَرَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي، فَأَضَعُهَا بَيْنَ ثَدْيَيْهِ حَتَّىٰ خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، قَالَ: وَوَثَبَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ عَلَىٰ هَامَتِهِ».

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

﴿١٤٣﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ مخبراً عن حال المؤمنين الذين خرجوا يوم أحد: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾ تطلبون لقاء الكفار لتنالوا ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ الشهادة ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ فتمنيتم يوم كيوم

بدر؛ لتقاتلوا في سبيل الله ، ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: أسباب الموت ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تأكيدًا لرؤية أسبابه، ومنه قول بعضهم: (**رأيت الموت**) أي: رأيت أسبابه المفضية إليه.

﴿١٤٤﴾ ثم عاتب الله عَزَّوَجَلَّ من قعد عن القتال؛ بسبب خبر قتل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ﴾ أي: رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ أرسله الله ، وبعثه إلىٰ الخلق كافة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ولت وذهبت ﴿مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وهو آخر رسول إلىٰ أهل الأرض كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠] .

﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ بدون قتل ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ وقع عليه الموت بالقتل ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ارتددتم عن دينكم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ وتركتم الجهاد.

وفي البخاري (٣٦٦٧) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، - قَالَ: إِسْمَاعِيلُ يَعْنِي بِالعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَالله مَا مَاتَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَالله مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ الله ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ عَنْ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَبَّلَهُ.

قَالَ: « **بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُذِيقُكَ الله المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا**».

ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: «**أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَىٰ رِسْلِكَ**».

فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ الله أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله فَإِنَّ الله حَيٌّ لاَ يَمُوتُ**.

وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]».

قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ، قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ.

فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ.

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «وَاللهِ **مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلاَمًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لاَ يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ**».

ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلاَمِهِ: «**نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ**» فَقَالَ حُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ: لاَ وَاللهِ لاَ نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «**لاَ، وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ**».

فَقَالَ عُمَرُ: «**بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رسول الله** ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقَالَ عُمَر: «**قَتَلَهُ الله** ».

﴿وَمَن يَنقَلِبْ﴾ مرتدًا ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ عن دينه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ وإنما يضر نفسه ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ الثابتين علىٰ الدين، يجزيهم بجنة النعيم.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ﴾ أي: يأتيها الموت ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الكوني ﴿كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ لا يتقدم ولا يتأخر، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨]، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا الله وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ**» أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤).

۞ وفي هذا رد علىٰ المعتزلة، والرافضة، الذين يقولون بخرم الأجل، وهذا مذهب ردي يخالف الكتاب والسنة، فإن من مات علىٰ أي حال كان فقد انتهىٰ أجله، ففي حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ خَلقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثمَّ يَكونُ عَلَقَةً مِثلَهُ، ثمَّ يَكونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثمَّ يُبْعَث إِلَيْهِ المَلَكُ فَيُؤْذَنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ**» متفق عليه.

﴿وَمَن يُرِدْ﴾ يطلب ﴿ثَوَابَ﴾ أجر ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة، وغير ذلك ﴿نُؤْتِهِۦ﴾ نعطه ﴿مِنْهَا﴾ قد يتحصل علىٰ الدنيا، لكن قد يفوته أجر الآخرة.

ففي حديث يَعْلَىٰ ابْنَ مُنْيَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: « أَذَّنَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بِالْغَزْوِ وَأَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، لَيْسَ لِي خَادِمٌ، فَالْتَمَسْتُ أَجِيرًا يَكْفِينِي وَأُجْرِي لَهُ سَهْمَهُ، فَوَجَدْتُ رَجُلًا، فَلَمَّا دَنَا الرَّحِيلُ أَتَانِي فَقَالَ: مَا أَدْرِي مَا السُّهْمَانُ وَمَا يَبْلُغُ سَهْمِي، فَسَمِّ لِي شَيْئًا كَانَ السَّهْمُ أَوْ لَمْ يَكُنْ. فَسَمَّيْتُ لَهُ ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَلَمَّا حَضَرَتْ غَنِيمَتُهُ أَرَدْتُ أَنْ أُجْرِيَ لَهُ سَهْمَهُ، فَذَكَرْتُ الدَّنَانِيرَ، فَجِئْتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ لَهُ أَمْرَهُ، فَقَالَ: **«مَا أَجِدُ لَهُ فِي غَزْوَتِهِ هَذِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا دَنَانِيرَهُ الَّتِي سَمَّى»** أخرجه أحمد (١٧٩٥٧).

﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ﴾ أجر ﴿ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ كما قال تعالىٰ : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورىٰ:٢٠]. ﴿وَسَنَجْزِى﴾ نثيب ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الطائعين، والشاكر هو المؤمن الطائع.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

﴿١٤٦﴾ ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ ﴾ أي: وكم من نبي ﴿ قَٰتَلَ ﴾ وفي قراءة: ﴿ قُتِلَ مَعَهُۥ ﴾

﴿رِبِّيُّونَ﴾أتباع وأصحاب، وقيل علماء فقهاء ﴿كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟﴾ فما ضعفوا، ولا جبنوا ﴿لِمَآ﴾ بسبب ما ﴿أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ من الجراحات، وغيرها ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ ﴾ أي: عن جهاد أعدائهم ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ أي: لم يستسلموا، ويخضعوا لعدوهم ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ

ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأن الصبر في موطن الجهاد وفي غيره من المواطن من أهم أسباب النصر والثبات.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي: لم يكن قول هؤلاء ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ دعوا الله عَزَّوَجَلَّ بستر ذنوبهم والتجاوز عنها ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: ما أسرفنا علىٰ أنفسنا من الذنوب الخوالي لاسيما الكبائر، أما الصغائر فإن الله عَزَّوَجَلَّ يتجاوز عن عباده بالمبادرة إلىٰ كثير من الطاعات، ففي حديثْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**» أخرجه مسلم (٢٣٣) .

والإسراف علىٰ النفس من أعظم أسباب الهلكة: فعَنْ أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**عَنِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ أَوْ قَبْلَكُمْ آتَاهُ الله مَالًا وَوَلَدًا - يَعْنِي أَعْطَاهُ - قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أي: أَبٍ كُنْتُ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ.**

قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ الله خَيْرًا- فَسَّرَهَا قَتَادَةُ لَمْ يَدَّخِرْ - وَإِنْ يَقْدِرْ عَلَى الله يُعَذِّبْهُ فَانْظُرُوا، فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي -أَوْ قَالَ فَاسْهَكُونِي- ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَرَبِّي» أخرجه البخاري (٦٤٨١).

﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ أي: في حال لقائنا لأعدائنا ﴿وَٱنصُرْنَا﴾؛ لأنك نعم المولىٰ، ونعم النصير، ومن نصرته فهو الغالب، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠]. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ﴾ أعطاهم ﴿ٱللَّهُ ثَوَابَ﴾ أجر ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ بالنصر، والغنيمة ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالأجر العظيم، والدرجات في الجنة، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**» أخرجه البخاري (٢٧٩٠) .

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون مع الله عَزَّوَجَلَّ بتوحيده، والتزام شرعه، ويحسنون مع الغير بالتجاوز، وكف الأذىٰ، وبذل الندىٰ، وطلاقة الوجه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

﴿١٤٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود، والنصارىٰ، والمشركين، بما يدعونكم إليه من الباطل، ويأمرونكم به من الضلال ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ يرجعوكم ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إلىٰ ما كنتم إليه كفارًا ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ في الدنيا والأخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف١٠٣:١٠٤].

وهذا دليل علىٰ أن من أعظم أسباب الردة هي طاعة الكافرين، فإنهم يتربصون بالمؤمنين، تارة بإلقاء الشبه، وتارة بتزيين الباطل الذي هم عليه، وتارة بخلط الحق بالباطل، فعلىٰ المسلم أن يحتاط لدينه.

﴿١٥٠﴾ ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ناصركم فالجأوا إليه، واستنصروه، فمنه النصر، ومنه العون، ومن تولاه الله عَزَّوَجَلَّ فهو المحفوظ الغالب، فإن الله يدافع عن أوليائه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ خير من نصر، وبعونه يحصل الظفر.

﴿١٥١﴾ ﴿سَنُلْقِى﴾ نقذف ﴿فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوف والفزع، فلا يثبتون لقتالكم، وفي حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**» متفق عليه.

وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[الأنفال:٦٠]. ﴿بِمَآ﴾ بسبب أنهم ﴿أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ غيره من المعبودات ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ صفة كاشفة؛ إذ ليس هناك شرك بسلطان، فالشرك كله باطل كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣] .

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ﴾ مستقرهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ خالدين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأنه عذاب أليم، فبئس المقام الذي يكون فيه الكفار يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾.

﴿١٥٢﴾ ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عما حصل للمسلمين يوم أحد من النصر، والظفر، وما لحقه من الهزيمة، والضرر فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر، فأمكنكم من رقاب أعدائكم ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ تقتلونهم قتلًا ذريعًا ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ القدري، وهو تسليطكم عليهم بحيث كنتم تأتونهم من أقفيتهم، وهم يفرون ويولون الأدبار، وهذا قوة النصر أن يكون العدو موليا، والله عَزَّوَجَلَّ يقول للمؤمنين: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال:١٥] .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم، ولحقكم التنازع والخلاف، حيث أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبرهم أن لا ينزلوا من الجبل، فأبىٰ بعضهم إلا النزول ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ اختلفتم ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾ في أمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالبقاء في الجبل؛ لحراسة المؤمنين ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالنزول، وقيل: فيه تقديم وتأخير: (حتى إذا تنازعتم في الأمر، وعصيتم؛ فشلتم).

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النصر، والعزة، والتمكين، وكان سبب النزول، والمخالفة، والعصيان؛ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ غنائم.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ﴾ يطلب ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ وهم الأكثر، ومع ذلك قد يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ الأكثر ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥] .

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ أي: حصل لكم الهزيمة، وصُرفتم عن متابعة الكفار، وأصبحوا هم الذين يتابعونكم، إذ أن خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل حين رأوا ذلك حملوا علىٰ الرماة، فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه، وأقبلوا علىٰ المسلمين، وتغيرت الريح فصارت دبورًا بعد أن كانت صبا، وانتقضت صفوف المسلمين، واختلطوا، وقتلوا بعضهم، وصاح الشيطان إن محمدًا قد قتل ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: يختبركم، ويمتحنكم، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، وهذا من فضل الله ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ﴾ واسع ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقد عيّر بعضهم عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالفرار يوم أحد فكان رد ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « تَعَالَ أُبَيِّنْ لَكَ، أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ» **أخرجه البخاري** (٣٦٩٨).

﴿۞إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَّلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿١٥٣﴾ ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ من الصعود أي: هاربين إلىٰ الجبل، وغيره من الأماكن.

فعن أنس ابن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**صَعِدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُحُدًا، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ، وَقَالَ: اسْكُنْ أُحُدُ -أَظُنُّهُ ضَرَبَهُ بِرِجْلِهِ- فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ**». أخرجه البخاري (٤٦٥١)

﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ ﴾ لا تلتفتون، وتعرجون ﴿ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ حتىٰ أنهم تركوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فِي سَبْعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ فَلَمَّا رَهِقُوهُ قَالَ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ أَوْ: هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟**» فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: «**مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ؟ أَوْ: هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟**» فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَاحِبَيْهِ: «**مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا**». أخرجه مسلم (١٧٨٩).

﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ﴾ يناديكم فيقول: إليَّ عباد الله ﴿ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ من ورائكم؛ لأنهم تركوه، وتجاوزوه.

﴿ فَأَثَٰبَكُمْ ﴾ أي: جازاكم الله عَزَّوَجَلَّ جزاء صنيعكم ﴿ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ الغم الأول ما فاتهم من الظفر، والغنيمة، والغم الثاني ما أشيع عن مقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما لحقتهم من الجراحات؛ حين علموا بعد ذلك بحياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ من الغنائم، ونحوها ﴿ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ أي: من القتل، والجراح ، ﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿١٥٤﴾ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً ﴾ أمنا، وعدم خوف ﴿ نُّعَاسًا ﴾ سكونا، وهدوءً ومقاربة للنوم حتىٰ قَالَ طَلْحَةَ بن عبيد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**غَشِيَنَا النُّعَاسُ وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي، وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ، وَآخُذُهُ**» أخرجه البخاري (٤٥٦٢).

﴿ يَغْشَىٰ ﴾ النعاس ﴿ طَآئِفَةً ﴾ فريقًا ﴿ مِّنكُمْ ﴾ وهم أهل الإيمان ﴿ وَطَآئِفَةٌ ﴾ فريق منكم ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ وهم المنافقون، حيث استيقنوا الهلكة، وأراد الله بذلك أن يميز بين

المؤمنين، والمنافقين ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ وهذا الظن عندهم علىٰ اليقين؛ لما في قلوبهم من المرض، ظنوا أن الله عَزَّوَجَلَّ يُدِيل الكافرين علىٰ المؤمنين حتىٰ يستأصلونهم عن بكرة أبيهم ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كظن أهل الشرك ﴿يَقُولُونَ﴾ المنافقون ﴿هَل لَّنَا﴾ ما لنا ﴿مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: صار الأمر لغيرنا، وذلك أن بعضهم كان لا يريد خروج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فيتكلمون بهذا الكلام كالمعاتبين، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ فهو الفعال لما يريد، الأمر أمره في خروجهم، والأمر أمره فيما أصابهم ﴿يُخْفُونَ﴾ يكتمون ﴿فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾؛ لأن المنافقين في الغالب لا يظهرون ما في أنفسهم سواءً من العداوة أو الموافقة، إذ أنهم يتميزون بالكذب الظاهر والباطن، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكن يعاقبهم بما في نفوسهم؛ لأنه لم يؤمر بذلك، وإنما كان يعاتبهم ويعاملهم علىٰ ما ظهر منهم، وربما أخذوا من الغنائم، وغير ذلك.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ يزعمون أن الأمر لو كان لهم لما خرجوا، ولما أصابتهم تلك الجراحات والقتل.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

عند ابن راهويه كما في "المطالب العالية ج٤ ص٢١٩" قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا وذقنه – أو قال ذقنه– في صدره، فو الله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير : ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ فحفظتها، فأنزل الله تبارك وتعالىٰ في ذلك: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾؛ لقول معتب بن قشير قال: ﴿ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ ».

﴿ قُل﴾ لهم يا محمد ﴿ لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ﴾ لخرج ﴿ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ مصارعهم المقدرة لهم كما قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤]. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾ ليختبر، ويمتحن ﴿مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قلوبكم مما

تخفونه ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يخرج، ويظهر ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من الأقوال الغير سوية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما في القلوب من خير، أو شر.

﴿١٥٥﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ انهزموا ﴿مِنكُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي: يوم أحد حين انهزم المسلمون، وقويت شوكة المشركين ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ﴾ حملهم علىٰ الزلة بوسوسته ﴿الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ بشؤم ذنوبهم، وذلك بتركهم للمكان الذي أمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبقاء فيه ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي: لم يؤاخذهم علىٰ هذا الفرار، ولم يجعله فرارًا من الزحف المتوعد عليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ ختم الآية بهذين الاسمين يدل علىٰ حلم الله عَزَّوَجَلَّ بأولياءه، و(الحليم) هو الذي لا يعاجل بالعقوبة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿١٥٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من المنافقين، كعبد الله ابن أبي سلول ومن إليه، وذلك أن كفرهم باطن، وإن كان إسلامهم ظاهرًا ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في النفاق والكفر الذين هم علىٰ طريقتهم وملتهم، وقيل لإخوانهم في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للسفر سواءً كان لتجارة، أو نحوه ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ خرجوا للجهاد، فقتلوا، أو ماتوا ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ ولا برهان ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ القول ﴿حَسْرَةً﴾ غمًا ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ حين يتنادمون علىٰ هذه الأخبار، فيزدادون حسرة إلىٰ حسرتهم، وذلة إلىٰ ذلتهم، وضيقة إلىٰ ضيقتهم؛ لأن الإنسان إذا لم يكن عنده إيمان بالقدر ضاق صدره، وقل صبره، وازداد حرجه، فكلما التفت إلىٰ الماضي حصل له من التنغص ما الله به عليم، بينما المؤمن بالقضاء، والقدر إن حصلت له مصيبة حمد الله ، وإن حصلت السلامة حمد الله، فهو في كل حال علىٰ خير.

ففي حديث صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**» أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ والحياة، والإماتة لها أجل، وزمن محدد، فلا يمكن أن يوجد شخص قبل أن يقضي الله عَزَّوَجَلَّ ذلك، ولا يمكن أن يموت أحد قبل أن يأت أجله.﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ مطلع عليها ببصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مع أنه بكل شيء عليم.

﴿١٥٧﴾ ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ شهداء ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأنتم تقاتلون لإعلاء كلمته، ولإعزاز دينه ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾في حال خروجكم للجهاد؛ لأن من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد.

۞ **والفرق**: أن من قتل في سبيل الله يناله القتل في المعركة ونحوها، **وأما** من مات في سبيل الله قد يموت، وهو في طريقه، أو يموت وهو في مسجده، ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تلحقهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تقع لهم تكفر بها ذنوبهم، وتستر بها خطاياهم﴿ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الفاني.

(١٥٨) ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: أن عاقبتكم إلىٰ الله ، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١].

(١٥٩) ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُحضضًا نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أحسن الأخلاق، وأعلىٰ القيم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: فبرحمة الله لهم حصل منك اللين، والتسهيل عليهم؛ لأخلاقك الكريمة، وآدابك العظيمة، فلقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أحسن وأكمل الأخلاق، مع أنه بعث لتمامها.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**» **اخرجه احمد** (٨٩٥٢)، وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصفه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]. قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كَانَ رَسُولُ** الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا**» **متفق عليه.**

فكان يعفو عمن ظلمه، ويصل من قطعه، ويحسن إلىٰ القريب والبعيد، وعلىٰ حسن العهد، وصدق الحديث، وغير ذلك من الصفات الحميدة، والأخلاق السديدة، والأفعال الرشيدة كيف لا وكان خلقه القرآن، كما قالت عائشة عليها من الله الرضوان.

﴿وَلَوْ كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فَظًّا﴾ جافيًا في المعاشرة، والخطاب ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ ضيقًا في صدرك، لا تقبل أحدًا، ولا تتجاوز عن أحد ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ تفرقوا، ونفروا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ وتركوك؛ لأن عادة الناس محبة الإحسان، وبغض الإساءة ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ تجاوز عن إساءتهم، وإن أغلظوا في قولهم، وأساءوا في فعلهم، فهم بشر معرضون لمثل هذا ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ الله أن يغفر ذنوبهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، ويستجيب الله عَزَّوَجَلَّ ، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بنبيه، وبالمؤمنين، إذ حثه علىٰ مكارم الأخلاق مع أصحابه، ثم يقبل دعوته فيهم.

﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ أي: استخرج آرآهم، مع أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كامل العقل، وكان يأتيه الوحي إلا أن المشاورة؛ سبب لتآلف القلوب، وزيادة المحبة، وقد تستفيد مما تسمع ﴿فِي ٱلْأَمْرِ﴾ والمراد به هنا: أمر الجهاد، وتجوز المشورة في غيره من الأمور.

فإن الإنسان إذا شعر باهتمام أخيه به انشرح صدره، وهدء باله، وازدادت محبته، وإذا شعر ببعد تنكر، وتغير طبعه، وإن كان الأمر هنا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أمر لأمته .

﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ ﴾ أي: علىٰ الخروج للجهاد في سبيل الله ، أو علىٰ ما عزمت عليه من الأمور ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمد عليه، واستعن به، فإنك إذا توكلت عليه أعانك، ونصرك، ووفقك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ المعتمدين عليه، وإذا أحب الله عبدًا أكرمه.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**» أخرجه البخاري (٦٥٠٢).

فالتوكل علىٰ الله، سبب لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وحصول النصر العظيم وطمأنينة القلب، إلىٰ غير ذلك.

١٦٠ ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وإن اجتمع عليكم من بأقطارها ﴿ وَإِن يَخْذُلْكُمْ ﴾ يترككم، ولا ينصركم ﴿ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ لا ناصر ولا غالب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾ إذا أرادوا قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم وتيسير عسرهم.

فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ: تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**» أخرجه أحمد (٢٠٥).

۞ وقد احتج به بعض الصوفية بهذا الحديث علىٰ ترك العمل بالأسباب، والحديث رد عليهم، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أن الطير يغدو، ويروح، وهذا عمل بالسبب، والله عَزَّوَجَلَّ هو الرزاق ذو القوة المتين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿١٦١﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ ناهيًا عن الغلول، ومنزهًا نبيه محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن ذلك ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ والغلول: هو أخذ المال العام من غنيمة، أو غيرها قبل قسمته، وأحقيته به ثم قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يحمله علىٰ ظهره.

ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَامَ فِينَا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَذَكَرَ الْغُلُولَ، فَعَظَّمَهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رسول الله ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ.**

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، فَيَقُولُ: يَا رسول الله ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ.

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رسول الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ لَهَا صِيَاحٌ، فَيَقُولُ: يَا رسول الله ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ.

لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رسول الله ، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رسول الله، أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ» متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِلَىٰ خَيْبَرَ، فَفَتَحَ الله عَلَيْنَا فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا وَرِقًا، غَنِمْنَا الْمَتَاعَ، وَالطَّعَامَ، وَالثِّيَابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا إِلَىٰ الْوَادِي، وَمَعَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُذَامٍ يُدْعَىٰ رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ، فَلَمَّا نَزَلْنَا الْوَادِيَ، قَامَ عَبْدُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَحُلُّ رَحْلَهُ، فَرُمِيَ بِسَهْمٍ، فَكَانَ فِيهِ حَتْفُهُ، فَقُلْنَا: هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ يَا رسول الله ، قَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ**

الشِّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نَارًا أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ»، قَالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ، فَجَاءَ رَجُلٌ بِشِرَاكٍ أَوْ شِرَاكَيْنِ فَقَالَ: يَا رسول الله ، أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**شِرَاكٌ مِنْ نَارٍ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**» **أخرجه مسلم** (١١٥).

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ﴾ تعطىٰ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ما عملت من خير، أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بزيادة سيئاتهم، ولا بنقص حسناتهم.

١٦٢ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ أي: لا يستوي من اتبع ﴿رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بترك الغلول، وغيره من المخالفات الشرعية ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بأخذ الغلول، وغيره من المخالفات الشرعية ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ هذا في الكافر مأواه جهنم خالدًا فيها أبدًا.

۞ والمسلم يتوعد بالنار وقد يعفو الله عَزَّوَجَلَّ عنه قبل أن يدخلها، وقد يدخلها، ويؤخذ بذنبه، ومعصيته ثم يخرج منها، كما هو معتقد أهل السنة والجماعة.

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦٢﴾ مصيرهم، فهم في أشد العذاب، وأسوأ الخزي .

١٦٣ ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: متبعو رضوان الله عَزَّوَجَلَّ ذوو درجات، ومتبعو سخط الله عَزَّوَجَلَّ في دركات، فليسوا علىٰ حال سواء، فمن أطاع الله عَزَّوَجَلَّ زاد إيمانه، والناس يتفاوتون في ذلك، ومن عصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ضعف إيمانه، والناس يتفاوتون في ذلك ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٦٥﴾.

١٦٤ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ منن عظيمة، ومن أعظمها ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهو محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يعرفون صدقه، ونسبه ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ القرآن والحكمة، وهي السنة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يزكي ظواهرهم، وبواطنهم من أدناس الجاهلية،

فتزكوا بواطنهم بالإيمان، وتزكوا ظواهرهم بالإسلام، والنظافة، والطهارة وغير ذلك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ مبعثه ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ في غيٍّ، وجهل ظاهر جلي.

وفي مسند أحمد (١٧٤٠) عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قال جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ الله إِلَيْنَا رسولا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى الله لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ الله وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ.

قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا الله وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ الله، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الخَبَائِثِ».

❁ يستفاد منه أن الداعي إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ يشرح دعوته، ويبدأ بالتوحيد.

١٦٥ ﴿أَوَلَمَّآ﴾ حين ﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يوم أُحد ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ أي: يوم بدر، وكانوا قد انتصروا يوم بدر، فقَتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين، بينما في يوم أحد قُتل من المسلمين سبعون، وقيل بأنه جرح سبعون والله أعلم ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿هَٰذَا﴾ أي: ما سبب هذه الهزيمة، وما حل بالمسلمين ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾؛ بسبب معصيتكم لنبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء من نصر، أو هزيمة.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۖ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾.

١٦٦ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ من القتل، والجراحات ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ بأحد حين التقىٰ جمع المسلمين بجمع الكافرين ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ الإذن الكوني لا الشرعي، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يأذن شرعًا بقتل المسلمين، ولا يلزم من الإذن الكوني محبة المأذون به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢]، وأما الإذن الشرعي، فيلزم منه المحبة ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾علم وقوع المبادرة منهم، وإلا فإنه بكل شيء عليم، لا تخفىٰ عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خافية.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لأجل دين الله وطاعته، ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ عن أهلكم وحريمكم، وكثروا سواد المسلمين ورابطوا إن لم تقاتلوا يكون ذلك دفعا وقمعا للعدو، ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا﴾ نحسن القتال ﴿لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۖ﴾ خرجنا معكم وهم عبد الله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا عن أحد وكانوا ثلاثمائة قال الله تعالىٰ: ﴿هُمۡ﴾ أي المنافقون ﴿لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ﴾ أي: إلىٰ الكفر يومئذ أقرب ﴿مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي: إلىٰ الإيمان، ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم﴾ يعني: كلمة الإيمان ﴿مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ من الكفر والشك والريب.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج ﴿قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ أي: في النسب لا في الدين ﴿وَقَعَدُواْ﴾ يعني تخلفوا، عن نصرة إخوانهم ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ بالانصراف عن محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وقعدوا في بيوتهم ﴿مَا قُتِلُواْ﴾ في أحد.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾ فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ إن نزل بكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، وإنما هي دعوىٰ قالوها بألسنتهم، لا دليل لهم عليها.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه الإمام أحمد (٢٣٨٨) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ** الله عَزَّوَجَلَّ **أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَشْرَبِهِمْ وَمَأْكَلِهِمْ وَحُسْنَ مَقِيلِهِمْ قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوَانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ الله لَنَا؛ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عَنِ الْحَرْبِ**، فَقَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: «**أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ**»، فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ عَلَىٰ رسوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ ».

وأخرج الترمذي (٣٠١٠) عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: لَقِيَنِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ، مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟**» قُلْتُ: يَا رسول الله ، اسْتُشْهِدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالًا، وَدَيْنًا.

قَالَ: «**أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ الله بِهِ أَبَاكَ؟**» قَالَ: بَلَىٰ يَا رسول الله .

قَالَ: «**مَا كَلَّمَ الله أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابِهِ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فَقَالَ: « يَا عَبْدِي، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ**».

قَالَ: يَا رَبِّ، تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً.

قَالَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: «إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ لَا يُرْجَعُونَ»، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا﴾ ».

وأخرج الطبراني عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَهْلِ بِئْرِ مَعُونَةَ، قَالَ: لَا أَدْرِي أَرْبَعِينَ، أَوْ سَبْعِينَ، قَالَ: وَعَلَى ذَلِكَ الْمَاءِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ الْجَعْفَرِيُّ، فَخَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَوْا غَارًا مُشْرِفًا عَلَى الْمَاءِ قَعَدُوا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَيُّكُمْ يُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَهْلَ هَذَا الْمَاءِ؟ فَقَالَ: أَرَاهُ أَبَا مِلْحَانَ الْأَنْصَارِيَّ: أَنَا أُبَلِّغُ رِسَالَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى حَيًّا مِنْهُمْ، فَاحْتَبَى أَمَامَ الْبُيُوتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَهْلَ بِئْرِ مَعُونَةَ، إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْكُمْ، إِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ كَسْرِ الْبَيْتِ بِرُمْحٍ، فَضَرَبَ بِهِ فِي جَنْبِهِ حَتَّى خَرَجَ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ، فَقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، فَاتَّبَعُوا أَثَرَهُ حَتَّى أَتَوْا أَصْحَابَهُ، فَقَتَلَهُمْ أَجْمَعِينَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ.

وقال ابنُ إسحاقَ: عن أنسُ بنُ مالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ الله أنزَلَ فيهم قُرآنًا: **(بَلِّغوا عنّا قَوْمَنا أنّا قد لَقِينا ربَّنا فرَضِيَ عنّا ورَضِينا عنه)**، ثمَّ نُسِخَتْ فرُفِعَتْ بعدَما قَرَأْناه زَمنًا، وأنزَلَ الله : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾».

الحديث أخرجه ابن جرير في التاريخ وفيه أن سبب نزول الآية؛ قتلى بئر معونة.

قال العلامة الشوكاني في تفسيره (١/ ٤٥٧): "وَعَلَىٰ فَرْضِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَبَبٍ خَاصٍّ فَالِاعْتِبَارُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ".اهـ.

فعلىٰ كل حال فالآية باعتبار عمومها تعم كل مقتول في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿١٦٩﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ لا تظن يا محمد أن ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمته، وإعزاز دينه ﴿أَمْوَٰتًۢا﴾ لا يتمتعون، وحالهم كبقية الأموات ﴿بَلْ﴾ إن حالهم أنهم ﴿أَحْيَآءٌ﴾ حياة برزخية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة ﴿يُرْزَقُونَ﴾ ينعمون، وفي مسلم(١٨٨٧)

عَنْ عبد الله بن مسعودرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَىٰ تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: " هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّىٰ نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ، فَلَمَّا رَأَىٰ أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا».

﴿١٧٠﴾ ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أحياء عند ربهم يرزقون، ويفرحون برزق الله عَزَّوَجَلَّ لهم، وما آتاهم من فضله ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يفرحون ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ من حيث أنهم في حياة، وعلم، وإيمانا، وجهاد، فيستبشرون بهم لعلهم أن يلحقوا بهم في دار الكرامة ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

﴿١٧١﴾ ومن شأنهم أنهم ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون ويسرون ﴿بِنِعْمَةٍ﴾ بثواب ونعم كثيرة تنتظرهم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عز وجل ﴿وَفَضْلٍ﴾ زيادة من النعيم لا يتوقعونه، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ﴾ يبطل ﴿أَجْرَ﴾ ثواب ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بل يثيبهم، ويجازيهم الجزاء الأوفى، فما على المسلم إلا أن يعمل، ويستبشر بما له عند الله عَزَّوَجَلَّ. ومن شأنهم أنهم (يستبشرون) يفرحون ويسرون (بنعمة) بثواب ونعم كثيرة تنتظرهم (وفضل) زيادة من النعيم لا يتوقعونه

عن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ أَلَمِ الْقَتْلِ إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ أَلَمِ الْقَرْصَةِ**» أخرجه الترمذي(١٦٦٨).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تكفل الله لمن جاهد في سبيله، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته، أن يدخله الجنة، أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة**».

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥ ﴾.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾.

ما أخرج الطبراني (١١٦٣٢) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: « لَمَّا انْصَرَفَ أَبُو سُفْيَانَ وَالْمُشْرِكُونَ عَنْ أَحَدٍ، وَبَلَغُوا الرَّوْحَاءَ، قَالُوا: لَا مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ، وَلَا الْكواعبَ أَرْدَفْتُمْ، شَرٌّ مَا صَنَعْتُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ فَنَدَبَ النَّاسَ فَانْتَدَبُوا حَتَّى بَلَغُوا حَمْرَاءَ الْأَسَدِ أَوْ بِئْرَ أَبِي عُيَيْنَةَ فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ وَقَدْ كَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَوْعِدُكَ مَوْسِمُ بَدْرٍ حَيْثُ قَتَلْتُمْ أَصْحَابَنَا فَأَمَّ الْجَبَانُ فَرَجَعَ، وَأَمَّا الشُّجَاعُ فَأَخَذَ أُهْبَةَ الْقِتَالِ وَالتِّجَارَةِ فَأَتَوْهُ، فَلَمْ يَجِدُوا بِهِ أَحَدًا وتَسَوَّقُوا فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ ﴾».

١٧٢ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الصحابة رضوان الله عليهم ﴿ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، استجابوا لله عَزَّوَجَلَّ بلسان الحال والمقال، واستجابوا لنداء رسول الله ﷺ، حين أمرهم بالخروج إلىٰ حمراء الأسد، وفي الاستجابة لله ، والرسول الخير العظيم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤].

وكانت استجابتهم ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ ﴾ مع شدة القروح التي نزلت بهم يوم أحد من قتل كثير من صفوة المسلمين، وقروح رسول الله ﷺ ومن إليه ﴿ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ

﴿مِنْهُمْ﴾ أي لهم، فكلهم محسن، والمنافقون قد رجعوا وخرجوا ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ راقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في فعل المأمور وترك المحظور ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب مضاعف.

﴿١٧٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أي المراد بهم هم أصحاب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ وهذا من العام الذي يراد به الخصوص ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ أي قريش قد جمعوا جمعهم؛ لاستئصال شأفتكم ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ خافوا منهم واحذروهم ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي لثقتهم بالله عَزَّوَجَلَّ زادهم تصديقًا ويقينًا أنه النصر العظيم ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافينا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤] أي: كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ فهو الموكلةُ إليه الأمور.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾». **أخرجه البخاري (٤٥٦٣) .**

﴿١٧٤﴾ ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ أي: المؤمنون ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بسلامة، وعافية من لقاء العدو ﴿وَفَضْلٍ﴾ أجر الرابح؛ بسبب ثباتهم ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ لم يصبهم أذىٰ، ولا مكروه ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: كونهم خرجوا في طاعته، وامتثال أمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ صاحب العطاء الواسع، الذي لا يعجزه شيء.

۞ وفي هذه الآية دليل علىٰ أن من امتثل أمر الله ، وبادر إلىٰ رضاه، أكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بحسن عاقبة.

والعدو إذا خضعت له أذلك، وإذا رأىٰ منك قوة رهب منك، فالمسلمون عزم الكفار علىٰ استئصالهم فلما ثبتوا نُصروا؛ بل ومن عجيب شجاعة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومن إليه: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر أن لا يخرج إلا من شهد أحدًا ؛ ليكون أوقع في إخافة العدو.

وفي البخاري(٤٠٧٧) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، قَالَتْ لِعُرْوَةَ: يَا ابْنَ أُخْتِي، كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ: الزُّبَيْرُ، وَأَبُو بَكْرٍ، لَمَّا أَصَابَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ المُشْرِكُونَ، خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا، قَالَ: «مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ» فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا، قَالَ: كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَالزُّبَيْرُ.

﴿١٧٥﴾ ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم بأوليائه، وهم خاسرون منكوسون ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ فكيدهم ضعيف، ومكرهم بائر﴿ وَخَافُونِ ﴾ وليكن خوفكم من الله عَزَّوَجَلَّ الذي بيده نواصي العباد ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مصدقين مقرين بوعد الله ، وملتزمين لشرعه.

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

﴿١٧٦﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ أي: لا تحزن من المنافقين، الذين يسارعون في الكفر لشدة رغبتهم فيه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم فالله عَزَّوَجَلَّ هو الغني الحميد، فهو ناصر دينه، ومعلي كلمته، وإن أعرض من أعرض، وكفر من كفر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بهذا الابتلاء الذي مر بهم ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ نصيبًا ﴿ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ موجع؛ بسبب تقلبهم وتلونهم.

﴿١٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ استبدلوا، واستعاضوا ﴿ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ وهم أهل النفاق، ويدخل فيهم الكفار من باب أولىٰ ﴿ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: بسبب كفرهم فهو الغني الحميد، وهذا كقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ**

وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا» أخرجه مسلم(٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ لا يظن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ نمهل، ونؤخر عنهم العذاب بسبب أنه ﴿خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ خيرية في أنفسهم، أو بخير يتحصلونه، كما قال تعالىٰ:﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون٥٥:٥٦].﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ نمهلهم، ونؤخر عنهم العقوبة ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ إلىٰ إثمهم كما قالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله تعالى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتّى إذا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ إلى قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾**» **أخرجه مسلم (٤٦٨٦) عن أبي موسىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد قال تعالىٰ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف:١٨٣].

۞ و في هذا دليل علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، كما أنها صريحة في زيادة الكفر ونقصانه، فكلما ازداد الإنسان من شعب الكفر زاد كفره، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ۝١٣٧﴾ [النساء:١٣٧].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهانون فيه، ويوجعهم.

﴿١٧٩﴾ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ﴾ أي: ما كان في حكمة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لِيَذَرَ﴾ يدع، ويترك ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من اختلاط بالكفار، والمنافقين بل لابد من تمحيص، واختبار ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ﴾ يفرق ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ وهو الكافر، والمذنب ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الطائع التائب، فيثبت الطيب، وينحرف الخبيث السيء، فالابتلاء قدر كوني جعله الله عَزَّوَجَلَّ لتمحيص المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت:١-٢].

الحكمة البالغة والحجة الدامغة، قد يبتلي؛ ليعلم من يصبر ممن ينحرف ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ أي: بسبب هذا الابتلاء؛ لأن كثيرًا من الناس إذا علموا الحكمة

والعاقبة ربما ثبتوا، لكن إذا جهلوا الحكمة والعاقبة عند ذلك يقع الانحراف؛ بسبب ضعف الثقة بالله عَزَّوَجَلَّ، والاعتماد عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي﴾ يصطفي ﴿مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ليطلعهم علىٰ ذلك الغيب، وعلىٰ تلك الحكمة ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أقرو لله بالوحدانية ولرسله بالرسالة، ويلزم من ذلك تصديقهم فيما أخبروا، وما أمروا ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تلتزموا الإيمان قولًا وفعلًا، وتجتنبوا الحرام ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ تجدونه في ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ﴾ فيه ﴿مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء٨٨:٨٩].

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠ لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٨٢ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ١٨٤﴾.

١٨٠ ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ﴾ ولا يظن ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ يمنعون ما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من الزكاة، وغيرها من النفقات ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ أعطاهم ﴿ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ﴾ بل إن بخلهم سيكون ضرره عليهم يوم القيامة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَيْهِ يَعْنِي -بِشِدْقَيْهِ- ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ الْآيَةَ**» **متفق عليه.**

وَعَنْه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ،**

فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قِيلَ: يَا رسول الله فَالْإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قِيلَ: يَا رسول الله فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلَا صَاحِبُ بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا شَيْئًا، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ، وَلَا جَلْحَاءُ، وَلَا عَضْبَاءُ تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ».

قِيلَ: يَا رسول الله ، فَالْخَيْلُ؟ قَالَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: هِيَ لِرَجُلٍ وِزْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَهِيَ لِرَجُلٍ أَجْرٌ، فَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ وِزْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِيَاءً وَفَخْرًا وَنِوَاءً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَهِيَ لَهُ وِزْرٌ، وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ لَمْ يَنْسَ حَقَّ الله فِي ظُهُورِهَا وَلَا رِقَابِهَا، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ وَأَمَّا الَّتِي هِيَ لَهُ أَجْرٌ، فَرَجُلٌ رَبَطَهَا فِي سَبِيلِ الله لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فِي مَرْجٍ وَرَوْضَةٍ، فَمَا أَكَلَتْ مِنْ ذَلِكَ الْمَرْجِ، أَوِ الرَّوْضَةِ مِنْ شَيْءٍ، إِلَّا كُتِبَ لَهُ، عَدَدَ مَا أَكَلَتْ حَسَنَاتٌ، وَكُتِبَ لَهُ، عَدَدَ أَرْوَاثِهَا وَأَبْوَالِهَا، حَسَنَاتٌ، وَلَا تَقْطَعُ طِوَلَهَا فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ، إِلَّا كَتَبَ الله لَهُ عَدَدَ آثَارِهَا وَأَرْوَاثِهَا حَسَنَاتٍ، وَلَا مَرَّ بِهَا صَاحِبُهَا عَلَى نَهْرٍ، فَشَرِبَتْ مِنْهُ وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْقِيَهَا، إِلَّا كَتَبَ الله لَهُ، عَدَدَ مَا شَرِبَتْ، حَسَنَاتٍ».

قِيلَ: يَا رسول الله ، فَالْحُمُرُ؟ قَالَ: «مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِي الْحُمُرِ شَيْءٌ، إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ الْفَاذَّةَ الْجَامِعَةَ»: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ متفق عليه.

﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾ يجعل طوق في أعنقهم، ﴿مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ مما يجب عليهم في الأموال ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ أن منع الزكاة كبيرة عظيمة من كبائر الذنوب، إلا أن صاحبه لا يكفر إن لم يجحد بها؛ لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**حتى يرى منزله إما إلى الجنة وإما إلى النار**» **متفق عليه**.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فهو الذي يبقىٰ بعد فناء خلقه، فالملك ملكه، والأمر أمره، وينبغي أن يكون العباد علىٰ ما يريد شرعًا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مطلع.

(١٨١) ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حال اليهود وطعنهم بالله عَزَّوَجَلَّ، فقال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾ اليهود ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ ظلمًا، وزورًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وهذا من جرأتهم علىٰ الله، فقد قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وقيل بأن سبب مقالتهم ما أنزل الله من قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، فأعقبهم الله الفقر الذاتي، ولذلك مهما كثرت أموال اليهود فإنهم يبخلون علىٰ أنفسهم، ولا يوسعون عليها.

﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ قاتلهم الله ، وهل غناهم إلا من الله عَزَّوَجَلَّ ثم إن ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ أي: من هذا القول القبيح الكفري، ويجازون عليه يوم القيامة ﴿وَ﴾ نكتب ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقّ﴾ حيث عمدوا إلىٰ بعضهم فقتلوهم، كما قال تعالىٰ :﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة:٨٧]، ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم يوم القيامة تكبيتًا، وإهانة ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي: عذاب النار الموجع، كما قال تعالىٰ:﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

(١٨٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بما كسبتم، وعملتم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وهذا كقوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وفي حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**».

۞ في هذه الآية الرد علىٰ الجبرية.

(١٨٣) وسمع قول اليهود: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾ أوصانا، وأوحىٰ، وأنزل في كتبه المنزلة علىٰ أنبيائه ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا﴾ بما يصدق قوله، فيأتي

﴿بِقُرْبَانٍ﴾ صدقة ﴿تَأْكُلُهُ﴾ تحرقه ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: نار تنزل من السماء تأخذه يكون ذلك دليل علىٰ قبوله، وقد ذكر في ابني آدم نحو هذا ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ [المائدة:٢٧]، أي: جاءت نار فأخذته، والله أعلم.

وفي صحيح البخاري في قصة يوشع بن نون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في شأن الغنائم، أنها كانت تأخذها النار علامة علىٰ قبولها، وهذا القول منهم لم يوافقوا فيه الحق والصواب، ولو كان ما قالوه حقًا لكان الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل تلك الآية البينة لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنهم إنما أرادوا المكابرة والتلبيس، والإيهام.

والمعلوم أن الذي منعهم من الإيمان؛ الحسد، والبغي، والكبر، فأرادوا أن يظهروا للناس أن الذي منعهم من الإيمان عدم وجود الدلائل البينات، والآيات الواضحات الجليات، وقد قَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»

متفق عليه عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فرد عليهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر الله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالأدلة الواضحات، وبالحجج القاهرات، وبالمعجزات الظاهرات، ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾، ولم تؤمنوا بهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

﴿١٨٤﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: إذ حصل التكذيب منهم يا محمد ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ كانوا من بني إسرائيل، أو من غيرهم ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالآيات الواضحات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ الكتب المكتوبات، ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ الواضح المضيء، فجاءوا بآيات مشاهدة، وبآيات مكتوبة، فأبوا إلا الكفر، والعناد.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾.

﴿١٨٥﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ منفوسة كتب الله لها الموت ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ﴾ أي: مصيبها مصيبة الموت ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ﴾ تعطون ﴿أُجُورَكُمْ﴾ ثوابكم، وجزاءكم ﴿ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ﴾ بَعُدَ ونُحيَ ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ وهم المؤمنون ﴿ فَقَدْ فَازَ﴾ فوزًا عظيمًا، حيث نُجي من العذاب الأليم، وأكرم بالكرامة العظيمة، ومفهومه أن من دخل النار فقد خسر الخسران المبين ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ الخداع الباطل الفاني، فهي عبارة عن متعة يتمتع فيها الجميع البر والفاجر، والمؤمن والكافر، وأما الآخرة فهي خاصة بأهل الإيمان.

وكم هي الآيات التي جاءت في ذم الدنيا، لتحقيرها، فأن حب الدنيا كما يقال رأس كل خطيئة، فمن أحب الدنيا، وتعلق قلبه بها زهد في غيرها، وأعظم الناس حبا للدنيا المشركون؛ لأنهم لا يؤمنون بآخرة والدنيا جنتهم، كما قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**» **متفق عليه عن أبي هريرة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأعظم الناس رغبة عن الدنيا هم خلص المؤمنين؛ لأنهم يعلمون أن الدنيا متاع الغرور، وأن نعيمها زائل، وأن قوتها تنتهي بالضعف، وشبابها ينتهي بالشيخوخة، وحياتها تنتهي بالموت، وكثرتها تنتهي بالقلة، وهذا أمر مجرب لا يحتاج كثير نظر وتأمل، ما علىٰ الإنسان إلا أن ينظر إلىٰ أسلافه القريبين، ويرىٰ ذلك فيهم ظاهرًا، وكما قيل:

ثمانيــة لابــد منهــا علــىٰ الفتــىٰ ولابــد أن تجــرىٰ عليــه الثمانيــة
ســرور وبــؤس وأجتمــاع وفرقــة وعســرٌ ويســرٌ ثــم ســقم وعافيــة

وفي حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي أخرجه الحاكم (٧٩٢٧) قالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لرجُلٍ وهوَ يعِظُه: «**اغتَنِم خمسًا قبلَ خمسٍ شبابَك قبلَ هَرمِك وصحَّتَك قبلَ سَقمِك وغناكَ قبلَ فقرِك وفراغَك قبلَ شُغلِك وَحَيَاتِك قبلَ موتِكَ**»، وقد أُعل بالإرسال ومعناه صحيح.

والسبب الذي جعل الناس يتعلقون بها أنهم قصروا في عمل الآخرة، وإلا لو أنهم اجتهدوا في عمل الآخرة لكانت رغبتهم في الآخرة فوق كل رغبة، وطمعهم في لقيِّ الله عَزَّوَجَلَّ فوق كل طمع، فعن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ**» متفق عليه.

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾.

﴿١٨٦﴾ ﴿ لَتُبْلَوُنَّ ﴾ لتختبرن ﴿ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ ﴾ بالنقص ﴿ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ بالمرض ونحوه ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ ﴾ كلامًا بائرًا سيئًا ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ﴾ كقولهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ساحر، أو أنه جاء بأساطير الأولين، وغير ذلك، وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**قال ورقة بن نوفل: لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا**» متفق عليه.

وهذه آية عظيمة يصبِّر الله عَزَّوَجَلَّ فيها محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه علىٰ القلة، وعلىٰ ما يلحق الأنفس، من الأمراض، وعلىٰ الأذىٰ الذي يصدر من المخالفين لدين الله عَزَّوَجَلَّ فعلىٰ المسلم أن يوطن نفسه علىٰ الصبر في التمسك بدين الله عَزَّوَجَلَّ ، فقد يلحقه الضرر البدني، والمالي، والقولي.

وهذا هو الواقع، ما أحد استقام علىٰ السنة لاسيما إن تفرغ لطلب العلم، وتميز عن كثير من الناس، إلا ابتلي بمثل هذا البلاء، فقد تقل تجارته، ويقل دخله؛ لتفرغه للطلب، وقد يمرض جسمه وتُنهك نفسه؛ لعدم وجود الأطعمة الكافية والعلاج اللازم، ويذم من القريب والبعيد، هذا يتهمه في دينه والآخر يتهمه في عقيدته، والله المستعان.

فعن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ ضِمَادًا، قَدِمَ مَكَّةَ وَكَانَ مِنْ أَزْدِ شَنُوءَةَ، وَكَانَ يَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، فَسَمِعَ سُفَهَاءَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا مَجْنُونٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنِّي رَأَيْتُ هَذَا

الرَّجُلَ لَعَلَّ الله يَشْفِيهِ عَلَىٰ يَدَيَّ، قَالَ فَلَقِيَهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ، وَإِنَّ الله يَشْفِي عَلَىٰ يَدِي مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرسولهُ، أَمَّا بَعْدُ**» قَالَ: فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَهَنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ، قَالَ: فَقَالَ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعْكَ عَلَىٰ الْإِسْلَامِ، قَالَ: فَبَايَعَهُ، فَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**»، قَالَ: وَعَلَىٰ قَوْمِي، قَالَ: فَبَعَثَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَرِيَّةً، فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلَاءِ شَيْئًا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً، فَقَالَ: رُدُّوهَا، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمُ ضِمَادٍ»، **أخرجه مسلم** (٨٦٨).

والسبيل للخلاص من هذا كله: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾ علىٰ أقدار الله عَزَّوَجَلَّ ، وعلىٰ أذىٰ من آذاكم من المشركين، والمخالفين لدين رب العالمين ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ بالتزام شرعه في المأمور، والمحظور ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: الصبر مع التقوىٰ ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ دليل علىٰ رباطة جأش هذا المسلم، وعلىٰ قوة تحمله؛ لعظيم الإيمان الذي في قلبه.

وفي البخاري (٦٢٠٧) عن أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رَكِبَ عَلَىٰ حِمَارٍ، عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ، وَأُسَامَةُ وَرَاءَهُ، يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي حَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، فَسَارَا حَتَّىٰ مَرَّا بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي المَجْلِسِ أَخْلاَطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ وَاليَهُودِ، وَفِي المُسْلِمِينَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ، خَمَّرَ ابْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ وَقَالَ: لاَ تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَقَفَ، فَنَزَلَ فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الله وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا المَرْءُ، لاَ أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ إِنْ كَانَ حَقًّا، فَلاَ تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ.

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَىٰ يَا رسول الله ، فَاغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ، فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَاليَهُودُ حَتَّىٰ كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ، فَلَمْ يَزَلْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّىٰ سَكَتُوا، ثُمَّ رَكِبَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دَابَّتَهُ، فَسَارَ حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَيْ سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ - يُرِيدُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ - قَالَ كَذَا وَكَذَا**».

فَقَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: أَيْ رسول الله ، بِأَبِي أَنْتَ، اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ، فَوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ، لَقَدْ جَاءَ الله بِالحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البَحْرَةِ عَلَىٰ أَنْ يُتَوِّجُوهُ وَيُعَصِّبُوهُ بِالعِصَابَةِ، فَلَمَّا رَدَّ الله ذَلِكَ بِالحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ.

فَعَفَا عَنْهُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَكَانَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ الله ، وَيَصْبِرُونَ عَلَىٰ الأَذَىٰ، قَالَ الله تعالىٰ :﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[آل عمران: ١٨٦] الآيَةَ وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

فَكَانَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَتَأَوَّلُ فِي العَفْوِ عَنْهُمْ مَا أَمَرَهُ الله بِهِ حَتَّىٰ أَذِنَ لَهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَدْرًا، فَقَتَلَ الله بِهَا مَنْ قَتَلَ مِنْ صَنَادِيدِ الكُفَّارِ وَسَادَةِ قُرَيْشٍ، فَقَفَلَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ مَنْصُورِينَ غَانِمِينَ، مَعَهُمْ أُسَارَىٰ مِنْ صَنَادِيدِ الكُفَّارِ، وَسَادَةِ قُرَيْشٍ، قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايِعُوا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَىٰ الإِسْلاَمِ، فَأَسْلَمُوا» **وأخرجه مسلم** (٦٤٠٧).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ١٨٠): "فَكَانَ مَنْ قَامَ بِحَقٍّ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يؤذَى، فَمَا لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الصَّبْرُ فِي الله، وَالِاسْتِعَانَةُ بِالله، وَالرُّجُوعُ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ". اهـ

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿١٨٧﴾ واذكر ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾ عهد ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنصارىٰ ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ أي: تنشرونه، وتظهرونه ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ أي: العلم إذا سألوكم عنه ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ طرحوا العهد ﴿وَرَآءَ﴾ خلف ﴿ظُهُورِهِمْ﴾ وتركوا العمل به،.

﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالعهد متاعًا من الدنيا، فاستبدلوا الباقي بالفاني، واشتروا الرخيص بالغالي ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: وهو من المآكل والرشاوىٰ وغير ذلك، ولا يلزم أن يحدد بشيء بعينه، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا -أَوْ: يُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا- يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**».

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ بئس البيع بيعهم.

۞ ويدخل في كتم العلم أهل البدع، فإنهم يكتمون العلم الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ، وأوحاه علىٰ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاءوا إلىٰ الناس بزبالة أفكارهم وأهوائهم، وربما حرفوا الكلم عن مواضعه، والله المستعان.

۞ وبهذه الآية احتج أهل العلم علىٰ وجوب البلاغ، وعدم كتمان العلم.

وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» **أخرجه أبو داود** (٣٦٥٨) نسأل الله السلامة.

وهذا ليس علىٰ إطلاقه، وإنما المذموم كتم العلم الذي يُحتاج إليه، أما إذا كان في كتم العلم مصلحة شرعية فيُكتم فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**حَفِظْتُ مِنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وِعَاءَيْنِ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا الْبُلْعُومُ**» **متفق عليه**.

﴿١٨٨﴾ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ يا محمد ومن معك ﴿ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ من القبائح، والشرور، ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟﴾ أن يثنىٰ عليهم ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ بما لم يقوموا به من الخير، وإنما هو من التشبع ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ فلا تظن أنهم ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بنجاة، وفوز ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

۞ وقد اختلف السلف في تفسير هذه الآية: فذهب بعضهم إلىٰ أنها خاصة باليهود، وذهب بعضهم: إلىٰ عمومها، ولا بأس بالاستدلال بعمومها، وخصوصها.

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**» متفق عليه.

وَعَنْ حُمَيْدَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، أَنَّ مَرْوَانَ، قَالَ: **اذْهَبْ يَا رَافِعُ - لِبَوَّابِهِ - إِلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْ: لَئِنْ كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنَّا فَرِحَ بِمَا أُتِيَ وَأَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، مُعَذَّبًا لَنُعَذَّبَنَّ أَجْمَعُونَ.**

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا لَكُمْ وَلِهَذِهِ الْآيَةِ؟ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ تَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ هَذِهِ الْآيَةَ، وَتَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ فَكَتَمُوهُ، إِيَّاهُ وَأَخْبَرُوهُ بِغَيْرِهِ، فَخَرَجُوا قَدْ أَرَوْهُ أَنْ قَدْ أَخْبَرُوهُ بِمَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَاسْتَحْمَدُوا بِذَلِكَ إِلَيْهِ، وَفَرِحُوا بِمَا أَتَوْا مِنْ كِتْمَانِهِمْ إِيَّاهُ، مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ» متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فِي عَهْدِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا إِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا» فَنَزَلَتْ: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ﴾ أخرجه البخاري (٤٧٧٧).

﴿١٨٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء؛ ولكنه يؤخر العقوبة؛ لإمهالهم، وإملائهم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلةً من الليالي فقال: «**يا عائشةُ ذَريني أتعبَّدُ لربي!**» قالت: قلتُ: والله إني لَأُحبُّ قُربَك وأحبُّ أن يُسرَّك قالت: فقام فتطهَّر ثم قام يصلي، فلم يزلْ يبكي حتىٰ بلَّ حِجرَه، ثم بكىٰ فلم يزلْ يبكي حتىٰ بلَّ الأرضَ وجاء بلالٌ يُؤذِنه بالصلاةِ، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله تبكي وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر.

قال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا؟**» لقد نزلتْ عليَّ الليلةَ آياتٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية».

وفي الصحيحين من حديث عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّىٰ خَتَمَ السُّورَةَ، ثُمَّ قَامَ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ، فَأَطَالَ فِيهِمَا الْقِيَامَ وَالرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَنَامَ حَتَّىٰ نَفَخَ، ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ سِتَّ رَكَعَاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ يَسْتَاكُ وَيَتَوَضَّأُ وَيَقْرَأُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ، ثُمَّ أَوْتَرَ بِثَلَاثٍ، فَأَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ فَخَرَجَ إِلَىٰ الصَّلَاةِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**اللهم اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا،**

وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا، وَمِنْ أَمَامِي نُورًا، وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، اللهمَّ أَعْطِنِي نُورًا».

﴿١٩٠﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وما فيهما من الإتقان، والآيات البديعات، والأمور العظيمات، حيث فرش الأرض، ونصب فيها الجبال، وخلق السماوات بغير عمد، ﴿وَٱخْتِلَٰفِ﴾ تعاقب ﴿ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ﴾ علامات، وحجج، ودلائل ﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

﴿١٩١﴾ وهم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من حالهم أنهم ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا﴾ في حال قيامهم في صلاتهم، وغير ذلك ﴿وَقُعُودًا﴾ حال قعودهم سواءً في صلواتهم، وغير ذلك ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ بصلاتهم، وبأذكار النوم، ونحوه ذلك.

وفي البخاري (١١١٧) عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلاَةِ، فَقَالَ: «**صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ**».

هذا عند التفسير بالخصوص، وأما على قول أكثر المفسرين فالآية دالة على تعين ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في جميع الأحوال كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وما فيهما من السعة، والعظمة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا﴾ الخلق الواسع المتقن ﴿بَٰطِلًا﴾ عبثًا، وإنما أوجدتهما لحكمة بديعة، ولغاية عظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون في ملكه، ﴿فَقِنَا﴾ جنبنا وأبعد عنا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بتوفيقنا إلى طاعتك، والبعد عن معصيتك.

﴿١٩٢﴾ ﴿رَبَّنَآ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ﴾ دخول خلود ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أهنته، وفضحته، وينادى بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨].

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين ﴿مِنْ أَنصَارٍ﴾ شفعاء كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر:٤٨-٤٩].

﴿١٩٣﴾ ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾ وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ بأن نوحده، ونتقيه ﴿فَـَٔامَنَّاۚ﴾ فاستجبنا له، ووحدنا ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ تجاوز عن سيئاتنا السالفة، ووفقنا في حياتنا الآتية ﴿وَكَفِّرۡ﴾ استر ﴿عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ بالتجاوز عنها، ونحو ذلك.

۞ وفي هذا مشروعية التوسل بالعمل الصالح.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تعالى بِهَا، لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللهم إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ، حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلَابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.

وَقَالَ الْآخَرُ: اللهم إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلَا تَفْتَحِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً، فَفَرَجَ لَهُمْ.

وَقَالَ الْآخَرُ: اللهم إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا، فَخُذْهَا فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ».

وقد جعل الله من المكفرات: الإستغفار، والتوبة، وفعل الحسنات كما قال تعالىٰ:﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود:١١٤] وما ينوب الإنسان من المصائب فعن عائشةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا، إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ**» متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**» أخرجه البخاري(٥٦٤١).

﴿وَتَوَفَّنَا﴾ اقبضنا ﴿ مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ أي: في جملتهم فاجعل وفاتنا علىٰ هدىٰ وتقىٰ وثبات، وفي حديث سهل الساعديرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**» متفق عليه. وَعَنْ جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**» مسلم (٢٨٧٨).

﴿١٩٤﴾ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾ وأعطنا ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ﴾ ألسنة ﴿رُسُلِكَ﴾ وهو التمكين في الأرض، والعز في الآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

وفي حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه أحمد (٢١٢٢٤)، قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بشر هذه الأمة بالسناء، والرفعة، والنصر، والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب**».

وعن ثوبانرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم،**

يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها -أو قال من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا » أخرجه مسلم(٢٨٨٩).

فالعز والنصر للإسلام، وإن تخلف شيء من الوعد؛ فبسبب إعراض الناس عن دينهم، وتقليدهم لأعدائهم.

﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ بإظهار ذنوبنا، ومعاصينا أمام الأشهاد ﴿ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ الذين أخبرته من قيام الساعة، والقيام بين يديك فعن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ الله، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» متفق عليه

﴿١٩٥﴾ ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ دعاءهم ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ﴾ مهما كان دقيقًا، أو كبيرًا، كما قال: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨ ﴾ [الزلزلة:٧-٨]. ﴿مِّنكُم﴾ أي: من المؤمنين، أما الكافر فعمله محبوط كما قال تعالىٰ : ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، ﴿ مِّن ذَكَرٍ ﴾ من رجالكم ﴿ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ من نسائكم ﴿ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ الرجال والنساء في باب الأجر سواءٌ، وإنما يختلفون في بعض الأحكام ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابتغاء الأجر من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ قسرًا مع حبهم لها كما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قسرًا من مكة مع حبه لها.

ففي حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: رَأَيْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَىٰ راحلته وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ، يَقُولُ: «**وَالله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله ، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى الله ، ولولا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**» أخرجه الترمذي (٣٩٢٥).

﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ بالشتم، والسب، والضرب، والقتل ﴿ وَقَٰتَلُواْ﴾ في سبيل الله لإعلاء كلمته، ﴿وَقُتِلُواْ﴾ من الكفار والبغاة، فنالتهم الشهادة ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾، وقد قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ، إِلَّا الدَّيْنَ**» أخرجه مسلم (١٨٨٦) عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ يتنعمون فيها ﴿ ثَوَابًا ﴾ أجرًا ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ يكرم به أهل التوحيد.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ١٩١): "أَضَافَهُ إِلَيْهِ وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ لِيدل عَلَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ الْكَرِيمَ لَا يُعْطِي إِلَّا جَزيلا كَثِيرًا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ يُعَذب يَكُن غَرامًا وَإِنْ يُعْطِ جَزيلا فإنَّه لَا يُبَالي". اهـ

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ حسن الجزاء، والمثاب.

ونرجو أن هذه الآية قد دخل فيها طلاب العلم في دار الحديث بدماج من جميع أوجهها، فإنهم أخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيل الله وقاتلوا وقتلوا، فنرجو أن يغفر الله لهم، وكانت أول خطبة لي في مسجد السنة بسعوان بصنعاء بعد أن أخرجنا الرافضة من دار الحديث بدماج في بيان معنىٰ هذه الآية، ولله الحمد والمنة.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

﴿١٩٦﴾ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ لا يخدعنك عن الحقيقة ﴿ تَقَلُّبُ﴾ تصرف ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، وهذا حاصل، فإننا نرىٰ أعداء الله من المشركين والمنافقين في ترف في شأنهم الدنيوي، فإن هذا التصرف، والتوسع.

﴿١٩٧﴾ ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ زائلٌ فانٍ، ﴿ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ ﴾ مصيرهم ﴿ جَهَنَّمُ﴾ خالدين فيها أبدًا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الفراش، كما قال تعالىٰ :﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿١٩٨﴾ ﴿ لَٰكِنِ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ ﴾ بفعل المأمور، وترك المحظور شأنهم آخر فإن ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ بساتين ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا ﴾ ضيافة، وكرامة ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لخلص المؤمنين ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وإن ابتلوا في دنياهم، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحىٰ:٤].

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾.

﴿١٩٩﴾ ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ عن بعض مؤمني أهل الكتاب، وهو النجاشي. فعند ابن أبي حاتم عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا مَاتَ النَّجَاشِيُّ قَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ**» فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: يَأْمُرُنَا أَنْ نَسْتَغْفِرَ لِهَذَا الْعِلْجَ يَمُوتُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾».

﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ربًا، وبالإسلام دينًا، وبحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ بالقرآن وآياته البينات الواضحات ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ في وصف محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾، خاضعين متواضعين خائفين، وجلين من الله ﴿لَا يَشْتَرُونَ﴾ لا يستبدلون ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عوضًا قليلًا زائلًا؛ كما فعل حيي ابن أخطب، وفِنْحَاص، وغيرهم من اليهود، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ آمَنَ بِي عَشَرَةٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، لآمَنَ بِي كُلُّ يَهُودِيٍّ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ**» متفق عليه.﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي: المؤمنون ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثوابهم المضاعف ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ الإحصاء، فيجازي المؤمن بإيمانه، ويجازي الكافر بإجرامه، ويكون الحساب في نصف يوم خمسمائة عام كما جاءت به الآثار.

﴿٢٠٠﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ ﴾ اصبروا على أقدار الله الكونية والشرعية، ﴿وَصَابِرُوا۟﴾ من المصابرة، والمجاهدة، ﴿وَرَابِطُوا۟﴾ من الرباط، وطول الملازمة.

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا يَمْحُوا اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصلاة بعد الصلاة، فذلك الرباط، ثلاثا**» أخرجه مسلم (٢٥١).

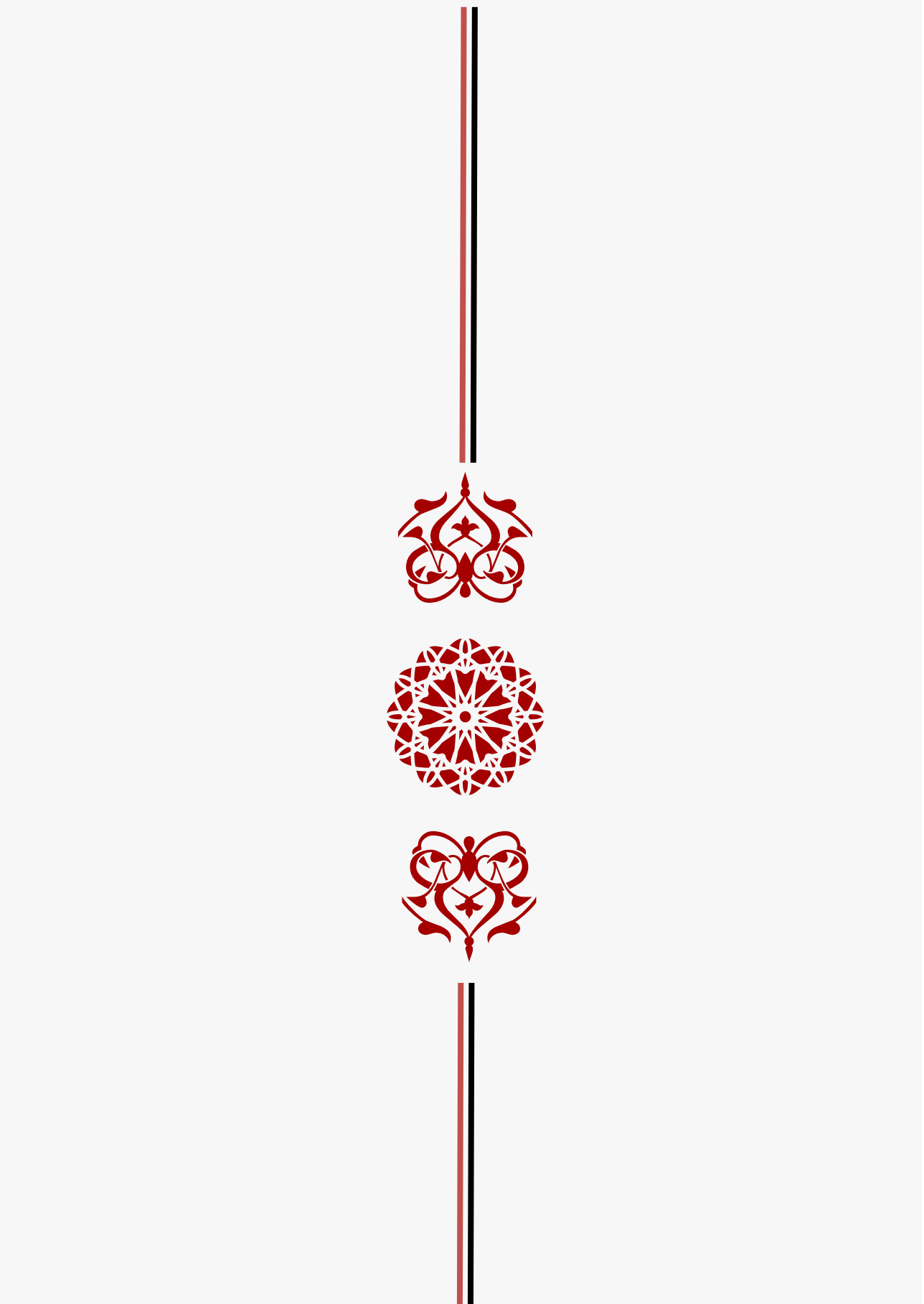
وعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**مَنْ رَابَطَ يَوْمًا أَوْ لَيْلَةً كَانَ لَهُ كَصِيَامِ شَهْرٍ لِلْقَاعِدِ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ الله ، أَجْرَى الله لَهُ أَجْرَهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ: أَجْرَ صَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَنَفَقَتِهِ، وَوُقِيَ مِنْ فَتَّانِ الْقَبْرِ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ**» **أخرجه أحمد (٢٣٧٤٧) وأصله في مسلم.**

۞ ويدخل في المرابطة ملازمة العلم وأهله، والدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فإنها من أوسع أبواب الجهاد.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ راقبوا الله عَزَّوَجَلَّ بفعل المأمور، وترك المحظور ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾ تنالون المطلوب، وتسلمون من المرهوب.

۞ وفي ختم الله عَزَّوَجَلَّ هذه السورة بهذه الآية دليل علىٰ فضيلة الصبر والمصابرة، فإن الإنسان إذا لم يصبر لحقه الفشل، وقد قيل: «**الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد**».

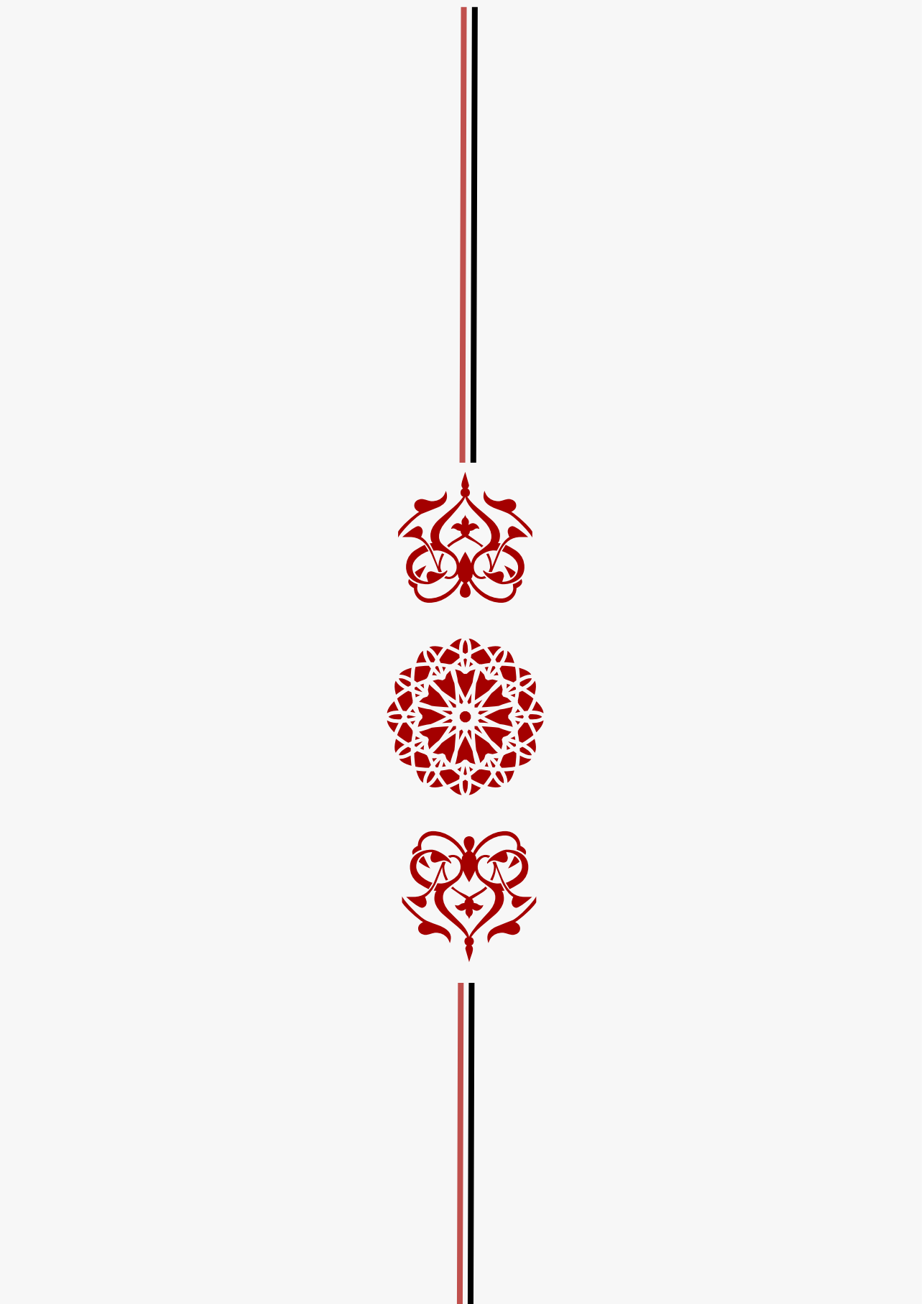
تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.





تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاء





سُورَةُ النِّسَاء

مَدَنِيَّةٌ.

وَآيَاتُهَا مِائَةٌ وَسِتَّةٌ وَسَبعُون.

وفي صحيح مسلم (٧٧٢) عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَىٰ، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَىٰ، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا ؛ إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ**»، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**»، ثُمَّ قَامَ طَوِيلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى**»، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ.

وَعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعَبْدُ الله يُصَلِّي، فَافْتَتَحَ النِّسَاءَ فَسَحَلَهَا، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**».

ثُمَّ تَقَدَّمَ سْأَلُ، فَجَعَلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ، سَلْ تُعْطَهْ**»، فَقَالَ: فِيمَا سَأَلَ: اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ إِيمَانًا لَا يَرْتَدُّ، وَنَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَمُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَعْلَى جَنَّةِ الْخُلْدِ، قَالَ: فَأَتَى عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَبْدَ الله لِيُبَشِّرَهُ، فَوَجَدَ أَبَا بَكْرٍ رِضْوَانُ الله عَلَيْهِ قَدْ سَبَقَهُ، فَقَالَ: إِنْ فَعَلْتَ، لَقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا بِالْخَيْرِ» **اخرجه أحمد (٤٢٥٥)**.

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِيَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: يَا رسول الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّىٰ أَتَيْتُ إِلَىٰ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قَالَ: «**حَسْبُكَ الْآنَ**»، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ» **متفق عليه**.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب من الله عَزَّوَجَلَّ لجميع الناس، وربما يراد به الخاص، وهم أهل الإيمان، وهم الذين يستجيبون لنداء الله عَزَّوَجَلَّ، ولنداء رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ وبهذا نعلم أن القول بأن الخطاب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ مختص بالمكي غير صحيح.

﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ اعبدوه، ووحدوه، وراقبوه، بفعل المأمور، وترك المحظور.

۞ وخاطبهم بـ(**التقوىٰ**)؛ لأن العمل بها سبب لصلاح الدين والدنيا والآخرة؛ ولأنها كلمة جامعة تقتضي: التزام شرع الله.

فإذا جمعت مع البر، فـ(**البر**): هو الطاعة، و(**التقوىٰ**): ترك المعصية، وأما إذا أفردت فهي شاملة لفعل الطاعات، وترك المعاصي والسيئات.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم﴾ أوجدكم من العدم، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهو آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، حيث خلقه من تراب ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء، فعن أَبِي هُرَيْرَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ أَمْرًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا**» متفق عليه.

﴿وَبَثَّ﴾ ذرأ ﴿مِنْهُمَا﴾ من آدم وحواء عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ ونشرهم في أقطار الأرض.

۞ وذكر هذين الصنفين دون الخنثىٰ؛ لأن الخنثىٰ قليل، وفي الغالب أن الخنثىٰ المشكل أقل من القليل.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾ تعاهدون، وتعاقدون به ﴿ وَ ﴾ اتقوا ﴿الأَرحَامُ﴾ بصلتهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**» متفق عليه، وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ الله ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ الله**» **متفق عليه.**

وحذر الله عَزَّوَجَلَّ من قطيعة الأرحام بل لعنهم حيث قال: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝٢٣ ﴾ [محمد:٢٢-٢٣]، وفي حديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ**» متفق عليه.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ ﴾ تفيد اللزوم، والاستمرار.

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي بهذه الآية في خطبة الحاجة فعن عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عَلَّمَنَا خُطْبَةَ الْحَاجَةِ: «**الْحَمْدُ الله نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرسولهُ، ثُمَّ يَقْرَأُ ثَلَاثَ آيَاتٍ:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١ ﴾ [النساء:١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب:٧٠]».

﴿ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ أي: مراقب، ومطلع علىٰ جميع أعمالكم، وأقوالكم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ۝٢٠ ﴾ [البروج:٢٠]، وقال: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾ [البروج:٩].

﴿وَءَاتُواْ﴾ أعطوا ﴿ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ ﴾ جمع يتيم، وهو من بني آدم من فقد أباه، ومن صار كبيرًا يرعىٰ نفسه لا يعد يتيمًا، فعن عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:حفظتُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُتمَ بعدَ احتلامٍ، ولا صُمَاتَ يومٍ إلى اللَّيْلِ**» **أخرجه أبو داود (٢٨٧٣).**

﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ من مورثيكم، وهذا أمر لأوليائهم ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ﴾ لا تستبدلوا، وتأخذوا، ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الحرام ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾ الحلال، بمعنىٰ أن ما أحله الله من مالكم لا تستبدلوه بالحرام، وهو مال اليتيم ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ﴾ يا معاشر الأولياء ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: اليتامىٰ ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ فتخالطونها، وتأكلونها جميعًا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا﴾ إثمًا ﴿كَبِيرًا﴾ عظيمًا فاجتنبوه، ثم رخص الله عَزَّوَجَلَّ في أكل الرجل مع الأيتام الذين يرعاهم بالمعروف.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: تخوفتم ﴿أَلَّا تُقْسِطُواْ﴾ تعدلوا ﴿فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ بإتيان حقها، وذلك أن الرجل تكون تحته اليتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ تزوجوا ﴿مَا طَابَ﴾ ما أحل ﴿لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ من سواها في حدود الأربع، ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنتين، ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ أربع، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩] إن تخوفتم عدم العدل بين الزوجات، والحيف علىٰ إحداهن، وعدم القيام بحقهن، فانكحوا واحدة، فإنه أسلم من الإثم والظلم الذي يتعاطاه كثير من الناس لاسيما في هذا الزمن، والله المستعان.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٢٠٩):" قَالَ الشَّافِعِيُّ: وَقَدْ دَلَّتْ سُنَّةُ رسول الله صَلَّىٰٓ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُبِيِّنَةُ عَنِ الله أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ غَيْرِ رسول الله صَلَّىٰٓ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِ نِسْوَةٍ وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الشَّافِعِيُّ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا مَا حُكِيَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنَ الشِّيعَةِ، أَنَّهُ يَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَىٰ تِسْعٍ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بِلَا حَصْرٍ، وَقَدْ يتمسك بعضهم بفعل رسول الله صَلَّىٰٓ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جَمْعِهِ بَيْنَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ إِلَىٰ تِسْعٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، وَأَمَّا إِحْدَىٰ عَشْرَةَ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْبُخَارِيِّ: وَقَدْ عَلَّقَهُ الْبُخَارِيُّ وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٓ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزَوَّجَ بِخَمْسَ عَشْرَةَ امْرَأَةً، وَدَخَلَ مِنْهُنَّ بِثَلَاثَ عَشْرَةَ، وَاجْتَمَعَ عِنْدَهُ إِحْدَىٰ عَشْرَةَ، وَمَاتَ عَنْ تِسْعٍ، وهذا عند العلماء من خصائصه دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأُمَّةِ". اهـ

📖وَفِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: عن عُرْوَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾، قَالَتْ: يَا ابْنَ أُخْتِي، هَذِهِ الْيَتِيمَةُ تَكُونُ فِي حَجْرِ وَلِيِّهَا، فَيَرْغَبُ فِي

جَمَالِهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْتَقِصَ صَدَاقَهَا، فَنُهُوا عَنْ نِكَاحِهِنَّ إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَأُمِرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ.

قَالَتْ: وَاسْتَفْتَىٰ النَّاسُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ الله : ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ﴾ إِلَىٰ: ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ﴾، فَأَنْزَلَ الله لَهُمْ أَنَّ الْيَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ، وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا، وَنَسَبِهَا فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ تَرَكُوهَا، وَأَخَذُوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ.

قَالَتْ: فَكَمَا يَتْرُكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوهَا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا الْأَوْفَى فِي الصَّدَاقِ» متفق عليه.

والعدل بين النساء لاسيما علىٰ الذي تحته أكثر من امرأة من الواجبات، فإن المرأة لها حق في العشرة، والنفقة، وأما الحب فقد يتفاوت الناس فيه فليس عليه مؤاخذ به.

وقد قبض رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن تسع نسوة يقسم لهن، مع أن حبه كان أكثر لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا ففي الصحيحين عن عَائِشَةَ زَوْجَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَتْ: «أَرْسَلَ أَزْوَاجُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَاطِمَةَ بِنْتَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَاسْتَأْذَنَتْ، وَرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَعَ عَائِشَةَ فِي مِرْطِهَا، فَأَذِنَ لَهَا، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إِنَّ أَزْوَاجَكَ أَرْسَلْنَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلْنَكَ الْعَدْلَ فِي ابْنَةِ أَبِي قُحَافَةَ، فَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟**».

فَقَالَتْ: بَلَىٰ. فَقَالَ: «**فَأَحِبِّي هَذِهِ** » لِعَائِشَةَ »متفق عليه.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: من الإماء.

۞ ويتحصل ملك اليمين بشراء العبيد أو من المعركة التي تكون بين أهل الإسلام والكفار، فيُسْتَرَقُّ أهل الكفر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الزواج بواحدة ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾ تجوروا، فيقع منكم الظلم، والحيف.

وقيل: أن لا تعولوا عددًا من الأطفال فتعجزون عن عيلتهم، بسبب الفقر، كقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

۞ ويذكر أهل العلم أن الباطنية قبحهم الله استدلوا بهذه الآية علىٰ جواز نكاح التسع، فقالوا: ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنتين، ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ سبع فيكون تسع، ولا تعجب فالباطنية، والرافضة في باب الفروج لا تسأل عنهم، إذ يستبيحونها باسم المتعة، وفي الشعر المذكور عن علي ابن الفضل:

أحـــل البنـــات مـــع الأمهـــات ومـــن فضـــله زاد حـــل الصـــبي

۞ وفي الجمع بين أكثر من زوجة تكثير النسل؛ إذ أنه من مقاصد الشريعة.

فعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَزَوَّجُوا الْوَلُودَ الْوَدُودَ؛ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ**» أخرجه النسائي (٣٢٢٧).

۞ ومنه: احتساب قضاء الوطر فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ**» أخرجه مسلم (١٠٠٦).

۞ ومنه: احتساب الإنفاق علىٰ المرأة، ففي الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ**»

۞ وفيه: التخفيف من العوانس، حيث يرضىٰ من أراد أكثر من زوجة بمن قد كبر سنها قليلًا، أو ربما يرضىٰ بالثيب، إلىٰ غير ذلك.

فما شرع الله من أمر إلا وفيه من المقاصد الشريعة ما نعجز عن ذكره، وقد جاءت قوانين وضعية يحرمون الجمع بين الزوجات، وهي مأخوذة من الكفار، فإن الجمع عندهم يعتبر جريمة يعاقب عليها القانون، لكن اتخاذ الأخدان عندهم من المباحات، فربما يكون للزوجة صديق، وللرجل صديقة ولا محظور، وهذا دعوة إلىٰ معصية الله ، بينما أهل الإسلام أباح الله للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة؛ إعفافًا لنفسه ولغيره.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾.

۝٤ ﴿وَءَاتُواْ﴾ أعطوا، ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾ الزوجات، ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورهن التي فرضتم لهن.

۞ وهو الحق الواجب للمرأة علىٰ زوجها، بل إنه من شروط النكاح، فلا يجوز أن تزوج المرأة إلا بولي، ومهر، ويجب أن يعلن النكاح، بخلاف زواج العاهرات.

ولاحد لأقل المهر وأكثره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، وهو المال الكثير، فلو تنازلت عن حقها جاز، وإن لم يفرض لها مهر كان لها مهر المثل.

ويجوز تقديم المهر جميعًا ويجوز تأخيره، ويجوز تقديم بعضه وتأخير بعضه، وربما كان المهر عينيًا، وربما كان معنويًا.

فمن المعنوي: ما جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَطَبَ أَبُو طَلْحَةَ أُمَّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ: وَاللهِ مَا مِثْلُكَ يَا أَبَا طَلْحَةَ يُرَدُّ، وَلَكِنَّكَ رَجُلٌ كَافِرٌ، وَأَنَا امْرَأَةٌ مُسْلِمَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَكَ، فَإِنْ تُسْلِمْ فَذَاكَ مَهْرِي وَمَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، فَأَسْلَمَ فَكَانَ ذَلِكَ مَهْرَهَا».

قَالَ ثَابِتٌ: «فَمَا سَمِعْتُ بِامْرَأَةٍ قَطُّ كَانَتْ أَكْرَمَ مَهْرًا مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ الْإِسْلَامَ، فَدَخَلَ بِهَا فَوَلَدَتْ لَهُ» **أخرجه النسائي (٣٣٤١)**.

وأعتق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وتزوجها، وكان عتاقه مهرًا لها، وزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجل بما يحفظ من القرآن.

ومن المهر العيني: أن عبدالرحمن ابن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تزوج امرأة من الأنصار علىٰ وزن نواة من ذهب.

وكلما خفت المهور كان ذلك أعظم في البركة والأجر، كما جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مَئُونَةً**»، أخرجه أحمد (٢٥١١٩)، وفيه عيسىٰ بن ميمون ضعيف؛ لكن قد زوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ابنته فاطمة بدرع حطمية، أخرجه أحمد (٦٠٣) عن علي** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأعطوهنَّ المهر ﴿نِحْلَةً﴾ أي: فريضة فرضها الله عَزَّوَجَلَّ لهن، ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ أي: إن طابت نفوس الزوجات بإعطاء أزواجهن من مهورهن، فلا حرج في ذلك إذ لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه، ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ سائغا طيبًا، لا يلحقكم فيه إثم، ولا معرة، وهو رزق جاء إليكم من غير تعب، ولا مشقة.

۞ فـ(**الهنيء**): الطيب الصائغ. و(**المريء**): المحمود العاقبة، التام الهضم الذي لا يضر.

٥ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟﴾ ولا تعطوا ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ ضعيف التصرف: كالطفل قبل البلوغ، والمجنون. وقيل النساء، **والصحيح** أن المرأة إذا كانت حرة حسنة العقل تأخذ حقها.

﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾ أي التي بأيديكم ﴿ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ أي: كنتم أولياء علىٰ أهلها، ووكلتم بالحفاظ عليها ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أعطوهم إذا احتاجوا إلىٰ طعام وشراب، وإجار بيت، ومنزل، ونحو ذلك، ﴿وَٱكْسُوهُمْ﴾ أي: ألبسوهم ما يحتاجونه لمواراة سوءاتهم، ولتجملهم، ﴿وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: عدوهم عدة جميلة، مثاله قل له: يا بني أنا ليس لي رغبة في أكل مالك، وأنا إذ أحفظ هذا المال إنما أحفظه لحظ نفسك؛ حتىٰ لا يضيع فإذا كبرت دفعته إليك، فالكلمة الطيبة صدقة.

والمعنىٰ: أن الولي يعطي السفيه من ماله بالمعروف طعامًا، وكسوة، وإجارًا، وعلاجًا، وما شاء من ذلك، وزد له الكلمة الطيبة؛ حتىٰ لا يجد في نفسه ما ينغصه ويغضبه.

٦ ﴿وَٱبْتَلُوا۟﴾ اختبروا ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ وانظروا في شأنهم، فلا تستعجلوا في دفع المال إليهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ بلغوا سن الزواج، وهذا يكون بالرشد، وتحمل المسؤولية، ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم﴾ وجدتم، والتمستم، وأبصرتم ﴿مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ عقلًا صالحًا يحفظ به المال،

ويصلح به الحال، ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أعطوهم أموالهم التي أُمّنتم عليها، فإنما كان الولي أمينًا علىٰ مال الفقير، والمرأة، والمجنون، فإذا أفاق المجنون من جنونه، وارتفع عن البقية السفه أخذوا حقهم كاملًا غير منقوص، وما كان قد لحقه النقص، فليبين لهم، وليتحلل منهم. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ﴾ أي: أموال اليتامىٰ، وذكر الأكل كناية عن غيره ﴿إِسْرَافًا﴾ من باب السرف بغير حق، والإسراف حرام مطلقًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

﴿وَبِدَارًا﴾ أي: مبادرة فتسابقون بإتلاف ما لهم من المال قبل ﴿أَن يَكْبَرُواْ﴾ فيأخذوا أموالهم، ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ عن أموالهم، بل إن استطاع أن ينفق عليهم من ماله فعل، وكان له الأجر العظيم من الله عَزَّوَجَلَّ، فإن أبىٰ إلا أن ينفق عليهم من أموالهم، فلينفق بالمعروف، وليمسك عن نفسه، فلا يأكل أموالهم، والعفة مطلوبة في جميع الأحوال، فما بالك إن كانت عن المال الذي لا يجوز لك، قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله**» **أخرجه مسلم (١٠٥٣) عن أبي سعيد** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَمَن كَانَ﴾ من أولياء اليتامىٰ ﴿فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بدون مجاوزة، وإفراط، وتفريط، وفي الحديث المتفق عليه عن عَائِشَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ:﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: «أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي وَالِي الْيَتِيمِ إِذَا كَانَ فَقِيرًا أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ مَكَانَ قِيَامِهِ عَلَيْهِ بِمَعْرُوفٍ». أي: بغير إفساد.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ أي: عند بلوغ رشدهم، ﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ حتىٰ لا يدخل الشيطان، ويقول القائل: أخذ أموالهم، وأفسدها، بل يقول: أشهدكم أني دفعت إليهم أموالهم كما استلمتها، فإن كان قد صرف منها شيئا أخرج لهم الكراريس، وبين سبب النقصان في ذلك المال، فإذ كان قد نقص من مالهم بغير وجه حق لزمه رده.

۞ وفي هذا أهمية الكتابة والإشهاد.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ مطلعًا، ومحاسبًا، وشهيدًا في حال نظرهم للأيتام، وحال دفع المال إليهم، وفي صحيح مسلم (١٨٢٦) عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ:

«يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ».

فائدة: في هذه الآية مشروعية الحَجرَ علىٰ أموال السفهاء ويكون لسببين:

(**الأول**: لحظ نفس المحجور عليه، كالحِجرِ علىٰ المجنون، والصغير، والمرأة، الذين لا يحسنون التصرف، فيحجر عليهم؛ حفاظًا علىٰ أموالهم.

(**الثاني**: الحَجر لحظ الغير، كالحجر علىٰ المفلس.

فالأول يرتفع بالرشد، وحسن المعاملة من صاحب المال، **والثاني** يرتفع بأداء الحق إلىٰ الغرماء.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾.

۝٧ كان أهل الجاهلية إذا مات الرجل فيهم أخذ ماله أكبرهم، وأقواهم، وحرموا النساء والصغار من ذلك، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في النهي عن ذلك هذا البيان العظيم: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ ويدخل في ذلك كبارهم، وصغارهم ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ﴾ صغارهن وكبارهن ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الأب، والأم، وبقية العصبة الذين يقع بينهم المواريث: كالابن، والأخ، وغير ذلك مما يأتي تفصيله إن شاء الله .

وقد يتوهم متوهم أن هذا النصيب إنما يكون من المال الكثير، فرد ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ﴾ من قليل المال وكثيره ﴿نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مَّفْرُوضًا﴾ مكتوبًا فرضه الله ، وقدره بالعدل، وهو الحكيم العليم.

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ﴾ تقسيم المواريث بين أصحاب الأنصبة الشرعية ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذين لا يرثون ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الذين لا آباء لهم ممن لا يرث، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ الذي لا مال له ﴿فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ أعطوهم، وارضخوا لهم، أي: غير مقدر بشيء محدد ولكن يعطون ما يطعمون به، ويكسون ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ﴾ أي: لمن حضر ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ فإن لم يعطوا شيئًا فليكن لهم القول المعروف: وسع الله عليكم، ورزقكم، واعذرونا لم نتمكن من إعطائكم، ونحو ذلك.

(٩) ﴿وَلْيَخْشَ﴾ الأوصياء ﴿ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ أولادًا صغارًا ﴿خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾ الضيعة، والقلة، والفقر ﴿فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في الوصية ونحوها، فلا يجوز أن يتجاوز الثلث في الوصية، لهم أو لغيرهم، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَادَنِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رسول الله، بَلَغَنِي مَا تَرَىٰ مِنَ الْوَجَعِ، وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثَيْ مَالِي؟ قَالَ: «لَا»، قَالَ: قُلْتُ: أَفَأَتَصَدَّقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: «لَا، الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَلَسْتَ تُنْفِقُ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله ، إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةُ تَجْعَلُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ» متفق عليه .

﴿وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فلا يوصي عند موته إلا بما شرع الله عَزَّوَجَلَّ دون الثلث، ولا وصية لوارث، وقد تقدم قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أَنَّ النَّاسَ غَضُّوا مِنَ الثُّلُثِ إِلَىٰ الرُّبُعِ» .

۞ وفي هذه الآية بيان أن تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب رزق الرجل وذريته.

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ بعدم دفعها لهم حين يتعين دفعها، أو حرمانهم مما أوجب الله عليهم ﴿ظُلۡمًا﴾ أي: بغير وجه حق، فخرج منه ما تقدم في الآية السابقة، ما كان بالمعروف، وذكر الأكل دون غيره؛ لشيوعه، وإلا فمن أتلف مال اليتيم في شراء ضيعة، أو شراء لباس فإنه داخل في هذا المعنىٰ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ ما يكون سببًا، وهذا علىٰ المآل أي: في الآخرة، ﴿وَسَيَصۡلَوۡنَ﴾ وهو وجد حر جهنم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦٣]، ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

﴿سَعِيرٗا﴾ أي: نارًا ملتهبة وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحين: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قِيلَ: يَا رسول الله ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بالله ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصِنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**».

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا (١١)﴾.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

أخرج البخاري ومسلم عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: عَادَنِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ فِي بَنِي سَلِمَةَ مَاشِيَيْنِ، فَوَجَدَنِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا أَعْقِلُ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَتَوَضَّأَ مِنْهُ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيَّ، فَأَفَقْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَصْنَعَ فِي مَالِي يَا رسول الله ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾.

وقد ذكر أهل العلم أن الإرث في الجاهلية كان للذكر الأقوىٰ، فجاء الإسلام بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ﴾.

وكانت الوراثة أيضًا في الجاهلية، وابتداء الإسلام بالحلف، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: ٣٣].

وكانت أيضًا بين المهاجرين، والأنصار كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [الأنفال:٧٢].

❁ فنسخ ذلك بالوراثة الشرعية، وجعل الله عَزَّوَجَلَّ أسباب الإرث ثلاثة:

١- النسب . ٢- والنكاح. ٣- والولاء.

حتىٰ قال الناظم رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

أسبابُ ميراثِ الورَىٰ ثلاثةْ ... كُلٌّ يُفِيدُ ربَّهُ الوِراثةْ

وهْي نكاحٌ وولاءٌ ونَسَبْ ... ما بَعْدَهُنَّ للمواريثِ سَبَبْ

❁ **ويتحقق الميراث**: بوجود (المُورِّث) وهو الميت، و(المَورُوث) وهو المال، و(الوارث) وهو صاحب الحق من الأحياء، وينقسم الميراث إلى:

١- فرض. ٢- وتعصيب.

فالفرض ستة هي : النصف، والربع،، والثلث، والثلثان، والسدس والثمن، على تفصيل يأتي إن شاء الله ، وما بقي سوى ذلك فهو عصبات؛ ولذلك قال رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلْحِقُوا الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَهُوَ لِأَوْلَى رَجُلٍ ذَكَرٍ**» أخرجه الشيخان عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والعصبة أقوى من الفرض؛ فهي وارثة، لاسيما إذا كان المعصب ولدًا، ولذلك لم يحدد له مقدارًا معينًا.

وأما الفرض لما كان قد يعتري صاحبه النقص فرض الله له حدًا معلومًا، ويُبدأ في حال القسمة بالفرض قبل التعصيب في مسائل كثيرة في الباب تطالع في المطولات ، والله الموفق.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ يا معاشر المسلمين، ووصية الله عَزَّوَجَلَّ أمرٌ، وفرضٌ يجب أن يؤخذ بها، وقد وصىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد والتقوىٰ، وغيره من الوصايا ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾في بيان ميراث أولادكم ذكورًا كانوا، أو إناثًا في حال التعصيب ﴿لِلذَّكَرِ﴾ من الميراث ﴿مِثۡلُ حَظِّ﴾

نصيب ﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فالأنثىٰ تنصف الرجل في الدية، والميراث، والهبة، والعتق، والشهادة، والعقيقة.

❁ **وقد أحسن الشيخ فتح القدسي حَفِظَهُ اللهُ إذ يقول:**

شـــــهادُة عقيقـــــةٌ زد إرثَـــــا عتقًـــا وعقـــلًا نَصـــفتنا الأنثـــىٰ

❁ والسبب في هذا التفضيل ما قاله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بينما المرأة قليلة النفقة، والله عَزَّوَجَلَّ هو العليم الحكيم؛ ولذلك كانت المواريث علىٰ حسب المصالح الدينية والدنيوية.

﴿فَإِن كُنَّ﴾ الوارثات:﴿نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ ولم يكن من الوارثين رجال ﴿فَلَهُنَّ﴾ أي: البنات الوارثات ﴿ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وذكر في الآية ما فوق الاثنتين، وحكم الثنتين أن لهما الثلثين؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر في آخر السورة أن للأختين الثلثين بقوله: وما بقي فوق نصيب البنات ذهب للفروض، أو العصبات ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ الوارثة ﴿وَٰحِدَةً﴾ من البنات، وليس معها معصب، ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ مما ترك والدها، ولم يذكر الولد؛ لأن الولد قد دخل في المعنىٰ الأول، وإنما يكون الفرض للبنات والأخوات مع عدم وجود المعصب الذكر، أما مع وجوده فيكون التعصيب بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ لأبوي الميت، إن قدر أنه مات قبل أبويه، أو قبل أحدهما ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ سدس المال فرضًا ﴿مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ذكر، أو أنثىٰ ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ﴾ لا ذكر، ولا أنثىٰ ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ أي: استبدا بجميع المال وذلك عند عدم وجود الزوجين ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ ثلث المال كاملًا.

❁ فإن كان مع أحد الزوجين، فقد ذهب جمهورأهل العلم، ومنهم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبقية الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلىٰ أن لها ثلث الباقي بعد الزوجين، وذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أن لها ثلث المال كاملًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "إعلام الموقعين" (١/ ٢٧٠): "فَإِنَّ اللهَ - سُبْحَانَهُ - إِنَّمَا أَعْطَاهَا الثُّلُثَ كَامِلًا إِذَا انْفَرَدَ الْأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ، فَإِنَّ قَوْلَهُ - سُبْحَانَهُ -: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ شَرَطَ أَنَّ فِي اسْتِحْقَاقِ الثُّلُثِ عَدَمَ الْوَلَدِ وَتَفَرُّدَهُمَا بِمِيرَاثِهِ، فَإِنْ قِيلَ: لَيْسَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا تَفَرَّدَا بِمِيرَاثِهِ، قِيلَ: لَوْ لَمْ يَكُنْ تَفَرُّدُهُمَا شَرْطًا لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ فَائِدَةٌ، وَكَانَ تَطْوِيلًا يُغْنِي عَنْهُ قَوْلُهُ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ فَلَمَّا قَالَ: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ عُلِمَ أَنَّ اسْتِحْقَاقَ الْأُمِّ الثُّلُثَ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ الْأَمْرَيْنِ". اهـ.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ اثنان فأكثر ذكورا أو إناثا ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ يحجبونها حجب نقصان من الثلث إلى السدس، مع أنهم لا يرثون، مع وجود الأب، لإنه يحجبهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية:

"**الْأَبَوَانِ لَهُمَا فِي الْمِيرَاثِ أَحْوَالٌ**:

أَحَدُهَا: أَنْ يَجْتَمِعَا مَعَ الْأَوْلَادِ، فَيُفْرَضُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ إِلَّا بِنْتٌ وَاحِدَةٌ، فُرِضَ لَهَا النِّصْفُ، وَلِلْأَبَوَيْنِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ، وَأَخَذَ الْأَبُ السُّدُسَ الْآخَرَ بِالتَّعْصِيبِ، فَيُجْمَعُ لَهُ -وَالْحَالَةُ هَذِهِ -بَيْنَ هَذِهِ الْفَرْضِ وَالتَّعْصِيبُ.

الْحَالُ الثَّانِي: أَنْ يَنْفَرِدَ الْأَبَوَانِ بِالْمِيرَاثِ، فَيُفْرَضُ لِلْأُمِّ -وَالْحَالَةُ هَذِهِ -الثُّلُثُ وَيَأْخُذُ الْأَبُ الْبَاقِي بِالتَّعْصِيبِ الْمَحْضِ، وَيَكُونُ قَدْ أَخَذَ ضِعْفَيِ مَا فُرِضَ لِلْأُمِّ، وَهُوَ الثُّلُثَانِ، فَلَوْ كَانَ مَعَهُمَا -وَالْحَالَةُ هَذِهِ -زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَخَذَ الزَّوْجُ النِّصْفَ وَالزَّوْجَةُ الرُّبُعَ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ: مَا تَأْخُذُ الْأُمُّ بَعْدَ فَرْضِ الزَّوْجِ وَالزَّوْجَةِ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي فِي الْمَسْأَلَتَيْنِ؛ لِأَنَّ الْبَاقِيَ كَأَنَّهُ جَمِيعُ الْمِيرَاثِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا. وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهَا نِصْفَ مَا جَعَلَ لِلْأَبِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي وَيَأْخُذُ ثُلُثَيْهِ، وَهُوَ قَوْلُ عُمَرَ وَعُثْمَانَ، وَأَصَحُّ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ عَلِيٍّ.

وَبِهِ يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَهُوَ قَوْلُ الْفُقَهَاءِ السَّبْعَةِ، وَالْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَجُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ لِعُمُومِ قَوْلِهِ: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ فَإِنَّ الْآيَةَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَهَا زَوْجٌ أَوْ زَوْجَةٌ أَوْ لَا. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، نَحْوُهُ.

وَبِهِ يَقُولُ شُرَيْحٌ وَدَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ الظَّاهِرِيُّ وَاخْتَارَهُ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ اللَّبَّانِ الْبَصْرِيُّ فِي كِتَابِهِ "الْإِيجَازُ فِي عِلْمِ الْفَرَائِضِ".

وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ، بَلْ هُوَ ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ مَا إِذَا اسْتَبَدَّ بِجَمِيعِ التَّرِكَةِ، فَأَمَّا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فَيَأْخُذُ الزَّوْجُ أَوِ الزَّوْجَةُ الْفَرْضَ، وَيَبْقَىٰ الْبَاقِي كَأَنَّهُ جَمِيعُ التَّرِكَةِ، فَتَأْخُذُ ثُلُثَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ.

وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ: أَنَّهَا تَأْخُذُ ثُلُثَ جَمِيعِ الْمَالِ فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجَةِ، فَإِنَّهَا تَأْخُذُ الرُّبُعَ وَهُوَ ثَلَاثَةٌ مِنِ اثْنَيْ عَشَرَ، وَتَأْخُذُ الْأُمُّ الثُّلُثَ وَهُوَ أَرْبَعَةٌ، فَيَبْقَىٰ خَمْسَةٌ لِلْأَبِ.

وَأَمَّا فِي مَسْأَلَةِ الزَّوْجِ فَتَأْخُذُ ثُلُثَ الْبَاقِي؛ لِئَلَّا تَأْخُذَ أَكْثَرَ مِنَ الْأَبِ لَوْ أَخَذَتْ ثُلُثَ الْمَالِ، فَتَكُونُ الْمَسْأَلَةُ مِنْ سِتَّةٍ: لِلزَّوْجِ النِّصْفُ ثَلَاثَةٌ، وَلِلْأُمِّ ثُلُثُ مَا بَقِيَ وَهُوَ سَهْمٌ، وَلِلْأَبِ الْبَاقِي بَعْدَ ذَلِكَ وَهُوَ سَهْمَانِ.

وَيُحْكَى هَذَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنَ الْقَوْلَيْنِ الْأَوَّلِينَ، مُوَافِقٌ كُلًّا مِنْهُمَا فِي صُورَةٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ أَيْضًا.

وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالْحَالُ الثَّالِثُ مِنْ أَحْوَالِ الْأَبَوَيْنِ: وَهُوَ اجْتِمَاعُهُمَا مَعَ الْإِخْوَةِ، وَسَوَاءٌ كانوا من الأبوين، أو من الْأَبِ، أَوْ مِنَ الْأُمِّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَرِثُونَ مَعَ الْأَبِ شَيْئًا، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَحْجُبُونَ الْأُمَّ عَنِ الثُّلُثِ إِلَىٰ السُّدُسِ، فَيُفْرَضُ لَهَا مَعَ وُجُودِهِمُ السُّدُسُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَارِثٌ سِوَاهَا وَسِوَىٰ الْأَبِ أَخَذَ الْأَبُ الْبَاقِي، وَحُكْمُ الْأَخَوَيْنِ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ كَحُكْمِ الْإِخْوَةِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ ".اهـ.

﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ أي: أن هذه القسمة تكون من بعد: ﴿وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ﴾ الميت: ﴿أَوۡ دَيۡنٍۗ﴾ يكون عليه فيبدأ بإخراج الحقوق من أصل التركة كأجر الدفن، والكفن، والديون والوصايا.

۞ وقُدمت الوصية لفظًا؛ لضعفها، وأخر الدين؛ لقوته. وإلا فإن من الحقوق المتعلقة بالورثة أجرة الكفن والحفر، وقيمة القبر إن كان في بلد يتطلب ذلك، ثم إخراج الدين وتقديمه محل إجماع ثم الوصية.

﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ الأب الصلبية وما علىٰ من الأجداد ﴿وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ الابن الصلبية، وما نزل من أبناء الأبناء ﴿لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ فلو جعل تقسيم الميراث إلىٰ أنفسكم لربما قدم بعضكم الآباء، وربما قدم بعضكم الأبناء، علىٰ ظن النفع، ولكن حكم الله هو المقدم، لأنه أعلم وأحكم﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ أي: ما تقدم ذكره فرضه الله لا يجوز التلاعب، والتغيير له، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ فيما فرض عليكم، ﴿حَكِيمٗا﴾ لم يقع منه الجور، والظلم، والمخالفة.

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثُمَّ الْوَرَثَةُ) عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالْفَرْضِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالتَّعْصِيبِ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِهِمَا جَمِيعًا، فَمَنْ يَرِثُ بِالنِّكَاحِ لَا يَرِثُ إِلَّا بِالْفَرْضِ، وَمَنْ يَرِثُ بِالْوَلَاءِ لَا يَرِثُ إِلَّا بِالتَّعْصِيبِ، أَمَّا مَنْ يَرِثُ بِالْقَرَابَةِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالْفَرْضِ كَالْبَنَاتِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْأُمَّهَاتِ وَالْجَدَّاتِ، وَأَوْلَادِ الْأُمِّ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِالتَّعْصِيبِ كَالْبَنِينِ وَالْإِخْوَةِ وَبَنِي الْإِخْوَةِ وَالْأَعْمَامِ وَبَنِيهِمْ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَرِثُ بِهِمَا كَالْأَبِ يَرِثُ بِالتَّعْصِيبِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَيِّتِ وَلَدٌ، فَإِنْ كَانَ لِلْمَيِّتِ ابْنٌ: يَرِثُ الْأَبُ بِالْفَرْضِ السُّدُسَ، وَإِنْ كَانَ لِلْمَيِّتِ بِنْتٌ فَيَرِثُ الْأَبُ السُّدُسَ بِالْفَرْضِ وَيَأْخُذُ الْبَاقِي بَعْدَ نَصِيبِ الْبِنْتِ بِالتَّعْصِيبِ، وَكَذَلِكَ الْجَدُّ، وَصَاحِبُ التَّعْصِيبِ مَنْ يَأْخُذُ جَمِيعَ الْمَالِ عِنْدَ الِانْفِرَادِ وَيَأْخُذُ مَا فَضُلَ عَنْ أَصْحَابِ الْفَرَائِضِ .اهـ (٢/ ١٧٢/ طيبة)

❖ **وأسباب منع الميراث ثلاثة:**

(**الأول**: القتل، على قول جمهور العلماء، وذهب غيرهم إلى أخذه من الميراث لضعف الحديث في ذلك.

(**الثاني**: الرق، فالعبيد لا يَرثون وإنما يُورثون.

(**الثالث**: اختلاف دين، فعن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَا يَرِثُ الْمُسْلِمُ الْكَافِرَ، وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ**» أخرجه مسلم(١٦١٤).

وقد قال الناظم:

الكفر عند الشافعي ملة ... ووافق النعمان والأجلة

وَعَنْد مالك ثلاث ملل ... وملل شتىٰ عند ابن حنبل

فالإمام ابن حنبل يرىٰ أن اليهودي يرث من اليهودي، والنصراني يرث من النصراني، أما عند هؤلاء فيرون أن كل كافر يرث من جميع الكفار، فيجوز للكافر المجوسي أن يرث الكافر الهندوسي أو اليهودي، أو البوذي، أو النصراني وغير ذلك، والذي يظهر القول باختلاف الملل، وأن الميراث يقع بينهم علىٰ ما هم عليه في مللهم.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (ص: ١٦٩):

"فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرقيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثىٰ، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصبة، والأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة يعسر فهمها علىٰ غير المتأمل تدل علىٰ جميع المذكورات. فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال علىٰ الورثة بحسب قربهم ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذه الحكمة بقوله: ﴿ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾ وقد عُلم أن القاتل قد سعىٰ لمورثه بأعظم الضرر، فلا ينتهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل الذي هو ضد النفع الذي رتب عليه الإرث. فعُلم من ذلك أن القتل أكبر مانع

يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن : من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانعُ الذي هو المخالفة في الدين الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالىٰ قد جعل حقوق المسلمين أولىٰ من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلىٰ من هو أولىٰ وأحق به. فيكون قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم فالأخوة الدينية مقدمة علىٰ الأخوة النسبية المجردة". اهـ

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "جلاء الأفهام" (ص: ٢٣٣):

"وَتَأمل فِي هَذَا الْمَعْنىٰ فِي آيَة الْمَوَارِيث وتعليقه سُبْحَانَهُ التَّوَارُث بِلَفْظ الزَّوْجَة دون الْمَرْأَة كَمَا فِي قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ إِيذَانًا بِأَن هَذَا التَّوَارُث إِنَّمَا وَقع بِالزَّوْجِيَّةِ الْمُقْتَضِيَة للتشاكل والتناسب وَالْمُؤمن وَالْكَافِر لَا تشاكل بَينهمَا وَلَا تناسب فَلَا يَقع بَينهمَا التَّوَارُث، وأسرار مُفْرَدَات الْقُرْآن ومركباته فَوق عقول الْعَالمين". اهـ

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (ص: ١٦٩):

"۞ وأما (**الرقيق**) فإنه لا يرث ولا يورث، أما كونه لا يورث فواضح، لأنه ليس له مال يورث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، وأما الرقيق فلا يتأتىٰ منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له.

وأما مَنْ بعضه حر، وبعضه رقيق: فإنه تتبعض أحكامه، فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبه الله في المواريث، لكون ما فيه من الحرية قابلا للتملك، وما فيه من الرق فليس بقابل لذلك، فإذا يكون (المبعض)، يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية.

وإذا كان العبد يكون محمودًا مذمومًا، مثابًا ومعاقبًا، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك.

❁ وأما (**الخنثىٰ**) فلا يخلو إما أن يكون واضحًا ذكوريته، أو أنوثيته، أو مشكلا.

فإن كان واضحًا: فالأمر فيه واضح، إن كان ذكرًا فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم، وإن كان أنثىٰ فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن.

وإن كان مشكلًا: فإن كان الذكر والأنثىٰ لا يختلف إرثهما -كالإخوة للأم- فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلىٰ العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين؛ لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوكُ أعدل الطريقين، قال تعالىٰ: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ وليس لنا طريق إلىٰ العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾

❁ وأما (**ميراث الجد**) مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟

فقد دل كتاب الله علىٰ قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء، أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ الآية [البقرة:١٣٣] .

وقال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾، فسمىٰ الله الجد وجد الأب أبا، فدل ذلك علىٰ أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجبه.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا علىٰ أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم من بني الإخوة والأعمام وبنيهم، وسائر أحكام المواريث، فينبغي أيضا أن يكون حكمُه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ قد اتفق العلماء علىٰ أنه يحجبه، فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع مَنْ يورِّث الإخوةَ مع الجد، نص، ولا إشارة، ولا تنبيه، ولا قياس صحيح.

❁ وأما (**مسائل العول**) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالىٰ قد فرض، وقدر لأهل المواريث أنصباء.

وهم بين حالتين:

إما أن يحجب بعضهم بعضًا أو لا، فإن حجب بعضهم بعضا، فالمحجوب ساقط لا يزاحِم ولا يستحق شيئًا.

وإن لم يحجب بعضهم بعضًا فلا يخلو، إما أن لا تستغرق الفروض التركة، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض علىٰ التركة، ففي الحالتين الأوليين كل يأخذ فرضه كاملا.

وفي الحالة الأخيرة وهي ما إذا زادت الفروض علىٰ التركة فلا يخلو من حالين:

إما أن ننقص بعضَ الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، ونكمل للباقين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولىٰ من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهي: أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم كديون الغرماء الزائدة علىٰ مال الغريم، ولا طريق موصل إلىٰ ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه.

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم (**الرد**) فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضُهم التركةَ وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده علىٰ أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرَهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل، ومعارضة لقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فتعين أن يُرَدَّ علىٰ أهل الفروض بقدر فروضهم.

ولما كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة علىٰ فرضهم المقدر هذا عند من لا يورِّث الزوجين بالرد، وهم جمهور القائلين بالرد، فعلىٰ هذا تكون علة الرد كونه صاحب فرض قريبا.

وعلىٰ القول الآخر: أن الزوجين كغيرهما من ذوي الفروض يُرَدُّ عليهما؛ فكما ينقصان بالعول فإنهما يزادان بالرد كغيرهما، فالعلة علىٰ هذا كونه وارثا صاحب فرض، فهذا هو الظاهر من دلالة الكتاب والسنة، والقياس الصحيح، والله أعلم.

❁ وبهذا يعلم أيضا (**ميراث ذوي الأرحام**) فإن الميت إذا لم يخلف صاحب فرض، ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين كون ماله يكون لبيت المال لمنافع الأجانب، وبين كون ماله يرجع إلىٰ أقاربه المدلين بالورثة المجمع عليهم، ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولىٰ من غيره، فتعين توريث ذوي الأرحام.

وإذا تعين توريثهم، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدر بأعيانهم في كتاب الله ، وأن بينهم وبين الميت وسائط، صاروا بسببها من الأقارب، فينزلون منزلة من أدلوا به من تلك الوسائط، والله أعلم.

❁ وأما (**ميراث بقية العصبة**) كالبنوة والأخوة وبنيهم، والأعمام وبنيهم إلخ.

فإن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولي رجل ذكر**»، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾، فإذا ألحقنا الفروض بأهلها، ولم يبقَ شيء، لم يستحق العاصب شيئًا، وإن بقي شيء أخذه أولي العصبة، وبحسب جهاتهم ودرجاتهم.

❖ **فإن جهات العصوبة خمس:**

١- البنوة. ٢- ثم الأبوة. ٣- ثم الأخوة، وبنوهم.

٤- ثم العمومة، وبنوهم. ٥- ثم الولاء.

فيقدم منهم الأقرب جهة، فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة، فإن كانوا في منزلة واحدة فالأقوىٰ، وهو الشقيق، فإن تساووا من كل وجه اشتركوا، والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات أو بنات الابن عصبات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلأنه ليس في القرآن ما يدل علىٰ أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات فرضهن، فإنه يعطىٰ للأخوات ولا يعدل عنهن إلىٰ عصبة أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم، والله أعلم". اهـ.

﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في الآية السابقة ما يتعلق بميراث الأصول والفروع، وذكر في هذه الآية ما يتعلق بميراث الزوج، والزوجة، والإخوة بأم.

﴿١٢﴾ فيقول: ﴿ وَلَكُمْ ﴾ يا معاشر الأزواج: ﴿ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ ﴾؛ لكن بشرط، ﴿ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ وهو الفرع الوارث ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ ﴾ منه، أو من غيره ذكرًا كان، أو أنثىٰ، بل وحتىٰ خنثىٰ ﴿ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾؛ لأن الفرع الوارث حجبه حجب نقصان، ويكون هذا القسم ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ علىٰ ما تقدم من إخراج الدين ثم الوصية، ثم بعد ذلك يأخذ نصيبه.

﴿ وَلَهُنَّ ﴾ الزوجة، أو الزوجات ﴿ ٱلرُّبُعُ ﴾ إن كانت واحدة لها الربع، وإن كانتا اثنتين، أو ثلاثا، أو أربعًا، فلهن الربع، يتقاسمنه بينهن، ﴿ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ ﴾ مما قل منه، أو كَثُر بشرط ﴿ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ ﴾ سواءً منهن، أو من غيرهن، ذكورًا كانوا، أو إناثًا ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ ﴾ منهن، أو من غيرهن ﴿فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ﴾ فيحجبن حجب نقصان لا حجب حرمان ﴿ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ﴾ علىٰ ما تقدم.

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ﴾ يعني: وإن كان رجل، أو امرأة يورث كلالة.

۞و(**الكلالة**) من لا ولد له ولا والد. علىٰ قول جماهير العلماء، ويدخل فيهم الجد، وابن الابن.

﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ ﴾ من الأم، وهذا بالإجماع، فليس المراد بهذه الآية إخوة النسب، ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ ﴾ هذا الحال يساوي الرجل المرأة، وبقية المسائل المرأة تنصف الذكر﴿ فَإِن كَانُوٓاْ ﴾ الإخوة لأم ﴿أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ اثنين أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، وهكذا ﴿ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ ﴾ يتساوىٰ فيه الرجال والنساء.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره (ص: ١٦٨): "ودل قوله: ﴿ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ ﴾ أن الإخوة الأشقاء يَسقُطون في المسألة المسماة بالحمارية.

وهىٰ: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف، وللأم السدس، وللأخوة للأم الثلث، ويسقط الأشقاء؛ لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعًا لما فرَّق الله حكمه، وأيضا فإن الإخوة للأم أصحاب فروض، والأشقاء عصبات، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر**»، وأهل الفروض هم الذين قدَّر الله أنصباءهم، ففي هذه المسألة لا يبقىٰ بعدهم شيء، فيَسْقُط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة، والأخوات الأشقاء، أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ الآية.

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب أو الأخوات تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت أو الأخوات لأب". اهـ.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ﴾ يوصي بها هذا الميت فتنفذ ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ ويقدم الدين علىٰ الوصية ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ غير مضار بالورثة، ولا بالوصايا، والديون ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تقدم يوصيكم به؛ لتنفذوه وتطبقوه ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حَلِيمٌ﴾ فلا يعاجلهم بالعقوبة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تقدم من آيات المواريث، وكل أوامر الله ، ونواهيه تعتبر حدودًا له، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١]، وقال: ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالتوحيد فما دونه، ومنها قسمة المواريث ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ جزاءً موفورًا عظيمًا، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الواسع الذي ليس بعده فوز؛ لأن به صلاح الدنيا والآخرة.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالشرك فما دونه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ في الفرائض، وغيرها ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ إذا كان مشركًا، فالآية علىٰ دلالتها، ويخلد فيها أبدًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿ وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ عذاب هوان شديد، ويلحقه به سوء الحال، والمآل والله المستعان.

۞ وهذا الوعيد في حق من مات علىٰ معصيته، أما من تاب فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب.

كما قال الناظم:

ومن يمت ولم يتب من الخطأ ... فأمره مفوض لذي العطاء
فإن يشأ يأخذ وإن شاء انتقم ... وإن يشأ يعطي ويجزل النعم

ويوافق في ذلك الخوارج والمعتزلة علىٰ أن من تاب من الكبيرة لا يؤاخذ بها، ولكنهم خالفوا أهل الحق فيمن مات علىٰ الكبيرة، فالخوارج والمعتزلة يوجبون له النار والخلود فيها، وأهل السنة يرون أنه تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه؛ وهذا هو الحق الذي لا معدل عنه، لقول الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦ ﴾ [النساء:١١٦].

❖ **فائدة: آيات المواريث في القرآن خمس آيات :**

الأولىٰ: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ ﴾ [النساء:٧]، **الآية.**

الثانية: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ ﴾ [النساء:١١]، **الآية.**

الثالثة: ﴿ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ ﴾ [النساء:١٢]، **الآية.**

الرابعة: ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ ﴾ [النساء:١٧٦]، **الآية.**

الخامسة: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ... ﴾ [الأنفال:٧٥]، **الآية.**

ويضاف إليها حديث أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**لاَ يَرِثُ المُسْلِمُ الكَافِرَ وَلاَ الكَافِرُ المُسْلِمَ**» **متفق عليه.**

فتكون شاملة لجميع مسائل المواريث، وهناك مسائل اختلف فيها السلف لكنها عائدة إلىٰ هذه الأدلة.

﴿وَٱلَّتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥﴾ ﴿وَٱلَّتِي﴾ أي: النساء اللاتي ﴿يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ أي: الزنا ﴿مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ أي: ممن هنَّ تحت ولايتكم ﴿فَٱسْتَشْهِدُواْ﴾ فاطلبوا ﴿عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً﴾ شهود ﴿مِّنكُمْ﴾ يشهدون أنهن وقعن في الزنا، حتىٰ يثبت عليهن الحكم.

❁ **والزنا يثبت بأمور**: بالاعتراف، والبينة، والحمل عند كثير من العلماء، وهو مذهب عمر بن الخطاب.

والذي يظهر والله أعلم: أن الحمل لا يكون دليلًا علىٰ الزنا، فإن الحمل قد يقع عن طريق الاغتصاب، أو طريق الخطأ، أو انتقال المني باستخدام بعض أدوات المزوجات، والله أعلم.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ عليهن بالزنا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ احبسوهن ﴿فِي ٱلْبُيُوتِ﴾؛ للتقليل من شرهن؛ فالخلطة بالمبتلىٰ ربما يؤدي إلىٰ ابتلاء غيره ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: حتىٰ يلحقهن الموت ﴿أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ثم جعل الله لهن سبيلًا كما في الصحيح عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا؛ الْبِكْرُ بِالْبِكْرِ جَلْدُ مِائَةٍ، وَنَفْيُ سَنَةٍ، وَالثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، جَلْدُ مِائَةٍ، وَالرَّجْمُ**» **أخرجه مسلم (١٦٩٠)** .

❁ ولم يثبت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جمع بين الرجم والجلد، فلو اكتفىٰ بالرجم فهو الثابت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

❁ وفي هذه الآية دليل علىٰ وجود النسخ في الشريعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل حكمًا ثم نسخه بحكم آخر، وفيها دلالة علىٰ نسخ القرآن بالسنة.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذَانِ﴾ من الرجال ﴿يَأْتِيَٰنِهَا﴾ أي: الفاحشة ﴿مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: بالقول، واللسان، يعيرون، ويشتمون، وربما بالضرب بالنعال، ونحو ذلك ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا﴾ تابا من الفاحشة، وأصلحا العمل ظاهرًا وباطنًا ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ﴾ أي: فلا تؤذوهما بضرب، ولا شتم، ولا تعيير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يتجاوز عن المسيء، ويقبل من المحسن إذا تاب توبة نصوحًا.

❁ النَّسْخُ: وهذه الآية منسوخة بما تقدم من حديث عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالزاني يقام عليه الحدّ إذا بلغ الأمر إلىٰ السلطان، وأما إذا لم يبلغ الأمر السلطان فالستر هو المتعين، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ادرءوا الحدود بالشبهات**» **أخرجه ابن ماجه ورواه البيهقيُّ: عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله.**

وعن أَبِي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»، **أخرجه مسلم (٢٦٩٩).**

والعجب أن كثيرًا من علماء الإخوان المسلمين والعقلانيين، كالقرضاوي ومن إليهم ينكرون حد الرجم، مع أنه كان قرآنا يتلىٰ ثم نُسخ: «الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ».

❁ وأما ما جاء من تضعيف الشيخ ابن عثيمين لهذه القصة بدعوىٰ أن الحكم عام علىٰ الصغير والكبير من البالغين والآية إنما نزلت في شأن الشيخ والشيخة، فلا يلزم أن الحكم إنما يقع عليهم فقط، فإن الآية وقعت في الشيخ والشيخة؛ لأن وقوع هذا منهم مستقبح أشد من غيرهم، وقد بينت السنة أن الحد يقام علىٰ المحصن رجمًا، وعلىٰ غير المحصن جلدًا.

ويذهب أولئك الذين تقدم ذكرهم إلىٰ إنكار الرجم، مع أن عمر يقول في مجمع من الصحابة: «**وَإِنَّ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أَحْصَنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الْحَبَلُ، أَوْ الِاعْتِرَافُ**» متفق عليه، وفي رواية: «**أَلَا وَقَدْ رَجَمَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ**».

وهذا إجماع، لا يجوز القول بخلافه ثم يأتي متخرص ويقول: إنما رجم يهوديًا ويهودية، نقول نعم رجم يهوديًا ويهودية، ورجم ماعزًا والغامدية، وهذه متواترة عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فعن بُرَيْدَةَرَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ الْأَسْلَمِيَّ، أَتَى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رسول الله ، **إِنِّي** قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَزَنَيْتُ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ تُطَهِّرَنِي، فَرَدَّهُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَاهُ، فَقَالَ: يَا رسول الله **إِنِّي** قَدْ زَنَيْتُ، فَرَدَّهُ الثَّانِيَةَ، فَأَرْسَلَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِلَىٰ قَوْمِهِ.

فَقَالَ: «**أَتَعْلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا، تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟**».

فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُهُ إِلَّا وَفِيَّ الْعَقْلِ مِنْ صَالِحِينَا فِيمَا نُرَىٰ، فَأَتَاهُ الثَّالِثَةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا فَسَأَلَ عَنْهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ لَا بَأْسَ بِهِ، وَلَا بِعَقْلِهِ، فَلَمَّا كَانَ الرَّابِعَةَ أَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ.

قَالَ فَجَاءَتِ الْغَامِدِيَّةُ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله ، إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي، وَإِنَّهُ رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رسول الله، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَ الله إِنِّي لَحُبْلَىٰ.

قَالَ: «**إِمَّا لَا فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي**».

فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ.

قَالَ: «**اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ**».

فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ الله قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَىٰ رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَىٰ وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيَّ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا.

فَقَالَ: «**مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ**»، **ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّىٰ عَلَيْهَا، وَدُفِنَتْ**) اخرجه مسلم (١٦٩٥).

۞ وأما من ذهب إلىٰ رد حدّ الرجم؛ بدعوىٰ أنه مُثْلَة، فقوله يحتاج إلىٰ تعزير، فإن المثله ما خالف الشرع.

۞ وقد ذكر أهل العلم أن الحكمة في الرجم؛ أن الزاني يتلذذ بجميع جسمه، فكان الرجم علىٰ جميع جسمه.

وقد أمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقتل يهودي بين حجرين ولم يكن مثله؛ لأنه قتل جارية بين حجرين، كما في الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وقد أمر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بتسميل أعين العرنيين، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ولم يكن مُثْلَة؛ لأنهم قطعوا، وقتلوا، وارتدوا، فما كان من شرع الله فليس فيه مُثلة.

ثم إن هذا القول لو أجري علىٰ ما قالوا لقالوا: قطع اليد مُثْلَة، والقصاص بقطع الأذن إذا كان قد قطع أذن آخر، أو جدع الأنف إذا كان قد كسر أنف آخر مُثلة، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ ﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾.

١٧ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: التوبة الصحيحة التي يقبلها الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ يعملون الأعمال السيئة ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ قال مجاهد: كل من عصىٰ الله خطأ، أو عمدًا فهو جاهل.

وقال قتادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: اجتمع أصحاب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فرأوا أن كل شيء عصي به فهو جهالة عمدًا كان أو غيره.

وليس المراد الجهل بالحكم، فإن الجاهل معذور بجهله ففي حديث عباد بن شرحبيل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: أَصَابَتْنِي سَنَةٌ، فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ فَفَرَكْتُ سُنْبُلًا

فَأَكَلْتُ، وَحَمَلْتُ فِي ثَوْبِي، فَجَاءَ صَاحِبُهُ فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَأَتَيْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: «**مَا عَلَّمْتَ إِذْ كَانَ جَاهِلًا، وَلَا أَطْعَمْتَ إِذْ كَانَ جَائِعًا**» **أخرجه أحمد** (٢٦٢٠).

﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ ﴾ يرجعون عن ذنوبهم ومعاصيهم ﴿ مِن قَرِيبٍ ﴾ أي قبل الموت، في زمن تقبل فيه التوبة ما لم يغرغر أو تطلع الشمس من مغربها، فعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**» **أخرجه أحمد** (٦١٦٠).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**» **أخرجه مسلم** (٢٧٠٣).

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يقبل توبتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم وزلاتهم، بل إنه يبدل السيئات حسنات كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان:٧٠].

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا ﴾ بمن هو صادق في توبته فتقبل منه، ﴿ حَكِيمًا ﴾ في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿١٨﴾ ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ أي: لا تقبل التوبة من أصحاب المعاصي الذين يسوفونها ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ ﴾ أي: عند النزع كما قال تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٤].

وليس من ذلك حديث المسيب بن حزن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي طالب: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**» **متفق عليه**، وهكذا قصة الغلام اليهودي الذي قال: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**» **أخرجه البخاري** (١٣٥٦) **عن أنس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ وهو في حالة سياقة الموت ﴿ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ علىٰ كفره وشركه، فلا تنفعه توبة، ولا ندامة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ عذابًا موجعًا في النار، وبئس القرار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ٢٠ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾.

١٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا﴾ أن تأخذوا أموالهن كرهًا عن غير وليس المعنىٰ إرثها بعد موتها، فهذا لا إشكال أنه يأخذه الورثة من أصحاب الفرض والعصبات.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه البخاري (٤٥٧٩) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانُوا إِذَا مَاتَ الرَّجُلُ كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ إِنْ شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا، وَإِنْ شَاءُوا زَوَّجُوهَا، وَإِنْ شَاءُوا لَمْ يُزَوِّجُوهَا فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ أَهْلِهَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ**».

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ أي: عن الزواج، ﴿لِتَذۡهَبُواْ﴾ لتأخذوا ﴿بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: من المهور والأرزاق ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ قيل النشوز، وقيل الزنا ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ ظاهرة، فإن الحكم فيها أن تخلع نفسها، فإذا خلعت نفسها جاز له أن يأخذ من مالها.

فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ امْرَأَةَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رسول الله ، ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ، مَا أَعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلاَ دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الكُفْرَ فِي الإِسْلاَمِ، فَقَالَ يَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟**» قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً**» **أخرجه البخاري (٥٢٧٣).**

❁ وقوله: (**وطلقها تطليقة**) لا تثبت قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ (البخاري): «لاَ يُتَابَعُ فِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ» وإنما تقع بينهم الفرقة بمجرد قبول العوض علىٰ الصحيح من أقول أهل العلم.

وعدتها تكون حيضة لاستبراء الرحم، وإن كانت لا تحيض فعدتها شهر فعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذِ ابْنِ عَفْرَاءَ، أَنَّهَا اخْتَلَعَتْ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَأَمَرَهَا النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أَوْ أُمِرَتْ أَنْ تَعْتَدَّ بِحَيْضَةٍ.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

۞ و(**المعروف**): كل ما وافق الكتاب والسنة، من الإحسان إليهن في المبيت والنفقة، فعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول:«**خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي**»، أخرجه الترمذي (١٩٧٧)، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ أبغضتموهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فلو صبر عليها مع كرهه لها، لاسيما إذا كان له منها الذرية فهو خير؛ لترعىٰ أبنائه وتقوم علىٰ شأنهم، وعسىٰ أن يكون في هذا المكروه

فالأبناء بحاجة إلىٰ اهتمام ورعاية، حتىٰ ولو وقع بين الأب، والأم نوع خلاف، لا يتعجل الإنسان في المفارقة والمباينة، وقد يجعل الله عَزَّوَجَلَّ بعد القطيعة قربىٰ وبعد الكره محبة والله المستعان.

۞ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ﴾ يا معاشر الأزواج ﴿ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ﴾ زوجة ﴿مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ ولم يكن من قبلها نشوز، ولا فاحشة كأن يكون قد تزوج أربعًا، ولا يستطيع أن يتزوج إلا بمفارقة إحدىٰ زوجاته، أو كانت له زوجة واحدة لكن رأىٰ أنه لا يستطيع أن يجمع بين عدة زوجات، فأراد أن يفارقها؛ من أجل أن يتزوج غيرها.﴿وَ﴾ كنتم قد ﴿ءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ وهو المال الكثير ﴿فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ قليلًا كان ، أو كثيرًا؛ بسبب رغبتكم في المفارقة، فهو مالها تتصرف فيه منعًا، وعطاءً، وصدقة، وهبة، وإن ماتت كان ميراثًا

لعصبتها ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ باطلا، وظلمًا ﴿وَإِثْمًا﴾ ذنبًا ﴿مُّبِينًا﴾ بينا واضحا فتتحملون بسبب أخذكم له الظلم المبين، والعذاب الأليم إن لم يتدارك الله العبد بالرحمة.

﴿٢١﴾ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ﴾ إنكارًا مع الاستعظام لهذا الفعل، كيف تأخذون ما لا يحل لكم، ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أراد به المجامعة، ولكن الله حيي يكني.

وأصل الإفضاء الوصول إلىٰ الشيء من غير واسطة، وهذا لا يقع إلا عن محبة في الغالب ومودة وقرب إلىٰ غير ذلك.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وهو العهد الذي أخذه الله ، علىٰ المتزوجين لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فَاتَّقُوا الله فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله**» **أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾.

فِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

عن ابنِ عباسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كان أهلُ الجاهليةِ يُحرِّمونَ ما يحرمُ إلا امرأةَ الأبِ والجمع بين الأختيْنِ قال: فأنزل الله: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾» **أخرجه ابن جرير (٨٩٣٨).**

❖ **وقبل تفسير الآيات نذكر المحرمات في النكاح، وهن:**

كل امرأة يحرم عقد النكاح عليها.

❖ **والمحرمات في النكاح قسمان:**

١- المحرمات إلىٰ أبد. ٢- والمحرمات إلىٰ أمد.

(**والقسم الأول أنواع:**

الأول: محرمات بالنسب. أي: بالقرابة وهن سبع:

١- الأمهات، والجدات، وإن علون.

٢- البنات، وبنات الأولاد، وإن نزلن.

٣- الأخوات مطلقًا. أي: سواءً كن شقيقات، أو غير شقيقات.

٤- العمات مطلقًا، وهن أخوات الآباء، والأجداد وإن علو.

٥- الخالات مطلقًا، وهن أخوات الأمهات، والجدات وإن علون.

٦- بنات الإخوة مطلقًا، وإن نزلن.

٧- بنات الأخوات مطلقًا وإن نزلن.

الثاني: محرمات بالرضاع.

وهن سبع نظير المحرمات بالنسب؛ لقول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**» **متفق عليه عن عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

الثالث: محرمات بالصهر.

❖ **وهن قرابات الزوجين وهن أربع:**

١- أمهات الزوجات، وجداتهن وإن علون.

٢- زوجات الآباء، والأجداد وإن علو.

٣- زوجات الأبناء، وزوجات أبناء الأولاد وإن نزلوا.

وهذه الثلاثة أمهات الزوجات، وزوجات الآباء، وزوجات الأبناء يثبت التحريم فيهن بمجرد عقد النكاح الصحيح، فالقاعدة: (**العقد علىٰ البنات يحرم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرم البنات**).

٤- بنات الزوجات، وبنات أولادهن وإن نزلوا، وهؤلاء لا يثبت التحريم فيهن، إلا إذا حصل وطء الزوجة بنكاح صحيح، والوطء بملك اليمين كالوطء بالنكاح الصحيح، فمن وطء أمته حرمت علىٰ أبيه وإن علا، وعلىٰ ابنه وإن نزل.

والوطء بشبهة يلحق بالنكاح الصحيح عند جمهور العلماء، وحكاه بعضهم إجماعًا.

والوطء بزنا، أو لواط لا أثر له، فلو زنىٰ بامرأة لم تحرم علىٰ أبيه، ولا ابنه، ولم تحرم عليه أمها، ولا ابنتها.

(**والقسم الثاني**: المحرمات إلىٰ أمد:

١- أخت زوجته، وعمتها، وخالتها من نسل، أو رضاع حتىٰ تبين زوجته منه.

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا، وَلَا عَلَى خَالَتِهَا**» **متفق عليه.**

٢- ما زاد علىٰ الأربع حتىٰ ينقصن، وهذا علم بالسنة؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أمر رجلًا أن يطلق أربعًا من نسائه، ويختار أربعًا.

٣- المسلمة علىٰ الكافر حتىٰ يسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠].

٤- الكافرة علىٰ المسلم حتىٰ تسلم إلا الكتابية: اليهودية والنصرانية ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

٥- المشغولة بعدة، أو استبراء لغيره حتىٰ تنتهي: كالمرأة مات عنها زوجها، أو طلقها، أو خُلعت، فلا يجوز العقد عليها في زمن العدة، وإن عقد عليها في ذلك الزمن فعقدها

باطل، ويدخل في ذلك غير المدخول بها في عدة وفاة؛ لأن غير المدخول بها ليس لها عدة في الطلاق ولكن لها عدة بالوفاة، فلا يجوز أن تزوج حتىٰ تنتهي من أربعة أشهر وعشرًا.

٦- الأمة علىٰ الحر حتىٰ تعتق، إلا إذا خاف العنت، وكانت مؤمنة ولم يجد مهر حرة، وسيأتي بيانها في موطنه.

٧- المملوكة علىٰ مالكها حتىٰ يخرجها عن ملكه، لكن يطأها بملك اليمين، أما أن يتزوجها وهي جارية فلا.

٨- المالكة علىٰ مملوكها حتىٰ تخرجه عن ملكها؛ لأنه مالها، فكيف يكون زوجًا، وتجب طاعته لها، فكيف تكون طائعة له، والزوج يكون قوامًا عليها، فكيف يقوم علىٰ سيدته، ولذلك حرم ذلك عليه.

٩- المحرمة بحج، أو عمرة حتىٰ تحل من إحرامها، وكذلك المحرم لا يتزوج حتىٰ يحل من إحرامه؛ لأمر رسول الله ﷺ بذلك عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «**لَا يَنْكِحُ الْمُحْرِمُ، وَلَا يُنْكِحُ، وَلَا يَخْطُبُ**» **أخرجه مسلم** (١٤٠٩).

١٠- الزانية حتىٰ تتوب، والزاني لا يزوج حتىٰ يتوب إلا أن يزوج بمثله.

١١- المشغولة بنكاح علىٰ ما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟﴾ ولا تتزوجوا يا معاشر المسلمين ﴿مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ وإن علو كالجد، ونحوه ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ما تزوج ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: ما قد مضىٰ في جاهليتهم؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد عفىٰ عنه، وليس معنىٰ ذلك أن يبقىٰ علىٰ نكاحه لها، ولكن يجب عليه أن يفارقها، ولا إثم عليه في ما قد مضىٰ قبل معرفة الحكم الشرعي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ كان ذنبًا مستقبحًا سيئًا، وهو من أفحش المعاصي؛ إذ أنه لم يراع حرمة الأب، وحرمة الدين ﴿وَمَقْتًا﴾ أي: بغضًا من الله عَزَّوَجَلَّ لفاعل ذلك ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ وبئس ذلك الطريق، طريقًا كان عليه العرب في جاهليتهم، وكذلك المجوس، فإنهم لا يتورعون عن نكاح المحارم.

وأخذ بمذهبهم الباطل القرمطي -لعنه الله -، وإليه تنسب تلك القصيدة:

أحـــل البنـــات مـــع الأمهـــات ومـــن فضـــله زاد حـــل الصـــبي

(٢٣) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ والمراد بهن: الأمهات، وإن علون كالجدات، ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ المراد بهن: البنات صلبية، وبنات الأبناء وإن نزلن، ﴿وَأَخَوَٰتُكُمْ﴾ من أب أو أم، أو من أحدهما ﴿وَعَمَّٰتُكُمْ﴾ أخت الأب، وما في حكمها ﴿وَخَٰلَٰتُكُمْ﴾ أخت الأم، وما في حكمها ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ وإن نزلن، كبنات أبناء الأخ، وبنات أبناء الأخت ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ في حال مجاعتكم قبل الفطام.

لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الصحيحين قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعِنْدِي رَجُلٌ قَاعِدٌ، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَرَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ.

قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رسول الله! إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرَّضَاعَةِ.

قَالَتْ: فَقَالَ: «**انْظُرْنَ إِخْوَتَكُنَّ مِنَ الرَّضَاعَةِ، فَإِنَّمَا الرَّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ**».

❖ **ويجوز رضاع الكبير للحاجة الملحة:**

ففي الصحيحين عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أَنَّ سَهْلَةَ بِنْتَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو جَاءَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رسول الله! إِنَّ سَالِمًا - لِسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ - مَعَنَا فِي بَيْتِنَا، وَقَدْ بَلَغَ مَا يَبْلُغُ الرِّجَالُ، وَعَلِمَ مَا يَعْلَمُ الرِّجَالُ. قَالَ: «**أَرْضِعِيهِ تَحْرُمِي عَلَيْهِ**» **متفق عليه**

❖ **والرضاعة الشرعية تكون بخمس رضاعات.**

فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ، يُحَرِّمْنَ، ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ، فَتُوُفِّيَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُنَّ فِيمَا يُقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ. **أخرجه مسلم (١٤٥٢)**.

❖ **والرضاعة محرمة كالنسب سواء.**

فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ**» **متفق عليه.**

❖ **ويدخل في الأمهات من الرضاعة الجدات من الرضاعة.**

وجمهور أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره يحرم، واحتج من خالفهم بحديث عائشة المذكور آنفًا، وحديث: «**لَا تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ وَالْمَصَّتَانِ**» **أخرجه مسلم (١٤٥٠).**

❖ **وتقع المحرمية أيضًا بما يسمىٰ بلبن الفحل.**

وهو قول جمهور الأئمة الأربعة، وهو الصحيح، لحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: جَاءَ عَمِّي مِنَ الرَّضَاعَةِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيَّ، فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّىٰ أَسْتَأْمِرَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا جَاءَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: إِنَّ عَمِّي مِنَ الرَّضَاعَةِ اسْتَأْذَنَ عَلَيَّ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ عَمُّكِ**»، قُلْتُ: إِنَّمَا أَرْضَعَتْنِي الْمَرْأَةُ، وَلَمْ يُرْضِعْنِي الرَّجُلُ، قَالَ: «**إِنَّهُ عَمُّكِ، فَلْيَلِجْ عَلَيْكِ**» **متفق عليه.**

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ويدخل فيها بنات الإخوة من الرضاعة، والخالات، والعمات من الرضاعة كما تقدم في النسب، والقاعدة في هذا الباب:

أقارب ذي الرضاعة في انتساب ... أباعد كلهم إلا بنيه
ومرضعة أقاربها جميعًا ... أقاربه ولا تخصيص فيه

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ سواءً كانت أمها التي ولدتها، أو جدتها، أو أمها من الرضاعة ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ أي: بنات الزوجات اللاتي يتربين في بيت زوج أمهن.

لكن الصحيح في هذه المسألة: أن الحجر خرج مخرج الغالب، وإلا فبمجرد الدخول علىٰ الأم بعقد صحيح تصير ابنتها محرمة وإن لم تكن في حجره ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ بهذا القيد، فـ(**العقد علىٰ البنات يحرم الأمهات والدخول علىٰ الأمهات يحرم البنات**).

﴿فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ أي: بالأمهات ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أن تتزوجوا بالبنات ولكن بعد الطلاق ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ﴾ أي: وحرم عليكم زوجات الأبناء ﴿ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ من صلب الأب، سواءً زوجة ابنه، أو زوجة ابن ابنه، أو زوجة ابن ابن ابنه، وهكذا.

۞ وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن زوجة الابن من الرضاعة لا تحرم استدلالا بهذه الآية، **والصحيح** أنها تحرم، فزوجة الابن من الرضاعة كزوجة الابن من النسب، لعموم حديث «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**» رواه البخاري (٢٦٤٥).

﴿ وَ ﴾ حرم عليكم ﴿ أَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ ﴾ في عقد واحد ﴿ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي: في الجاهلية، وأما إذا تزوج الرجل أختين بعد فراق أحدهما بحيث، يتزوج الأولىٰ فتطلق أو تموت فيتزوج أختها، فلا حرج في ذلك.﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا ﴾ وساترًا لما مضىٰ، ﴿ رَّحِيمًا ﴾ بعباده في مثل هذه الفرائض، والأحكام.

۞ فائدة مهمة: يحرم علىٰ الرجل:

أصوله: الجدات، والأمهات.

وفروعه: البنات، وبنات الأولاد.

وفصول أول أصوله: وهن الأخوات، وبنات الإخوة، والأخوات.

وأول فصل من كل أصل بعده: وهن الخالات، والعمات وإن علون.

ويجوز له أن يتزوج ببنات عماته، وبنات خالاته.

الجزء الخامس

﴿ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

📖وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه الإمام مسلم (١٤٥٦): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ بَعَثَ جَيْشًا إِلَىٰ أَوْطَاسَ، فَلَقُوا عَدُوًّا، فَقَاتَلُوهُمْ، فَظَهَرُوا عَلَيْهِمْ، وَأَصَابُوا لَهُمْ سَبَايَا، فَكَأَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَحَرَّجُوا مِنْ غِشْيَانِهِنَّ مِنْ

أَجْلِ أَزْوَاجِهِنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ فِي ذَلِكَ: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: فَهُنَّ لَكُمْ حَلَالٌ؛ إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ.

وهذا في حال الحرب مع الكفار فتؤخذ سبية فليس لها عدة المطلقة، ولا عدة الوفاة، ولكن عليها عدة الاستبراء، فإن كانت حاملًا انتظر إلىٰ أن تضع؛ لأن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأىٰ رجلًا يريد أن يلم بامرأة وهي حامل فقال: «**لقد هممت أن ألعنه لعنة تدخل معه قبره**»، **أخرجه مسلم** (١٤٤١) **عن أبي الدرداء** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وإذا لم تكن حاملًا فإنها تستبرأ بحيضة.

❖ وهل هذا في جميعهن أم في ذوات الأزواج؟

هذا الذي يظهر إلا إذا كان الزنا قد فشىٰ عندهم فلا حرج منه من الاستبراء.

﴿وَ﴾ مما حرم عليكم ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾ أي: ذوات الأزواج، لا يحل لكم نكاحهن إلا بعد فراقهن لأزوجهن، وانتهاء العدة ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ بالسبي فيحل لكم وطؤهن بعد الاستبراء، وهذا التحريم ﴿كِتَٰبَ﴾ فرض، وحكم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فالزموه.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: ما عدا من ذكرنا من المحارم، فلا حرج عليكم: ﴿أَن تَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا ﴿بِأَمْوَٰلِكُم﴾ إعفاف أنفسكم بدفع مهور النساء بشرط أن تكونوا في زواجكم ﴿مُّحْصِنِينَ﴾ إعفاء عن الحرام ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ زانيين ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾ بالنكاح المشروع ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾ أعطوهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، والمراد بالاستمتاع هنا: استمتاع النكاح، لا زواج المتعة؛ فإن زواج المتعة قد حرمه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم أوطاس، وهو شعار الرافضة الآن.

فعن الرَّبِيعُ بْنُ سَبْرَةَ الْجُهَنِيُّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ فِي الِاسْتِمْتَاعِ مِنَ النِّسَاءِ، وَإِنَّ الله قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا**» **أخرجه مسلم.**

ونكاح المتعة محرم عند جماهير العلماء بل القول بتحريمه يُعد إجماعًا إلا ما روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقيل رجع عنه.

ففي البخاري (٥١١٦) عن أبي جمرة قال: سمعت ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ فَرَخَّصَ، فَقَالَ لَهُ مَوْلًى لَهُ: إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الحَالِ الشَّدِيدِ، وَفِي النِّسَاءِ قِلَّةٌ؟ أَوْ نَحْوَهُ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَعَمْ.

ثم إن لفظة: ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم ﴾ لفظة عامة، فتحمل علىٰ المحكم مما أباحه الله للمسلمين.

۞ فائدة: قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: لا أعلم في الإسلام شيئًا أحل ثم حرم، ثم أحل ثم حرم غير المتعة.

أَقُولُ: هذا القول منتقد؛ فإن بعض أهل العلم يرىٰ أنها لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان التحريم يوم أوطاس، وسبب ذلك ما جاء عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ مُتْعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ**» متفق عليه.

فكان النهي يوم خيبر عن لحوم الحُمر الإنسية فقط، فظن الراوي أن تحريم المتعة كان في يوم خيبر.

وهذا الحكم يعتبر ﴿ فَرِيضَةً ﴾ من الله ، فمن تزوج امرأة من غير مهر فنكاحه باطل، إلا أنه يجوز أن يؤخر المهر، ويجوز أن يقدم بعضه، ويجوز أن يكون المهر عينا، ويجوز أن يكون المهر معنىٰ، فإن أم سليم تزوجت أبا طلحة علىٰ الإسلام، وزوَّج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلا امرأة بما معه من القرآن، ولا حد لأقل المهر وأكثره، فقد تقدم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ والقنطار المال الكثير، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَنَّهُ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَمْ كَانَ صَدَاقُ رَسُولِ الله ﷺ ؟ قَالَتْ: «كَانَ صَدَاقُهُ لِأَزْوَاجِهِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً وَنَشًّا»، قَالَتْ: «أَتَدْرِي مَا النَّشُّ؟» قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَتْ:

«نِصْفُ أُوقِيَّةٍ، فَتِلْكَ خَمْسُمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَهَذَا صَدَاقُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِأَزْوَاجِهِ» أخرجه مسلم(١٤٢٦) إلا ما كان من أم حبيبة، فإن النجاشي أمهرها أربعة ألف درهم، والله أعلم.

وزوَّج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابنته فاطمة بدرع حطمية.

وأما ما يذكر في أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ تزوج امرأة علىٰ خدمة عشر سنين، وهذا زمن طويل.

فإما أن يقال: بأن شرع من قبلنا ليس بشرع لنا، وإما أن يقال: بأن وضع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يستدعي ذلك، والله أعلم.

﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ لا إثم ﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ﴾ من المال، ونحوه تزيدها خرصا، أو شيئًا ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ أي: من بعد المهر المفروض ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ فيما فرض، وشرع.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أي: عجز ﴿مِنكُمْ﴾ يا معاشر المسلمين ﴿طَوْلًا﴾ ليس عنده فضل، وسعة من المال ﴿أَن يَنكِحَ﴾ يتزوج ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الأحرار من المؤمنات، فقد أباح الله عَزَّوَجَلَّ له أن يتزوج الإماء من المؤمنات.

ومن باب الفائدة: الإحصان له عدة معاني:

(**الأول**: المزوجات كما تقدم. (**الثاني**: الحرائر. (**الثالث**: العفيفات.

﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ المملوكات لغيركم.

قال البغوي (٢/ ١٩٧): "وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْحُرِّ نِكَاحُ الْأَمَةِ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا يَجِدَ مَهْرَ حُرَّةٍ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ خَائِفًا عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنَ الْعَنَتِ، وَهُوَ الزِّنَا، لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ وَهُوَ قَوْلُ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَبِهِ قَالَ طَاوُسٌ وَعَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ.

وَجَوَّزَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ لِلْحُرِّ نِكَاحُ الْأَمَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ فِي نِكَاحِهِ حُرَّةٌ، أَمَّا الْعَبْدُ فَيَجُوزُ لَهُ نِكَاحُ الْأَمَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي نِكَاحِهِ حُرَّةٌ أَوْ أَمَةٌ، وَعَنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَجُوزُ إِذَا كَانَتْ تَحْتَهُ حُرَّةٌ، كَمَا يَقُولُ فِي الْحُرِّ". اهـ.

﴿مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ فيما يظهر لكم، فلا يجوز نكاح الأمة الكتابية.

۞وهذا دليل علىٰ أن نكاح الأمة محرم علىٰ الحر إلا إذا عجز عن مهر الحرة، وخاف علىٰ نفسه الزنا.

وذلك أن الأمة مملوكة لسيدها يبيعها، ويشتريها، وربما أجرها، ووهبها، وابنها سيكون ابن أمة، في قول كثير من أهل العلم: إنها تلحقه العبودية، والرق، والإسلام حثّ علىٰ العتق، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً مُسْلِمَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ**» متفق عليه.

فكيف يرضىٰ لولده أن يكون رقيقًا يباع، ويشترىٰ، ويورث، فالعبد في باب المعاملات كالحيوان البهيم، يجوز أن ترهنه كما ترهن سلس الذهب، أو شيئًا من المال في قرض، أو نحو ذلك، ويجوز أن تؤجره كما تؤجر سيارتك ودابتك، ويجوز أن تهبه لآخر، وإذا مت كان موروثًا كما تورث بقية الأموال، فلذلك حرم نكاح الإماء إلا لمن عجز عن الزواج، وخشي علىٰ نفسه الفتنة.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۡ﴾ أعلم بظواهركم، وبواطنكم، ويعلم المفسد من المصلح، ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ ما دمتم من أهل الإيمان، فلا تتحرجوا من الزواج بهن، فالحر، والعبد بعضهم من بعض، ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا نِكَاحَ إلا بِوَلِيٍّ**» **أخرجه أبو داود (٢٠٨٥)عن أبي موسىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

۞ وفي هذا رد علىٰ من جوز للمرأة تزويج نفسها أو غيرها.

﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾ أعطوهن ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ من غير مطل، ولا ضرر ﴿مُحۡصَنَٰتٍ﴾ أي: عفائف بالنكاح ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ﴾ غير زانيات ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ أي: أصحاب في السر، ويعاقروهن بالباطل ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ﴾ أي: بالزواج، وقيل الإسلام ﴿فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ بالزنا ﴿فَعَلَيۡهِنَّ﴾ في الحد ﴿نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الحرائر ﴿مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: أن الحرة تجلد مائة جلدة، والرقيق يجلد خمسين جلدة، وقيل تجلد بغير تحديد، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ، فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ، فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَبِعْهَا، وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ**» متفق عليه.

۞ وبهذه الآية استدل جمهور العلماء علىٰ أن الأمة ليس عليها الرجم؛ إذ أن الرجم لا ينصف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الزواج من ملك اليمين يجوز ﴿لِمَنۡ خَشِيَ﴾ خاف ﴿ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡ﴾ التعب والفتنة بسبب تأخر الزواج ﴿وَأَن تَصۡبِرُواْ﴾ وتستعفوا عن الزواج منهن حتىٰ تتيسر الحرة ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أفضل ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بهذه الأحكام التي تقدمت.

۞ وفيه: إثبات صفة الإرادة لله عَزَّوَجَلَّ، والمراد بها هنا: الإرادة الشرعية، وهي التي تكون في المحبوب، وأما الإرادة الكونية فتكون في المحبوب وغيره، ولابد أن تقع.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ يوضح ﴿لَكُمْ﴾ سبل الهداية والضلال، فمن أخذ بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من المهتدين ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ يوفقكم، ويرشدكم، ويدلكم، ﴿سُنَنَ﴾ طرق، ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من المؤمنين في تحريم الأمهات، والبنات، والأخوات ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ مما يخالف الشرع، فيتجاوز عنكم حين تلتزمون شرعه، ويستجيب لكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يصلحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه، ويدبره من الأمور.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ أي: بما فرض عليكم، وكررها لبيان فضله الواسع ﴿أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أن يقع منكم الرجوع إليه، فيتوب عليكم، ويتجاوز عن تقصيركم ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ من المفسدين أهل الخنىٰ، والزنا، والفجور، والغناء ﴿أَن تَمِيلُوا۟﴾ تنحرفوا عن دينكم، واستقامتكم ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ انحرافًا كبيرًا، وهذا هو الحاصل والله المستعان، فقد أُنشئت في بلاد الإسلام السينما، والمسارح، والمراقص، والفنادق التي تؤوي هؤلاء، بل قد صار مصرحًا بالزنا في كثير من الدول، وهذا كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ، وَالْحَرِيرَ، وَالْخَمْرَ، وَالْمَعَازِفَ**» **اخرجه البخاري (٥٥٩٠) عن أبي مالك الأشعري** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿٢٨﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بشرعه لكم، ما شرع من الأحكام ﴿أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ الآصار، والأغلال، فإن هذا الدين يسر، وسهل في أحكامه، وشريعته، فَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**» **اخرجه البخاري (٣٩)**، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ في باب الشهوات، والنساء لا يُصبر عنهن، والله المستعان، فلا عصمة إلا بالله ، وقيل ضعفه أنه خلق من ماء مهين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ٣٠ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ٣١﴾.

٢٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم﴾ أي: أموال بعضكم بعضًا ﴿بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي: بالحرام، ويدخل في ذلك الربا، والقمار، والغصب، والسرقة، والخيانة ونحو ذلك من العقود الفاسدة، فالآية علىٰ عمومها، والقاعدة عند بعضهم: **(ما أخذ بوجه الحياء فهو حرام)**، وفي الحديث: «**إِنَّهُ لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ**» **أخرجه أحمد**(٢٠٦٩).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، وَعَنْ أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما البيع عن تراض**» **أخرجه ابن ماجه** (٢١٨٥).

۞ وفي قوله: ﴿أَمۡوَٰلَكُم﴾ رد علىٰ الاشتراكية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أضاف المال إلىٰ أصحابه وحرم أكله بالباطل، والحمد الله أن هذه الفرقة قد ظهر عيبها، ولحقها الخسران المبين في الدنيا كما هو لاحق لأهلها في الآخرة.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ﴾ التعاملات بينكم ﴿تِجَٰرَةً﴾ أي: الذي أباحه الله لكم الربح الذي يكون من أموالكم التي تتاجرون بها ﴿عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ بطيبة من أنفسكم ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ وهذه عامة، فيدخل فيها قتل الأبناء، والنفس، والغير، وسيأتي بيان ذلك في موطنه إن شاء الله تعالىٰ .

۞ وفي قوله: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ رد علىٰ الذين يفجرون أنفسهم بالأحزمة الناسفة وغيرها؛ بدعوىٰ أنهم ينغمسون في العدو، فما هو إلا أنهم يقتلون أنفسهم مخالفين لأمر الله.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَيْءٍ فِي الدُّنْيَا، عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» **متفق عليه عن ثابت بن الضحاك** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، يَتَرَدَّى فِيهِ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمُّهُ فِي يَدِهِ، يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» متفق عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ أي: بإحلال الحلال وتحريم الحرام.

٣٠ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: القتل بغير حق، وأكل أموال الناس بالباطل ﴿عُدۡوَٰنٗا﴾ بغيًا ﴿وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ﴾ ندخله ﴿نَارٗا﴾ وعيد عظيم يدل علىٰ أن فاعل ذلك من مرتكبي الكبائر، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تعذيبهم في النار، ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء.

٣١ ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ إن تبتعدوا عن كبائر الذنوب، وعظيم الآثام ﴿نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ الصغائر.

۞ وهذا دليل علىٰ أن ترك الكبائر سبب لتكفير الصغائر، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

❖ **وقد اختلف الناس في حد الكبيرة:**

فقيل: سبع، وهي المذكورة في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رسول الله ، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**» متفق عليه.

وقيل: ثلاث لحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رسول الله مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِالله**» قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْيَمِينُ الْغَمُوسُ**»، قُلْتُ: وَمَا الْيَمِينُ الْغَمُوسُ؟ قَالَ: «**الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ**» متفق عليه.

وفي حديث أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**»، ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَىٰ يَا رسول الله قَالَ: «**الْإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ**»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّىٰ قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. **أخرجه البخاري (٢٦٥٤).**

والأحاديث تدل علىٰ أن الكبائر أكثر من سبع، بل قال ابن عباس: هي إلىٰ السبعين أقرب، وبعضهم قال: إلىٰ السبعمائة أقرب.

❁ **وضابطها**: أن الكبيرة ما تُوعد عليه بنار، أو حرمان من جنة، أو لعن، أو طرد من رحمة الله ، أو جُعل عليه حد في الدنيا، أو في الآخرة.

❁ وعقيدة أهل السنة والجماعة أن من مات علىٰ الكبائر أنه داخل تحت المشيئة، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» **أخرجه الترمذي (٤٧٣٩).**

﴿ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: نتجاوز عن معاصيكم، ومكفرات الذنوب كثيرة، منها ما جاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**» **أخرجه مسلم (٢٣٣).**﴿ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ أي: الجنة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٨].

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿٣٢﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ ناهيًا المؤمنين عن تمني زوال النعمة عن إخوانهم: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ سواءً في الميراث أو في غيره، فإن لله الحكمة البالغة

والحجة الدامغة، في ما شرع، وقضىٰ فإنه فعال لما يريد، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء:٢٠]، وفضل الله عَزَّوَجَلَّ الرجال علىٰ النساء في الميراث؛ للقوامة علىٰ النساء بالنفقة ونحوها، ويدخلون في دفع الديات وغير ذلك كما يلزم العاقلة بخلاف النساء.

۞ والغبطة جائزة. ففي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَآنَاءَ النَّهَارِ**».

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ قيل كل يرث بحسبه، وقالوا كل له جزاء عمله بحسبه من الرجال والنساء ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ﴾ أن يعطكم، ويزيدكم.

۞ وفي هذه الآية قطع لمادة الحسد التي سيطرت علىٰ قلوب ضعفاء النفوس والله المستعان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إذ أعطىٰ كل نوع ما يناسبه كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورىٰ:٢٧].

﴿٣٣﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الرجال، والنساء ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ أي: عصبة يرثونه، ويرثهم ﴿مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ الأب والأم، وقد يدخل فيه الجد والجدة إن لم يوجد من يحجبهم، ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الأعمام، وما في بابهم ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي: من كان بينكم وبينهم ميثاق، ومحالفة ﴿فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ﴾ من الميراث.

۞ النَّسْخُ: ولكن هذا منسوخ بآيات الميراث.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾ مطلع.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ قيام الولاة المصلحين للرعية، وقوامتهم ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بسبب تفضيل الرجال بالعقل والقوامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٨]، فهم المسلطون عليهن تأديبًا، وتقويمًا، وتوجيهًا.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: الرجال ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ علىٰ النساء، في المهور، والنفقات فهم يتولون ذلك، ويكدحون، وينصبون؛ من أجل الإنفاق عليهن، ويدخل في هذه النفقة المهر وما يليه، وبهذا تعلم أن خروج المرأة من بيتها للوظيفة ليس بمستقيم، لأن شأنها البيت والحشمة، وإن خرجت لحاجة، فمع الستر، والحجاب، وأمن الفتنة، ونفقتها الواجبة علىٰ من يلي شأنها من الرجل علىٰ الأب ثم علىٰ الزوج ثم علىٰ الابن، ومن نزل منزلتهم.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ من النساء، وهذا امتداح من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنات المطيعات، ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مداومات علىٰ الطاعة، ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ من الفروج وغيره ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ أي: بحفظهن لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ من النساء المتمردات علىٰ الشرع، والأزواج ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ بكلام فيه لين توجه فيه إلىٰ طاعة الله، وطاعة زوجها، وبيان فضل ذلك ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ﴾ وهي الخطوة الثانية في حق النساء ﴿فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾ قيل: الجماع. وقيل:

الفرش، وفي حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا حَقُّ الْمَرْأَةِ عَلَىٰ الزَّوْجِ؟ قَالَ: «**أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ، وَأَنْ يَكْسُوَهَا إِذَا اكْتَسَى، وَلَا يضرِبِ الْوَجْهَ، وَلَا يُقَبِّحْ، وَلَا يَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ**» أخرجه ابن ماجه (١٨٥٠).

فتهجر عن المعاشرة، وما من شأنه إصلاح شأنها ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ويكون الضرب غير مُبرِّح؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صحيح سنته: «**وَلَا تَضْرِبِ الْوَجْهَ**» وقد تقدم.

وفي حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « **فَاتَّقُوا الله فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ**» أخرجه مسلم (١٢١٨).

﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ﴾ بامتثال شرع الله ، والطاعة بالمعروف، ﴿فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ﴾ أي: علوًا وقهرًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ علىٰ عباده، فلربما انتقم لهذه المخلوقة الضعيفة، فكما أن لها حقًا فإن عليها ، ونطالبها به فلها حقا تُطالب به.

❖ **لأن الناس في مسألة النساء ثلاثة أقسام:**

١- **منهم:** من يتسلط علىٰ المرأة ظلمًا وقهرًا وإذلالًا.

٢- **ومنهم:** من تتسلط عليه المرأة قهرًا وإذلالًا.

٣- **ومنهم:** العدل الخيار، وهم الذين يلتزمون شرع الله عَزَّوَجَلَّ في المرأة، فيعرفون لها إسلامها، وإنسانيتها والحق الذي لها، وكذلك إن خالفت تعامل معها بالتدرج: الوعظ، والتوجيه، والإرشاد، فإن لم ينفع انتقل معها إلىٰ أعلىٰ من ذلك وهو الهجر الحسن، فلا يهجرها بتركها في بيت أبيها سنة، أو نصف سنة، أو شهر، أو أكثر وأقل، وإنما يهجرها في بيته، يدخل عندها ويأكل ويشرب، فإذا جاء النوم تركها في شأنها تأديبًا لها لا تعذيبًا.

ومن أشد أنواع الهجر علىٰ النساء أن تهجر في فراشها، مع ذلك الصبر مطلوب لضعف عقول النساء، وضعف حالهن.

۞ وفي هذه الآية رد علىٰ دعاة تحرير المرأة، المنادين بحق المرأة، ويقصدون بحقها مساوات المرأة بالرجل في جميع الشؤون حتىٰ في الميراث، والدية، بل وتجرء بعض الزنادقة إلىٰ الدعوة إلىٰ المساواة في التعدد.

۞ **ثم إن الناس في ضرب النساء أقسام:**

(**الأول: من يضربهن بغير سبب يستحق.** فعن عبد الله بن زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ يَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ الْعَبْدِ، فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَوْمِهِ**» متفق عليه.

(**الثاني: من لا يبالي بتقويمها مطلقًا حتىٰ، وإن كانت متمردة عاصية.**

(**الثالث: من يكون معها علىٰ حال حسن، فإن حصل ما يستوجب التأديب أدبها.**

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أي: تيقنتم ﴿شِقَاقَ﴾ أي: خلافًا ﴿بَيْنِهِمَا﴾ بين الزوجين ﴿فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾ رجلًا عدلًا من أهل الزوج ﴿وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ رجلًا عدلًا من أهل الزوجة يتكلم بلسانها، ويطالب بحقوقها، ﴿إِن يُرِيدَآ﴾ الزوج والزوجة، وقيل ، ولا يمنع من إرادة الزوج والزوجة والحكمين؛ لأن الحكمين لن يتصرفا إلا بإذن موكليهما، ﴿إِصْلَٰحًا﴾ توفيقًا ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ بين الزوجين فيجعل الله عَزَّوَجَلَّ قبولًا لهذا الصلح والخير، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

والواقع أن كثيرًا من الناس يدخل في هذه المسألة من قبيل الإفساد لا الإصلاح إلا من رحم الله ، وإلا فينبغي أن يُغلَّب بين الزوجين أسباب الألفة، ودوام العشرة، وبقاء الأنس والمحبة؛ لأن ذلك من أسباب إغاظة الشيطان.

وفي حديث جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ. قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ، وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**» اخرجه مسلم (٢٨١٣).

فيفرح إبليس؛ لأنه فرق بين الزوجين، والتفريق بينهما سبب لضياع الأبناء، ونسيان المعروف والجميل والعشرة، وربما كان سببًا لفساد، أكبر من هذا، فالواجب السعي فيما هو من أسباب الصلح والمقاربة بين الزوجين.

۞ وهذه الآية دليل علىٰ شمول هذا الدين وعظيم شأنه؛ إذ أنه تطرق إلىٰ الخلاف بين الأزواج، بخلاف ما يدعيه الكفار من أن دين الإسلام لم يعط المرأة حقها، كيف هذا وقد جعل لها المقاضاة مع زوجها حتىٰ يقع الصلح، والألفة، أو الفراق كما سيأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء:١٣٠]، ويكون هذا آخر الحلول كما يقال: آخر العلاج الكي.

﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آمرًا الناس كافة وعباده المؤمنين خاصة: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: وحدوه، وأطيعوه، وهذا هو حق الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العباد، ففي حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟**» قَالَ: الله وَرسوله أَعْلَمُ، قَالَ: «**أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟**» قَالَ: الله وَرسوله أَعْلَمُ قَالَ: «**أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**» متفق عليه.

﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ﴾ لا في أسمائه وصفاته، ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة في سياق النهي تفيد العموم. لا يشرك بالله الشرك الأصغر، ولا الأكبر فكله غير مغفور

لمن لم يتب منه **علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم** لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨] إلا أن صاحب الشرك الأصغر لا يخلد في النار.

وما خلق الله الخليقة إلا لعبادته كما قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، وأرسل الرسل لتحقيق ذلك فقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] .

وكان أول أمر في القرآن في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] كما تقدم، والعبادة هي رأس الأمر، وأساسه، وهي متضمنة للخضوع، والحب، والتذلل.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ ويكون ذلك ببرهما، والعطف، والرفق بهما إلىٰ غير ذلك، وقد قرن الله عَزَّوَجَلَّ حق الوالدين بحقه؛ لعظيم شأنهما، وعلو منزلتهما، وكبير حقهما، إلا أن الطاعة لهما تكون في المعروف كما في قوله: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان:١٥]، وفي حديث أبي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**الوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ البَابَ، أو احفظه**» **أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٣)**

﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي: وأحسنوا إلىٰ ذي القربىٰ، وهم قرابة الرجل من أعمامه، وأبناء أعمامه، وإخوانه، وأجداده، ومن إليهم، وَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**» **متفق عليه.** ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ جمع يتيم: وهو من مات أبوه قبل أن يلحقه البلوغ، وفي حديث علي: «**لَا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلَامٍ**» **أخرجه أبو داود(٢٨٧٣).**

وَعَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا**» **متفق عليه.**

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ فيحتاج إلىٰ رفق، وعناية، وشفقة.

﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ جمع مسكين: وهو من لا يجد ما يغديه، ويعشيه، ويدخل فيه الفقير: وهو من لا يجد ما يكفيه، فيحسن إليهم بالإنفاق، والتواضع لهما ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الجار القريب الذي بينك، وبينه نسب وسبب، فله حقان: حق القرابة، وحق المجورة.

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ؟**»، قِيلَ: وَمَنْ يَا رسول الله ؟ قَالَ: «**الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ**» .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**» متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**» أخرجه مسلم (٢٦٢٥).

﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة، وقيل الجار من الكفار، فله حق يؤدىٰ إليه ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ يعني الرفيق في السفر، وقيل المرأة تكون مع زوجها فهي صاحبة له كما قال تعالىٰ : ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن:٣]. ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو المسافر الذي لازم السفر حتىٰ سمي به، فمن لازم شيئًا سميَّ به كما قال بعضهم:

إن تسألوني عن الهوىٰ فأنا الهوىٰ ... وابن الهوىٰ وأخو الهوىٰ وأبوه

فهذا يحتاج إلىٰ ما يبلغه منزله ومسكنه، ويحتاج إلىٰ أن لا يعترض له في طريقه بإخافة ونحو ذلك.

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي وأحسنوا إلىٰ ما ملكت أيمانكم من الأرقاء، سواءً كان العبيد أو الإماء، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أوصىٰ بهم خيرًا، فعن المَعْرُورَ بْنَ سُوَيْدٍ، قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا ذَرٍّ الغِفَارِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَىٰ غُلاَمِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا، فَشَكَانِي إِلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ إِخْوَانَكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ**

تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» متفق عليه.

وروي عنه أنه كان يقول: «الصَّلَاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ».

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي، فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا: «اعْلَمْ، أَبَا مَسْعُودٍ، الله أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ»، فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: يَا رسول الله، هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ الله، فَقَالَ: «أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ»، أَوْ «لَمَسَّتْكَ النَّارُ» أخرجه مسلم (١٦٥٩).

۞ وتسمىٰ هذه بآية الحقوق العشرة: وهي حقوق اتفقت عليها الشرائع ودلت عليها الفطرة، وبها يستقيم شأن الحياة الدنيوية والأخروية، وسيأتي مثيلها في ﴿سورة الأنعام﴾، عند قوله: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام: ١٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا﴾ متكبراً متعاظمًا، ﴿فَخُورًا﴾ يتعالىٰ بين الناس بشأنه، ويفتخر إما بلونه، أو بلبسه، أو بماله، أو غير ذلك، والاختيال يكون في اللباس وفي غيره، فعن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متفق عليه.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي قَدْ أَعْجَبَتْهُ جُمَّتُهُ وَبُرْدَاهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ الْأَرْضُ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» متفق عليه.

٣٧ ومن صفات من تقدم أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بما أوجب الله عليهم من الحقوق كالزكاة، والنفقات الواجبة ﴿ وَيَأْمُرُونَ ﴾ مع بخل أنفسهم ﴿ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾ وهذا من أشد أنواع البخل إذ لم يكتفوا بتلبسهم بهذه الصفة الذميمة حتىٰ أمروا غيرهم بمنع حقوق الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَ ﴾ هم مع بخلهم ﴿ يَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ﴾ أعطاهم ﴿ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ وفي حديث أبي رمثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَآنِي سَيِّئَ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ لَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، مِنْ كُلِّ الْمَالِ قَدْ آتَانِي الله »، فَقَالَ: «إِذَا كَانَ لَكَ مَالٌ فَلْيُرَ عَلَيْكَ» أخرجه أحمد(٥٢٩٤). ﴿ وَأَعْتَدْنَا ﴾ أعددنا ﴿ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ موجعًا.

۞ وهذا دليل علىٰ وجود النار.

٣٨ ﴿وَ﴾ من صفاتهم أيضًا أنهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ إن أنفقوا ما ظاهره الخير ﴿ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ مراءة لا امتثالًا، ولا احتسابًا.

۞وفيه: خطر الرياء وعظيم شأنه، ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»، أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

وَعَنه: «أَوَّلُ النَّاسِ يُقْضَى لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ فُلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ».

قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «وَلَمْ أَفْهَمْ تُحِبُّ كَمَا أَرَدْتُ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنْ لِيُقَالَ إِنَّهُ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، فَأُلْقِيَ فِي النَّارِ».

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ولا يحققون الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فالإيمان بالله رأس كل خير، والإيمان باليوم الآخر يجعل الإنسان يعمل، يرجو ثواب الله ويخشىٰ عقابه. ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُۥ قَرِينًا﴾ صاحبًا، وخليلًا ﴿فَسَآءَ﴾ فبئس الشيطان ﴿قَرِينًا﴾ له وهذا حالهم، فإن الشيطان لهم صاحب وخليل، فيؤزهم علىٰ الباطل أزًا، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، وقال: ﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ من الضرر ﴿لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ربًا ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ موعدًا ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ سواءً الصدقة الواجبة التي هي الزكاة، أو الصدقة المستحبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ بنياتهم وأحوالهم، فيجازيهم علىٰ صنيعهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ لكمال عدله ﴿لَا يَظْلِمُ﴾ فإنه يقول عَزَّوَجَلَّ عن نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، ويقول: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف ٤٩]، وفي الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**» أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ الْمُؤْمِنَ حَسَنَةً يُعْطَى عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ حَسَنَاتِهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ يُعْطَى بِهَا خَيْرًا**» أخرجه مسلم (٢٨٠٨).

وتسمىٰ هذه الصفة عند أهل العلم بالصفات السلبية، وضابطها:

أن الله عَزَّوَجَلَّ موصوف بالإثبات، وإذا وصف بالنفي؛ فلبيان عموم كمال، أو لدفع توهم نقص، أو لرد ما ادعاه في حقه المبطلون.

ويشترط في الصفات السلبية أن تتضمن كمال الضد، ولو تأملت حال الملوك لوجدت عندهم الظلم والطيش والبغي إلا ما رحم ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقليل ما هم؛ ولذلك قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ الله فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ..**» وذكر منهم: «**الْإِمَامُ الْعَادِلُ**» بينما ربنا وله المثل الأعلىٰ لا يظلم أحدًا وزن ﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ولا دونها، وهذا كقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨].

وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا، ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا، ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا**» أخرجه مسلم (١٨٣).

﴿ وَإِن تَكُ حَسَنَةً ﴾ إن يكن عند المسلم حسنة لكرمه ﴿ يُضَٰعِفْهَا ﴾ الحسنة بعشرة أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وفي حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنْ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ: «**إِنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا الله عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا الله عَزَّوَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ**

ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» متفق عليه.

﴿وَيُؤْتِ﴾ يعطي مع ذلك الأجر والمثوبة ﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ من عنده ﴿أَجْرًا﴾ ثوابًا ﴿عَظِيمًا﴾ فيزيد في العطاء من عنده أجرًا مضاعفًا عظيمًا لا يعلم قدره إلا الله كما قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ:٣٦].

﴿٤١﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال الناس يوم القيامة ﴿إِذَا جِئْنَا﴾ أتينا ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد عليهم بأعمالهم وذلك حين يجمع الله الأولين والآخرين ينفذهم الداعي ويشهد عليهم أنبياؤهم ورسلهم، وتشهد عليهم جوارحهم، وتشهد عليهم ملائكة الله ، وتشهد عليهم صحفهم،وأيضًا تشهد عليهم الأرض التي عصوا الله عليها كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة:٤-٥].

كما قال تعالىٰ : ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

وفي حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ. فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ، وَأُمَّتُهُ. فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ رسول كل أمة ﴿عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** علىٰ أتباعه، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، **وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ»** أخرجه البخاري(٤٤٨٧).

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ أي: علىٰ أمتك وقيل بل علىٰ جميع الأمم، وهذا هو الواقع.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالجحود، والكبر والإعراض، وغير ذلك من أنواع الكفر ﴿وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: بالكفر ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: انشقت، وبلعتهم لما يروا من الأهوال ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ أي: أنهم لَيُخبرون بكل ما حدث منهم كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وفي حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فَضَحِكَ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ قُلْنَا:** الله وَرسولهُ **أَعْلَمُ، قَالَ:** «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ.**

يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى.

قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي.

قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا.

قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فعنكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»، أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

وَعَنْ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**». قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: « **فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ قَالَ: «**أَمْسِكْ**»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ» **أخرجه البخاري (٤٥٨٣).**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾.

اختلف العلماء في آية التيمم، فذهب بعضهم إلىٰ أنها آية النساء، وذهب بعضهم إلىٰ أنها آية المائدة، وقد جاءت الروايات بالآيتين، فلا يمنع أنها نزلت إحدىٰ الآيتين، وهي آية

النساء أولًا، ثم أنزل الله عَزَّوَجَلَّ آية المائدة بعد ذلك مبينًا بعض الأحكام التي لم تذكر في آية النساء.

﴿٤٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده المؤمنين ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: لا تصلوا ﴿وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ في حال سكركم حتىٰ يقع منكم الصحو، والانتباه.

❖ **وذلك أن الخمر حرم علىٰ ثلاثة أنحاء:**

● **الأول**: أن الله عَزَّوَجَلَّ بين ضررها فقال عنه وَعَنْ الميسر: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩].

● **الثاني**: أنه نهىٰ عن الصلاة في حالة السكر، فالسكران حكمه حكم المجنون في كثير من أموره؛ إذ أنه لا يعقل ما يصدر منه.

● **الثالث**: أنه حرمها جملة فقال تعالىٰ:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠﴾ [المائدة:٩٠].

﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ بذهاب السكر عنكم ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: لا تقربوا الصلاة إن كنتم جنبًا.

۞ والجنابة تحصل بالإيلاج، أو الإنزال، أو بهما .

﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ مسافرين، أو عابرين المسجد من جانب إلىٰ جانب علىٰ قول من يمنع دخول الجنب المسجد، **والصحيح جواز دخوله**، فقد كان أهل الصفة يسكنون المسجد مع عزوبتهم، والمعلوم أن العازب قد يناله شيء من الجنابة.

﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ من الجنابة، **فالمعنىٰ**: أنه لا يجوز أن تقربوا الصلاة مع الجنابة حتىٰ يقع منكم الغسل، إلا أن تكونوا مسافرين، ولم تجدوا ماء ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ وهذا قول علي، وابن عباس، وسعيد ابن جبير، ومجاهد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبَلُ صَلاَةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ**» متفق عليه.

وأما حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « **إِنِّي لا أُحِلُّ المسجِدَ لحائِضٍ ولا جُنُبٍ**» **أخرجه أبو داود (٢٣٢)** فهو حديث ضعيف من طريق جسرة بنت دجاجة مجهولة.

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ أي: تعجزون عن استخدام الماء ﴿ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ ﴾ لا تجدون الماء، أو تجدونه ولا يكفي لشربكم، واستخدامكم ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ ﴾ المكان الهابط من الأرض، واستخدم كناية عن الخارج من الإنسان، وهو من نواقض الوضوء إجماعًا.

﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ﴾ جامعتم ﴿ ٱلنِّسَآءَ ﴾ **علىٰ الصحيح** من أقوال أهل العلم، وهو المروي عن ابن عباس وغيره، وهذا القول الذي لا ينبغي أن يقال غيره؛ وأما اللمس بمعنىٰ اللمس باليد فليس بناقض؛ فقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي من الليل فيمس عائشة، ولم ينتقض وضوؤه ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ أو عجزتم عن استخدامه ﴿فَتَيَمَّمُواْ ﴾ اقصدوا التراب، وما في حكمه من الصعيد الطاهر، فالتيمم في اللغة القصد ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ قيل الصعيد: كل ما صعد علىٰ وجه الأرض وذهب الجمهور إلىٰ اشتراط التراب استدلالًا بما جاء عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا**» **أخرجه مسلم (٥٢٢)**.

لكن الصحيح أنه لا يشترط، بل كل ما صعد علىٰ وجه الأرض جاز التيمم به، وهذا القول عليه جمع من المتقدمين والمتأخرين والذي عليه التحقيق: أن التراب إنما ذكر علىٰ الغالب، وإلا فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خرج إلىٰ تبوك، وفقدوا الماء، وكانوا يتيممون، ومعلوم أن الصحاري إنما فيها الرمال غالبا، ومع ذلك لم ينقل أنهم كانوا يتطلبون التراب.

﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾ جاء القرآن بتقديم الوجه علىٰ اليدين، وجاءت السنة بتقديم الوجه وتقديم اليدين في بعضها، فلا حرج بتقديم أيهما.

ففي حديث عبد الرحمن بن أبزىٰ، عن أبيه، قال: أن رجلا أتىٰ عمر بن الخطاب.

فقال: إني أجنبت فلم أجد الماء.

فقال عمر: لا تصل، فقال عمار بن ياسر: أما تذكر، يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية، فأجنبنا فلم نجد الماء، فأما أنت فلم تصل، وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت، فلما

أتيت النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فذكرت ذلك له، فقال: «**إنما كان يكفيك**» وضرب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بيديه إلىٰ الأرض، ثم نفخ فيهما، ومسح بهما وجهه وكفيه» **وهذا لفظ ابن ماجه (٥٦٩)** والحديث **متفق عليه.**

۞والمسح يكون للوجه والكفين فقط، وما زاد عن ذلك بالمسح إلىٰ المرفقين أو الآباط، وإن قال به بعض الفقهاء فليس عليه دليل يثبت عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والمراد باليد هنا: الكف وما إليه فلا يدخل فيه الساعد والمرفق، لبيان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾﴾ متجاوزًا يعفو عن عباده، والله المستعان.

❖ **والحدث يقع بأمور منها:**

ما خرج من السبيلين، من بول، أو غائط، أو ريح، ويكون بالجماع ولو كان بغير إنزال، وبزوال العقل، والردة، وأكل لحم الإبل، والنوم المستغرق، ومس الفرج من غير حائل، علىٰ ما هو مفصل في موطنه.

۞ **وقد أحسن الشيخ فتح القدسي حَفِظَهُٱللَّهُ بنظمها فقال:**

وأن تـــرد مـــا يـــنقض الوضـــوء ... بـــه الـــدليل جاءنـــا وضـــيئ

قـــل خـــارج مـــن الســـبيلين اتُّـــقِ ... لحـــم الجـــزور نومـــت المســـتغرق

زول عقـــــــــل ردة جنابـــــــــة ... ومـــــس فـــــرج فتبـــــع صـــــوابه

وفي التيمم من اليسرية ما الله به عليم إذ أن الإنسان يستطيع أن يرفع حدثه بضربة علىٰ ما صعد علىٰ وجه الأرض، فيمسح وجهه ويديه إن كان الماء مفقودا فالنعمة فيه ظاهرة إذ أن الإنسان لا يحرم من العبادة بسبب فقد الماء، وإن كان الماء موجودًا مع مرض العبد تيمم رحمة بنفسه، وشفقة عليها.

ومذهب عمر وابن مسعود -رضوان الله عليهما-: «**أنه لا تجب الصلاة على من لم يجد الماء، وأنه لا يصلي**»، وهو مذهب مرجوح ردَّ عليه عمار كما تقدم، ورد عليه أبو موسىٰ الأشعري في مناظرته لابن مسعود، عَنْ شَقِيقٍ، قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ عَبْدِ اللهِ ، وَأَبِي مُوسَىٰ.

فَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَجْنَبَ فَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا كَيْفَ يَصْنَعُ بِالصَّلَاةِ؟.

فَقَالَ عَبْدُ الله: لَا يَتَيَمَّمُ وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ شَهْرًا.

فَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ: فَكَيْفَ بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي ﴿ سورة المائدة﴾: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النساء: ٤٣].

فَقَالَ عَبْدُ الله: لَوْ رُخِّصَ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لَأَوْشَكَ إِذَا بَرَدَ عَلَيْهِمُ الْمَاءُ أَنْ يَتَيَمَّمُوا بِالصَّعِيدِ.

فَقَالَ أَبُو مُوسَىٰ، لِعَبْدِ الله : أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ عَمَّارٍ بَعَثَنِي رَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ فَأَجْنَبْتُ فَلَمْ أَجِدِ الْمَاءَ، فَتَمَرَّغْتُ فِي الصَّعِيدِ كَمَا تَمَرَّغُ الدَّابَّةُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا» ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدَيْهِ الْأَرْضَ ضَرْبَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ مَسَحَ الشِّمَالَ عَلَىٰ الْيَمِينِ، وَظَاهِرَ كَفَّيْهِ، وَوَجْهَهُ، فَقَالَ: عَبْدُ الله أَوَلَمْ تَرَ عُمَرَ لَمْ يَقْنَعْ بِقَوْلِ عَمَّارٍ؟» **أخرجه مسلم** (٣٦٨).

وهذا رأي لا يقدم علىٰ الشرع، وقول الفقهاء: لا يصح التيمم للصلاة إلا بعد دخول الوقت.

أَقُولُ: لا دليل عليه بل إنه يجوز أن يتيمم فيصلي بها ما شاء من الفرض والنفل، ما لم يحدث بأحداث الوضوء وزيادة وجود الماء للعادم، أو القدرة علىٰ استعماله للعاجز، والله الموفق.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ هذا شروع في ذكر بعض صفات اليهود فيقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا محمد: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾ اليهود ﴿أُوتُواْ﴾ أعطوا ﴿نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو التوراة يعني يهود المدينة.

﴿يَشْتَرُونَ﴾ يستبدلون ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ وهي الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان الذي هو حق الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَيُرِيدُونَ﴾ يحبون أن يقع منكم ﴿أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ الطريق فتكونون مثلهم ضالين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٠٩].

﴿٤٥﴾ وهذا حال اليهود والنصارىٰ مع المؤمنين في كل زمن، فليكن المؤمن علىٰ حذر من مداخلهم، ومكرهم، وتلبيسهم علىٰ المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾ منكم، وإن أظهروا لكم الود، إلا أن الله يعلم ما في قلوبهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ حافظًا، ومعينا لأوليائه، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ لكم ﴿نَصِيرًا﴾ وقيل معناه اكتفوا بالله وليًا، واكتفوا به نصيرًا، فمن تولاه الله عَزَّوَجَلَّ عزّ، ومن قلاه الله عَزَّوَجَلَّ ذلّ، ومن نصره الله عَزَّوَجَلَّ غَلب، ومن خذله الله عَزَّوَجَلَّ غُلِب.

﴿٤٦﴾ والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب ويستبدلون الهدىٰ بالضلال هم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود وطريقهم أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يغيرون، ويتأولون ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ كلام الله عَزَّوَجَلَّ فطريقهم تحريف كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فيغيرونه، وقد يكون التحريف للفظ، وقد يكون لمعناه، وقد يكون لكليهما، وقد وافقهم علىٰ هذا السبيل الجهمية ومن إليهم من المعطلة، حيث حرفوا دلالة

الصفات عن مراد الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ تأويلات باردة يخالفها العقل والنقل يعرف ذلك من نظر إلىٰ طريقهم في باب الأسماء والصفات فلا يثبتون لله سمعًا، ولا بصرًا، ولا علمًا، غير ذلك.

﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي عن دلالته التي يدل عليه، ووافقهم في هذا المعطلة من المعتزلة، والجهمية، ومن نحا نحوهم من محرفي دلالات النصوص ﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ ما يتلىٰ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ الأمر، وهذا خلاف طريق المؤمنين إذ يقولون سمعنا وأطعنا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عنهم في آخر ﴿سورة البقرة﴾: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ﴿وَٱسْمَعْ﴾ منا يا محمد ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ ولا نسمع منك يضمرون السبأ قيل بمعنىٰ: لا سمعت ﴿وَرَٰعِنَا﴾ ويريدون بها الرعونة؛ وظاهرها إرادة الانتظار ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة:١٠٤].

﴿لَيًّا﴾ انحرافًا ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ فيلوونها بالباطل تحريفًا ﴿وَطَعْنًا﴾ قدحًا ﴿فِى ٱلدِّينِۚ﴾ الحق، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وامتثلوا أمر الله ، وشرعه ﴿وَٱسْمَعْ﴾ كلامنا ﴿وَٱنظُرْنَا﴾ انتظرنا نفهم عنك، أو انظر إلينا، ولم يقولوا: راعنا. ﴿لَكَانَ﴾ التزام الطاعة ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدارين ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أصوب، وأعدل ﴿وَلَٰكِن﴾ بسبب ما هم فيه من الباطل ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وحرمهم التوفيق ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يؤمن منهم إلا القليل فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ تَابَعَنِي عَشَرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ**» أخرجه مسلم (٢٧٩٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ٤٧ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾.

٤٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ خطاب من الله عَزَّوَجَلَّ لليهود والنصارىٰ ﴿ءَامِنُواْ﴾ اقروا ﴿بِمَا نَزَّلۡنَا ﴾ في القرآن ﴿مُصَدِّقٗا﴾ موافقًا ﴿لِّمَا مَعَكُم﴾ في التوراة، والإنجيل ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ﴾ نمحو ﴿وُجُوهٗا﴾ فتُطمس بصائرهم، فلا يعرفون حقًا، ولا يجتنبون باطلًا إلا ما أشرب من هواهم، وقد يكون المراد بالطمس حقيقته كما مسخ الله عَزَّوَجَلَّ منهم القردة، والخنازير ﴿فَنَرُدَّهَا﴾ أي: الوجوه ﴿عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ﴾ القفا.

﴿ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ﴾ نطردهم من الرحمة ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ ﴾ أي: الذين استحلوا السبت حيث جعل منهم قردة وخنازير، وسيأتي بيان شأنهم في ﴿سورة الأعراف﴾ إن شاء الله ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ القدري الكوني ﴿مَفۡعُولًا﴾ لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

٤٨ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ إشراكًا به.

۞ فيدخل فيه كل من مات علىٰ الشرك الأكبر والأصغر، فإن الشرك لا يغفر إلا بتوبة قبل الموت.

❖ **وقد اختلف العلماء في معنىٰ الآية إلىٰ قولين:**

(**الأول**: أن الآية عامة في حق من مات علىٰ الشرك الأكبر، والأصغر.

(**الثاني**: أن الآية في حق الشرك الأكبر، وباب الشرك الأصغر باب الكبائر، فيكون تحت المشيئة، وهذا قول جمهور العلماء من المتقدمين والمتأخرين.

والصحيح أنها عامة في الشركين، كما اختاره ابن عثيمين، وهو اختيار شيخ الإسلام، وابن القيم، والسعدي، وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين، وقد بينت ذلك في شرحي علىٰ

كتاب التوحيد المسمىٰ: بـ(فتح الوهاب شرح كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب)، فمعنىٰ الآية أن الله لا يغفر إشراكًا به صغر أم كبر، إلا أن الشرك الأصغر صاحبه لا يخلد في النار، والشرك الأكبر صاحبه يخلد في النار.

۞ والآية في حق من مات علىٰ الشرك، أما من تاب قبل ذلك فقد أخبر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وبهذا تعلم خطر الشرك فكبائر الذنوب من المعاصي صاحبها تحت المشيئة، ومن مات علىٰ غير الشرك قد يُغفر له، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عَنِ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» **أخرجه الترمذي (٤٧٣٩)**.

وَعَنْه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: سَمِعْتُ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**» **أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)**.

﴿ وَيَغۡفِرُ﴾ يستر، ويعفو، ويتجاوز ﴿ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ ما سوىٰ ذلك ﴿ لِمَن يَشَآءُ﴾ من المؤمنين المتلوثين ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ ﴾ يجعل له شريكًا في ملكه، أو عبادته ﴿ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ﴾ واختلق ﴿إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ لا يغفر لمن مات عليه.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ**» **متفق عليه**.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ من اليهود وغيرهم، فيسرون بأنفسهم ويمدحونها، ويذكرونها بما ليس فيها، فيزعمون أنهم أهل الجنة كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة:١١١].

ويزعمون أنهم أبناء الله كما قال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وقد ردَّ الله عَزَّوَجَلَّ عليهم هذه الدعوىٰ، فالواقع أن اليهود ليسوا علىٰ شيء، والنصارىٰ ليسوا علىٰ شيء، كما شهد بعضهم علىٰ بعض: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [البقرة:١١٣]. بل قد قال:

﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي﴾ يطهر بالأعمال الصالحة، والثناء الطيب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ وهم أهل الإيمان ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ قدر الخيط الرقيق في وسط نواة التمر بل توفىٰ إليهم أعمالهم كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد نهىٰ الله عَزَّوَجَلَّ المؤمن أن يزكي نفسه بما ليس فيها قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

وفي حديث أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: **إِنَّ لِي ضَرَّةً فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ مَالِ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟** فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**» متفق عليه.

وغير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض الأسماء التي ظاهرها التزكية، فغير برة إلىٰ زينب، وفي حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللهم آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**» أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

وأرسل الله الرسل، وأنزل الكتب؛ لتزكية النفوس، والأخلاق، والأعمال كما قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]، وقال: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

٥٠ ﴿ٱنظُرۡ﴾ يا محمد ﴿كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ﴾ يختلقون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ بدعوىٰ أنهم هم الأزكياء، والأصفياء، وأنهم أحق الناس بالكرامة، وما يسلكونه من تحريف كتابه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ بالكذب علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ إثمًا واضحًا بينا، وقد قرن الله عَزَّوَجَلَّ الكذب عليه بالشرك بالله ، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

٥١ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا صنف آخر من اليهود والنصارىٰ ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ﴾ وهو السحر، والكهانة ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ وهو ما تجاوز حده في الطغيان، قيل الشيطان، وقيل الأوثان ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: قريش أنهم ﴿أَهۡدَىٰ﴾ أقوم، وأحسن ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾ طريقًا.

والمعنىٰ عند هؤلاء: أن كفار قريش أهدىٰ من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه، وهذا من تقليب الحقائق، ومن شهادة الزور نعوذ بالله حيث آتاهم الله الكتاب، ثم وصل بهم الأمر أن

يقدموا عُبَّاد الطاغوت من الأصنام والأوثان والأحجار على عباد الله عَزَّوَجَلَّ، الذين أخلصوا له العبادة، وأفردوه بما يجب له.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ذلك عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لمّا قدِم كعبُ بنُ الأشرفِ مكَّةَ أتَوْه فقالوا: نحنُ أهلُ السِّقايةِ والسَّدانةِ، وأنتَ سيِّدُ أهلِ يثربَ فنحنُ خيرٌ أم هذا الصُّنَيْبِيرُ المُنبَتِرُ مِن قومِه يزعُمُ أنَّه خيرٌ منّا؟ فقال: أنتم خيرٌ منه فنزَل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، ونزَلتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾». أخرجه ابن جرير، وغيره.

(**الصُّنَيْبِيرُ**): الفرد الضعيف والراجح فيه الإرسال كما ذكر ذلك شيخنا مقبل رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥٢ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ زعموا هذا القول، وشهدوا به كذبًا ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وأخزاهم في الدنيا والآخرة جراء ما صنعوا ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ﴾ أي: يطرد من رحمته ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ ناصرًا، ومعينًا كما قال تعالىٰ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٠].

٥٣ ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ لهؤلاء الذين شهدوا الزور ﴿نَصِيبٌ﴾ حظ ﴿مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ حتىٰ يتصرفوا كيف شاؤوا، فيزكون أنفسهم، ويحكمون، ويقدمون، ويؤخرون ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ﴾ لا يعطون ﴿ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ لشدة حسدهم وبخلهم، فلا يمكن أن يقدموا النقير، وهو النقطة التي تكون في ظهر النواة.

❁ **وفي نواة التمرة ثلاثة أشياء ضرب الله بها المثل في القرآن:**

(**الأول**: **النقير**: وهو النقطة التي تكون في ظهرها.

(**الثاني**: **القطمير**: وهي اللفافة البيضاء التي تحيط بها.

(**الثالث**: **الفتيل**: وهي الفتيلة التي تكون في شقها.

(٥٤) ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: أن الواقع أن اليهود يحسدون المسلمين والعرب؛ علىٰ أن نقل الله عَزَّوَجَلَّ النبوة إليهم بعد أن كانت في بني إسرائيل ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم موسىٰ، وهارون، وداود، وسليمان، وعيسىٰ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ومن إليهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ما أنزل عليهم كالتوراة، والإنجيل ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ النبوة ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ واسعًا، وكان ذلك فيهم سنين مديدة وأعوام عديدة، حتىٰ كان بعد ذلك النبوة في محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٥٥) ﴿فَمِنْهُم﴾ من اليهود ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعبد الله ابن سلام، وغيره ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ كفروا، وأعرضوا عن الإيمان بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم كثير: كحيي ابن أخطب، وكعب ابن الأشرف ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ أي: يسعرون فيها، وتوقد عليهم جزاء إعراضهم، وبغيهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ القرآن والسنة من اليهود والنصارىٰ، وعباد الأوثان وغيرهم ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ ندخلهم ﴿نَارًا﴾ ،حرها شديد، وقعرها بعيد، وشأنها عظيم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ﴾ احترقت ﴿جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ غير محترقة؛ ليزداد عذابهم، ويُشتد نكالهم ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الشديد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لا يغلبه شيء ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يدبره، ويقضيه.

۞ ويستدل بالآية علىٰ أبدية النار، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة ١٦٧]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ

نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦]، ويقول: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر:٤٨].

وهذا قول السلف أصحاب الحديث قاطبة، وخالف في ذلك الجهمية والمعتزلة، فذهبوا إلىٰ عدم وجود الجنة والنار الآن، كما ذهبوا إلىٰ فناء الجنة والنار، وهو مذهب محدث لم يُسبقوا إليه، وشنع عليهم العلماء؛ بسببه.

۞ وفي هذا رد علىٰ غلاة الصوفية الذين يزعمون أن العذاب من العذوبة، أي أنهم يتلذذون بما فيها، وهنا يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ احترقت ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الأليم نعوذ بالله من النار.

﴿٥٧﴾ ولما ذكر الله الكفار، وما هم عليه من الخزي والبوار ثنىٰ بذكر المؤمنين؛ ترغيبًا في طريقهم، ودعوىٰ إلىٰ سبيلهم، وامتداحًا لمنهجهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله عَزَّوَجَلَّ وبما أنزل وأرسل ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: بادروا بما أوجب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم من الصالحات.

۞ وفي هذا دليل لمذهب أهل الحق، من أن الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، وأن الإيمان قول وعمل واعتقاد. خلافًا لما ذهب إليه المرجئة من زعمهم أن: الإيمان هو تصديق القلب، أو المعرفة أو قول اللسان، مع تصديق القلب، وأخرجوا الأعمال من مسمىٰ الإيمان.

﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ كرامة لهم، وهذا وعد من الله عَزَّوَجَلَّ، ووعده لا يخلف ﴿جَنَّٰتٍ﴾ جُمعت؛ لكثرة ما لكل إنسان من الخير العظيم فيها، وإلا فهي جنة واحدة، كما قال تعالىٰ: ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية:١٠].

وأما من حيث التفصيل، وما فيها من الأواني والمساكن، ونحو ذلك فيبينه حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**» متفق عليه.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] إلىٰ أن قال: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢].

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تجري فيها الأنهار، فإن أنهار الجنة لا أخاديد لها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف أنهارها: ﴿ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

۞ دليل لمذهب أهل الحق أن من دخل الجنة لا يخرج منها، وأنه يتنعم لا يبأس، ويحيىٰ لا يموت، ويشب لا يهرم.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **». أخرجه مسلم (٢٨٣٧).**

والأدلة علىٰ بقاء الجنة والنار متكاثرة، ذكرت جملًا منها في كتابنا: (سلامة الخلف في طريقة السلف).

﴿ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مطهرات في الأقوال، ومطهرات في الأبدان، ومطهرات في الأخلاق ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ظلًا مستمرًا واسعًا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ [طه:١١٨-١١٩]، فلا يؤذَون بحر، ولا قر.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾.

٥٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾ وأمره على الوجوب إلا أن يصرف بقرينة ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ الودائع ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ وهذا عام يشمل كل أمانة أُمِّنها الإنسان، سواءً الأمانات التي بينه وبين الله بأداء فرائضه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ [الأحزاب:٧٢].

أو الأمانات التي بين العباد فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**». أخرجه أبو داود (٣٥٣٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» متفق عليه.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ: «**لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ**» أخرجه أحمد (١٢٣٨٣)

والحديث قابل للتحسين، كما بينت ذلك في تحقيقي على كتاب (الإيمان للقاسم بن سلام).

۞ ومن الأمانات طاعة أولياء الأمور في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وفاءً ببيعتهم، والتزاما بعهدهم.

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ الذين يتحاكمون إليكم ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بالقسط ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ أي: نعم الموعظة موعظة الله ؛ لأنها مبنية على العلم، والصدق، والبيان، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء ١٢٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا ﴾ لأقوالكم ﴿ بَصِيرًا ﴾، بأفعالكم، فمن استقام علىٰ شرع الله أكرمه الله ، ومن ضيع ذلك أضاع نفسه.

﴿٥٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أمره، والانتهاء عن نهيه، وزجره، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إذ أن طاعة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من طاعة الله ، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء:٨٠]، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله** » متفق عليه.

وكم هي الآيات القرآنية التي أمر الله عَزَّوَجَلَّ بطاعته، وطاعة رسوله، وبين أنها سبب الرحمة، وسبب الفلاح والفوز ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٢].

۞ وفي هذه الآية ردٌّ علىٰ الفرقة القرآنية التي تنكر حجية السنة، وقد كفرهم أهل العلم؛ لردهم لدلالة القرآن والسنة .

﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ الأمراء، والعلماء.

۞ قال العلماء لم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ لأن طاعتهم غير مستقلة بخلاف طاعة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولهذا عطف طاعة أولي الأمر علىٰ طاعة الله وطاعة رسوله، فكأن المعنىٰ: وأطيعوا الرسول فيما جاءكم من الأوامر والنواهي ﴿ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ أطيعوهم في طاعة الله ، وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

والمراد بهم: أمراء المؤمنين، ومن إليهم من الرؤساء، ومن ينوبهم، فقوله: ﴿مِنكُمۡ﴾ يدل علىٰ شرط الإيمان فيهم.

وَعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَىٰ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ الله بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ الله بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فَقَالَ: دَعَانَا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا

وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، قَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**». متفق عليه.

ثم إن استقامة الحياة في الدنيا والآخرة علىٰ التزام هذه الطاعة، طاعة الله ، وطاعة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وطاعة أولي الأمر الذين ملكهم الله عَزَّوَجَلَّ شأن المسلمين، يجهزون جيشهم، ويقومون علىٰ شأنهم، من إصلاح طرقهم، وترتيب وضعهم، وقد أحسن من قال:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم ... وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا

وفي غزوة حنين حين أراد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يرد علىٰ هوازن، وثقيف السبايا، والذراري دعا عرفاء الناس؛ ليُطيبوا من تحتهم، والشاهد من الحديث أن للناس عرفاء يقومون عليهم.

وطاعة أولي الأمر بالقدَر الشرعي والكوني؛ سبب لاستتباب وضع البلاد، فالشرع أمر بطاعتهم، والواقع يدل علىٰ لزوم طاعتهم وإلا حصل الشر، من انتهاك الأعراض، وقطع السبل، وتخويف الآمن، وغير ذلك.

وطاعتهم إنما تكون في المعروف كما قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**» **متفق عليه عن علي** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فلا يجوز أن يطاوعوا فيما يخالف الشرع من التحاكم إلىٰ غير كتاب الله ، وسنة رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا يطاوعون في الديمقراطية، والانتخابات، واختلاط النساء بالرجال، إلىٰ غير ذلك مما عمَّ، وطمَّ في هذه الأيام، أسأل الله السلامة.

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ ﴾ اختلفتم ﴿فِي شَيۡءٖ﴾ سواءً كان في العقائد، أو الأعمال، والأفعال ﴿فَرُدُّوهُ﴾ أرجعوه ﴿إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إلىٰ كتاب الله ، وإلىٰ سنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد موته ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لأن المؤمن بالله ، واليوم الآخر هو المستجيب لأمر الله ، وأمر رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرد إلىٰ الكتاب والسنة عند الاختلاف ﴿خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ عاقبة فلا يقع بينهم الخلاف، والشر، والافتئات؛ لأن الكل قد رضي بحكم الله ، وحكم رسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ وفي الآية بيان أن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صالحة لكل زمان ومكان، وما ترون من كثرة الشرور؛ فسببه عدم التحاكم إلىٰ شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

فعن عَبْدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُعَنِ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ**» متفق عليه.

وما أبعد أهل الحزبيات، وقواد الثورات عن هذا الأمر النبوي، والحكم الإلهي، إذ أن المراد هو الالتزام بمعصية.

📖 وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ: ما أخرجه البخاري (٤٥٨٤) عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. قَالَ: (**نَزَلَتْ فِي عَبْدِ الله بْنِ حُذَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ**».

وبيانه ما أخرجه البخاري ومسلم عن عَلِيٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: بَعَثَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سَرِيَّةً فَاسْتَعْمَلَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ.

فَقَالَ: أَلَيْسَ أَمَرَكُمُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا، فَجَمَعُوا، فَقَالَ: أَوْقِدُوا نَارًا، فَأَوْقَدُوهَا.

فَقَالَ: ادْخُلُوهَا. فَهَمُّوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يُمْسِكُ بَعْضًا، وَيَقُولُونَ: فَرَرْنَا إِلَى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَ النَّارِ، فَمَا زَالُوا حَتَّى خَمَدَتِ النَّارُ، فَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَبَلَغَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: «**لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**».

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: ما أخرج الطبراني كما في تفسير ابن كثير(ج١ ص٥١٩) عنِ ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو برزةَ الأسلميُّ كاهنًا يَقضي بينَ اليهودِ فيما يتنافرونَ فيه، فتنافرَ إليه ناسٌ منَ المشركينَ، فأنزلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلىٰ قولِهِ: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾.

٦٠ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الذين يقولون كاذبين ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الوحي ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ علىٰ الرسل الذين سبقوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الكهان، والعرافين، والسحرة، والمشعوذين مخالفين لأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتحاكم إلىٰ كتابه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَّيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة ٤٩]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن رسلهم ﴿أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ بالطاغوت كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]. ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: بإغوائهم، وسلوكهم لهذا السبيل ﴿أَن يُضِلَّهُمْ﴾ أن يهلكهم، ويفتنهم ﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لا رجوع فيه إلىٰ الإسلام.

٦١ ﴿وَإِذَا﴾ خُوطب هؤلاء الذين تقدم ذكرهم و﴿قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الوحي فاحتكموا إليه ﴿وَ﴾ هلموا ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليحكم بينكم ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ويميلون ﴿عَنكَ صُدُودًا﴾ مبالغة في شدة إعراضهم، وزهدهم في التحاكم إلىٰ نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٦٢ ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حالهم ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم﴾ نزلت بهم ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾ عقوبة من الله ماحقة ﴿بِمَا﴾ بسبب ما ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الذنوب والمعاصي، ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ

﴿بِٱللَّهِ﴾ كذبا أنهم ما أرادوا مخالفتك كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة:١٤]. ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ بما فعلناه من التحاكم ﴿إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ **بين المتنازعين،** ولكنهم كاذبون في دعواهم، فإن الإحسان في تحكيم شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

فانظر إلىٰ هذا العذر البارد حين ينكر عليهم: لماذا تتحاكمون إلىٰ اليهود والنصارىٰ وتتركون التحاكم إلىٰ كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قالوا: ﴿إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ وهذا من قلب الحقائق، بل ما تركوا التحاكم إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ إلا للزهد فيهما، يخافون أن يحيف الله عليهم و رسوله، قاتلهم الله أنَّىٰ يؤفكون.

وهل هناك أعدل من محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ إذ لو جاءوا إليه لحكم فيهم بما أنزل الله لكن الواقع كما قيل: والخاربُ اللصَ يحب الخاربَ، والطيور علىٰ أشكالها تقع.

﴿٦٣﴾ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ من تقدم ذكرهم ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والبغض والحسد، والمكر والكيد ﴿فَأَعْرِضْ﴾ تولَّ ﴿عَنْهُمْ﴾ حسًا، ومعنىً ﴿وَعِظْهُمْ﴾ ازجرهم عما هم فيه ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ يؤثر في قلوبهم، وقد قام فيهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بما أمره الله، وما أنزلت سورة فيها فضائحهم إلا وبينها لهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله الشرعي، ولو كان الإذن الكوني لآمن الناس كلهم أجمعون واللام هنا للحكمة لا العاقبة؛ لأن ما كل رسول

أطيع فعن ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ رسول الله وَمَعَهُ الرَّهْطَ وَرسول الله وَمَعَهُ الرَّجُلَ وَالرَّجُلَيْنِ وَرسول الله وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ**» متفق عليه.

وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب المنهي، وترك المأمور ﴿جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ تائبين إلىٰ الله، منيبين إليه، معترفين بذنوبهم ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعيًا لهم؛ لأن أجوب ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ يتجاوز عن سيئهم، ويبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورًا رحيمًا.

ولكن الواقع أنهم ما جاءوا إلىٰ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل أعرضوا عنه، ونأوا ونهوا، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّةَ، ثَنِيَّةَ الْمُرَارِ، فَإِنَّهُ يُحَطُّ عنه مَا حُطَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**» قَالَ: فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَهَا خَيْلُنَا، خَيْلُ بَنِي الْخَزْرَجِ، ثُمَّ تَتَامَّ النَّاسُ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَكُلُّكُمْ مَغْفُورٌ لَهُ، إِلَّا صَاحِبَ الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ**» فَأَتَيْنَاهُ فَقُلْنَا لَهُ: تَعَالَ يَسْتَغْفِرْ لَكَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**وَالله لَأَنْ أَجِدَ ضَالَّتِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِي صَاحِبُكُمْ!!، قَالَ وَكَانَ رَجُلٌ يَنْشُدُ ضَالَّةً لَهُ**» اخرجه مسلم (٢٧٨٠).

وكان أحدهم إذا جلس ربما جلس بعيدًا عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ قال: «**مَا بَالُ رِجَالٍ يَكُونُ شِقُّ الشَّجَرَةِ الَّتِي تَلِي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْغَضَ إِلَيْهِمْ مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ**» اخرجه أحمد (١٦٢١٥).

﴿٦٥﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

📖 **وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا**: ما أخرج البخاري ومسلم عَنْ عُرْوَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: **خَاصَمَ الزُّبَيْرُ** رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ فِي شَرِيجٍ مِنَ الحَرَّةِ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ**»، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا رسول الله، أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «**اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ المَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ**

إِلَى جَارِكَ»، وَاسْتَوْعَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الحُكْمِ حِينَ أَحْفَظَهُ الأَنْصَارِيُّ، كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ لَهُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسِبُ هَذِهِ الآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥].

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أقسم الله عَزَّوَجَلَّ بنفسه المقدسة علىٰ أنه لا يتم الإيمان بالله ربًا وبمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نبيًا ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ أي: يتحاكمون إلىٰ شرعك، ودينك ﴿فِيمَا شَجَرَ﴾ وقع ﴿بَيْنَهُمْ﴾ من الخلاف سواء كان ذلك في المسائل العلمية، أو العملية ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضيقًا، أو شكًا ﴿مِّمَّا قَضَيْتَ﴾ حكمت به ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وينقادوا لأمرك، وحكمك انقيادًا.

۞ ونفي الإيمان هنا نفي كمال إلا إذا كان المتحاكم إلىٰ غير شرع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يرىٰ أن حكمه أحسن من حكم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو مثل حكم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو أن حكم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يصلح لهذا الأمر علىٰ تفصيل يذكره العلماء عند قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤].

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾ فرضنا ﴿عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ كما أُمر بنو إسرائيل بذلك حين سألوا موسىٰ العجل ﴿أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ بالهجرة ونحوها كما أمر الله بني إسرائيل بالخروج من مصر ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ أي: ما التزموا هذا الأمر ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ وهم خُلَّص أهل الإيمان ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من أوامر الله ، واجتناب نواهيه، ﴿لَكَانَ

﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا، والآخرة ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ تحقيقًا، وتصديقًا لإيمانهم.

۞ وهذه الآية بعمومها تدل علىٰ أن فعل المأمور، وترك المحظور يعتبر خيرًا عظيما، وسبيلًا جميلا لسلامة العباد، في دنياهم وأخراهم.

٦٧ ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿مِّن لَّدُنَّآ﴾ عندنا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثوابًا علىٰ انقيادهم، كما قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ:٣٦].

٦٨ ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ﴾ وفقناهم ﴿صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ وهو الإسلام.

۞ وهذا دليل علىٰ أن الاستجابة لمواعظ الله ، ومواعظ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أسباب الثبات علىٰ دين الله ، ومضاعفة الأجور، فالله قد هدىٰ الناس هداية دلالة، وإرشاد في القرآن والسنة، وأما هداية التوفيق فلم تكن إلا لمن استقام علىٰ دين الله، وشرعه، وحقق الإيمان بالله، ورسله.

٦٩ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ بأداء فرائضه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بامتثال أوامره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من أطاع الله ، ورسوله ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ في الدنيا بالسلامة من البدع، والخرافات، والتزام دين الله ، وفي الآخرة بالجنة العلية ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بدأ بهم؛ لشرفهم، وعلو منزلتهم، ويدخل فيهم المرسلون، وهم أرفع أهل الجنة منازل ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ ثنىٰ بهم لمبالغتهم في تصديق شرع الله وما أوحاه.

۞ وبهذا استدل بعض أهل العلم علىٰ أن الصديق لا يُفتن في قبره؛ لأن الحديث قد جاء بنفي فتنة الشهيد، والصديق أفضل منه.

﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ أعلاهم الذين قتلوا في سبيل الله ، وفي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟**» قَالُوا: يَا رسول الله مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ قَالَ: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ**» قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رسول الله ؟ قَالَ: «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ**». قَالَ ابْنُ مِقْسَمٍ: أَشْهَدُ عَلَىٰ أَبِيكَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ قَالَ:

«**وَالْغَرِيقُ شَهِيدٌ**» **أخرجه مسلم** (١٩١٥)، وَعَنْ رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**» **أخرجه النسائي** (٢٠٥٣).

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ سائر الأمة الصالحة من الصحابة، ومن بعدهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ أي: أنهم أحسن رفقاء في الجنة، وفي المتفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: **سَمِعْتُ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يَقُولُ**: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**»، وَكَانَ فِي شَكْوَاهُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ، أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ شَدِيدَةٌ، **فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ**: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]. فَعَلِمْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ».

﴿٧٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ﴾ الثواب العظيم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ تفضلا، وسببه طاعة الله ، وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ٧٠﴾ لمن يستحق الإثابة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ٧١ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ٧٢ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧٣﴾.

﴿٧١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ أي: من عدوكم، ويكون ذلك مع إعداد العدة كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[الأنفال:٦٠]. ﴿فَٱنفِرُواْ﴾ أي: اخرجوا للجهاد، ﴿ثُبَاتٍ﴾ أي: سرايا متفرقين سرية بعد سرية، والثُبات: جماعات في تفرقة ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ﴾ ممن هو معكم ﴿لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ نزلت في المنافقين يعني: لا يخرج معهم، ويتأخر ويتثاقل كما قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١].

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: هزيمة ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ بالقعود ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ أي: حاضرًا لتلك الوقعة، وهذا حال أهل النفاق، وأما المؤمن إذا تخلف وحصل النصر للمسلمين تمنىٰ أن يكون معهم، وإن حصلت الهزيمة تمنىٰ أن يكون شهيدًا معهم، ويتألم إذ لم يشهد ذلك اليوم.

٧٣ ﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فتح، وغنيمة، ونصر ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ هذا المتخلف ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ هذا فيه تقديم وتأخير متصل بقوله: ﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾، ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ وإن كان النصر حليف المؤمنين قال ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ﴾ حاضرًا، وشاهدًا ﴿فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: بالغنائم التي تُقسم.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ٧٤ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾.

٧٤ ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾ فليجاهد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يستبدلون الدنيا الفانية بالآخرة الباقية ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿فَيُقْتَلْ﴾ يستشهد ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ ينتصر ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة.

٧٥ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: وما لكم ألا تجاهدوا من كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، وأعرض عن دينه، ومقصدكم إعلاء الكلمة ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ وتقاتلون، وتدافعون عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من أهل الإسلام فـ: «**الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ**». ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾

يعني: مكة، ﴿ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ بالشرك ﴿ وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ ناصرًا، ومعينًا، ومؤيدًا، ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ أي: من يمنع العدو من الوصول إليهم، فاستجاب الله دعوتهم بفتح مكة.

﴿٧٦﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ لإعلاء كلمته، ولإعزاز دينه، فيبذلون المهج وينفقون المال لذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الشيطان وحزبه يريدون إعلاء الكفر زعموا، والله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ جَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ﴾ [التوبة:٤٠]، ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ ﴾ جاهدوا ﴿ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ من المشركين وغيرهم، باللسان، والسنان، والمال، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» **أخرجه أبو داود (٢٥٠٤)**، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:٧٣].

﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ مكر الشيطان ﴿ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ إذ أنه حين الْمُحَاقَّة يفر كما يذكر أهل التفسير أنه فر يوم بدر كما قال: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ [الأنفال:٤٨] ثم فر.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾.

📖 فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما أخرجه النسائي (٣٠٨٦) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بن عوف وأصحابه أَتَوْا إِلَىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ الله كُنَّا فِي عِزٍّ وَنَحْنُ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا

صِرْنَا أَذِلَّةً! فَقَالَ: «**إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا**»، فَلَمَّا حَوَّلَهُ اللهُ إِلَىٰ الْمَدِينَةِ أَمَرَهُ بِالْقِتَالِ فَكَفُّوا، فَأَنْزَلَ اللهُ تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:٧٧].

﴿٧٧﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ عن القتال، ونحوه ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي افترضها الله عَزَّوَجَلَّ عليكم ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المكتوبة التي أوجبها الله عَزَّوَجَلَّ عليكم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فرض ﴿عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ الجهاد في سبيل الله جهاد الطلب، وكان هذا في المدينة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أمر المسلمين في مكة بالصبر، ثم أذن لهم أن يقاتلوا الذين يقاتلونهم، ثم فرض عليهم القتال ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ طائفة ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ يخافون أهل الإشراك ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾عَزَّوَجَلَّ أي: كخشيتهم لله مع أن الله هو الذي ينفع ويضر ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ وأشد فـ﴿أَوْ﴾ تأتي بمعنىٰ الواو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧]؛ لأن بعض المشككين في الدين ربما يأخذ من مثل هذه الألفاظ أن القرآن مشكك وليس كذلك.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ﴾ لمَ فرضت ﴿عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ الجهاد مؤثرين للسلامة والعافية، ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد قال: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ**» **متفق عليه عن عبد الله بن أبي أوفىٰ** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ؛ لأن القتال فيه جراحات، وإزهاق الأنفس، وذهاب الأموال، وهو مأخوذ من بذل الجهد ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ﴾ يعني: هلا أخرت هذا الحكم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ إلىٰ وقت قريب فنموت بآجالنا، ولا يلحقنا عناء، ومشقة.

❖ واختلفوا في هؤلاء الذين قالوا هذا القول هل هم أهل النفاق:

لأن المؤمن لا يعترض علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، أم أنهم من أهل الإيمان قالوه جبنًا وخوفًا، والذي يظهر أنه قول أهل النفاق.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما فيها من المنافع ﴿قَلِيلٌ﴾ زائل مهما كثر ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ كقوله: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ:١٧]، وقوله: ﴿وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحىٰ:٤]، ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: شيئًا يسيرًا. و(**الفتيل**): هو ما يكون في شق النواة.

(٧٨) ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ﴾ في أي مكان كنتم، أو نزلتم ﴿يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: إذا حلت آجالكم ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ حصون، وقلاع مرتفعة البنيان، ومغلقة الأبواب ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ الخير، والسلامة، والسعة، والعافية، فليس المراد بها الحسنة التي هي: الثواب والأجر، ضد السيئة ﴿يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعطانا الله إياها لفضلنا، ونحوه ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب، وقحط ومرض ونحو ذلك ﴿يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ تطيروا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن معه ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الرخاء والشدة، فيضيق لمن شاء ويوسع علىٰ من شاء ﴿فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ المنافقون واليهود ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون قولًا، وقيل الحديث، القرآن.

(٧٩) ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ ما أصابك من خير ونعمة فمن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أنعم عليك وأعطاك، فاسمه الوهاب: الذي يهب لعباده ما شاء ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ من بلية، أو مكروه ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فبسبب ذنوبك، والخطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمراد به غيره نظيره قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠]، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف:١٣١]، والمراد بالحسنات: الرخاء. والمراد بالسيئات: الشدة.

۞ وهذه الآية قد احتج بها من احتج من القدرية علىٰ نفي خلق الله لأفعال العباد حيث أضاف الله النعمة إلىٰ نفسه، والسئية إلىٰ العبد نفسه، وهذا فهم غير صحيح، وإنما المراد بالحسنة في الآية السعة، والرخاء فهي من الله ، والمراد بالسيئة التضييق والشدة وهو من الله ؛ بسبب ذنوب العباد، ومعاصيهم، وأما الحسنة التي هي مقابل السيئة التي هي الطاعة فهي فعل العبد وتوفيق الله ، والسيئة فعل العبد، وخذلان الله للعبد؛ لأنه لا يستحق التوفيق والهداية.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ يا محمد ﴿لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ لجميع الناس، وهذا من الأدلة علىٰ أن رسول

الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُرسل إلىٰ الناس كافة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ أي: مطلعًا ومخبرًا علىٰ صدقك، وقد ساق علىٰ ذلك الأدلة والبينات، والبراهين الساطعات التي لا يردها إلا مكابر.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞۖ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾.

٨٠ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ لأن طاعة الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طاعة لله، كما قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله** »؛ ولأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن:١٢]. ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ أي: حافظًا لأعمالهم، وأقوالهم؛ بل إن هذا الأمر عائد إلىٰ الله كما قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

النَّسْخُ: وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، وأظن أن الحكم لا يصل إلىٰ النسخ، فما أرسلناك حافظًا لأعمالهم مع وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بضوابطه الشرعية، وآية السيف هي المشار إليها بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿

قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة:٢٩].

﴿٨١﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أهل النفاق ﴿طَاعَةٌ﴾ لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بألسنتهم ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟﴾ خرجوا ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ وجاوزوك ﴿بَيَّتَ﴾ في أنفسهم ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة:١٤].

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ ويأمر الملائكة ما يبيتون في صحائفهم حتىٰ يكون حجة عليهم يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، ﴿فَأَعْرِضْ﴾ تولَّ ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بمكرهم فإنهم: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]، وقيل اصفح عنهم ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اعتمد عليه في تيسير أمورك، وتفريج كروبك، ورد الباطل الذي يمكره الكفار ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ مفوضًا إليه، ومعتمدًا عليه.

۞ وفي هذه الآية تصبير للدعاة إلىٰ الحق علىٰ أن لا يتأثروا بكل ما يقال فيهم، فلا بد أن يعود الإنسان نفسه الصبر، ولا بد من الإعراض إلا فيما لا بد من بيانه وإيضاحه وإلا فإن الإعراض عن أذىٰ الناس من أسباب دفن الباطل واستئصاله.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا﴾ هلا ﴿يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يتفكرون، ويتأملون القرآن، وما فيه من الحجج البينات، والأدلة الواضحات من إتقانه، وعدم الاختلاف فيه، وهذا يدل علىٰ أنه من مشكاة واحدة من عليم حكيم ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ القرآن ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ اختلافًا، وتناقضًا، وتباينًا، واضطرابًا في معانيه، بينما الواقع أنه لا يعارض بعضه بعضًا كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

۞ وبهذا استدل علىٰ أن كثرة الخلاف الواقع في الأمة سببه البعد عن القرآن، وإذا أطلق

القرآن فالمراد به السنة أيضًا.

📖 فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ:

ما أخرجه مسلم (١٤٧٩) في صحيحه: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شأن هجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنسائه فأشيع بين الناس: أن رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلق نساءه حتىٰ جاء عمر متثبتًا، وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ في شأن ذلك قول عمر: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ٥﴾ [التحريم:٤-٥].

وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَحَفْصَةُ تَظَاهَرَانِ عَلَىٰ سَائِرِ نِسَاءِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: يَا رسول الله أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ **قَالَ: «لَا»**، قُلْتُ: يَا رسول الله ، إِنِّي دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ وَالْمُسْلِمُونَ يَنْكُتُونَ بِالْحَصَىٰ، يَقُولُونَ: طَلَّقَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، أَفَأَنْزِلُ، فَأُخْبِرَهُمْ أَنَّكَ لَمْ تُطَلِّقْهُنَّ.

قَالَ: **«نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ»**، فَلَمْ أَزَلْ أُحَدِّثُهُ حَتَّىٰ تَحَسَّرَ الْغَضَبُ عَنْ وَجْهِهِ، وَحَتَّىٰ كَشَرَ فَضَحِكَ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ ثَغْرًا، ثُمَّ نَزَلَ نَبِيُّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَزَلْتُ، فَنَزَلْتُ أَتَشَبَّثُ بِالْجِذْعِ، وَنَزَلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّمَا يَمْشِي عَلَىٰ الْأَرْضِ مَا يَمَسُّهُ بِيَدِهِ.

فَقُلْتُ: يَا رسول الله إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ.

قَالَ: **«إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ»**، فَقُمْتُ عَلَىٰ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَنَادَيْتُ بِأَعْلَىٰ صَوْتِي، لَمْ يُطَلِّقْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءَهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء:٨٣] فَكُنْتُ أَنَا اسْتَنْبَطْتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ، وَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ آيَةَ التَّخْيِيرِ.

٨٣ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ﴾ الفتح، والغنيمة ﴿أَوِ ٱلۡخَوۡفِ﴾ القتل، والهزيمة ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ أشاعوه، وأفشوه ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ﴾ أي: الخبر ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ في حياته، وإلىٰ سنته

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ العلماء ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يتتبعونه، ويطلبون علمه، ويستخرجونه فيُعلم ما ينبغي أن يُكتم، وما ينبغي أن يُفشىٰ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بهدايتكم وتثبيتكم، والسلامة من الشبهات، ونحوها ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بكم بالتسديد، والعود إلىٰ أهل العلم ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ فيما يأمركم به من الفواحش ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهم في كل زمن وحين كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

﴿٨٤﴾ ﴿فَقَٰتِلْ﴾ يا محمد ومن معك ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: لا تدع الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والاستنصار للمستضعفين، ولو كنت وحدك فإن الله ناصرك، ومؤيدك، وهذا كقول الله : ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]، ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: علىٰ القتال حضهم، ورغبهم فيه كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال:٦٥].

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قادهم في معركة حرضهم، وثبتهم بتثبيت الله عَزَّوَجَلَّ ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ عسىٰ في حق الله عَزَّوَجَلَّ موجبة أي: لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿أَن يَكُفَّ﴾ يرد ﴿بَأْسَ﴾ شدة، وبطش ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أشد صولةً، وأعظم سلطانًا، ولا يعجزه شيء كما قال:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤].

﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ بالكافرين، فإنه إذا أهلكهم لا راد لقضائه، وقد أهلك الله عَزَّوَجَلَّ قوم نوح بالطوفان، وقوم فرعون بالبحر، وقوم ثمود بالصيحة، وعاد بالريح، كما قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت:٤٠].

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٨٤﴾ ﴿مَّن يَشْفَعْ﴾ بين الناس ﴿شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ موافقة للشرع في قضاء حوائج المسلمين ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ حظ، وأجر بسببها ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ مخالفة للشرع في أمر محرم ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ من وزرها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾ مقتدرًا حافظًا شاهدًا، ومجازيًا، كل واحد بما عمل.

﴿٨٦﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ آمرًا عباده بلزوم أحسن الأخلاق وأكملها ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾ وهو السلام، سُمي بالتحية؛ لأنه دعاء للحياة ثم أُطلق على السلام، وأكمله أن يقول: **(السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)**، وأن يُرد عليه مثل ذلك، ثم يليه: **(السلام عليكم ورحمة الله)**، ثم يليه: **(السلام عليكم)**، واختلفوا في قوله: **(سلام)**، فجوزه بعض أهل العلم، وابتداء السلام مستحب، فمن حق المسلم أن يُسلم عليه فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ**»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رسول الله ؟، **قَالَ**: «**إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ**»، وفي حديث البراء: أَمَرَنَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ، وذكر منها: «**وَرَدَّ السَّلَامَ**» **متفق عليه.**

وأما رد السلام فهو واجب لظاهر أمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ بأحسن من اللفظ الذي قاله المُسلم، ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ بمثلها، وفي حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **أَنَّ رَجُلًا** جَاءَ إِلَى رسول الله فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَشْرٌ**»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله، فَرَدَّ عَلَيْهِ فَجَلَسَ، فَقَالَ: «**عِشْرُونَ**»، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ **فَقَالَ**: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، **فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ**: «**ثَلَاثُونَ**» **أخرجه أبو داود (٥١٩٥).**

وإذا ردَّ السلام واحد عن المجموعة أجزأ، كما إذا سلم واحد أجزأ.

وله آداب منها: ما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ» **متفق عليه** وفي رواية «وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ » **أحمد (١٠٦٢٥)**.

وهو سبب للمحبة كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ**» **أخرجه مسلم (٥٤) عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَعَنْ عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ حين سئل أي الإسلام خير: «... **وَتَقْرَأَ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ**» **أخرجه البخاري (٢٨)**.

ويخص من بذل السلام الكافر، والمبتدع، والفاسق، والقاضي للحاجة، وإن سلم الكافر يقال وعليك، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تبدؤُوهُم بالسَّلامِ، وإذا لقيتُمُوهم في الطَّرِيقِ فاضطرُّوهُم إلى أضيقِ الطريقِ**»

ورد السلام الشرعي أحسن من أن يأتي المرء بـــ(صباح الخير، ومساء الخير)، مع ما فيها من الانتقاد عند بعض أهل العلم، فإن هذا أمر عائد إلى ما يعتقده المجوس من أن النهار مصدر الخير، وأن الليل مصدر الشر، ولذلك يبدؤون يومهم بالدعوة إلى الخير، وينتهون بذلك، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى تبديلها بقوله: (**صبحك الله بالخير**)، أو (**مساك الله بالخير**) بإضافة فعل ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والأولى أن يأتي قبلها بالسلام، سواءً كان يُسلم على أهله، أو على غيرهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾ علىٰ كل شيء من أفعال العباد محاسبًا مجازيًا، ومنه رد السلام، فهذا العمل اليسير يلقىٰ صاحبه الأجر الكبير.

٨٧ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أقسم أنه جامع الناس ليوم لا ريب فيه يُحاسبون علىٰ أعمالهم، ويجازون علىٰ أفعالهم، وهذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]، وقوله: ﴿

يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦]، ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۖ﴾ لا شك فيه، فهو واقع لا محالة. ﴿وَمَنْ﴾ أي لا أحد ﴿أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ وهو كقوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢].

۞ وفيه: إثبات الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه أصدق قولًا ووعدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبهذا تعلم أنه يجب عليك قبول خبر الله ، وخبر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في باب الأسماء والصفات، وغيرهما من الأبواب إذ أنه خبر صادر عن علم، وصدق، وبيان، ولا يرد ذلك إلا من سفه نفسه.

۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٨﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ يا معشر المسلمين افترقتم ﴿فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾ **طائفتين**، وهذا عتاب من الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين.

📖 وَسَبَبُ نُزُولِهَا:

ما في البخاري ومسلم من حديث زيد بن ثابت قال: لما خرج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ غزوة أحد رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة نقاتلهم، وقالت فرقة لا نقاتلهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ وقال: «**إِنَّهَا طَيْبَةٌ تَنْفِي الذُّنُوبَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ**».

فحذر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين أن يختلفوا من أجل المخالفين لدين رب العالمين، إذ أن الخلاف شر، وسبب لتنافر القلوب وتهاجر الأبدان، وإذا تنافر الناس لحقهم الضعف كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم﴾ نكسهم، وأوقعهم في الخطأ، وأهلكهم، وأضلهم ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾؛ بسبب عصيانهم لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ منهم، وهذا أمر

متعذر لاسيما إذا كان المراد بالهداية هداية التوفيق فإنها خاصة بالله عَزَّوَجَلَّ، وأما هداية الدلالة، والإرشاد فيسهل أن يُنصح أهل النفاق ومن إليهم، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ من كتب الله عليه الضلالة، وخذله عن الهداية ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ طريقًا يؤدي به إلىٰ الهدىٰ مهما حرصت علىٰ ذلك، والحال كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، ولو كان الأمر إلىٰ العبد في هداية الناس لكان الأمر غير، وربما تعطلت مصالح وحكم أرادها الله، فهذا سيهدي ولده، وهذا سيهدي أمه، وسيهدي صاحبه، وصاحب القلب الحريص علىٰ الخير سيهدي الناس جميعًا مرة واحدة، فتتعطل مصالح، فالله له الحكمة البالغة والحجة الدامغة في جعل الناس علىٰ فريقين، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠]، وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨- ١١٩].

﴿٨٩﴾ ﴿وَدُّواْ﴾ أي: تمنىٰ المنافقون ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ترتدون عن دينكم كما كفروا ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ في الكفر، والضلالة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة:١٠٩]، فهذه المودة موجودة في صدورهم لا يحبون الخير للمؤمنين ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ينصرونكم وإن أظهروا الإيمان.

﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن يسلموا و﴿يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أعرضوا عن ذلك وبقوا علىٰ حالهم الأول ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ في حال حرابهم أسارىٰ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ سواء كانوا في الحل، أو في الحرم ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ توالونه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ تُنصرون به علىٰ عدوكم؛ لأن الولاية لهم خبال والنصر منهم محال؛ إذ أنهم يتمنون زوال أهل الإسلام.

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِبَلَ

بَدْرٍ، فَلَمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الْوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ.

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**».

قَالَ: لَا. قَالَ: «**فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَتْ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، قَالَ: «**فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالْبَيْدَاءِ.

فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «**تُؤْمِنُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ؟**» قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَانْطَلِقْ**» **أخرجه مسلم**(١٨١٧)

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في شرح مسلم** (١٢/ ١٩٨-١٩٩): " وقد جاء في الحديث الآخر: «**أن النبي** ﷺ **استعان بصفوان بن أمية قبل إسلامه**»، فأخذ طائفة من العلماء بالحديث الأول علىٰ إطلاقه، وقال الشافعي وآخرون: إن كان الكافر حسن الرأي في المسلمين، ودعت الحاجة إلىٰ الاستعانة به استعين به، وإلا فيكره". اهـ.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلَۢا ٩٠ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ٩١ ﴾.

٩٠ ﴿إِلَّا﴾ وهذا الاستثناء يرجع إلىٰ القتل لا إلىٰ الموالاة يعني: ﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ لا تقتلوهم، والميثاق: هو العهد ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ﴾ وقد ضاقت، وانقبضت ﴿صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ مع قومهم ﴿أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾ معكم فهؤلاء يُرفق

بهم عسىٰ أن يكونوا بعد ذلك في صف أهل الإسلام ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تسليطهم ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ مع الكافرين، ولكنه لم يشأ ذلك، وسلمكم من شرهم ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ﴾ أي: هؤلاء الذين جاءوا وقد حصرت قلوبهم وضاقت ﴿فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ مع قومهم ﴿وَأَلْقَوْا۟﴾ طرحوا ﴿إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الصلح ﴿فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ طريقًا للقتل فلا يجوز أن تقتلوهم، وهذا كما تقدم في قوم ميولهم إلىٰ الإسلام، ولم يستطيعوا التخلص من قومهم الكافرين بحيث يقاتلونهم.

﴿٩١﴾ و﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ﴾ أي: ليسوا من هذه الطائفة الذين حصرت صدورهم أن يقاتلوكم، ويقاتلوا قومهم ﴿يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ﴾ بإظهار الإيمان لكم ﴿وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ﴾ بإظهار الكفر عندهم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟﴾ دُعُوا ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾ إلىٰ الشرك ﴿أُرْكِسُوا۟ فِيهَا﴾ رجعوا وعادوا إلىٰ الشرك بأشد الرجوع، وهذه فتنة؛ فعدم البعد عن المشركين يؤدي إلىٰ التأثر بهم.

۞ وفي هذا بيان لحديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ**» **أخرجه مسلم** (٢٧٨٤).

﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ بترك قتالكم ﴿وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ الاستسلام ﴿وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ﴾ بل قاتلوا مع قومهم، ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وجدتموهم سواء بالحل أو الحرم، ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجةً ظاهرة وأمرًا بينًا علىٰ قتلهم وسبيهم.

❖ **فذكر الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الثلاث الآيات ثلاثة أصناف مع أهل الإسلام:**

● **الأول**: أهل الكفر المحض، الذين يودون من أهل الإسلام أن يكونوا علىٰ كفرهم وضلالهم، فهؤلاء لا يوالون، ولا يسلمون من سيف الإسلام أين وجدوا إذا قوي الإسلام وأهله.

● **الثاني**: قوم ميلوهم إلىٰ الإسلام، وربما قد نطقوا به إلا أنهم في ضيق صدر من قتال

قومهم، أو من قتال المسلمين مع قومهم، وقد اعتزلوا الحرب ولم يؤذوا أهل الإسلام، فهؤلاء يُكف عنهم، وليس للمسلمين عليهم سبيل.

● **الثالث**: قوم يريدون مسالمة أهل الإسلام، ولكنهم إلىٰ الكفر أقرب بمخالطتهم، ومعاونتهم، وتذبذبهم ومع ذلك ما اعتزلوا أهل الكفر، ولم يكفوا أيديهم عن أهل الإسلام، فهؤلاء يقتلون في الحل والحرم، وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم سبيلًا وحجة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ وهذا نهي عن قتل أهل الإيمان، وقد جاءت أحاديث متكاثرة ذكرتُ منها جملًا في كتاب: (أحكام قتل النفس المعصومة).

فيما ملخصه: أن الله عَزَّوَجَلَّ نهىٰ عن قتل أهل الإسلام، وَعَنْ قتل الذميين، والمستأمنين، ولم يبح قتل المؤمن إلا في مواطن جاءت بها الأدلة، ويكون قتله إلىٰ ولي الأمر وليس إلىٰ كل أحد، فإن القتل عظيمة قرنت بالشرك كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[الفرقان:٦٨-٦٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ:﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء:٢٩]، ونهىٰ عن قتل الأبناء، ووأد البنات، ونهىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن تعاطي السلاح مسلولًا، وَعَنْ الإشارة إلىٰ الأخ به، ونهىٰ عن التحاسد، والتقاطع، والتدابر كل ذلك لسد ذريعة القتل، وقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مبينًا بعض أشراط الساعة: «**وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**» أي: قبل

قيام الساعة قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**القَتْلُ القَتْلُ**» **متفق عليه عن أبي موسىٰ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي الْقَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا الْمَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**» نسأل الله السلامة والعافية.

❖ **وينقسم القتل عند الفقهاء إلىٰ ثلاثة أقسام:**

● **الأول قتل الخطأ**: ويلزم صاحبه الدية والكفارة وهي: صيام شهرين متتابعين، وتكون الدية مخففة علىٰ العاقلة بمعنىٰ: أن القاتل لا يتحمل إلا كما يتحمل غيره من العاقلة، وهذا أمر خالفه الناس في هذا الزمان فربما تحمل القاتل جميع الدية.

● **الثاني: قتل شبه العمد**: وإن خالف بعض أهل العلم في هذا التقسيم إلا أنه تقسيم معتبر.

والفرق بين الخطأ وشبه العمد:

أن قتل الخطأ لا يريد أن يقتل، أو يؤذي ثم قدر أنه قتله.

وأما شبه العمد فقد قصد إلىٰ أذيته بضرب أو دفع أو غير ذلك وما كان يظن أن يصل الحال إلىٰ قتله فقتل.

ويلزم القاتل شبه العمد الدية، وتكون كذلك علىٰ العاقلة إلا أنها تكون مغلظة، فعن عبدِ الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ يومَ الفتح، فقال: « **ألا إن كل مأثُرَةٍ كانت في الجاهِلِيَّة من دمٍ أو مالٍ تذكر وتُدعى تحتَ قدميَّ، إلاَّ ما كانَ مِن سِقاية الحاجِّ، وسِدانةِ البيت**» ثم قال: «**ألا إنَّ دية الخطأ شبهِ العَمْدِ ما كان بالسَّوط والعَصَا مئةٌ من الإبلِ منها أربعون في بُطونها أولادُها**» **أخرجه أبو داود** (٤٥٨٨) والله أعلم.

● **الثالث: قتل العمد**: وهو أن يقصد إلىٰ أخيه بما يقتل، فيجب عليه القصاص إلا أن يعفو الورثة، أو أحدهم إلىٰ الدية، أو يقع التنازل العام، وإن أدىٰ الدية يؤدي دية مغلظة، وتكون في مال القاتل.

❖ **واختلفوا في الحقوق التي عليه:**

فذهب بعض أهل العلم إلىٰ أنها ثلاثة حقوق: (**حق لله، وحق للميت، وحق للورثة**).

والذي يظهر أنه يلزمه حقان لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ الله ، فَهُوَ إِلَى الله إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**» متفق عليه عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَمَا كَانَ﴾ وما ينبغي ﴿لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ بغير حق ﴿إِلَّا﴾ أن يقع منه القتل ﴿خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ كفارته ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ عتق ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

۞ استدل العلماء بهذا القيد على أن جميع الكفارات لا تجزئ فيها غير الرقبة المؤمنة، سواء كفارة الظهار التي أطلق فيها عتق الرقبة أو كفارة المجامع في رمضان.

وقوله: ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ لا يلزم منها أن تكون كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ [الأنفال:٢]، وإنما المراد مجرد الإسلام، فيجزئ عتق أي رقبة، وإن كان عاصيًا فاسقًا ما دام من المسلمين.

﴿وَ﴾ تلزمه مع الكفارة ﴿دِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ مدفوعة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ من المسلمين، وتقسم بينهم على الأنصبة الشرعية ﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ أي: جميعًا، فإن تنازل أحدهم عن بعض ما له لا يسري التنازل على الجميع ﴿فَإِن كَانَ﴾ المقتول ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ من الكفار ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مسلم ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وليس فيه دية؛ لأن الدية ستذهب إلى الكفار، وربما استعانوا بها على قتل أهل الإسلام، ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ﴾ كفار ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ عهد، وقتل منهم رجل مسلم، ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ﴾ مدفوعة ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ للعهد الذي بيننا وبينهم، ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾؛لأن المقتول مسلم، ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: في جميع الحالات أن يعتق رقبة مؤمنة، ﴿فَـ﴾ ينتقل بعد العجز إلى ﴿صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٥٧٥- ٥٧٦): "فإن أفطر يومًا متعمدًا في خلال الشهرين، أو نسي النية، ونوى صوما آخر، وجب عليه استئناف الشهرين، وإن أفطر يوما بعذر مرض، أو سفر فهل ينقطع التتابع؟

اختلف أهل العلم فيه، فمنهم من قال: ينقطع وعليه استئناف الشهرين، وهو قول النخعي وأظهر قولي الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ لأنه أفطر مختارا.

ومنهم من قال: لا ينقطع وعليه أن يبني، وهو قول سعيد بن المسيب، والحسن، والشعبي، ولو حاضت المرأة في خلال الشهرين أفطرت أيام الحيض ولا ينقطع التتابع، فإذا طهرت بنت علىٰ ما صامت؛ لأنه أمر مكتوب علىٰ النساء لا يمكنهن الاحتراز عنه، فإن عجز عن الصوم فهل يخرج عنه بإطعام ستين مسكينا.

فيه قولان:

أحدهما: يخرج كما في كفارة الظهار.

والثاني: لا يخرج لأن الشرع لم يذكر له بدلا فقال ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾". اهـ

والصحيح لا يلزمه غير الصيام ﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

❖ **وهنا أحكام يذكرها أهل العلم:**

ومنها أن دية المرأة علىٰ النصف من دية الرجل في قول جماهير العلماء.

وهكذا دية الكافر علىٰ النصف من دية المسلم، ولا يقتل مسلم بكافر، فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَلاَ يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ**» متفق عليه.

ومع ذلك فإن قتل الذمي يعتبر كبيرة وعظيمة، فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا فِي غَيْرِ كُنْهِهِ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ**» **أخرجه النسائي (٤٧٤٧).**

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ أي: قاصدًا لذلك متربصًا به عامدًا ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ هذا علىٰ الوعيد الشديد، فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**الْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ**» **متفق عليه.**

هذا إذا كان كل واحد بأخيه، أما إذا كان التربص من أحدهما فيلحقه الحكم.

﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾ وهذا علىٰ المكث الطويل إن أراد الله له ذلك ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

۞ فيه إثبات صفة الغضب لله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طرده من رحمته، ومنعه فضله، ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ عذابًا موجعًا.

۞ وذهب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أن قاتل المؤمن عمدًا لا توبة له، وقد ردَّ عليه بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فقال: (كانت هذه في الجاهلية وذلك: أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: إن الذي تدعوا إليه لحسن أو تخبرنا أن لما علمنا كفارة فنزلت: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الفرقان:٦٨].

وأما التي في ﴿سورة النساء﴾ فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ثم قتل فجزاؤه جهنم)

متفق عليه.

ومع ذلك فقد أفتى ابن عباس بتوبة القاتل فقد أخرج البخاري في **"الأدب المفرد"** عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟.

قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لاَ.

قَالَ: تُبْ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ، فَذَهَبْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَعْلَمُ عَمَلًا أَقْرَبَ إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ.

۞ والآية خرجت مخرج الوعيد، واستدل بها الخوارج علىٰ تكفير فاعل الكبيرة، واستدلت بها المعتزلة والخوارج علىٰ خلود أهل الكبائر في النار، ولا دلالة لهم في ذلك، وإنما هذا من باب الوعيد والوعيد قد يُخلف.

وقد حكي أن عمرو بن عبيد جاء إلىٰ أبي عمرو بن العلاء فقال له: هل يُخلف الله وعده

قال: لا، قال: أليس قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣].

فقال له أبو عمرو بن العلاء: من العجمة أوتيت يا أبا عثمان! إن العرب لا تعد الإخلاف في الوعيد خلفًا وذمًا، وإنما تعد إخلاف الوعد خلفًا وذمًا وأنشد:

وَإِنِّي وَإِنْ وَاعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ سَأُخْلِفُ مِيعَادِي وَأُنْجِزُ مَوْعِدِي

والأدلة كثيرة علىٰ أن فاعل الكبيرة لا يخلد في النار مثل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» **متفق عليه**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقِيَ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلًا فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَأَخَذُوهُ فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا تِلْكَ الْغُنَيْمَةَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، وَقَرَأَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿السَّلَامَ﴾ [النساء: ٩٤] **أخرجه البخاري (٤٥٩١)**.

وأخرج الإمام أحمد (٢٣٨٨١): عن عبد الله بن أبي حدرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **قَالَ بَعَثَنَا** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىٰ إِضَمٍ فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رِبْعِيٍّ وَمُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ بْنِ قَيْسٍ فَخَرَجْنَا حَتَّىٰ إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضَمٍ مَرَّ بِنَا عَامِرُ بْنُ الأَضْبَطِ

الأَشْجَعِيُّ عَلَىٰ قُعُودٍ مَعَهُ مُتْبِعٌ لَهُ وَوَطْبٌ مِنْ لَبَنٍ فَلَمَّا مَرَّ بِنَا سَلَّمَ عَلَيْنَا بِتَحِيَّةِ الإِسْلامِ فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلِّمُ بْنُ جَثَّامَةَ فَقَتَلَهُ لِشَرٍّ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمُتْبَعَهُ فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأخبرناه الْخَبَر نزل فِينَا الْقُرْآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ **الآية** [النساء:٩٤].

﴿٩٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ ﴾ خرجتم ﴿ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ضاربين في الأرض ماشين عليها مجاوزين لبيوتكم ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ تثبتوا.

۞ وفيه فضيلة التبين والتثبت، وأن الإنسان لا يكون متعجلًا في أحكامه وأقواله وأفعاله، فالعجلة لا تأتي بخير إلا إذا كان في المسارعة إلىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ ﴾ لا تقولوا لمن أظهر لكم الإسلام بقول: لا إله إلا الله، وسلم عليكم ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ لاستحلال ما معه من الأموال والمتاع ﴿تَبْتَغُونَ﴾ تطلبون بهذا الفعل ﴿عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: غنيمة، ومتاع تجدونه معه ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ تغنيكم عن قتل مثله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [القصص:٦٠]، ﴿ وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحىٰ:٤-٥]، وفي الحديث: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ ﷻ إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ ﷻ خَيْرًا مِنْهُ**» رواه أحمد(٢٠٧٣٩) .

﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ ﴾ تعصم دماؤكم، وأموالكم بمجرد إظهار الشهادة، ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ بإشهار الإيمان، ﴿ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ فتثبتوا حتىٰ لا يقع منكم الظلم، والمجاوزة بقتل المؤمنين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مطلع فيجازيكم علىٰ أعمالكم.

فما أحوج طلاب العلم، وغيرهم إلىٰ امتثال هذا الأمر الإلهي في التثبت والتبين، فإن كثيرًا من الأحكام قد يطلقها الشخص علىٰ ظن خاطئ، أو علىٰ أمر غير واقع، فإن جاء خبر الثقة قُبل، وإن جاء خبر الكذاب رد، وإن جاء خبر المشكوك فيه تثبت وتيقن، وقد هيأ الله

عَزَّوَجَلَّ في هذا الزمان سبل التثبت بالمراسلة، أو الاتصال ،أو الرجوع إلىٰ ما نقل عنه في كتبه، وأشرطته، وأقواله.

﴿٩٥﴾ ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يتخلفون عن مواطن الجهاد ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ فإنهم معذورون بضرارتهم، من العمىٰ، والزمانة، ونحوها وَعَنْ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»، وفي رواية: «**حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**» **أخرجه مسلم** (١٩١١).

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ فهم أفضل من غيرهم، حيث ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ لجمعهم في جهادهم لإعلاء كلمة الله بين جهاد النفس، وجهاد المال، وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ**» **أخرجه أبو داود** (٢٥٠٤).

﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ من غير أهل الضرر ﴿دَرَجَةً﴾ علوا ومنزلة ﴿وَكُلًّا﴾ القاعد، والخارج ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ لأنهم أهل إيمان، والمؤمن موعود بالخير وإن وقع منه تخلف عن بعض مواطن الخير، ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ بأموالهم وأنفسهم ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ بغير عذر، وضرر ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في (طريق الهجرتين ٢/ ٧٨٠-٧٨١)** : "والمعنىٰ فضل الله المجاهدين علىٰ القاعدين من أُولىٰ الضرر درجة واحدة لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله. ثم أخبر سبحانه أن الفريقين كليهما موعود بالحسنىٰ فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]، أي: المجاهد والقاعد المضرور، لاشتراكهم في الإيمان.

قالوا: وفي هذا دليل علىٰ تفضيل الغنىٰ المنفق علىٰ الفقير؛ لأن الله سبحانه أخبر أن المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد، وقدم الجهاد بالمال علىٰ الجهاد بالنفس، وأما الفقير فنفىٰ عنه الحرج بقوله: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩٢]، فأين مقام من حَكَمَ له بالتفضيل إلىٰ مقام من نفىٰ عنه الحرج!.

قالوا: فهذا حكم القاعد من أولىٰ الضرر والمجاهد، وأما القاعد من غير أولىٰ الضرر فقال تعالىٰ: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥- ٩٦] ". اهـ.

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ إِلَى جنبه، فأخبرنا أنا زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْبَرَهُ: أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْلَى عَلَيْهِ: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قَالَ: فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَهُوَ يُمْلِيهَا عَلَيَّ. فَقَالَ: يَا رسول الله لَوْ أَسْتَطِيعُ الْجِهَادَ لَجَاهَدْتُ، وَكَانَ رَجُلًا أَعْمَىٰ، فَأَنْزَلَ الله تعالىٰ عَلَيْهِ وَفَخِذُهُ عَلَىٰ فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّىٰ خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ **متفق عليه.**

﴿٩٦﴾ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي: أن هذا التفاضل درجات، ﴿مِّنْهُ﴾ علىٰ المؤمنين، ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ لمستحقيها، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب، وأناب ﴿رَّحِيمًا﴾ بأهل طاعته.

وقيل: الدرجات: هي الإسلام، والجهاد، والهجرة، والشهادة حيث فاز بها المجاهدون.

والصحيح: في الدرجات ما أخرجه البخاري (٧٤٢٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾.

﴿٩٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ﴾ تقبضهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ والمراد بهم ملك الموت، كما قال تعالىٰ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ١١]. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالمقام مع الكفار، وعدم الهجرة ﴿قَالُوا۟﴾ لهم موبخين ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ من أمر دينكم فلم تهاجروا ﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مكة ﴿قَالُوٓا۟﴾ الملائكة توبيخًا لهم ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وتخرجون من أرض الكفار ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ﴾ منزلهم ﴿جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

﴿٩٨﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ لا قوة لهم على الهجرة والتحول من دار الكفر ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ ولا يعلمون ﴿سَبِيلًا﴾ طريقا يوصلهم إلى أرض الهجرة.

﴿٩٩﴾ ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ بالتجاوز عن عدم هجرتهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

عند البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو قبل ذلك: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو الأَسْوَدِ، قَالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ المَدِينَةِ بَعْثٌ، فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أَنَّ نَاسًا مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ المُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ المُشْرِكِينَ، عَلَى عَهْدِ** رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ -أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ**» فَأَنْزَلَ الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾» **أخرجه البخاري (٤٥٩٦).**

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي يتحول من داره إلى دار أخرى ابتغاء وجه الله،

وفرارًا بدينه من الفتنة ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا﴾ مذهبًا، ومهربًا، ومتحولًا ينجو فيه مما كان فيه من تسلط الكفار ﴿وَسَعَةً﴾ في المطعم، والمشرب، والمكان الذي ينزل فيه بل وسعة في الصدر، وقد فتح الله علىٰ المسلمين فتحًا عظيمًا حين هاجروا من مكة إلىٰ المدينة، وأغناهم الله عَزَّوَجَلَّ بعد فقر، وذلة ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بهذا القيد صلاح النية والطويّة، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**» ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: يموت قبل أن يصل إلىٰ مكان هجرته، ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ﴾ ثوابه ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تامًا فالأعمال بالخواتيم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

﴿١٠١﴾ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مسافرين للجهاد، أو غيره، ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ لا حرج، ولا إثم ﴿أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قصر عدد، وقصر صفة، والإجماع قائم بأن القصر إنما يكون في الرباعية في: الظهر، والعصر، والعشاء.

وأما المغرب والفجر، فلا مدخل للقصر فيهما.

۞ والقصر واجب علىٰ الصحيح من أقوال أهل العلم، وقد استدل بعضهم بظاهر هذه الآية إلىٰ أن القصر إنما يكون في الخوف، لكن قد تقرر في السنة القصر والجمع من غير خوف.

فعن يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ، فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ الله بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**» **أخرجه مسلم (٦٨٦).**

﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ﴾ يغتالونكم، ويقاتلونكم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وأنتم في الصلاة، ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ كانوا يتربصون بكم الدوائر؛ لأذيتكم، وقتلكم، فكونوا علىٰ حذر منهم، ثم بين الله عَزَّوَجَلَّ أحكام صلاة الخوف.

❁ النَّسْخُ: وقد اختلف الناس في هذه الصلاة، فذهب بعضهم إلىٰ أنها منسوخة؛ وذلك أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلىٰ يوم الخندق علىٰ غير هذه الصورة بل أخر الصلاة حتىٰ خرج وقتها، وذهب قوم إلىٰ مشروعيتها وهو قول جمهور أهل العلم **وهو الصحيح**، فإن غزوة بني المصطلق كانت بعد غزوة الخندق، وقد اختلف في صفاتها.

وذكر النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرح مسلم ست صفات، وسبب الخلاف: أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلاها علىٰ هيئات في عدة وقعات، فتارة يكون العدو بين جيش المسلمين وبين القبلة، وهذه من أيسر وأسهل الهيئات، وتارة يكون العدو خلف القبلة، وهذه يلزم منها طريقة أخرىٰ، وقد ذكر منها مسلم جملًا مفيدة في كتابه الصحيح يرجع إليه من أرادا الاستزادة.

❖ **وللخوف حالات:**

- الحالة الأولىٰ: أن يكون الخوف مع السفر فيقصر العدد، وربما قصر الصفة للحاجة.
- الحالة الثانية: أن يكون الخوف في الحضر، فيبقىٰ العدد، وربما قصر في الصفة.
- والحالة الثالثة: أن يكون الخوف شديدًا، فعند ذلك يصلي ماشيًا، أو راكبًا يومئ إيماءً كما جاء في حديث ابن عمر، في الصحيح ويجوز أن يصلي ركعة كما جاء: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**فَرَضَ الله الصَّلَاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا، وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ، وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً**» متفق عليه.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ:

ما أخرجه الإمام أحمد (١٦٥٨٠) عن أبي عياش الزرقي قال: كنا مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة، فصلىٰ بنا رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الظهر، فقالوا: قد كانوا علىٰ حال لو أصبنا غرتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الآن صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بهذه الآيات بين

الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين قال: ثم ركع فركعنا جميعًا ثم رفع فرفعنا جميعًا.

وكان إذا رفع من الركوع وخر ساجدًا يسجد معه الصف الأول ويبقىٰ الصف الثاني قائمًا، فإذا ما انتهىٰ الصف الأول من سجوده وعاد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ قيامه خر الصف الثاني ساجدًا، ثم يتأخر الصف الأول ويتقدم الصف المؤخر.

وفي البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾، قال عبد الرحمن بن عوف وكان جريحًا، قال الحافظ: أي فنزلت الآية.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةًۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ يا محمد في حال جهاد الأعداء ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وذلك أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حافظ علىٰ الجماعة حضرًا وسفرًا.

۞ وبهذه الآية وما في بابها يُستدل علىٰ وجوب الجماعة.

﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ﴾ فرقة، ومجموعة ﴿مِّنْهُم﴾ من المسلمين ﴿مَّعَكَ﴾ يصلوا جماعةً، ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْۖ﴾ مع أنهم في الصلاة احتياطًا ألا يأخذهم الكفار علىٰ حين غرة، ولو قدر أن الكفار هجموا في ذلك الحين جاز لهم أن يخرجوا من الصلاة لقتالهم، ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ الطائفة المقدمة التي صلت مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتداءً، ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن

﴿وَرَآئِكُمْ﴾ فيذهبون لمواجهة الأعداء، ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ﴾ التي كانت في مصاف العدو، ﴿لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ﴾ بحيث أن الطائفة الأولىٰ تتم لنفسها ركعة، والطائفة الثانية تتم لنفسها ركعة، ويكون رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد صلىٰ ركعتين فيسلم، ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ زادهم في هذا الأمر بالحذر، والحيطة مع أخذ السلاح.

﴿وَدَّ﴾ تمنىٰ وأحب ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ لو يقع منكم غفلة وذهول، ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ حتىٰ يأخذوكم عن غرة فيستبيحون بيضتم.

۞ وهذا موافق لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠]، فإذا لم يكن السلاح مع المسلمين استأسد عليهم الكفار، وإذا كانت القوة مع المسلمين ضعف الكفار، وأصابهم الخور.

﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ أي: مما هو من شأن الجهاد، وغير ذلك فيقتلون المقاتل، ويأخذون سلبة، ﴿فَيَمِيلُونَ﴾ يحملون ﴿عَلَيْكُم مَّيْلَةً﴾ هجمة ﴿وَٰحِدَةً﴾ شديدة كما يقال: ضربة الخائف، فإن الخائف يضرب ضربة قد لا ينجو منها من أصيب بها؛ وذلك أنه يخشىٰ أن يقوم عليه المضروب فينتقم لنفسه، وهكذا الكفار عزموا أن يميلوا علىٰ جيش الإسلام ميلة واحدة، فيستأصلون شأفتهم .

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ لا حرج، ولا إثم ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ﴾؛ لأن حمل السلاح ليس علىٰ الوجوب، وإنما هو علىٰ الاستحباب إلا إذا خشي المسلم أن يؤتىٰ المسلمون من قبله، فيجب عليه أن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ ويثبت ﴿وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾ أي: إن كان المطر، والمرض منعكم من حمل الأسلحة خذوا الحذر، وليكن السلاح قريب منكم بحيث إذا احتجتم إليه أخذ كلٌ سلاحه ودافع به عن حوزة الإسلام، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ﴾ دليل علىٰ وجود النار ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المعرضين عن دين رب العالمين بالجحود ،والإيباء، والكبر، وغير ذلك من أنواع الكفر ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهانون فيه بأنواع الإهانات فيمنعون من الكلام، ومن طيب الشراب والطعام، ويوضعون في النار علىٰ وجوههم، ويساقون إلىٰ النار سوقًا إلىٰ غير ذلك من أنواع الإهانة، والتبكيت.

ومشروعية صلاة الخوف، والقصر في السفر من الأدلة الدالة علىٰ يسرية الدين إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يؤاخذ المؤمنين في حال خوفهم، وسفرهم، وقتالهم بما قَصُرَ من عبادتهم بل رخص لهم في هذا النوع من القصر.

۞ **وفي الآية أن العبادة طاعة الله فلا يقل قائل**: أنا سأصلي علىٰ الهيئة الأولىٰ لكل مقام مقال، فصل كما صلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إن كنت في حال الأمن والحضر، وصل كما صلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إن كنت في حال الأمن والسفر، وصل كما صلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إن كنت في حال الخوف والسفر، **فلا انتقائية في ديننا** كما قال تعالىٰ : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

۞ وفيه من الفوائد: أن ليس كل حركة تبطل الصلاة ولو كانت كثيرة، فقد تحركوا في حال الخوف حركة كثيرة حيث يتأخرون عن متابعة الإمام، ثم يسجدون بعد أن يقوم الإمام، ثم يقدم الصف المؤخر، ويتأخر الصف المقدم؛ ليشتركوا في الفضل جميعًا، وإذا كان العدو خلف القبلة يترك الصف المقدم صلاته خلف رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويذهب لمصَّافة الأعداء، ويأتي الصف الآخر، ويصلي مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فالعبادة أن يؤتىٰ بها علىٰ الوجه الذي شرع الله وأمر.

والآية لها معاني كثيرة وفيها فوائد جليلة لكن آثرنا الاختصار والاقتصار، والله المستعان.

﴿١٠٣﴾ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ﴾ فرغتم، وأديتم ﴿ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: صلاة الخوف، ويدخل فيها غيرها من الصلوات؛ لأن الآية علىٰ عمومها، ﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ وقد كان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا ثم قال: «**اللهمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**» **أخرجه مسلم (٥٩١) عن ثوبان** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وحث علىٰ أذكار أدبار الصلاة فعن كعب بن عجرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ أَوْ فَاعِلُهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً ، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً ،**

وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً».

ومثله حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا أنه يقول: «الْحَمْدُ الله ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَسُبْحَانَ الله ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةَ، وَالله أَكْبَرُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وله أن يسبح عشرًا ويحمد عشرًا لما في مسند أحمد عن عبد الله بن عمر بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ قِيَـٰمًا﴾ في الصحة ﴿ وَقُعُودًا﴾، في حال المرض، وإذا استدللنا بالعموم فيذكر الله علىٰ كل حال، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران:١٩١]، وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦﴾ [السجدة:١٦].﴿ وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ أي: عند الحرج والزمانة، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ أعم من ذكر اللسان فيدخل فيه قراءة القرآن، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وغير ذلك.

ولذلك قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر الله طاعته.

﴿ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ ﴾ أي: سكنتم،؟ وأمنتم من عدوكم، ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ ﴾ أي: عَزَّوَجَلَّ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ مفروضًا في وقت مقدر فلا تقدم عنه ولا تؤخر.

❁ وقد بينها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث بريدة، وأبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عند مسلم (٦١٣): «فَلَمَّا زَالَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ، ثُمَّ أَمَرَهُ، فَأَقَامَ الظُّهْرَ، ثُمَّ أَمَرَهُ، فَأَقَامَ الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ بَيْضَاءُ نَقِيَّةٌ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ الْمَغْرِبَ حِينَ غَابَتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ الْعِشَاءَ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ، ثُمَّ أَمَرَهُ فَأَقَامَ الْفَجْرَ حِينَ طَلَعَ الْفَجْرُ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي أَمَرَهُ فَأَبْرَدَ بِالظُّهْرِ، فَأَبْرَدَ بِهَا، فَأَنْعَمَ أَنْ يُبْرِدَ بِهَا، وَصَلَّى الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ مُرْتَفِعَةٌ أَخَّرَهَا فَوْقَ الَّذِي كَانَ، وَصَلَّى الْمَغْرِبَ قَبْلَ أَنْ يَغِيبَ الشَّفَقُ، وَصَلَّى الْعِشَاءَ بَعْدَمَا **ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ**،

وَصَلَّىٰ الْفَجْرَ فَأَسْفَرَ بِهَا»، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟» فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا، يَا رَسُولَ الله ، قَالَ: **«وَقْتُ صَلَاتِكُمْ بَيْنَ مَا رَأَيْتُمْ»**.

وهكذا في حديث جابر عند النسائي (٥١٣): «أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُعَلِّمُهُ مَوَاقِيتَ الصَّلَاةِ، فَتَقَدَّمَ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَلْفَهُ، وَالنَّاسُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَصَلَّى الظُّهْرَ حِينَ زَالَتِ الشَّمْسُ، وَأَتَاهُ حِينَ كَانَ الظِّلُّ مِثْلَ شَخْصِهِ فَصَنَعَ كَمَا صَنَعَ، فَتَقَدَّمَ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَلْفَهُ، وَالنَّاسُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَصَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ فَتَقَدَّمَ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَلْفَهُ، وَالنَّاسُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ، ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ غَابَ الشَّفَقُ فَتَقَدَّمَ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَلْفَهُ، وَالنَّاسُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَصَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ انْشَقَّ الْفَجْرُ فَتَقَدَّمَ جِبْرِيلُ وَرَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَلْفَهُ، وَالنَّاسُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَصَلَّى الْغَدَاةَ، ثُمَّ أَتَاهُ الْيَوْمَ الثَّانِيَ حِينَ كَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ مِثْلَ شَخْصِهِ فَصَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ كَانَ ظِلُّ الرَّجُلِ مِثْلَ شَخْصَيْهِ فَصَنَعَ كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَصَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ وَجَبَتِ الشَّمْسُ فَصَنَعَ كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَصَلَّى الْمَغْرِبَ، فَنِمْنَا ثُمَّ قُمْنَا، ثُمَّ نِمْنَا ثُمَّ قُمْنَا، فَأَتَاهُ فَصَنَعَ كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَصَلَّى الْعِشَاءَ، ثُمَّ أَتَاهُ حِينَ امْتَدَّ الْفَجْرُ وَأَصْبَحَ وَالنُّجُومُ بَادِيَةٌ مُشْتَبِكَةٌ فَصَنَعَ كَمَا صَنَعَ بِالْأَمْسِ فَصَلَّى الْغَدَاةَ، **ثُمَّ قَالَ: مَا بَيْنَ هَاتَيْنِ الصَّلَاتَيْنِ وَقْتٌ** ».

وفي حديث أبي مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**نَزَلَ جِبْرِيلُ فَأَمَّنِي فَصَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ مَعَهُ**» متفق عليه.

فمن صلىٰ الصلاة قبل وقتها فصلاته باطلة؛ لأنه ضيع شرطها إلا إذا كانت من الصلوات التي تجمع مع غيرها، فيعتبر وقت الجمع وقت الجميع للحاجة، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثَمَانِيًا جَمِيعًا، وَسَبْعًا جَمِيعًا»، قُلْتُ: يَا أَبَا الشَّعْثَاءِ أَظُنُّهُ أَخَّرَ الظُّهْرَ، وَعَجَّلَ الْعَصْرَ، وَأَخَّرَ الْمَغْرِبَ، وَعَجَّلَ الْعِشَاءَ، قَالَ: «وَأَنَا أَظُنُّ ذَاكَ»

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ تضعفوا ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ﴾ طلب ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ الكفار، والبغاة؛ لقتالهم، وذلك أن أبا سفيان أراد أن يرجع إليهم في غزوة أحد ليستأصل شأفتهم، فحرضهم الله علىٰ قتالهم، وقال مصبرًا لهم: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ من الجراحات، وما فيكم ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ من الجراحات وما حل بهم، وأيضًا كونهم وجدوكم سالمين من القتل بعد أن ظنوا أنهم قد استأصلوكم، فإن أبا سفيان جعل يقول: أفيكم محمد؟ أفيكم أبو بكر ؟ أفيكم عمر؟ - ظن أن خيرة المسلمين قد ذهب- فقال له عمر: قد أبقىٰ الله لك ما يسوؤك.

﴿وَتَرْجُونَ﴾ تطلبون، وتأملون ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من الأجر، والثواب، والنصر ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ لتعلق قلوبهم بأصنامهم وأوثانهم، فينبغي أن تكونوا أرغب، وأحرص علىٰ قتالهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي فيما يحصل في العالم السفلي والعلوي.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن.

۞ وهذا دليل علىٰ أن القرآن غير مخلوق فإنه منزل من عند الله تكلم به حقيقةً، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت:٢]، .

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق والبيان، كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. فأمره ونهيه علىٰ مقتضىٰ علم الله عَزَّوَجَلَّ، وخبره صادر من العليم الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي هو أصدق قيلًا، وأحسن حديثًا ﴿لِتَحْكُمَ﴾ لتقضي ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فيما اختلفوا فيه ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن والسنة كما قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ﴾ للكافرين، والمنافقين ومن إليهم ﴿خَصِيمًا﴾ معينًا، ومناصرًا.

❁ بل ينبغي لك أن تكون بعيدًا عنهم لا تكثر سوادهم، ولا تؤيد أحدًا منهم على باطل يدعو إليه وقد يستدل بها على أهل البدع.

وقد يكون المعنى وجوب ترك مخاصمة أهل الباطل وجدالهم ومناظرتهم.

﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ١٠٩ ﴾.

١٠٦ ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ ﴾ مما هممت به، أو وقعت فيه من المخالفة، وهذا أمر عام أمر الله نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالاستغفار، والأمر للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمر لأمته، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ يغفر لمن دعاه، ورجاه، ولزم أسباب المغفرة .

❁ **ويكون الاستغفار من ثلاثة أمور:**

١- التقصير في فعل المأمور. ٢- الوقوع في المحظور ٣- عدم الصبر على المقدور.

١٠٧ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ ﴾ تخاصم ﴿ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ ﴾ يظلمونها بالخيانة، والسرقة، والغَصْب، وغير ذلك مما هو أعم كالنفاق.

❁ والآية عامة في جميع المبطلين، فلا تجادل عن المحدثين في دين الله عَزَّوَجَلَّ، سواء كان حدثهم بالبدعة، أو كان حدثهم بالمعصية إذا استوجبوا العقوبة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾.

فيه إثبات صفة المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية، وأدلتها كثيرة من الكتاب والسنة.

﴿مَن كَانَ خَوَّانًا﴾ أي: خائنًا كثير الخيانة، وهذه صيغة مبالغة لتجرئه علىٰ الخيانة، والله عَزَّوَجَلَّ قد حذر منها في مواطن منها قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف:٥٢]، ﴿أَثِيمًا﴾ كثير الإثم متعاطيًا للإثم والذنب.

١٠٨ وهذا الصنف الذين يتعاطون الخيانة والإثم ﴿يَسۡتَخۡفُونَ﴾ يسترون، ويستحيون ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أن ينكروا عليهم باطلهم ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مع أنه مطلع علىٰ بواطنهم، وظواهرهم، فهو أحق أن يُستحيىٰ منه، وفي حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَى مِنْهُ» أخرجه أحمد (٢٠٠٣٤).

﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ معية علم، واطلاع وهذه هي المعية العامة، وأما المعية الخاصة فتقضي مع العلم، والاطلاع: الحفظ، والنصر، والكلاءة وهي خاصة بالمؤمنين، ﴿وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ وهو علىٰ عرشه بائن من خلقه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١]. ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ﴾ يدبرون ليلًا، ويضمرون في نفوسهم ﴿مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ من عزمهم علىٰ الخلف والخيانة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ عالمًا لا تخفىٰ عليه خافية.

١٠٩ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ﴾ يا ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: القوم الذين جادلوا عن المبطلين، والمنافقين ﴿جَٰدَلۡتُمۡ﴾ خاصمتم ﴿عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بأشد المخاصمة، ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ﴾ يخاصم ﴿ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ حين يقفون بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ناصرلهم، ولا معين، وحالهم كما في حديث عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ» متفق عليه.

﴿أَم﴾ بل ﴿مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا﴾ كفيلا يذب عنهم، ويتولىٰ أمرهم، فالكل عاجز.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي: ذنبًا، فيدخل فيه السرقة وغيرها، ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بارتكاب الذنب، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ يتوب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بلسان الحال والمقال ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا﴾ متجاوزًا عن ذنوبه ﴿رَّحِيمًا﴾ به وبمن كان مثل حاله أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يتوب عليه، ويتجاوز عنه.

❖ **والتوبة لها شروطها المعتبرة:**

- **الأول:** الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.
- **الثاني:** أن تكون في زمن تُقبل فيه التوبة.
- **الثالث:** أن يقلع عن الذنب.
- **الرابع:** أن يندم علىٰ فعل الذنب.
- **الخامس:** أن يعزم علىٰ ألا يعود إلىٰ الذنب، فإذا استوفت شروطها رُجي قبولها.
- **السادس:** رد المظلمة إلىٰ صاحبها فيما يتعلق بحقوق العباد.

﴿١١١﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ أي: ذنبًا يفعله، ويلزمه، ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ ويلقىٰ ضرره في الدنيا والآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوالهم، ﴿حَكِيمًا﴾ إذ أخر العقوبة عنهم، أو حكم بالحدود في بعض الذنوب والمعاصي؛ تطهيرًا لأصحابها.

﴿١١٢﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ﴾ يفعل ﴿خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ بمعنىٰ واحد، وقيل الخطأ ما كان عن عمد وغيره والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل الخطيئة الصغيرة، والإثم الكبيرة ﴿ثُمَّ يَرْمِ﴾ يقذف ﴿بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ﴾ تحمل ﴿بُهْتَٰنًا﴾ الكذب الذي لا أصل له.

فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قِيلَ: يَا رسول الله، مَا الغِيبَةُ؟ قَالَ: **«ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»**.

قَالَ: يا رسول الله : أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «**إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ**» أخرجه مسلم (٢٥٨٩).والبهت أعظم من الغيبة.

﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ إثمًا بينًا واضحًا يجازىٰ به يوم القيامة، فعلىٰ المسلم أن يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه، وإن ابتلي بشيء من الذنوب فليحذر أن ينزلها بغيره، فإن الله عَزَّوَجَلَّ مطلع علىٰ العباد ظواهرهم وبواطنهم، وَعَنْ عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» متفق عليه.

وفي المثل: (رمتني بدائها وانسلت) أي: الذي يفعل المعصية ثم يرمي بها غيره كالذي يرمي غيره بداء نفسه.

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ومن معك بالكتاب والسنة، ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالعصمة، والهداية إلىٰ أقوم السبل، وأحسن الطرق ﴿لَهَمَّت﴾ لقد أضمرت ﴿طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من اليهود، أو من المنافقين ﴿أَن يُضِلُّوكَ﴾ أن يلبسوا عليك الأمر حتىٰ تقع في الخطأ، وتحكم بغير الحق ﴿وَمَا يُضِلُّونَ﴾ بهذا الصنيع ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ ولكن هو مكر الله بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[الأنفال:٣٠]. يريدون إضلال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيضلون أنفسهم، ويتعمقون في الضلالة، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ وإن مكروا وأجلبوا، فإنك محاط من الله عَزَّوَجَلَّ بالعصمة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]، وكذلك من تمسك بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ظاهرًا وباطنًا يُرجىٰ له أن يدخل في عموم هذه الآية.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السنة، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ من وحيه العظيم، ومن الأحكام الشرعية كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٧]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ واسعًا أفضل من فضله علىٰ كل مخلوق.

۞ وهذا دليل علىٰ أن لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الصفات العلية التي وهبها الله إليه ما

ليس لغيره، فهو أفضل البشرية، ومقدمها، وسيد الناس، وأفضل الأنبياء والمرسلين.

۞ ويُستدل بهذه الآية علىٰ فضيلة العلم، ومنزلته الرفيعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سماه فضلًا بل وصفه بأنه فضل عظيم، فالزم ما اصطفاه الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه، واشكر ربك علىٰ أن هداك لهذا الخير، ووفقك لسلوكه، فإنه ميراث الأنبياء، ووحي الله، وشرعه وسبب لرفعة الدارين، وفضائلُه عظيمة، والله المستعان.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

﴿١١٤﴾ ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾من أفعال الناس وأقوالهم، وما يتناجون، ويتحدثون به، والنجوىٰ السر بين اثنين أو ثلاثة ﴿إِلَّا﴾ نجوىٰ ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ في الصدقات فرضها ونفلها، والدَّال علىٰ الخير كفاعله ﴿أَوْ﴾ أمر بـ﴿مَعْرُوفٍ﴾ طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو لفظ عام يشمل جميع أنواع البر، وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**كل معروف صدقة**» **أخرجه مسلم** (١٠٠٥) ﴿أَوْ﴾ أمر بـ﴿إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فيما يقع بينهم من الخلافات، وقد أخر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة العصر للإصلاح بين بني عمرو بن عوف، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ**»، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا، أو حرم حلالًا، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ الصدقة، والأمر بالمعروف، والإصلاح بين الناس ﴿ابْتِغَاءَ﴾ رجاء ﴿مَرْضَاتِ﴾ ﴿اللَّهِ﴾ أخلص نيته فيها ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ نعطيه ثواب ذلك ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ثوابًا مضاعفًا.

۞ وفي الآية فضيلة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ إذ أن الأعمال إذا تجردت عن الإخلاص صارت كالعادات، وإذا اقترن بها الإخلاص صارت عبادات؛ ولذلك قيل: عادات العلماء عبادات، وعبادات العوام عادات؛ لأنهم قد يفعلون شيئًا من العبادات لا لقصد التقرب إلىٰ

الله عَزَّوَجَلَّ، والأجر العظيم الذي قد يؤتاه في الدنيا، بأن يعقبه الله عَزَّوَجَلَّ رزقًا علىٰ طاعته، وقد يؤتاه في الآخرة.

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ يخالفه فيما جاء به من الحق عن عمد وقصد منه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظهر ﴿لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ الحق، ويدخل فيه التوحيد فما دونه.

۞ وفيه: دليل لمن يقول بالعذر بالجهل فإنه اشترط البيان، ومعرفة الحق من الباطل.

﴿وَيَتَّبِعۡ﴾ طريقًا، وسبيلًا ﴿غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الصحابة ابتداءً، ويليهم من سلك سبيلهم، واقتفىٰ آثارهم.

وفي هذا دلالة علىٰ وجوب الأخذ بمنهج السلف الكرام والأئمة الأعلام في الاعتقادات والعبادات والمعاملات فهو السبيل المرضي والطريق القوي إذ أنهم أهل الفقه والنظر والعلم والأثر فمن ترك سبيلهم عامدًا ضل ومن تركه جاهلًا زل.

وما حصل الضرر العظيم من الشركيات والبدع والخرافات إلا بسبب البعد عن سبيلهم القويم الذي هو الصراط المستقيم ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، وأول السلف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ثم أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ومن نحا نحوهم وسلك سبيلهم في كل عصر ومصر وبالله التوفيق.

۞ وقد استدل الشافعي بهذه الآية علىٰ حجية الإجماع، وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**لَا يَجْمَعُ اللهُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ أَبَدًا، وَيَدُ اللهِ عَلَى الجَمَاعَةِ**» **أخرجه الحاكم (٤٠٣) عن ابن عباس** رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

والأدلة عند أهل السنة الكتاب والسنة والإجماع وذهب بعضهم إلىٰ زيادة القياس.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نخلي بينه، وبين ما اختاره لنفسه من الضلالة فيكله الله إلىٰ فعل نفسه وإلىٰ سوء صنيعه، ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾ في الآخرة، ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ مرجعًا.

۞ وفي هذه الآية دلالة علىٰ وجوب الأخذ بمنهج السلف الكرام والأئمة الأعلام في العبادات والمعاملات، فهو الصراط المستقيم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴿١٢١﴾﴾.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾؛ لأن الشرك ظلم عظيم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢]،

والمعنىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ شيئًا فهو عام في الشرك الأكبر والأصغر، إلا أن الشرك الأكبر يخلد في النار، والشرك الأصغر يعذب بقدر شركه ثم يخرج من النار علىٰ **القول الصحيح** من أقوال أهل العلم كما تقدم، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ﴾ سوىٰ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من المسلمين.

وعقيدة أهل السنة: أن أصحاب الكبائر من أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم يدخلون تحت المشيئة:

ومن يمت ولم يتب من الخطأ ... فأمره مفوض لذي العطا
فإن يشأ يأخذ وإن شاء انتقم ... وإن يشأ أعطىٰ وأجزل النعم

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ هلك مهلكًا بعيدًا؛ لأن الشرك أعظم أنواع الضلال، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سُئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» **متفق عليه**، ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

﴿١١٧﴾ ﴿إِن يَدۡعُونَ﴾ ما يعبدون أي: أهل الإشراك ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ وهي الآلهة التي سموها بأسماء الإناث: كـ(اللات، والعزىٰ، ومناة، أو الملائكة الذين

زعموا أنهم إناث)، ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا﴾ شطًّا، وخرج عن الطاعة بعيدًا عن كل فضيلة ﴿مَّرِيدًا﴾ المتمرد العاتي الخارج عن الطاعة، وأراد به إبليس، فهو أصل شرهم، وإليه نسبهم علىٰ الصحيح.

﴿١١٨﴾ ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ طرده من رحمته، وأبعده، وأقصاه، ﴿وَقَالَ﴾ أي: إبليس ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾ لأجعلن لي ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾ حظًا ﴿مَّفْرُوضًا﴾ مقطوعا ومعلومًا، وهذا من الكبر، والعناد، للإفساد، فإن الله عَزَّوَجَلَّ حين طرده من رحمته كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص:٧٨-٨٢]، فيسعىٰ في إغوائهم، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

﴿١١٩﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أحرفهم، وأزيغهم عن طريق الحق بالوسوسة، ونحوها ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ يلقي في قلوبهم طول الأمل كما سيأتي قوله:﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[النساء:١٢٠]، فيحبب إليهم الدنيا، والأهواء، والمخالفات، ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ﴾ أي: بما يخالف الشرع، ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾ يقطعن ﴿ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ متقربين به إلىٰ الله مبتدعين في دين الله، أو متقربين به إلىٰ الجن مشركين في دين الله، ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ مخالفين بذلك ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعدم التعرض له.

📖 وَفِي سَبَبِ نُزُولِهَا: أخرج الطبري (١٠٤٤٨) عن ابن عباس: أنه كره الإخصاء وقال: فيه نزلت: ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

وحرم الله الصور لما فيها من المضاهاة لخلق الله، وقيل بأن المراد بخلق الله دين الله كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠]. أي: لدين الله، ففيها النهي عن البدع، ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا﴾ يتولاه، ويطيعه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم

مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥٧].

فمن والىٰ الشيطان أرداه، ومن والىٰ الرحمن حفظه واجتباه، كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف:١٩٦]، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

﴿ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ ؛ لأنه تمسك بما لا يستطيع له نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياةً، ولا نشورًا، بل يسعىٰ في إفسادهم وإضلالهم:

فَمـــن جَعَـــلَ الغُـــرَابَ لَـــهُ دَلِـــيلًا ... يَمـر بِـهِ عَلـىٰ جِيـفِ الكِـلابِ

ولذلك تجد الشيطان يحرص علىٰ تتبع غفلة الإنسان وفساده فيرديه، تصور لو أن هناك من يمشي معك، وهو يريد أن يكبك علىٰ وجهك كيف يكون الاحتراز منه، فهكذا الشيطان حريص علىٰ إغوائك وإضلالك، يتربص بك في حضرك وسفرك، وليلك ونهارك، وخلوتك وجلوتك، ويزين لك الباطل، فلا سلامة منه إلا بالاعتصام بالله كما قال تعالىٰ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

﴿١٢٠﴾ ﴿ يَعِدُهُمْ ﴾ الشيطان طول الأمد ﴿ وَيُمَنِّيهِمْ ﴾ الغرور، والباطل ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ أي: باطلًا لا يستفيدون منه لا في دنيا، ولا أخرىٰ؛ بل هو ضلال، وفساد عليهم في الدنيا والآخرة.

﴿١٢١﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ أي: من تقدم ذكر أوصفاهم ممن أطاع الشيطان ووالاه ﴿ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ النار ﴿ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ ﴾ مفرًا، ومعدلًا.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ١٢٥ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطَۢا ١٢٦ ﴾.

١٢٢ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾.

۞ دليل علىٰ أبدية الجنة وأنها لا تفنىٰ، ولا تبيد، خلافًا لقول المعتزلة ومن إليهم.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ لا يخلف وعده، ولا ينقض عهده، وفرق بين الوعد، والوعيد.

فالوعيد خلفه جائز بل مستحب؛ لأنه دليل علىٰ كرم ورحمة، ونحو ذلك.

وأما الوعد فلا يجوز؛ لأن خُلفه يدل علىٰ عدم أمانة، ونحو ذلك.

﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ﴾ لا أصدق ﴿مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ قولًا.

۞ وفيه: إثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه أصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ:١١].

﴿لَّيۡسَ﴾ دخول الجنة، أو الفضل والقرب من الله عَزَّوَجَلَّ ﴿بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾ أيها المسلمون، والأماني أحاديث النفس المجردة عن العمل ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهود والنصارىٰ من قولهم: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: ١١١]، وقولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾ [المائدة: ١٨].

وقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا

فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۚ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٠].

فإن الجنة إنما تُنال بالعمل الصالح، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢].

﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا عموم لما سمعه الصحابة رضوان الله عليهم خافوا، ففي حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنْتُ عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُنْزِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَا أُقْرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ؟**».

قَالَ: قُلْتُ بَلَىٰ، قَالَ: فَأَقْرَأَنِيهَا، قَالَ: وَلَا أَعْلَمُ إِلَّا أني وجدت انقصامًا فِي ظَهْرِي حَتَّىٰ تَمَطَّيْتُ لَهَا، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟**».

فَقُلْتُ: يَا رسول الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ إِنَّا لَمَجْزِيُّونَ بِكُلِّ سُوءٍ عَمِلْنَاهُ؟ فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَصْحَابُكَ الْمُؤْمِنُونَ فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقَوُا الله ، وَلَيْسَتْ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيُجْمَعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا يَوْمَ القيامة**». هذا الحديث في سنده ضعف فإن مولىٰ سباع مجهول، ولكن يغني عنه ما أخرجه مسلم (٢٥٧٤) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣]، بَلَغَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَبْلَغًا شَدِيدًا، فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**».

﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ﴾ أي: عامل السوء ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا﴾ يحفظه ﴿وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ يعينه ويمنعه.

والآية عامة في كل عامل، ولذلك أخذ الصحابة بعمومها، وأقرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ ذلك، إلا أنه بشرهم بتكفير سيئاتهم بما يحصل لهم من العقوبات الدنيوية، وقد ذكر العلماء إحدىٰ عشر مُكَفِرًا للذنوب منها ما يكون في الدنيا بسبب العبادات، والمصائب، والاستغفار، والتوبة، والإنابة ونحو ذلك، ومنها ما يكون في القبر، فإن أهوال القبر، وما فيه مكفر لذنوب المسلم فقد يمحص، وينقىٰ، ويهذب، فما يخرج من قبره إلا

وقد ذهبت ذنوبه، ومنها ما يبقىٰ إلىٰ يوم القيامة مع تلك الأهوال يتجاوز الله عَزَّوَجَلَّ عنهم، وهكذا تقع الشفاعات من الأنبياء والمرسلين والملائكة والصالحين، ويتفضل الله علىٰ من شاء من عباده فتذهب الذنوب، وتثبت الطاعات، والحسنات، ويرفع المؤمنون الدرجات.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الأعمال الصالحة، وصلاحها بالإخلاص، والمتابعة، ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بهذا الشرط والقيد، إذ لا يقبل من مشرك عمل ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ بما كانوا يعملون ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ شيئًا يسيرًا.

۞ و(**النقير**): النقرة التي تكون في ظهر النواة.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أي: أحكم دينًا، وأحسن حالًا ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أخلص عمله لله ، وفوض أمره في جميع شأنه إلىٰ الله ، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: موحد لله عَزَّوَجَلَّ منقاد لشرعه ودينه، ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ﴾ دين ﴿إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ مخلصا منزه من الشرك، ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ والخلة صافي الحبة، وقد دل القرآن علىٰ أن الله اتخذ إبراهيم خليلًا، ودلت السنة علىٰ أن الله عَزَّوَجَلَّ اتخذ محمدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خليلًا، فقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أمتي خَلِيلًا لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أخوة الْإِسْلاَمِ**» متفق عليه عن جندب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

۞ فما قيل بأن المحبة لمحمدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والخلَّة لإبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ليس بصواب؛ بل كلاهما خليل لرب العالمين، وحبيبه إلا أن الخلة أرفع من المحبة، حتىٰ قيل:

قَـد تَخَللـتَ مَسـلَكَ الـروحِ مِنّـي ... وَلِـذا سُـمِّيَ الخَليـلُ خَلـيلًا

فالخلة تقتضي الانشغال التام بالخليل عن غيره، فقد كان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منشغلًا بربه تعالىٰ وطاعته عن كل ما سواه، فربما قام في الليلة من عند زوجه، وأحب الناس إليه كما قال لعائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» قالت: قُلْتُ وَالله إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، ومع ذلك قام يصلي فبكىٰ حتىٰ بل لحيته، ثم بكىٰ حتىٰ بل حجره، ثم بكىٰ حتىٰ بل دمعه الثرىٰ.

﴿وَلِلَّهِ﴾ من الملك: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

۞ وهذا دليل علىٰ ملكه العام لكل مخلوق في العالم العلوي والسفلي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، فإذا كان مالك السموات والأرض، فينبغي أن يكون من في السموات والأرض عبدًا له مطيعًا، له متقربًا، إليه خاضعًا وخاشعًا له.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾ بعلمه كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج:٢٠]، لا تخفىٰ عليه خافية، فيعلم أعمالهم وأفعالهم بل وما في بواطنهم وظواهرهم كما قال تعالىٰ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ [السجدة:٦]، ومحيط بحيث لا يعجزونه إذا أراد أن يهلكهم، أو يدمر عليهم.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَـٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾.

📖 وفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: ما أخرجه البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قول الله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ [النساء:٣]، فذكرت نحو ما تقدم في أول السورة قال: قالت ثم إن الناس استفتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه الآية فأنزل الله: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾، يعني: ربما كان الرجل يتزوج المرأة لا يريد إلا مالها وربما قصر في ما هو من شأنها ومهرها فأنزل الله هذه الآية.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ يسألونك يا محمد أي: الصحابة، ﴿فِى ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: في شأن نكاحهن، ونحو ذلك ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: أن الله عَزَّوَجَلَّ يخبركم بما يجب عليكم من حقوقهن، ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ويفتيكم أيضًا فيما يتلىٰ عليكم، ﴿فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ القرآن، ﴿فِى يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ من إضافة الشيء إلىٰ نفسه، ولكن ذكر اليتيمة؛ لأن غير اليتيمة

يقوم عليها أبوها، أو أخوها، أو من يقوم بشأنها، أما اليتيمة فقد تظلم وتهضم، ﴿ٱلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ﴾ لا تعطوهن، ﴿مَا كُتِبَ﴾ فُرض ﴿لَهُنَّ﴾ من المهور والصداق، ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ تطمعون ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ تتزوجوهن، لمالهن، أو لجمالهن بأقل من صداقهن، والأولىٰ أن تُعطىٰ كما تُعطىٰ مثيلتها، بل لو تألف قلبها بأكثر من مثيلتها لكان أولىٰ حتىٰ لا تقول: لو كان لي من يقوم بي لكان حقي كذا وكذا.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان: وهم الصغار فيأمر الله بإعطائهم حقوقهم بغير وكس، ولا شطط، ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ ويفتيكم أن تقوموا لليتامىٰ بالعدل سواء في المواريث، أو في المهور، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ﴾ مما يجب، أو يستحب عليكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ فيجازيكم به.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾ زوجة ﴿خَافَتْ﴾ توقعت ﴿مِنۢ بَعْلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ ترفعًا عليها بترك مضاجعتها، والتقصير في نفقتها، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عنها بوجهه لا يكلمها، ولا يأنس إليها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ يصلح أهلها، وأهله بين الزوج والزوجة، في النفقة، والقسمة بترك شيء من حقها ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ من الفرقة، والنشوز ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ شدة البخل، فربما شدد الزوج علىٰ زوجته، أو شددتْ الزوجة علىٰ زوجها، بحيث كل واحد يريد الحق له مع أنَّ الصلح أحسن، ﴿وَإِن تُحْسِنُوا۟﴾ في عشرة النساء، فالزوج يحسن إلىٰ الزوجة، والزوجة تحسن إلىٰ الزوج، ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ ما لا يجوز من النشوز، والإعراض ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ مطلعًا علىٰ أفعالكم،

فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء .

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ﴾ لن تقدروا ﴿أَن تَعْدِلُواْ﴾ تسووا ﴿بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: في الحب، وميل القلب، ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ علىٰ ذلك، ﴿فَلَا تَمِيلُواْ﴾ إلىٰ التي تحبونها ﴿كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ بحيث تجهر ضرتها، في حقها ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أي: الزوجة ﴿كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾ الأيم، التي لابعل لها، ﴿وَإِن تُصْلِحُواْ﴾ فيما بينكم إما بالعشرة، والعدل، والقسمة، أو التجاوز من الزوجة، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ تراقبوا الله عَزَّوَجَلَّ في جميع شأنكم،﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ عما يقع من التفريط، والتقصير مما في قلوبكم ﴿رَّحِيمًا﴾ بكم في ذلك.

۞ وختم الآية بهذين الاسمين دليل علىٰ عظم عفو الله عَزَّوَجَلَّ فيما يتعلق مما يقع بين الأزواج.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾ بالطلاق، أو الخلع ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ من فضله ربما ييسر للزوج بزوجة صالحة توافق ، فيستقيم شأنه معها، وربما ييسر للزوجة بزوج صالح تتوافق طبائعهما، بينهما العيشة الهنية السوية، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا﴾ في ذاته، وصفاته، وهباته ﴿حَكِيمًا﴾ في فعله وشرعه ومن ذلك أنه شرع الطلاق؛ لما فيه من المنافع والمصالح.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾.

﴿١٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عبيداً وملكًا، وهو الغني عنكم، وعن عبادتكم، ومع ذلك فقد بين ما ينبغي أن يسلكه الناس للسلامة: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا﴾ شرعنا فأمرنا ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ اليهود والنصارىٰ ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ معشر المسلمين ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في أقوالكم، وأفعالكم، ومعتقداتكم، فتقوىٰ الله خير زادٍ كما قال تعالىٰ:

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وهي سبب الكرامة كما قال:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وسبب السلامة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢]، والتقوىٰ كلمة جامعة تدل علىٰ وجوب فعل المأمور وترك المحظور.

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ أي: عن أمر الله ، وتتمردوا علىٰ شرعه، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يلتزمون أمره الكوني، فلا يخرج عليه منهم خارج، فملكه محيط بكل شيء، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ عن العالمين ﴿حَمِيدًا﴾ محمودًا لجميل أفعاله، وعظيم خصاله، وإنما أمركم بطاعته، ونهاكم عن معصيته من باب الابتلاء والاختبار لكم، وإلا فهو صاحب الغنىٰ المطلق قال الله عَزَّوَجَلَّ:

«يَا عِبَادِي! إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.

يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ عَارٍ، إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.

يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.

يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.

يَا عِبَادِي! إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ

الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ» أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٣٢ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أعادها؛ ليبين أنه الغني الذي لا يحتاج، والقاهر الذي لا يُغلب، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ شهيدًا، ودافعا، ومجيرا، فتوكلوا عليه في جلب المنافع، ودفع المضار، ولا تعتمدوا علىٰ غيره.

١٣٣ ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله عَزَّوَجَلَّ ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يهلككم ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إن بقيتكم علىٰ كفركم، وإعراضكم، وعدم استقامتكم، ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ غيركم ممن هو أحسن منكم عبادةً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء.

١٣٤ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ منكم: ﴿ثَوَابَ﴾ أجر ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ فليس له إلا ذاك، ومن كان عمله للآخرة، ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ﴾ أجر ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعطه الله أجره في الدنيا، ويزيده عطاء واسعًا في الآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ لأقوالكم ﴿بَصِيرًا﴾ بأفعالكم، فيجازيكم علىٰ عملكم كل واحد بما يستحقه.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾.

١٣٥ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ﴾ قائمين ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ العدل في الأقوال، والأفعال، والعدل في جميع شأنهم، ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ بالحق ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بالإقرار بما يلزم فاعدلوا حتىٰ مع أنفسكم، فلا تظلموا غيركم، وهذا من باب الانصاف كما قال عمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ: إِنْصَافٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَالْإِنْفَاقُ مِنَ الْإِقْتَارِ، وَبَذْلُ**

السَّلَامِ لِلْعَالَمِ» علقه البخاري في صحيحه.

﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ ؛لأن حب الوالدين يجر إلىٰ مراعاتهما فأمر الله عَزَّوَجَلَّ بالعدل معهما، ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ من الإخوة، والأخوات، والأعمام، والعمات، والأخوال، والخالات، وغير ذلك، فكن متبعًا للعدل مستقيمًا عليه، ﴿إِن يَكُنْ﴾ المشهود عليه ﴿ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ منكم فلا تكتم في حق الغني لرضاه، وفي حق الفقير لرحمته، فلا يجوز كتم الشهادة كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣].

﴿ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ فتجوروا، وتميلوا في شهاداتكم، وفي جميع شأنكم إلىٰ الباطل من الحق؛ لأن كلمة العدل من الألفاظ المتضادة، أو يكون المعنىٰ: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ أي: تحرفوا الشهادة لتبطلوا الحق، ﴿ أَوْ تُعْرِضُواْ ﴾ عنها فتكتموها، ولا تقيموها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ مطلعًا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

أو يكون المعنىٰ: فلا تتبعوا الهوىٰ ألا تعدلوا بل لازموا العدل في جميع الأحوال.

﴿١٣٦﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ اثبتوا علىٰ إيمانكم ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾، فإن الإيمان يجر إلىٰ مكارم الأخلاق وفضائلها، وإلىٰ التزام الشرع ظاهرًا وباطنًا، ويخاطبهم بإيمانهم بالكتاب الذي هو القرآن، والذي من مقتضيات الإيمان به العمل بما فيه من الأوامر، واجتناب ما فيه من النواهي والزواجر، والتصديق بما فيه من الأخبار سواء الماضية، أو الآتية أو ما هو في علم الغيب من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر وما فيه.

۞ وهذه الآية يستدل بها أهل السنة والجماعة علىٰ وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته.

وذلك من أوجه :

● **الوجه الأول:** أن الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ يستلزم الإيمان بما له من الأسماء والصفات.

● **الثاني:** أن الإيمان برسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستلزم تصديقه فيما نقل، وأخبر من باب الأسماء والصفات، وغيره.

● **الثالث:** أن الإيمان بالكتاب يدخل فيه الإيمان بما فيه من الأسماء والصفات، وغير ذلك من الأخبار.

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو القرآن، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ كتبًا كثيرة كما قال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الحديد:٢٥]، ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ وهو التوراة والإنجيل وغير ذلك من الكتب، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ ﴾ سواء كان كفره في الربوبية، أو في الألوهية، أو في الأسماء والصفات، أو فيها جميعًا، أو في بعضها ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ ﴾

۞ **والكفر بهم يكون:**

بالقول بعدم وجودهم، أو زعم أنهم إناث، وربما قال بعضهم: هم قوىٰ خير، فلا يؤمن بوجود مخلوقات اسمها ملائكة مع أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُخبر أن الملائكة خُلقوا من نور، وأن الشياطين خُلقوا من نار، وأن الإنسان خُلق مما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ وهو التراب.

والإيمان بالملائكة يتضمن الإيمان بمن أُخبرنا بأسمائهم وصفاتهم، والإيمان بهم علىٰ الإجمال كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر:٣١]، وأفضلهم جبرائيل ثم ميكائيل ثم إسرافيل، **ويكون الكفر بهم أيضًا بمعاداتهم،** كما هو حال اليهود في بغض جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: ومن يكفر بكتبه المنزلة علىٰ رسله وأنبيائه، وكلها قد غُيرت، وبُدلت، وتركت إلا ما كان من القرآن فإنه محفوظ بحفظ الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ ويكفر برسله، الذين أرسلهم إلىٰ الناس؛ لإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، وأفضلهم خمسة أولوا العزم من الرسل، وأفضل الخمسة محمدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم إبراهيم، ثم موسىٰ ثم، عيسىٰ، ونوح، ونؤمن بمن قص الله عَزَّوَجَلَّ علينا منهم وبمن لم يقص، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤].

۞ إلا أن الإيمان بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقتضي أمرًا زائدًا: وهو طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، والانتهاء عما نهىٰ عنه وزجر، وألا يعبد الله عَزَّوَجَلَّ إلا بما شرع.

۞ **وللشيخ فتح القدسي حَفِظَهُ اللهُ نظم في شروط شهادة (أن محمدا رسول الله) قال فيها:**

شُـــروطُ مَـــنْ شَـــهِدَ أنَّ أحمَـــدَا ... رَسُـــول ربِّـــي ســـتَّة فلتُعـــددا

أوَّلهـــا اعتقـــادٌ قلـــبٍ جـــازِمِ ... والثَّـــانِي نُطـــق مـــن لِســـان سَـــالم

محبَّـــة أشـــدّ مِـــن حـــبِّ الولـــد ... والـــنَّفس صـــدق كـــل مـــا عَنـــه ورَد

مـــن ثابـــتٍ واتبعـــهُ في الأعمَـــالِ ... وقولـــه قَـــدِّم عَلـــىٰ الأَقـــوَال

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ويكفر بيوم القيامة، وأوله القبر كما في حديث عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»، قَالَ: وَقَالَ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**» **اخرجه أبو داود (٤٢٦٧).**

۞ ويشمل الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بما فيه من الصراط، والحوض، والميزان، ورؤية الله عَزَّوَجَلَّ، والشفاعة، وغير ذلك من الأحكام.

وهذه أركان الإيمان الستة، وبقي الإيمان بالقدر مأخوذ من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فمن كفر بما تقدم من الأركان، ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ أي: هلك، وانحرف، وبعد عن الحق، وعن ملازمة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كل البعد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ١٣٧ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩ ﴾.

١٣٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قيل: نزلت في اليهود، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ ارتدوا على أدبارهم بعبادة العجل، ﴿ثُمَّ ءَامَنُواْ﴾ مرةً أخرى، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ تعمقوا في الكفر، ولم تقع لهم توبة، وإلا فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال:٣٨] ﴿لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ إن ماتوا علىٰ كفرهم لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]، وأما من تاب وأناب، فإن التوبة تهدم ما قبلها ﴿وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ﴾ ليوفقهم ﴿سَبِيلَۢا﴾ طريقًا إلىٰ الحق؛ بسبب تعمق الكفر فيهم.

١٣٨ ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أخبرهم يا محمد ﴿بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في القبر والآخرة؛ بل ربما في الدنيا بالخزي، وضيق الصدر، ونحو ذلك.

١٣٩ والمنافقون من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ شأنهم أنهم ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنصارًا، وبطانة ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ﴾ وفعلوا ذلك لما يعتقدونه من قوتهم، فمن صور نفاقهم أنهم يتخذون الكافرين من اليهود والنصارىٰ أولياء من دون المؤمنين يحبونهم، ويودونهم، ويجالسونهم، ويناصرونهم، ويفرحون لرفعتهم، ويغضبون لرفعة المسلمين؛ وذلك لفساد قلوبهم، وسوء حالهم، فهم إنما أظهروا الإسلام تقية، وما أكثرهم في زمننا هذا يتسمون باسم الإسلام، ويطعنون فيه ويحاربون حملته، ومنهم الحداثيون، والعقلانيون، والعلمانيون، والرافضة، والباطنية، خيب الله سعيهم ومكن منهم، ﴿أَيَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿عِندَهُمُ﴾ اليهود والنصارىٰ، وغيرهم من الكفار ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ الرفعة ولن يجدوا ذلك، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ﴾ الغلبة، والقدرة، والرفعة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨]. وفي المسند (٢١٢٢٢) عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرِّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ**».

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾.

﴿١٤٠﴾ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ في القرآن ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ يسخر ﴿فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام:٦٨]، وتعلم من هذا أن ﴿سورة النساء﴾ نزلت بعد ﴿سورة الأنعام﴾.

۞ وبهذه الآية، وغيرها من الآيات احتج أهل العلم علىٰ وجوب هجر أهل البدع، والنهي والنئي عنهم.

۞ وفيه: البعد عن تكثير سواد المبطلين، فإن مجالسة المبطل سبب للتأثر بباطلهم، قال أبو قلابة الجرمي: (لَاتُجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَلَاتُجَادِلُوهُمْ، فَإِنِّي لَا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلَالَتِهِمْ، أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ) **أخرجه الدارمي(٤٠٥)**.

ويستمر هجركم لهم ﴿حَتَّىٰ﴾ إلىٰ أن ﴿يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي: يتركون الاستهزاء بالقرآن، والسنة وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولازم ذلك أن يقع منهم الإيمان، والاستجابة لله ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِنَّكُمْ إِذًا﴾ إذا قعدتم معهم راضين بصنيعهم ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ في الكفر، والإثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يوم القيامة كما اجتمعوا في الدنيا ﴿فِى جَهَنَّمَ

جَمِيعًا﴾، وقدم المنافقين علىٰ الكافرين؛ لعظم ضررهم، وخطرهم، ولعظيم عذابهم إذ أنهم أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، والإجرام.

﴿١٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أهل النفاق ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم دوائر الهزيمة والذلة؛ لشدة بغضهم لكن ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نصر، وتمكين، وعز، وغنيمة ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدون نصيب الدنيا، وحظها من الغنيمة، ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: نصر، وغير ذلك ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: نحن الذين غلبنا علىٰ أصحاب محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وصرفناهم عنكم بتثبيطنا لهم،﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بين أهل الإسلام، وأهل النفاق، والإجرام، ويكون حكمه بما يعلمه من بواطن المنافقين، وعقائدهم عين السوية، فيخلدهم في النار مع الكافرين، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، أي: حجة لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

۞ وبهذه الآية وما في بابها احتج من احتج من أهل العلم: أن الكافر لا يكون وليًا للمرأة المسلمة، ولا حاكمًا علىٰ المسلمين.

﴿١٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بإظهارهم الإسلام، وإبطان الكفر ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ عَزَّوَجَلَّ بأفعالهم، ومعاملتهم، وهذا لضعف عقولهم، وإلا فإن الله لا يُخادَع، فهو بكل شيء عليم ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾.

۞ فيه إثبات صفة المخادعة لله عَزَّوَجَلَّ، وهي صفة فعلية تليق بجلاله، فيمكر، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون، فيفضحون في الدنيا والآخرة.

﴿وَ﴾ ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ متثاقلين كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون:٥]، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] وَعَنْ أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**» متفق عليه.

والسبب في هذا الكسل والتواني: أنهم لا يحتسبون الأجر والمثوبة من الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ بصلاتهم وأفعالهم، وفي حديث جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**» **أخرجه البخاري (٦٤٩٩) ومسلم (٢٩٨٧)**.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ بالصلاة، ونحوها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءًا، وسمعةً لا إخلاص فيه، ولو كان خالصًا لله مع التوحيد لنفعهم القليل.

﴿١٤٣﴾ ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ مترددين ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بين المسلمين، والكفار ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لا منسوبين إلىٰ أهل الإسلام، ولا إلىٰ اليهود، وحالهم كما جاء عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مرّة**» **أخرجه مسلم (٧٢٨٤)**، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يزيغ قلبه، ولا يوفقه للهدىٰ، ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا إلىٰ الهدىٰ؛ لأنه قد خُتم علىٰ قلبه، وطبع عليه لعلمه بحالهم أنهم لا يصلحهم شيء؛ لفساد قلوبهم، وسوء حالهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿١٤٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يخاطب الله المؤمنين الذين هم ملتزمون لشرعه، ومنتهون عن نهيه، وزجره ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تتولوا الكافرين، فعندهم من البعد عن الدين ما يوجب البراءة، والبعد، والنهي عنهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة:٥١]، فالمؤمن يوالي المؤمن كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، والكافر يوالي الكافر، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧] ﴿أَتُرِيدُونَ﴾ بموالاة المشركين ﴿أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ حجةً بينة في عذابكم، وهذا الأمر لم يقع من المؤمنين في ذلك الزمان؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ نهاهم عن هذا

الصنيع، وهم متعبدون لله عَزَّوَجَلَّ بأمره.

۞ وفي الآية خطر القرب من المخالفين لدين رب العالمين، فإنهم يصرفون الإنسان عن الخير، ويزحزحونه عن الاستقامة، وربما جعلوه يحسب أنه يحسن صنعًا بهذا الصنيع.

والمتأمل لحال المسلمين في هذا الزمان يجد ما يدمي القلوب، ويبلي العيون؛ بسبب موالاة الكافرين والركون إليهم، والرضا عن كثير من أفعالهم، والتشبه بهم، وإلىٰ الله المشتكىٰ، وهذا مصداق قول رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ**» **قُلْنَا: يَا رسول الله ٱلْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ؟** قَالَ: «**فَمَنْ**» **متفق عليه عن أبي سعيد** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

﴿١٤٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن المنافقين في المكان الأسفل، وفي قراءة: ﴿الدَّرَكِ الأَسْفَلِ﴾.

۞ و(**الدرك**): هو أسفل ما يكون من المكان.

ولهذا يقولون الجنة درجات والنار دركات؛ لأن الجنة يرتفع فيها المؤمنون إلىٰ أعلىٰ عليين، والنار ينزل فيها الكافرون بحسب كفرهم إلىٰ أسفل سافلين، وانظر إلىٰ هذا الوعيد الشديد للمنافقين لشدة بغضهم للإسلام وشدة ضررهم علىٰ الإسلام وأهله.

﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وليًا يدفع عنهم العذاب.

﴿١٤٦﴾ ﴿إِلَّا﴾ ويستثنىٰ من هذا الوعيد ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ رجعوا من النفاق، وهذا يكون في حال حياتهم، وتكون توبتهم بالدخول في الإسلام أولًا، وبالانتهاء عن النفاق، وما يبطنونه ثانيًا، ثم بالإصلاح ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: أعمالهم، فكانوا يراؤون فيتركون الرياء، وكانوا يقومون إلىٰ الصلاة كسالى فيقومون مستبشرين فرحين، ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وثقوا به؛ لإيمانهم به، بينما كانوا في الشأن الأول أصحاب ذبذبة، ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أخلصوا بالقلب؛ لأن النفاق كفر القلب، فزواله يكون بإخلاص القلب.

۞ وقد تقدم أن شروط التوبة العامة خمسة، ويضاف إليها في توبة المنافق:

١- الإصلاح. ٢- والاعتصام بالله.

حتىٰ تكون توبتهم صحيحة نصوحة، فإن كان منهم ما تقدم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بما يفعلونه من إصلاح شأنهم بالتوبة النصوح ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ظاهرًا وباطنًا، في الدنيا وفي الآخرة، ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الآخرة، ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الجنة.

﴿١٤٧﴾ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ نعماءه ﴿وَءَامَنتُمْ﴾ به.

وفيه تقديم وتأخير تقديره: ما يفعل الله بعذابكم إن آمنتم وشكرتم، فلا يريد الله عَزَّوَجَلَّ أن يعذبكم في حال إيمانكم وشكركم لنعمه بلسان الحال والمقال، وإنما يعذب الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الشركيات، والبدع، والخرافات، والمعاصي والسيئات.

۞ وفيه: فضيلة الشكر؛ لاقترانها بالإيمان، وأن الشكر واجب؛ لاقترانه بالواجب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ يرضىٰ بالقليل من عباده، ويجازي الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف ﴿عَلِيمًا﴾ لمن هو مستحق للثواب، والأجر العظيم.

الجُزْءُ السَّادِسُ

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾.

﴿١٤٨﴾ ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني: لا يحب الجهر بالقبح من القول من سب، وشتم، ونحو ذلك ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ من اعتدي عليه، فإنه ينتصر بقدر ما اعتدي عليه، فيجوز للمظلوم أن يُخبر عمن ظلمه، ويتشكىٰ، ويدعو عليه بقدر مظلمته، والظالم لا غيبة له في هذا الشأن الذي ظلم فيه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لكلامهم ﴿عَلِيمًا﴾ بفعالهم، وسيجازي كلًا بما عمل.

﴿١٤٩﴾ ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ تظهروا ﴿خَيْرًا﴾ من الأقوال، والأفعال، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تخفوا الخير من العقائد، والأفعال، والأقوال، ﴿أَوْ تَعْفُواْ﴾ تصفحوا، وتتجاوزوا ﴿عَن سُوٓءٍ﴾ عن ظلم وجهل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ يجازي كل إنسان بعفوه وتجاوزه إذا كان من

العافين عن المؤمنين، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُسْتَبَانُ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ**» **أخرجه مسلم(٢٥٨٧) عن أبي هريرة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

فينبغي للإنسان أن يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في فعله وتركه، وفي جميع شأنه، فإن ذلك من أسباب رفع درجته، وتكفير سيئته وزلته.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢ ﴾.

١٥٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ﴾ من اليهود والنصارىٰ وغيرهم ﴿بِٱللَّهِ﴾ فيشركون معه ويندون، ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ بتكذيب بعضهم أو بتكذيبهم جملة، ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يؤمنوا ببعضهم دون غيرهم كحال النصارىٰ واليهود الذين لم يؤمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ﴾ من الأنبياء والمرسلين ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ طريقًا يذهبون إليه بين الإسلام والإلحاد، وهذا غير نافع لهم، فطريق المؤمنين كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥].

١٥١ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون تلك الأفعال ﴿هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا﴾ لا يمترىٰ في كفرهم، ولا يتشكك في طريقهم، ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ أعددنا في نار جهنم ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ ذا مهانة يوم القيامة.

۞ والآية دليل علىٰ وجود النار خلافًا للمعتزلة، ومن إليهم.

١٥٢ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ جميعًا ﴿وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ إذ كلهم رسل الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ﴾ الله ﴿أُجُورَهُمۡ﴾ ثوابهم مضاعفًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ كتب أن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ متجاوزًا موفقًا للمؤمنين.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾.

﴿١٥٣﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يا محمد ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهود أسئلة تعنت لا أسئلة استفادة وعلم، ففي مسلم عن ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَوْلَى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا فَقَالَ: لِمَ تَدْفعني؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رسول الله، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ.

فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي**».

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ.

فَقَالَ لَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟**».

قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ.

فَنَكَتَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُودٍ مَعَهُ، فَقَالَ: «**سَلْ**».

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟.

فَقَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ**».

قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟.

قَالَ: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ».

قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ حِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ؟.

قَالَ: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ».

قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَىٰ إِثْرِهَا؟.

قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا».

قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟.

قَالَ: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا».

قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ رَجُلٌ، أَوْ رَجُلَانِ.

قَالَ: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» .

قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ.

قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ؟.

قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ، أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ، آنَثَا بِإِذْنِ الله ».

قَالَ الْيَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ، وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ» أخرجه مسلم (٣١٥).

ومن هذه الأسئلة يسألونك ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جملة مع أن القرآن أُنزل من السماء؛ لكنهم يتعنتون، ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ﴾ أعظم ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ حين سألوه عدة آيات بينات وأكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بها، ومع ذلك ما زادهم إلا عتوًا، ونفورًا، وتعنتوا، ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ عيانا في الدنيا، وقد قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا» أخرجه مسلم (١٦٩).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ الموت عقابًا لهم ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ ؛بسبب ظلمهم، ومع ذلك أحياهم الله بعد ذلك ولم يشكروا الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ هذه النعمة، ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهًا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الأدلة الواضحة علىٰ وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَعَفَوْنَا﴾ تجاوزنا ﴿عَن ذَٰلِكَ﴾

ولم نستأصلهم بظلمهم، ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أي: حجة بيِّنة، وهي الآيات التي جاء بها.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾ الجبل ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ ؛ بسبب ميثاقهم أن يفوا بالعهد والميثاق الذي أُخذ عليهم، ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ﴾ أمرناهم أن ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ يسجدون، ويبشرون من الله عَزَّوَجَلَّ بالتجاوز والمغفرة، ولكنهم دخلوا يزحفون علىٰ أساتهم ويقولون: حبة في شعرة، أو حبة في شعيرة، وفي قوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨]، قالوا: حنطة، وقد أحسن ابن القيم، حيث قال:

نــون اليهــود ولام جهمــيّ همــا في وحــي ربّ العــرش زائــدتان

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟﴾ تعتدوا ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ بالصيد فيه إذ حرم الله عليهم الصيد في السبت، ومع ذلك عتوا وتحيلوا، فكانوا ينصبون الشباك بالجمعة، ويستخرجونها بالأحد، فأخذهم الله بظلمهم، ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا﴾ عهدًا ﴿غَلِيظًا﴾ أي: علىٰ عدم الاعتداء في السبت فنقضوه.

﴿١٥٥﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: بسبب نقض الميثاق الذي أُخذ عليهم، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ حيث آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ وهذا جرم عظيم فيه الجرأة علىٰ دين الله عَزَّوَجَلَّ وعلىٰ حملته، وهو دليل علىٰ كفرهم، وعلىٰ عدم خوفهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليس معناه أن هناك من الأنبياء من قتل بحق؛ فكلهم قتلوا علىٰ ظلم، ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ حين يُدعون إلىٰ الاستجابة لله ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ مغشاة بأغطية، فلا تعي، ولا تستفيد ولا تفهم، وهذا من شهادتهم علىٰ أنفسهم، وسبب ما لحق هذه القلوب أنهم أعرضوا عن ذكر الله وتوحيده وطاعته، فصارت غلف لا تنفعها موعظة، ولا يزجرها زاجر ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ بل الواقع أن الله طبع علىٰ قلوبهم؛ بسبب كفرهم؛ وعدم إيمانهم.

وروىٰ الحكم بْن ميناء المدني عن ابن عمر، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حَدَّثَاهُ، أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ عَلَىٰ أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ**

اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ» أخرجه مسلم (٨٦٥).

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم كعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفعلًا ما آمن برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا العدد اليسير حتىٰ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَوْ تَابَعَنِي عَشَرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ» أخرجه مسلم (٧٧٩٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.**

﴿١٥٦﴾ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ وأيضًا لحقهم الخزي؛ بسبب كفرهم، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾ البتول العذراء العفيفة ﴿بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ حيث اتهموها بأنها حملت من الزنا مع أنها مبرأة طاهرة، وقد برأها الله علىٰ لسان ولدها حيث تكلم في المهد، ومع وجود هذه الحجة القوية القاهرة ما زادتهم إلا عتوًا ونفورًا، تصور أن الطفل يحتاج إلىٰ خمس إلىٰ أربع سنوات حتىٰ يُبيّن عما في نفسه مع قصور، وهذا الطفل وهي تحمله وتشير إليه، وهم يعلمون ضعفه عن البيان، ومع ذلك يقول لهم:﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم:٣٠-٣٣]، فما زادهم إلا ضلالًا بعيدًا.

﴿١٥٧﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ أي: ومن أعمالهم السيئة الذي لحقهم الخزي والعذاب بسببها أنهم قالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ في زعمهم، وقد عزموا علىٰ قتله، فصاروا كقاتليه من حيث الإثم، وإلا فقد نجاه الله منهم، وعيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ عند اليهود مقتول، وَعَنْد النصارىٰ قُتل ودفن ثم أخرج من قبره في اليوم الثالث ورفع إلىٰ السماء.

والعقيدة الصحيحة عَنْد المسلمين : أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ رفعه الله إليه مطهرًا مبرأً سالمًا من مكر الماكرين.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ أي: أنه لم يقع منهم القتل والصلب، كما يتوهمون ويظنون؛ لأن الله رفعه إليه، ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ألقىٰ الله شبهه علىٰ بعضهم يقال: بأنه الرجل الذي بلغ عنه فصلبوا ذلك، وقتلوه،﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي: في عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ سواءً اليهود، أو النصارىٰ ﴿لَفِى شَكٍّ﴾ ريبة ﴿مِّنْهُ﴾ من قتله كما قال بعض أهل التفسير كان الوجه وجه

عيسىٰ، والجسد ليس جسده ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ في القول بقتله ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ الحدس، وأكد عدم قتلهم بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: لم يقتلوه يقينًا لا شك فيه.

﴿١٥٨﴾ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ الواقع أن الله رفعه إليه مُسَلِمًا له من مكر الماكرين، وبطش البطاشين.

۞ وفيه دليل علىٰ علو الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ عرشه.

إذ أن الرفع يكون من أسفل إلىٰ أعلىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السماء الثانية، كما أخبر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث المعراج، وينزل في آخر الزمان فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية حتىٰ لا يقبلها أحد، هذا هو قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثابت في الصحيحين وغيرهما، ودعك من آراء العقلانيين الذين يزعمون أنه لا ينزل، وإنما زمن عيسىٰ هو زمن الخير الإلهي، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب ﴿حَكِيمًا﴾ فيما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿١٥٩﴾ ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وما من أحد من اليهود والنصاري ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

❖ **اختلف في هذا المعنىٰ:**

فقيل: ما من رجل من اليهود أو النصارىٰ إلا مثل له عيسىٰ عند موته أنه لم يمت، فعند ذلك يستيقن.

وقيل: بأن أهل الكتاب في آخر الزمان يؤمنون بعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنه لا يقبل غير الإسلام، فيكون قوله قبل موته عائد إلىٰ عيسىٰ في معنىٰ، وعائد إلىٰ نفس الميت في معنىٰ.

فلو قلنا بأن كل يهودي ونصراني يؤمن بعيسىٰ عند موته يكون المعنىٰ عائد إلىٰ نفس الميت ولا ينفعه هذا الإيمان؛ لأنه في زمن الغرغرة.

والمعنىٰ الثاني: أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزل في آخر الزمان، ويؤمن به أهل الكتاب، فعن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ،**

وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ» متفق عليه.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ﴾ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد علىٰ اليهود بالتكذيب، وعلىٰ النصارىٰ بالغلو.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿١٦٠﴾ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾، فبسبب ظلم اليهود ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ مما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في ﴿سورة الأنعام﴾: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]، ومع ذلك تحيلوا علىٰ أكلها.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**» متفق عليه.

﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾ الناس، ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دينه ﴿كَثِيرًا﴾ عوقبوا بأشد العقوبات علىٰ سوء أفعالهم.

﴿١٦١﴾ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ ومما كان سبب لفساد دنياهم وأخراهم أنهم أخذوا الربا، وقد نهوا عنه في التوراة فلم يأخذوا بها، ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ من الرشاوىٰ، ونحوها.

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «**لَعَنَ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الرَّاشِيَ وَالْمُرْتَشِيَ**» **أخرجه الترمذي (١٣٣٧)**، ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في القيامة.

﴿١٦٢﴾ ولما ذكر أهل الفساد استثنىٰ منهم أهل الإيمان فقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ الثابتون المتمكنون ﴿فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ من اليهود ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ منهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون، ويقرون

﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ من الوحي، ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ التوراة، والإنجيل، ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الذين يقيمون الصلاة المفروضة، نصبت علىٰ المدح، وفيها قراءة شاذة علىٰ الرفع، ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ معبودًا، وربًا ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ويؤمنون بالبعث بعد الموت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني الجنة، وهذه في حق عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن آمن منهم.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿١٦٣﴾ يقول الله عَزَّوَجَلَّ ممتنًا علىٰ نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ بالقرآن ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

۞ فيه أن نوح أول رسول إلىٰ أهل الأرض، كما جاء مصرحًا به في الحديث المتفق عليه.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء الثاني، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو البشرية الثاني، ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي: كتابًا مزبورًا مكتوبًا في صحف.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ﴾ في القرآن بأسمائهم، وأوصافهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ في ﴿سورة الأنعام﴾، وغير ذلك من السور المكية.

۞ وهذه تسمية الأنبياء الذين نص علىٰ أسمائهم في القرآن وهم:

آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسىٰ، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وكذا ذو الكفل عند كثير من

المفسرين، وسيدهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ فيه فضيلة لموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

۞ وإثبات صفة الكلام لله عَزَّوَجَلَّ وهي من الصفات الذاتية الفعلية، وقد أكد الكلام بالمصدر دلالة علىٰ أنه تكلم بكلام حقيقي.

وقد أراد بعضهم أن يؤولوا هذه الآية يقول: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بنصب لفظ الجلالة- فيكون موسىٰ فاعل مؤخر، ولا يستقيم له ذلك، قال له أبو عمر بن العلاء رَحِمَهُ اللَّهُ: فكيف تفعل بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:١٤٣]، والضمير يعود علىٰ أقرب مذكور.

﴿١٦٥﴾ ﴿رُّسُلًا﴾ أي: أرسلنا رسلًا ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ بالثواب ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بالعقاب، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربما قال: «**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**» حَتَّىٰ لَوْ كَانَ رَجُلٌ كَانَ فِي أَقْصَىٰ السُّوقِ، سَمِعَهُ، وَسَمِعَ أَهْلُ السُّوقِ صَوْتَهُ، وَهُوَ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ». **أخرجه الترمذي وأحمد (١٨٣٩٨) عن النعمان بن بشير** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان الحكمة من إرسالهم إقامة الحجة الرسالية علىٰ المكلفين و ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ يحتجون بها أنهم ما جاءهم من نذير ولا بشير. ﴿بَعْدَ﴾ إرسال ﴿الرُّسُلِ﴾ إليهم.

۞ وفيه: العذر بالجهل، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء:١٥]، وقال: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [القصص: ٤٧]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب ﴿حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ في شرعه، وخلقه.

﴿١٦٦﴾ ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يعني: إن جحدوا نبوتك، ورسالتك وخبرك فإن الله عَزَّوَجَلَّ يشهد، ﴿بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ من القرآن، والوحي المبين ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ فهو بكل شيء عليم، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ أن الله أنزله عليك، وأنه الحق الذي لا ريب فيه، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ مطلعًا، ومخبرًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من اليهود والنصارىٰ، وكتموا ما عندهم من العلم من نعت محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ﴿وَصَدُّواْ﴾ غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ بَعُدوا عن طريق الحق﴿ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ بعدًا شديدًا، لا توبة بعده ولا سلامة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾ توكيد لما تقدم، كفروا بالله ، وظلموا بكفرهم، وظلموا نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والمسلمين، ﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ، إن ماتوا علىٰ الكفر، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ ولا ليوفقهم لدين الإسلام؛ لأنهم ليسوا أهلًا للتوفيق ولا التسديد وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦].

﴿إِلَّا طَرِيقَ﴾ سبيل ﴿جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وهذه هداية بخذلانهم عن طريق الحق كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٢٣]، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يعجزه شيء في السموات، ولا في الأرض.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ بالوحي الصادق من عند الله، المشتمل علىٰ القرآن العظيم، والسنة المطهرة، فهي وحيٌ من الله عز وجل تبين الكتاب وتفصل مجمله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾، ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ به ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ مما أنتم فيه ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ تعرضوا ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يضره كفركم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بخلقه ﴿حَكِيمًا﴾ في صنعه وجميع شأنه.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾.

١٧١ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اليهود النصارىٰ، ﴿لَاتَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

۞ و(**الغلو**): هو مجاوزة الحد سواء كان بالإفراط، أو في التفريط.

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ من أنه لا إله إلا هو لا رب غيره، ولا إله بحق سواه، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ لا كما تزعم النصارىٰ أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، أو كما تزعم اليهود بأنه ولد زنا حاشاه من ذلك.

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَىٰ المِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ الله ، وَرسولهُ**» **اخرجه البخاري(٣٤٤٥)** .

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي: أنه كان بالكلمة قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران:٥٩].

۞ وليس هو نفس الكلمة كما زعمت النصارىٰ فإنهم حين جعلوه عين الكلمة عبدوه وألهوه.

﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي تكلم الله بها فكان بها عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قوله: ﴿كُن﴾، ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[التحريم:١٢]، أي: هو من الأرواح التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ، وأضافها إلىٰ نفسه تشريفًا.

فالمضاف إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ينقسم إلىٰ قسمين:

- **الأول: ما يقوم بنفسه:** فإضافته إلىٰ الله إضافة تشريف،| أو خلق وإيجاد كالروح، والناقة، وبيت الله .
- **والثاني: ما يقوم بغيره:** سواء كان من المعاني، أو الأعيان، فإضافتها إلىٰ الله إضافة صفة إلىٰ موصوف كعلم الله ، ووجه الله ، وغضب الله ، ومكر الله .

فبتحقيق هذه القاعدة المهمة تسلم من تحريف المعتزلة، والجهمية، والأشاعرة، ومن إليهم.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ربًا ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ الذين بلغوا دينه لا تفرقوا بين أحد منهم، ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ لا تقولوا بأن الآلهة ثلاثة: **(الأب، والابن، ورح القدس)**، أو **(اللاهوت، والناسوت)** كما يزعم النصارىٰ عليهم لعائن الله ، ﴿ٱنتَهُواْ﴾ عن هذا القول القبيح ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ حصر للألوهية الحقة في الله عَزَّوَجَلَّ لا شريك له كما قال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون:٩١]، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾[الجن:٣]، وقال:﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص:٣].

﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾؛ لأن الولد إنما يحتاجه الأب المخلوق الناقص الذي يموت ويضعف إلىٰ غير ذلك، فيحتاج إلىٰ ولد يرثه، وإلىٰ من يقوم عليه إذا كبر، ويعينه إذا ضعف، وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ غني كريم، قال تعالىٰ: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم:٩٠-٩٣]،

وهذا القول العظيم القبيح، مسبة الله عَزَّوَجَلَّ يتأذىٰ الله عَزَّوَجَلَّ منها، فعن أَبِي مُوسَىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ الله عَزَّوَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»** متفق عليه.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الُملك المُطلق، السموات وما فيها، والأرض، وما فيها، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ شهيدًا علىٰ ذلك، وحافظًا لعباده وأعمالهم.

﴿١٧٢﴾ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ لن يتكبر، أو يأنف ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا﴾ مذللًا، ﴿لِّلَّهِ﴾ عَزَّوَجَلَّ، بل كان مبادرا طائعا ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يستنكفون عن ذلك، بل إنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يتكبر ويعرض عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم جزاء كبرهم، وعلوهم بأن يخزيهم يوم القيامة، ويعذبهم في النار، وبئس القرار.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾.

﴿١٧٣﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آمنوا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، و بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ القلبية، والقولية، والفعلية، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ يعطيهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم، ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ استكبروا، وأعرضوا عن عبادته، ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مخزيًا موجعًا، ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غير الله ﴿وَلِيًّا﴾ يدفعه عنهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم؛ لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء، فعجزت الشياطين عن ولايتهم والقيام بشأنهم؛ بل يتبرأ بعضهم من بعض كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سبأ:٣١].

﴿١٧٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ حجة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عليكم، وهو محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما معه من الوحي الشريف، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ القرآن ﴿نُورًا مُّبِينًا﴾ واضحًا بينا لمن أراد الله له الهداية.

﴿١٧٥﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أقروا بواحدانيته، وألوهيته، ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ أخلصوا دينهم له، وامتنعوا به كما قال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:١٠١]. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ وهي الجنة، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا﴾ طريقًا ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾يوصل إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الإسلام الذي أنعم الله به علىٰ: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾.

📖 وَفِي أَسْبَابِ النُّزُولِ: ما في الصحيحين عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: «جَاءَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُنِي، وَأَنَا مَرِيضٌ لاَ أَعْقِلُ، فَتَوَضَّأَ وَصَبَّ عَلَيَّ مِنْ وَضُوئِهِ، فَعَقَلْتُ، فَقُلْتُ: يَا رسول الله لِمَنِ الميرَاثُ؟ إِنَّمَا يَرِثُنِي كَلاَلَةٌ، فَنَزَلَتْ آيَةُ الفَرَائِضِ».

و تسمى بآية الصيف ففي الصحيحين عنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خَطَبَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَذَكَرَ نَبِيَّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَا أَدَعُ بَعْدِي شَيْئًا أَهَمَّ عِنْدِي مِنَ الْكَلَالَةِ، مَا رَاجَعْتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي شَيْءٍ مَا رَاجَعْتُهُ فِي الْكَلَالَةِ، وَمَا أَغْلَظَ لِي فِي شَيْءٍ مَا أَغْلَظَ لِي فِيهِ، حَتَّى طَعَنَ بِإِصْبَعِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ:«يَا عُمَرُ، أَلَا تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ، وَإِنِّي إِنْ أَعِشْ أَقْضِ فِيهَا بِقَضِيَّةٍ يَقْضِي بِهَا مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَمَنْ لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ».

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا محمد ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ﴾ في شأن قسمتها، وتوزيع تركتها ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ﴾ مات ﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ ولا والد كما هو قضاء أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعليه جمهور العلماء ﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ﴾ ولو كان له أب لم ترث شيئًا، وإذا كان له ولد ذكر، فإنه يحجب الإخوة والأخوات، وإن كان له بنت أنثىٰ، فإن لها النصف، ثم

يقسم المال علىٰ المعصبين.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢/ ٤٨٤): " عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّهُ سئل عَنْ زَوْجٍ وأخت لأم وأب، فَأَعْطَىٰ الزوجَ النصفَ وَالْأُخْتَ النصفَ. فكُلِّم فِي ذَلِكَ»، فَقَالَ: « حضرتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قَضَىٰ بِذَلِكَ**». **تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ** (٢١٦٣٩).

وَقَدْ نَقَلَ ابْنُ جَرِيرٍ، وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَابْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمَا كَانَا يَقُولَانِ: فِي الْمَيِّتِ تَرَكَ بِنْتًا وَأُخْتًا: إِنَّهُ لَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ لِقَوْلِهِ: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ قَالَ: فَإِذَا تَرَكَ بِنْتًا فَقَدْ تَرَكَ وَلَدًا، فَلَا شَيْءَ لِلْأُخْتِ.

وَخَالَفَهُمَا الْجُمْهُورُ، فَقَالُوا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: لِلْبِنْتِ النِّصْفُ بِالْفَرْضِ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ الْآخَرُ بِالتَّعْصِيبِ، بِدَلِيلِ غَيْرِ هَذِهِ الْآيَةِ وَهَذِهِ نَصب أَنْ يُفْرَضَ لَهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ، وَأَمَّا وِرَاثَتُهَا بِالتَّعْصِيبِ؛ فَلِمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٧٤١) مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْأَسْوَدِ، قَالَ: قَضَى فِينَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَلَى عَهْدِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: النِّصْفُ لِلِابْنَةِ، وَالنِّصْفُ لِلْأُخْتِ، ثُمَّ قَالَ سُلَيْمَانُ: قَضَى فِينَا وَلَمْ يَذْكُرْ: عَلَى عَهْدِ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٦٧٣٦) أَيْضًا عَنْ هُزيل بْنِ شُرَحْبِيلَ قَالَ: سُئِلَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ ابْنَةٍ وَابْنَةِ ابْنٍ وَأُخْتٍ، فَقَالَ: لِلِابْنَةِ النِّصْفُ، وَلِلْأُخْتِ النِّصْفُ، وَأْتِ ابْنَ مَسْعُودٍ فَسَيُتَابِعُنِي.

فَسُئِلَ ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -وَأُخْبِرَ بِقَوْلِ أَبِي مُوسَى-فَقَالَ: لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ، أَقْضِي فِيهَا بِمَا قَضَى النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلِابْنَةِ النِّصْفَ، وَلِابْنَةِ الِابْنِ السُّدُسَ، تَكْمِلَةَ الثُّلُثَيْنِ، وَمَا بَقِيَ فَلِلْأُخْتِ، فَأَتَيْنَا أَبَا مُوسَى فَأَخْبَرْنَاهُ بِقَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: لَا تَسْأَلُونِي مَا دَامَ هَذَا الْحَبْرُ فِيكُمْ. اهـ

﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أجمع ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ أي: إن ماتت كلالة، فلم يكن لها ولد، ولا والد، ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أختين، ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الأخ ﴿وَإِن كَانُوٓا۟﴾ الورثة ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعصب بعضهم بعضًا ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ شرائعه ﴿أَن﴾ لا ﴿تَضِلُّوا۟﴾ تهلكوا، وتنحرفوا ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فكل يجري

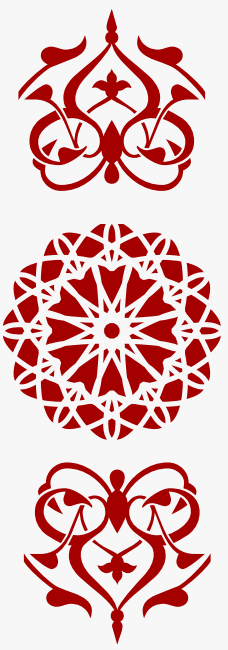
علىٰ مقتضىٰ علمه، وحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

۞ وقد أخرج الشيخان عن البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ آخر آية أنزلت من القرآن: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ﴾.

وكأنها والله أعلم من الأحكام، وقد تقدم أن آخر آية نزلت: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ ٱلنِّسَاءِ
تَمَّ ٱلْمُجَلَّدُ ٱلْأَوَّلُ
بِحَمْدِ ٱللَّهِ

الْفِهْرِس



المحتويات

مُقَدِّمَةٌ فِي فَضْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ٧
فَصْلٌ فِي طُرُقِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ ١٥
فَصْلُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ ٢١
فَصْلٌ مَعْرِفَةُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ ٢٥
فَصْلٌ الْكَلَامُ عَلَى الْاسْتِعَاذَةِ ٢٩
فَصْلٌ الْكَلَامُ عَلَى الْبَسْمَلَةِ ٣٣
تَفْسِيرُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ ٣٧
[الآية: ١]..... ٤٢
[الآية:٢]. ٤٤
[الآية:٣]. ٤٥
[الآية:٤]. ٤٦
[الآية:٥]. ٤٨
[الآية:٦]. ٤٩
[الآية:٧]. ٥٣
تَفْسِيرُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ٥٧
[الآيات:١-٥]. ٥٨
[الآيات: ٦-٧]..... ٦٦
[الآيات:٨-١٦]..... ٦٨
[الآيات:١٧-٢٠]..... ٧١
[الآيات:٢١-٢٢]..... ٧٤
[الآيات:٢٣-٢٤]..... ٧٧
[الآية:٢٥]..... ٧٨
[الآيات:٢٦-٢٩]..... ٨٠
[الآيات:٣٠-٣٩]..... ٨٤
[الآيات:٤٠-٤٢]. ٨٨
[الآيات: ٤٣-٤٦]..... ٩١
[الآيات:٤٧-٤٩]. ٩٤
[الآيات٥٠:٥٢]. ٩٦
[الآيات: ٥٣-٥٤]..... ٩٧
[الآيات:٥٥-٥٩]. ٩٨
[الآيات:٦٠-٦١]. ١٠١
[الآيات٦٢:٦٦]. ١٠٣
[الآيات:٦٧-٧٣]. ١٠٦
[الآية:٧٤]..... ١٠٨
[الآيات:٧٥-٧٧]. ١١٠
[الآيات:٧٨-٧٩]. ١١١
[الآيات:٨٠-٨٢]. ١١٣
[الآية:٨٣]..... ١١٤
[الآيات:٨٤-٨٦]. ١١٦
[الآيات: ٨٧ – ٨٨]..... ١١٨
[الآيات:٨٩-٩٠]. ١٢٠
[الآيات: ٩١ – ٩٣]..... ١٢٢
[الآيات٩٦- ٩٤]. ١٢٤
[الآيات ٩٧:٩٩]..... ١٢٦
[الآيات: ١٠٠ – ١٠٣]. ١٢٨
[الآيات:١٠٤- ١٠٥]. ١٣٥
[الآيات:١٠٦-١٠٨]..... ١٣٦
[الآيات:١٠٩-١١٣]..... ١٤٠
[الآيات:١١٤-١١٩]..... ١٤٤
[الآيات:١٢٠-١٢٤]..... ١٤٨
[الآية:١٢٥]. ١٥١
[الآيات:١٢٦-١٢٩]..... ١٥٧

[الآيات:١٣٠-١٣٢]. ١٦٠
[الآيات:١٣٣-١٣٤]. ١٦٢
[الآيات:١٣٥-١٣٨]. ١٦٣
[الآيات ١٣٩ : ١٤١]. ١٦٥
[الآيات:١٤٢-١٤٤]. ١٦٧
[الآيات:١٤٥-١٤٨]. ١٧٢
[الآيات ١٤٩ :١٥٠]..... ١٧٥
[الآيات:١٥١-١٥٢]. ١٧٧
[الآيات:١٥٣-١٥٧]. ١٨٠
[الآية:١٥٨]..... ١٨٤
[الآيات :١٥٩-١٦٣]..... ١٨٦
[الآيات:١٦٤-١٦٥]. ١٩١
[الآيات:١٦٦-١٦٩]. ١٩٤
[الآيات:١٧٠-١٧٣]. ١٩٧
[الآيات:١٧٤-١٧٦]. ٢٠٠
[الآية:١٧٧]..... ٢٠٣
[الآية:١٧٨]..... ٢٠٧
[الآية:١٧٩]..... ٢٠٩
[الآيات:١٨٠-١٨٢]. ٢١١
[الآيات:١٨٣-١٨٤]. ٢١٣
[الآية:١٨٥]..... ٢١٥
[الآية:١٨٦]..... ٢١٩
[الآية:١٨٧]..... ٢٢١
[الآية:١٨٨]..... ٢٢٤
[الآية: ١٨٩]. ٢٢٥
[الآيات:١٩٠-١٩٣]. ٢٢٧
[الآيات:١٩٤-١٩٥]. ٢٢٩
[الآية:١٩٦]..... ٢٣١
[الآية:١٩٧]. ٢٣٧
[الآيات:١٩٨-١٩٩]..... ٢٣٩
[الآيات:٢٠٠-٢٠٢]..... ٢٤١
[الآيات:٢٠٣-٢٠٦]..... ٢٤٣
[الآيات:٢٠٧-٢٠٩]..... ٢٤٦
[الآيات:٢١٠-٢١٢]..... ٢٤٨
[الآيات:٢١٣-٢١٥]..... ٢٥٠
[الآيات:٢١٦-٢١٨]..... ٢٥٥
[الآيات: ٢١٩-٢٢٠]. ٢٥٨
[الآية:٢٢١]. ٢٦٢
[الآية:٢٢٢]. ٢٦٤
[الآية:٢٢٣]. ٢٦٨
[الآيات: ٢٢٤-٢٢٥]. ٢٧١
[الآيات: ٢٢٦-٢٢٨]. ٢٧٣
[الآيات: ٢٢٩-٢٣٠]. ٢٧٧
[الآيات: ٢٣١-٢٣٢]. ٢٧٩
[الآية:٢٣٣]. ٢٨٢
[الآيات:٢٣٤:٢٣٥]..... ٢٨٥
[الآيات: ٢٣٦-٢٣٧]. ٢٨٨
[الآيات: ٢٣٨-٢٣٩]. ٢٨٩
[الآيات: ٢٤٠-٢٤٢]. ٢٩٣
[الآيات:٢٤٣-٢٤٥]..... ٢٩٤
[الآية: ٢٤٦]..... ٢٩٦
[الآية:٢٤٧]. ٢٩٧
[الآية: ٢٤٨]..... ٢٩٨
[الآيات:٢٤٩-٢٥٢]..... ٢٩٨
[الآيات: ٢٥٣-٢٥٤]. ٣٠١
[الآية:٢٥٥]. ٣٠٤

[الآية: ٢٥٦]. ٣١٧
[الآيات:٢٥٧-٢٥٩]. ٣١٩
[الآية:٢٦٠]..... ٣٢١
[الآيات:٢٦١-٢٦٤]. ٣٢٣
[الآيات:٢٦٥-٢٦٦]. ٣٢٦
[الآية: ٢٦٧]. ٣٢٨
[الآيات: ٢٦٨-٢٧١]..... ٣٣٠
[الآيات:٢٧٢-٢٧٤]. ٣٣٣
[الآية:٢٧٥]..... ٣٣٦
[الآيات:٢٧٦-٢٧٩]. ٣٣٩
[الآيات: ٢٨٠-٢٨١]..... ٣٤١
[الآية:٢٨٢]..... ٣٤٣
[الآية:٢٨٣]..... ٣٤٨
[الآيات:٢٨٤-٢٨٦]. ٣٥١
تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ٣٦٣
[الآيات: ١-٢]..... ٣٦٣
[الآيات:٣-٦]. ٣٦٤
[الآية:٧-٩]..... ٣٦٦
[الآيات:١٠-١٣]..... ٣٧٢
[الآيات:١٤-١٧]..... ٣٧٤
[الآيات:١٨-١٩]..... ٣٧٧
[الآيات:٢٠-٢٥]..... ٣٨٠
[الآيات: ٢٦-٢٧]. ٣٨٢
[الآيات:٢٨-٣٢]..... ٣٨٤
[الآيات:٣٣-٣٧]..... ٣٨٧
[الآيات:٣٨-٣٩]..... ٣٩١
[الآيات:٤٠-٤١]..... ٣٩٣
[الآيات ٤٢-٤٦]. ٣٩٤
[الآيات:٤٧-٤٩]. ٣٩٩
[الآيات:٥٠-٥٢]. ٤٠٢
[الآيات:٥٣-٥٥]. ٤٠٤
[الآيات:٥٦-٦٠]. ٤٠٨
[الآيات:٦١-٦٤]. ٤٠٩
[الآيات:٦٥-٦٨]. ٤١٣
[الآيات:٦٩-٧٤]. ٤١٥
[الآيات:٧٥-٧٦]. ٤١٧
[الآية:٧٧]..... ٤١٨
[الآيات:٧٨-٨٣]. ٤٢١
[الآيات: ٨٤-٨٥]..... ٤٢٤
[الآيات:٨٦-٩١]. ٤٢٥
[الآيات:٩٢-٩٥]. ٤٢٨
[الآيات:٩٦-٩٧]. ٤٣١
[الآيات:٩٨-١٠٢]..... ٤٣٤
[الآية:١٠٣]. ٤٣٦
[الآيات:١٠٤-١٠٨]..... ٤٣٨
[الآيات:١٠٩-١١١]..... ٤٤١
[الآيات:١١٢-١١٥]..... ٤٤٤
[الآيات:١١٦-١١٧]..... ٤٤٨
[الآيات:١١٨-١٢٠]..... ٤٤٩
[الآيات:١٢١-١٢٧]..... ٤٥١
[الآيات:١٢٨-١٣٢]..... ٤٥٣
[الآيات:١٣٣-١٣٨]..... ٤٥٧
[الآيات: ١٣٩-١٤٢]. ٤٦٠
[الآيات:١٤٣-١٤٥]..... ٤٦٥
[الآيات:١٤٦-١٤٨]..... ٤٦٨
[الآيات:١٤٩-١٥١]..... ٤٧٠



[الآية:١٥٢]..... ٤٧١
[الآيات:١٥٣-١٥٥]. ٤٧٢
[الآيات:١٥٦-١٦٠]. ٤٧٥
[الآيات:١٦١-١٦٣]. ٤٧٩
[الآيات:١٦٤-١٦٥]. ٤٨٠
[الآيات:١٦٦-١٦٧]. ٤٨٢
[الآيات:١٦٨-١٧١]. ٤٨٣
[الآيات:١٧٢-١٧٥]. ٤٨٦
[الآيات:١٧٦-١٧٩]. ٤٨٨
[الآيات:١٨٠-١٨٤]. ٤٩٠
[الآية:١٨٥]..... ٤٩٤
[[الآية:١٨٦]..... ٤٩٥
[الآيات:١٨٧-١٨٩]. ٤٩٨
[الآيات:١٩٠-١٩٥]. ٥٠٠
[الآيات:١٩٦-١٩٨]. ٥٠٥
[الآيات:١٩٩-٢٠٠]. ٥٠٦
تَفْسِيرُ سُورَةِ النِّسَاءِ..... ٥١١
[الآيات:١-٣]. ٥١٢
[الآيات:٤-٦]. ٥١٧
[الآيات:٧-١٠]..... ٥٢٠
[الآية:١١]..... ٥٢٢
[الآية:١٢]..... ٥٣٣
[الآيات:١٣-١٤]..... ٥٣٥
[الآيات:١٥-١٦]..... ٥٣٧
[الآيات:١٧-١٨]..... ٥٤٠
[الآيات:١٩-٢١]..... ٥٤٢
[الآيات: ٢٢-٢٣]. ٥٤٤
[الآيات:٢٤]. ٥٥٠
[الآيات:٢٥-٢٨]. ٥٥٣
[الآيات:٢٩-٣١]. ٥٥٧
[الآيات:٣٢-٣٣]. ٥٥٩
[الآيات:٣٤-٣٥]. ٥٦١
[الآيات:٣٦-٣٩]. ٥٦٤
[الآيات:٤٠-٤٢]..... ٥٦٩
[الآية:٤٣]..... ٥٧٢
[الآيات:٤٤-٤٦]. ٥٧٧
[الآيات:٤٧-٤٨]. ٥٧٩
[الآيات:٤٩-٥٥]. ٥٨١
تج[الآيات:٥٦-٥٧]. ٥٨٤
[الآيات: ٥٨-٥٩]..... ٥٨٧
[الآيات:٦٠-٦٣]. ٥٩٠
[الآيات:٦٤-٦٥]. ٥٩٢
[الآيات:٦٦-٧٠]. ٥٩٤
[الآيات:٧١-٧٣]. ٥٩٦
[الآيات:٧٤-٧٦]. ٥٩٧
[الآيات:٧٧-٧٩]. ٥٩٨
[الآيات:٨٠-٨٤]. ٦٠١
[الآيات: ٨٥-٨٧]..... ٦٠٥
[الآيات:٨٨-٨٩]..... ٦٠٧
[الآيات: ٩٠-٩١]..... ٦٠٩
[الآيات: ٩٢-٩٣]..... ٦١١
[الآيات:٩٤ -٩٦]..... ٦١٦
[الآيات:٩٧-٩٩]. ٦١٩
[الآيات:١٠٠-١٠١]..... ٦٢٠
[الآيات:١٠٢-١٠٣]..... ٦٢٣
[الآيات:١٠٣-١٠٥]..... ٦٢٨

[الآيات:١٠٦-١٠٩]. ٦٢٩
[الآيات:١١٠-١١٣]. ٦٣١
[الآيات:١١٤-١١٥]. ٦٣٣
[الآيات:١١٦-١٢١]. ٦٣٥
[الآيات:١٢٢-١٢٦]. ٦٣٨
[الآية:١٢٧].....٦٤١
[الآيات:١٢٨-١٣٠]. ٦٤٢
[الآيات:١٣١-١٣٥]. ٦٤٣
[الآيات: ١٣٥-١٣٦].....٦٤٥
[الآيات:١٣٧-١٣٩]. ٦٤٩
[الآيات:١٤٠-١٤٣]. ٦٥٠
[الآيات:١٤٤-١٤٧]. ٦٥٢
[اللآيات:١٤٨-١٤٩].....٦٥٤
[الآيات:١٥٠-١٥٢]. ٦٥٥
[الآيات:١٥٣-١٥٩] ٦٥٦
[الآيات:١٦٠-١٦٢]. ٦٦١
[الآيات:١٦٣-١٦٦]. ٦٦٢
[الآيات:١٦٧-١٧٠]. ٦٦٤
[الآيات:١٧١-١٧٢]. ٦٦٥
[الآيات:١٧٣-١٧٥]. ٦٦٧
[الآية-١٧٦]. ٦٦٨